سيرة القاهرة

تأليف

ستانلى لينپول

ترجمة عن الانجليزية

الدكتور حسن ابراهيم حسن — الدكتور على ابراهيم حسن

ادوار حليم

الطبعة الثانية

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا – القاهرة

اهداءات ٢٠٠١

ا.د/ المرحوم زكى على

القاهرة



تأليف

ستانلى لينپول

ترجمه عن الانجليزية

الدكتور حسن ابراهيم حسن
مدير جامعة محمد على

الدكتور على ابراهيم حسن
أستاذ مساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد

ادوار حليم
مدرس بمدرسة أسيوط الثانوية الأميرية

الطبعة الثانية

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا : بالقاهرة

مَطبعَة السَّعَادة بمِصر

من لم ير القاهرة لم ير الدنيا .

فأرضهـا تبر .

ونيلهـــا سحر .

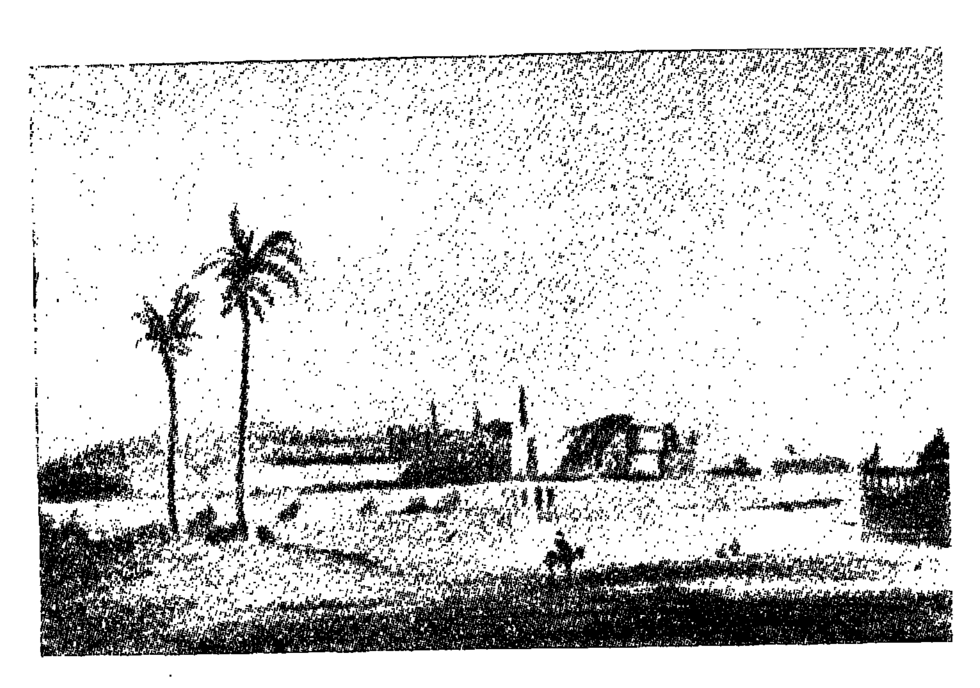
ونساؤها حور الجنة فى بريق عيونهن

ودورها قصور ، ونسيمها عليل ، كعطر الندا ، ينعش القلب .

وكيف لا تـكون القاهرة كذلك ، وهى أم الدنيا ؟

محتويات الكتاب

فهرس الصور



القاهرة من الجنوب الغربي ـ بركة الفيل

مقدمة المؤلف

تعتبر القاهرة فى الواقع مدينة من مدن العصور الوسطى ، لأنه لم يكن لها وجود قبل تلك العصور . ثم إن حياتها الحافلة كحاضرة مستقلة ، يتفق وقوعها فى أثناء فترة ألف السنة التى تعرف بالعصور الوسطى فى التاريخ ، كما أنها ما زالت تحتفظ فى الوقت الحاضر بالكثير من طابعها ومظهرها . وإذا كان المظهر يتغير ، فإن الحياة لا تتغير ، فالتقدم العجيب الذى أصاب المصرى فى العشرين سنة الماضية قد تناول بالتغيير حياته المادية ، ولكنه لم يكن ليقوى على تغيير خلقه إلا فيما ندر . فلقد أوجدنا له نظماً عامة يرتاح لها ويأمن إليها ، وخففنا من وطأة الضرائب الفادحة التى كانت تثقل كاهله ، وجعلنا له إدارة حكومية قادرة ، وعدالة حكيمة ، وثقافة عالية . وأهم من هذا وذاك ضمنا لكل فرد نصيباً وافراً من مياه النيل الغنى . ومن أجل هذه المنح كلها — وعلى الأخص المنحة الأخيرة — نجد الفلاح قانعاً شاكرا على الدوام . غير أن الحال ليست كذلك بالنسبة للقاهرى . فمهندس الرى يفتقر إلى روح الفلاح من هذه الناحية . فهو دائب الطلب لسد حاجاته الملحة ، ولا يهتم بإصلاحات «الفرنجى» فى كثير أو قليل ، وإنى لا أحب أن أوازن فى هذا المقام بينه وبين الرجل الأثيوبى ؛ ولكن مهما يكن من شأن الزمن أو من أثر الاتصال بالأوربيين ، فإنى على يقين من أن رجل القاهرة سوف يحتفظ دائماً بقلبه البسيط الساذج الذى كان يحتفظ به فى العصور الوسطى .

والشرق — من ناحية الدراسة (إننى لا أتناول الكلام على الأخلاق) — لا يتغير إلا ببطء ، كما أن روح الرجل الشرقى لا تتغير على الإطلاق . فبائع الجوهرات فى القاهرة الذى يساومك ساعة من أجل بضعة قروش ، فى الوقت الذى نراه يتسلل إلى الحياة الأوربية الحديثة ويندمج فيما يقترن بها من جلبة وصخب — هذا الرجل تجرى الحياة الحديثة من دونه ، فلا يمكن أن نعتبره جزءاً منها ، وإنما هو ينظر إلى الوراء نظرة ملؤها الشغف والشوق ، ويتطلع إلى أيام المماليك الزاهرة التى ينتمى إليها ، آسفاً على ما تثيره فى نفسه من عز ومجد . ومن ثم نراه يتساءل فى شىء من

الريبة عن الخير الذى يمكن أن يكون من وراء هذه الجلبة الحديثة ، أومن وراء هذه العدالة . فلطالما احتاج الإنسان فى وقت من الأوقات شيئاً من الجور والظلم . وكان التاجر الذى له مكانته يستطيع أن يشترى ذلك الظلم من القاضى قبـل أن تتمخض العدالة أخيراً عن المحاكم الحديثة . أما فيما يتعلق بالضرائب المحددة وعدم أخذ شىء كرهاً ، فهذا مما يهتم به الفلاحون الجهلاء دون سواهم . وعلى أى حال ، فقد كان النظام القديم يتم فى صورة بديعة حينما تتأخر أنت مثلا فى دفع ما عليك من ضرائب فيلزم جارك بدفعها بدلا منك . وعلى ذلك ففيم كل هذه الجلبة عن المياه والشوارع والمجارى وما إلى ذلك ؟ حينما زود ويلـكوكس (١) المساجد بالأنابيب والبالوعات وغير ذلك من الإصلاحات التى أدخلها فى المساجد والتى تنم عن الـكفر ، فهل تحسنت صلاة الشخص عما كانت عليه يوم كانت الأحواض القديمة تنبعث منها هذه الرائحة الكريهة فى كل مكان ؟ كذلك مما لا شك فيه أن الشوارع قد أصبحت أوسع مما كانت عليـه من قبل ، حتى أصبح الفرنجـة — سود الله وجوههم — يمرون بعرباتهم ذات الجوادين ويلطخون المؤمنين بالأوحال . غـير أن ذلك قد جعلهم يزيلون المقـاعد الحجرية المريحة من أمام الحوانيت — تلك المقاعد التى شعر التاجر بفقدها بعد أن كان يجلس عليها ويقطع وقت فراغه وهو يدخن الشبك ويخيل إليه أن الوقت لن ينقضى . وقد يكون هناك من ضروب الإصلاح ما يعوضنا عن مثل تلك المقاعد أو غيرها . مثال ذلك الماء النقى والمجارى والدراجات وعربات الترام . بيـد أن هذه الأشياء كلها قبيحة لا روح فيها ولا تسلية . وما من شك فى أن حيـاة القاهرة قد أصبحت مليئة بالضجر والملل اللذين يثيران اليأس منذ ذلك اليوم الذى دخل فيـه الفرنجة هذه البلاد .

ويذكر لنا مستر مرديث تاوتزند فى إحدى مقالاته الشائقة فى كتابه « آسـيا وأوربا » كيف أن الحياة فى الهند كانت بديعة ومسلية للغاية قبل أن يطرأ عليها التغيير الذى جاء به الإنجليز . والـكثير من هذا يمكن أن يقال عن الحياة فى القاهرة مع تعديلات ضئيلة ، فما لا ريب فيه أن الحياة كانت شائقة ممتعة فى تلك الأيام الغابرة

---

(١) مستشار الرى الانجليزى فى ذلك الحين .

التى لم تمسها يد التغيير والتحوير . لقد كان يقع فيها الكثير من الأحداث — الأحداث التى يراها الناس ويفكرون فيها ، أو ربما يفرون منها — وطالما حدثت هناك اغتيالات ومذابح . غير أنه كان من السهل وقتذاك أن تغلق الأبواب الحديدية القوية من دون المماليك أو المغاربة ، وأسوأ من هذا كله دون السودانيين إذا إمتشقوا الحسام . أما الآن فإن هذه الأبواب قد أزيلت ، ولم تعد هناك تلك المواكب الرائعة للفرسان فى زيهم العسكرى الذى كان يضفى بهجة وبهاء أينما ساروا . وفى تلك الأيام كان يمكن لكل رجل على جانب من الدهاء والحظ أن يصل إلى ما تصبو إليه نفسه من جاه وسلطان — ذلك الجاه الذى تعجز القاهرة الآن عن تحقيقه بعد أن لبس العصر الحاضر ثوب الصدق والصراحة . فلقد كان الترقى فى ذلك الوقت متاحاً للجميع ؛ وكان الباب مفتوحاً على الدوام لكل من أوتى القوة والدهاء والثروة . ماذا تكون إذن حوادث القتل أو السلب ، أو حتى المجاعات أو الأمراض التى كانت تتفشى فى بعض الأحيان — ماذا تكون هذه لو قورنت بما كان هناك من فرص سانحة وأبهة فخمة ، وأيام ثائرة حافلة لم تكن لتقف عند حد ، كما لم يكن يتطرق إليها السأم والملل ؟

هذا هو ما يجيش به قلب كل قاهرى أصيل ، فأفكاره — سواء منها الخيرة أو الشريرة — تغاير أفكارنا من جميع الوجوه . فهى ترجع فى أصلها إلى العصور الوسطى ، شأنها فى ذلك شأن ملبسه ومعتقداته الدينية وتقاليده الاجتماعية وطريقة حديثه وعدم اكتراثه وتحفظه وإنكاره لما عساه أن يسبب له الضيق أو القلق . وإذا استثنينا الطبقة الرسمية ، أى طبقة الموظفين ، فإننا نجد الرجل القاهرى ما زال كما تصوره لنا قصص « ألف ليلة وليلة » ، حتى مدنيته ما زالت تصطبغ بما كانت تصطبغ به فى العصور الوسطى . ولقد زال الكثير منها بفعل الزمن أو بفعل البدعة . ومع ذلك فالزخارف الأوربية كالدخيل ؛ ومن ثم نجد المدينة الإسلامية القديمة تسخر فى الوقت الحاضر وتتحدى تأثير الغرب . لقد أعيد بناء تلك المدينة المرة بعد الأخرى ، وكانت فى كل مرة تفقد جانباً من بهائها ، غير أنه قد تبقى ما من شأنه أن يرينا ماذا كانت عليه القاهرة منذ خمسمائة عام خلت . فالشوارع المزدحمة فى الأحياء القديمة ،

وأشكال المنازل والأسواق التى لا يمكن أن تنسى ، وأهم من هذا وذاك الآثار التاريخية كل هذه تعود بنا إلى العصور الوسطى .

إن الغرض من هذا الكتاب هو أن ألبس آثار تلك المدينة من المعانى ما يكسبها قيمة ويزيد من شغف القارىء بها . فكثير من مبانى القاهرة ، وعلى الأخص تلك المساجد التى ترجع إلى عصر المماليك الأخير آية من آيات الجمال ، ويمكن أن تعتبر فى حد ذاتها تحفاً فنية رائعة بصرف النظر عن تاريخها . غير أن هناك فى الوقت نفسه كثيراً من القصور البالية ، والأبهاء المتهدمة ، والجدران المتداعية ، والنقوش الدارسة — تلك الآثار التى لا تمت إلى فن العمارة بصلة ، بل ستظل لا تحمل أى معنى حتى نكشف الستار عن تاريخها . ولقد حاولت فى أثناء تتبعى نمو القاهرة أن أكسب آثارها جواً من التاريخ ؛ فالطوبوغرافيا المجردة لا تستهوى غير عالم الآثار ، ولا يمكن أن يشغف العامة بها مالم تمتزج هذه الآثار بألوان الحياة التى كان يحياها سكانها وطرق الحكم التى كان يسلكها حكامها . ولقد حاولت جهدى هنا ألا أخرج عن نطاق بحثى ، وهو وصف حياة المدينة وتطور نموها . فليس هذا إذن تاريخا عاماً لمصر ، فكثيراً ما أغفلت أشياء كثيرة كنت أدعها تمر لأنها لا تمت إلى تطور هذه المدينة بصلة .

أما المراجع التى اعتمدت عليها فسوف يأتى ذكرها دائماً فى أسفل الصفحات . وإن أهم مصدر عربى هو طبعاً كتاب الخطط للمقريزى الذى أشرت إليه كثيراً .

وقد كتب فى مستهل القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجرى) ، واستعمل كثيراً من المؤلفات التاريخية والطوبوغرافية التى يرجع عهدها إلى أبعد من هذا التاريخ بكثير ، والتى لم نكن لنعرف عنها شيئاً لولم يتناولها هو بالبحث والتمحيص . ولا أجدنى فى حاجة إلى الثناء على دقة بحثه وتصويره للقاهرة ، فإن هذا معروف فى العالم أجمع . وهناك غير المقريزى كثير من الكتاب مثل : المسعودى ، وناصر خسرو ، وعبد اللطيف البغدادى ، وابن جبير (الذى يرجع الفضل إلى صديقى مستر جاى لى سترينج مؤرخ بغداد الذى يعتبر أكبر حجة عندنا فى جغرافية الخلافة فى الحصول منه على هذه المقتطفات) ، وابن سعيد ، وابن دقماق ، والسيوطى ، وأبو المحاسن ،

والإسحاقى ، والجبرتى ، وكل هؤلاء لهم آثار شخصية لها قيمتها ، كما أن لكتاب لين «القاهرة منذ خمسين عاماً» فضلاً فى تصوير هذه المدينة كما كانت عليه فى سنة ١٨٣٥ ، أى قبل أن يبدأ محمد على ومن بعده إسماعيل حركة إدخال التقدم الأوربى إليها ، ثم فى تغيير مظهر هذه المدينة . أما فيما يتعلق بعلم الآثار فإنى مدين إلى أبحاث كل من ماكس فان برشم ، ورافيس ، وكازانوفا . ولابد لى من أن أشير إلى اعتراض قد يوجه إلى فيما يتعلق برجوعى إلى مؤلفاتى ، وهو أمر يثير الاشمئزاز . وأجدنى مضطراً إلى الإشارة فى شىء من التواضع إلى مؤلفاتى .

فلقد كنت أكتب على الدوام فى موضوع القاهرة وفنها وآثارها وتاريخها منذ وقت بعيد . ومن ثم كان لابد لى أحيانا من أن أعيد ما كتبته من قبل . حقاً إننى عندما دونت ما كنت أريد أن أقوله فى أحسن عبارة أستطيع أن أصورها بها ، فإن ذلك يكون أكثر تكلفاً فيما يظهر إن حاولت البحث عن صيغة أخرى مختلفة للتعبير عما أريد . لذلك اقتبست ـ ولكن فى إقلال — من كتابى « فن العرب فى مصر » (نشر للجنة المجلس سنة ١٨٨٦) و « صور القاهرة » (الطبعة الثالثة نشرت سنة ١٨٩٨) ، وكتابى « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » (نشر سنة ١٩٠١) ، ومقتطفاتى التى لم تذيل على صفحات هذا الكتاب يجب أن تفهم على أنها مأخوذة من أحد هذه الكتب ، وعلى الأخص من كتاب « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » ، الذى يستطيع القارىء أن يرجع إليه إذا أراد المزيد من الناحية التاريخية . ولو كان هناك كتاب آخر باللغة الإنجليزية يتناول الكلام على مثل هذه الناحية ، لأشرت إليه فى سرور وفخر . أما فيما يختص بالتاريخ القبطى فيستطيع القارىء إذا ما أراد التوسع أن يرجع إلى كتاب مستر بتشر « تاريخ الكنيسة المصرية » (نشر فى سنة ١٨٩٧ فى مجلدين) ، وهو كتاب حافل بعبارات العطف والتقدير للقبط ، ولكنه عرضة للنقد فيما جاء فيه عن علاقات المسلمين .

وقد عملت على عدم كتابة الأسماء العربية بحروف إفرنجية حتى لا أضايق القارىء . وبدلا من ذلك عمدت إلى تشكيل الأسماء بحيث تظهر المقاطع الهامة من غير الهامة . والحروف المتحركة تنطق كما فى اللغة الإيطالية ، وحرف G قد استخدم ليمثل الحرف العربى الساكن الذى ينطق فى القاهرة مخففاً (كما فى jet) وفى البلدان الأخرى

معطشاً (مثل j فى jet) . ويستطيع أولئك الذين يشوقهم معرفة ترجمة الأسماء العربية على حقيقتها أن يرجعوا إلى الفهرس الذى يراه القارىء فى آخر الكتاب ، حيث كتبت كل كلمة عربية بالحروف الرومانية وفسرت تفسيراً يساعد على فهمها .

أما الصور فقد راعيت فى اختيارها أن تكون بحيث توضح بقدر الإمكان مدينة القاهرة قبل أن يتسرب إليها التغيير الأوربى . ومن أجل ذلك فإن أحسن الصور هى تلك التى رسمها روبرت هى بين سنتى ١٨٢٦ ، ١٨٣٨ ، وزميله أوين كارتر حول سنة ١٨٣٠ عن الصور الأصلية المحفوظة فى الغرفة التى أودعت فيها الصفائح المنقوشة بالمتحف البريطانى . وقد طبع بعضها على الحجر فى كتاب هى « صور القاهرة » ؛ فهذه الصور تمثل بقايا العصور الوسطى أصدق تمثيل بحيث لا يمكن للصور الحديثة أن تجاريها . ولكن مسترج . ا . سمنجتون قد ذيلها بصور أخرى تنم عن مهارة لا يمكن أن يبلغها الرسامون الذين عاشوا قبله .

ويجدر بى فى ختام هذه الكلمة أن أشير إلى ما ذكرته فى الفصل الأخير من هذا الكتاب عن موضوع لجنة حفظ الآثار العربية . وإلى يقظة هذه اللجنة وجهودها التى لم تفتر طوال العشرين سنة الماضية ، يرجع الفضل فى حفظ المساجد وغيرها من بقايا المبانى الإسلامية من التهدم والزوال بقدر ما تسمح به الأحوال . فلم يحدث على الإطلاق فى تاريخ القاهرة أن حفظت آثارها وأصبحت بمأمن من كل عبث يمثل هذه الصورة . ومن ثم كان لزاما علينا أن نعترف بفضل كل عضو من أعضاء هذه اللجنة التى تقدر جهود أفرادها . ومنذ أن استغل لورد كرومر نفوذه فى تحسين حالة اللجنة المالية ، استطاعت فى خمس السنوات الأخيرة أن تقوم بأعمال علمية واسعة النطاق لحفظ هذه الآثار على أسس علمية . وكل من يزور القاهرة يستطيع أن يتحقق من نتائج هذه الأعمال ، وأن يفحص عن المجموعات التى تم جمعها تحت إشراف كبير مهندسيها ماكس هرتز بك فى متحف الفن العربى .

دبلن — ٣١ يناير ١٩٠٢

ستانلى لينبول

الباب الأول

المدينتـــان

القاهرة الأوربية والقاهرة المصرية ـ مناظر شرقية ـ التجار المحافظون ـ متاجرهم ـ منازلهم ـ باب زويلة ـ أحد المنازل الخاصة ـ المندرة ـ حجرات النوم ـ الحياة اليومية ـ حياة النســاء ـ الأعياد فى القاهرة ـ الحسين ـ شارع محمد على ـ مشهد من القلعة .

هنالك قاهرتان مختلفان ، تتميز إحداها عن الأخرى ، ولو أنهما لا تختلفان كثيراً فى الموقع . أما الأولى فهى القاهرة الأوربية ، وأما الثانية فهى القاهرة المصرية . وكانت هـذه الأخيرة قاهرة ـــ أى منتصرة ـــ فى يوم من الأيام ، وضع أساسها عند مطلع كوكب المريخ . أما الآن فإن انتصارها قد قل كثيراً ، بل لقد أصبحت بلا ريب مغلوبة على أمرها إلى حد أنها صارت لا تعرف إلا بالأحياء الوطنية أو بالأسواق حسب الطريقة الهندية . والقاهرة الأوربية فى الواقع تـكاد لا تعرف شيئا عن أختها القاهرة المصرية مدينة العصور الوسطى . حقيقة إن آلاف السائحين يركبون الحمير ليزوروا الأحياء الوطنية فى فصل الشتاء، غير أن هؤلاء لا يمتون إلى القاهرة الأوربية بصلة . فهم كالطير التى لا تقيم فى مكان واحد على الدوام ، إنما هم نزلاء زائرون لفترة قد تقصر أو تطول . أما المواطن الحق فهو ذلك الذى يقيم فى حى كالإسماعيلية فى منزل ظليل يقيه الحر ، به شرفة يتخللها النسيم ، ويحيط به مئات من القصور المريحة التى تماثلها. وهذا المواطن لا يركب الحمير كما يفعل السائح، بل قد يذهب إلى الأسواق وهو مكره تحت إلحاح زائر يشوقه أن يرى مثل تلك الأماكن الغريبة عنه . غير أنه حتى فى القاهرة الأوربية نرى دلائل على أن ثمة قاهرة أخرى ـ قاهرة إسلامية شرقية ـ لا تبعد عن القاهرة الأخري كثيراً . ولندع الجاليـة البريطانية لا تقترب البتة بعضها من بعض ، وتتجاهل الأحياء الوطنية أو تنظر إليها على أنها مجرد أمور تستدعى حكومة عادلة وإصلاحات حكيمة ، ولا يمكنها أن تذهب بعيداً ، أو حتى

تفتح أذانها فى داخل حجراتها دون أن تدرك أنها تعيش فى عالم شرقى — ذلك العالم الذي لا يمكن بدونه أن يكون لها وجود . وأنت إذ تذهب إلى مكتب البريد ، على مسيرة بضع دقائق من معظم فنادق المدينة لا تلبث أن ترى مظاهر الامتزاج بين الشرق والغرب .

هنالك تجد ممرضة ألمانية مع الابنة الصغيرة للاسرة تسأل من نافذة الخطابات الواردة عن خطابات مرسلة باسمها ، وفي المكتب المجاور تجد شيخا مسنا يرتدى القباء والعمامة يصرف حوالة من النقود أويرسل خطابا مسجلا. وعلى طول الطريق تجد صفا من كاتبى الخطابات جالسين إلى مكاتبهم فى غير قلق أو ضيق فى انتظار عملائهم من غيرالمتعلمين . أما الشوارع فإنهاتصخب بعربات الاتوبيس والترام ، وتضج بالأصوات المزعجة المنبعثة من أبواق السيارات . وأما هؤلاء الذين يجلسون تحت المظلات على المقاعد فإنهم ليسوا من الأوربيين ، وإنما هم مصريون — لفيف من الأفندية والكتبة والتجار والمشايخ ، وهم عادة من الفلاحين الغفل الذين أتوا إلى المدينة لقضاء بعض المصالح ، وركبوا من بولاق أوقصر النيل . وأما أفاريز الشوارع — وهى دائما غير ممهدة وملطخة بالأوحال بخلاف الطرق التى تعنى بتنظيفها الفتيات الصغيرات — فإنها تشهد مزيجا عجيبا من العناصر الشرقية والغربية ، وعلى الأخص اليونانية والألمانية والإيطالية. فالنساء السودانيات المتحجبات بالبراقع الناصعة البياض التى لا تكشف إلا عن حواجبهن القاتمة وعيونهن السود ، والفتيات المصريات فى أرديتهن الزرق وبراقعهن السود التى تتدلى فى غير إحكام وتكشف عن الرقبة الجميلة والوجنة اللطيفة ولا تحجب إلا الفم — ذلك الجزء الذى تعمل جميع نساء الشرق على إخفائه ، والبدو وقد أخذوا يذرعون الطريق وحول رءوسهم الكوفيات المخططة، وقطار الجمال المحكمة الوثاق المحملة بالبرسيم — علف الدواب الأول فى مصر — يسوقها صغار الصبية ، وكتبة الحكومة الأصاغر ، أو الأفندية ، وقد ارتدوا الحله الإسلامبولية والطربوش وامتطوا ظهور الحمير — كل هذه الطبقات المختلفه يتكون من مجموعها جمهور متدفق محتشد ، ولكن على جانب من دماثة الخلق . كما أنك تستطيع أن تشم هنا وهناك رائحة الشرق الخاصة التي تتضح أماراتها فى كل مكان .

وحتى الأحياء الأوربية لاتزال تصادف فيها مناظر الشرق وتسمع أصواته . فأنت

إذ تطل من نافذة غرفتك فى الفندق الذى تقيم فيه ، تشاهد رجلا جائلا ينشد على ربابته أنشودة ، ويحمل إليك أنغام البلد الأصيلة . ثم لا تلبث أن تسمع أصواتا أخرى كأصوات الأطفال الرضع تنبعث من صنوج « الشربتلى » الجوال الذى يحمل على جنبه إناء زجاجياً كبيرا يصب منه شراباً من الأرز « السوبياء » أو من عصير البرتقال ، فى تلك الأوعية النحاسية التى لا ينفك يوقع عليها بين لحظة وأخرى بدون ملل ، أجراسا وأنغاما تسترعى أسماع المارة. وفى الهزيل الأخير من الليل لا تعدم أن تسمع من أصوات الشرق ما يقض عليك مضجعك . من ذلك تلك النغمات التى تنبعث من قرع الطبول وتنبئك بأن حفلا للزواج يجوب شوارع المدينة . وإذ تأخذك الرغبة أو حب الاستطلاع فى استجلاء الأمر ، حينئذ تشاهد لوناً من تلك الألوان التى تصطبغ بها مدينة القاهرة، والتى يمتزج فيها القديم بالحديث بصورة تدعو إلى الدهشة . وفى بعض الأحيان قد ينضم إلى هذا الاحتفال بالزواج احتفال آخر بالختان مراعاة للاقتصاد . فتجد موكباً حافلا تتقدمه علامة الحلاق الذى يقوم بعملية الختان ، وهى عبارة عن إطار خشبي مرفوع إلى أعلى يتبعة اثنان أو ثلاثة من الجمال المحملة بأبهى الأشياء وأحسنها ، والتى تستأجر فى مثل هذه المناسبات ، ويجلس على كل من هذه الجمال طبال . وهذه الجمال من شأنها أن تمهد الطريق لما يتبعها من عربات مملوءة بصغار الأولاد كل واحد منهم ممسك بمنديل نظيف ناصع البياض وضعه على فمه ليقيه من الشيطان ويحفظه من العين الشريرة ! ثم تأتى عربة منفصلة مغطاة من كل جانب بشال كبير مصنوع من الكشمير ، يمسك به من أسفل ويعمل على إحكامه إخوة العروس المحبوسة وغيرهم من الأقارب، ويتبع ذلك عربات أخرى تحمل سائر جمهور المشاركين فى الفرح والسرور . وقد يحدث فى بعض الأحيان أن تحمل العروس فى هودج مغطى بشال كشمير ويحمل على جملين يسير أحدهما خلف الآخر . وتكون رقبة الجمل الخلفى تحت الهودج ، ومن ثم يكون فى حالة لا يحسد عليها من عدم الراحة ، شأنه فى ذلك شأن العروس نفسها التى تصاب فى العادة بدوار يشبه دوار البحر من جراء حركات الهودج التى لا تنقطع . وقديماً كانت العروس تسير فى الطرقات تحت مظلة يحملها أصدقاؤها . أما الآن فلم يعد ذلك من التقاليد ، بل إننا نجد العربات الأوربية تحل حتى محل

الهودج . أما الشال المصنوع من الكشمير وكذلك الخمار فلن يزولا سريعاً . ومما يلاحظ على المرأة المصرية أنها فى العادة — أو على الأقل حينما تظهر فى المجتمعات — متواضعة إلى حد كبير . فهى تختلس نظرة إلى الغريب فى سرعة سحرية حتى ولو بدا للجميع أنها تنظر إلى الناحية الأخرى من الطريق . وفى الحال تجدها تحكم وضع النقاب على فمها وأنفها . وإذا ما أتيح لها أن تلقاك وجهاً لوجه ، فإنها لاتسبل عينيها الواسعتين كما تفعل الغربيات ، وإنما تحولهما عنك فى بطء يأخذ بمجامع القلوب .

وحالما تترك الحى الأوربى حيث الفندق الذى تنزل فيه وتبتعد عن واجهات المحال التجارية والتجار اليونانيين فى شارع الموسكى ، تبدو المدينة الشرقية لك على حقيقتها ويأخذ سحرها يتسلط عليك . وإنه لمن السهل تماماً أن تضل الطريق فى ثنايا شوارع القاهرة الإسلامية القديمة ، حتى إنك لاتستطيع أن تستدل على الطريق إلا بمعاونة أحد المارة ، إن جانباً كبيراً من القاهرة لم يطرأ عليه فساد يذكر ، فهى ما زالت إلى حد كبير مدينة « ألف ليلة وليلة » .

وفى أحد الأركان تجد حانوتا فيه حلاق شيخ يباشر عمله وهو يسرد مغامرات إخوته التعسين على من يسوقه سوء الحظ إلى الجلوس على كرسيه . وفى تلك اللحظة نفسها قد تجد ثلاثة من الشحاذين يقومون بتسلية البوابة وإخواتها الجميلات ويقصون كيف أن المصائب كانت تلاحقهم على الدوام . وإن أنت انتظرت حتى يرخى الليل سدوله فإنك قد ترى هارون الرشيد الطيب بنفسه — على الرغم من أنه عاش حقاً فى بغداد — وهو آت فى إحدى جولاته الليلية الخفية ، يصحبه جعفر الوزير ويتقدم الإثنين مسرور الخادم ليفسح لهما الطريق . ومن السهل علينا حينما نجد أنفسنا فى تلك الشوارع البعيدة عن الأحياء الأوربية ، أن نتصور أننا نقوم بدور تمثيلى فى رواية « ألف ليلة وليلة » — تلك الرواية التى تعطينا وصفاً دقيقاً للقاهرة وسكانها كما كانت فى العصور الوسطى وكما هى الآن إلى حد كبير . ومما يسهل علينا ذلك التصور ذلك التهدم الذى نراه فى كل مكان . فالمنازل الشرقية المتداعية التى لايفكر أحد فى إصلاحها ، هى بطبيعة الحال مساكن العفاريت والجن التى تبعد عنها كل ساكن يخشى الله . غير أنه قد يكون هناك أحيانا فى المبانى المتهدمة من

الآثار مايعود بنا إلى العصر الذهبى للفن والثقافة العربية . فالجوامع والمدارس وبقايا القصور المتهدمة كلها أمثلة بينة لما كانت عليه الإمبراطورية الإسلامية الشاسعة الأرجاء من تقدم فى فن البناء فى حقبة من الزمان . حقيقة إن دمشق وأصبهان وأجرا ودلهى وقرطبة وغرناطة وبروسة والقسطنطينية — كلها تملك الكثير من عناصر الفن ومظاهر أساليبه مما تفتقر إليه القاهرة ، وهى توسع وتكمل معلوماتنا عن الفن العربى . غير أننا لو نظرنا نظرة خالصة إلى ذلك الفن من حيث نقاؤه دون أن يفسده الزخرفة الآلية كما حدث فى قصر الحمراء ، أو الزخرفة الزائدة عن الحاجة كما نشاهده فى دلهى ، لوجب علينا أن نقوم بدراسة جوامع القاهرة ومشاهدها .

ومن حسن الحظ أن تحفظ الشرق قد أبقى لنا على الجانب الأكبر من المدينة القديمة بما تحوية من أطلال رائعة برغم عدم تنسيقها . وهناك بطبيعة الحال منازل جديدة ووجهات أعيد بناؤها بل وإطارات النوافذ من الزجاج . فالمشربيات الفاخرة بصنعها المعقد المتقن قد اختفت جميعها تقريباً وبدأ يحل محلها ذلك الطراز الإيطالى الحديث ؛ كذلك تلك القاعد الحجرية التى كانت أمام واجهات المحال التجارية قد اختفت تماما وحلت محلها المواقف الجديدة للعربات . غير أن الصبغة العامة للشوارع لم تتغير تغيراً جوهرياً فى السنوات الأخيرة . فالناس الذين يزدحمون فى الأزقة الضيقة أو يجلسون فى حوانيتهم الصغيرة لاستقبال زبائنهم — كل هؤلاء لم يطرأ عليهم تغيير كبير ، فهم يلبسون كما كان يلبس أسلافهم منذ أجيال . كما أن أفكارهم وثقافتهم لم تتعد ما كانت عليه أفكار أسلافهم وثقافتهم ، على الرغم من أن المدارس الجديدة تعمل دائماً على نشر الأفكار الحديثة . ومع هذا فهم لايزالون على ماعرف عنهم من اللين والوداعة اللتين عرفوا بهما من قبل . أما التغيير الحقيقى فإنه يتجلى لنا فى اختفاء الشبك — ذلك الأنبوب الطويل ، الذى يحوى الطباق وغيره من الأعشاب ، والذى كان يستخدمه الناس كضرورة من ضرورات الكيف واحلال اللفائف محله . هذا وما تزال أنابيب جوز الهند (النارجيل) تستخدم حتى الآن لتدخين الحشيشة بين الطبقات الدنيا . ويلاحظ أن التجار يمثلون العنصر المحافظ فى مصر كما هو الحال فى كل بلد آخر . أما الطبقات الراقية فإنها تتحرر من شرقيتها عاما بعد عام فى عاداتها ومظهرها الخارجى . ذلك أننا نراهم يرقصون مع الراقصات « الكافرات »

ويرتدون الملابس الإفرنجية وينعمون بمشاهدة المسرحيات الفرنسية الصغيرة التى تمثل في حديقة الأزبكية .: بل إن الأقداح التى يشربون فيها القهوة تصنع فى أوربا . ولولا الطربوش الأحمر وبعض الصفات العقلية والخلقية التى يتميزون بها — والتى لامحل لذكرها هنا — لكان من الممكن أن يبدو الرجل المصري كما يبدو الفرنسى للجمهور الباريسى كأنه واحد منهم . فالتاجر إذن هو الذى يحمل الماضى إلى أذهاننا ، وهو الذى يحافظ على العادات والتقاليد القديمة ، وهو الذى يمشى فى الأزقة القديمة . إن مايحدث فى سائر أنحاء العالم لايحدث عادة فى الشرق إلا فيما ندر . وبينما أخذ موكب التقدم والرقى يسير بخطى واسعة فى الغرب ، إذا بالتاجر القاهرى لايحرك ساكناً ولا يحاول على الإطلاق أن يلحق به .

وسنحاول الآن أن نلقى نظرة على هذا المخلوق الساكن وهو فى إحدى طرقات القاهرة الهامه . فنحن إذ نترك الحى الأوربى وراء ظهورنا ، ولا نهتم كثيراً بتلك الحوانيت اليونانية والإيطالية فى الموسكى الجديد ، حينئذ نتجه يميناً إلى الغورية وهى من أكبر شوارع القاهرة ، ولو أنها من الأزقة التى يطلق عليها شوارع أو طرق عامة . فمثل هذا الشارع نجد على جانبيه حوانيت صغيرة هى أشبه ما تكون بالصناديق ، وهى فى الوقت نفسه تكون حدود الشارع فى صورة منظمة وغير منقطعة ، اللهم إلا حينما يعترضها مدخل أحد المساجد ، أو إحدى الميضآت العامة ، أو تقاطع شارع آخر . حينئذ فقط يخرج صف الحوانيت على نظامة الدقيق . غيرأنه ليس هناك مدخل خاص أو نافذة مما اعتدنا أن نشاهده فى أوربا من شأنه أن يشذ فيفسد منظر الحوانيت المصطفة . ثم إنك تجد بضعة حوانيت متجاورة ولمسافة طويلة يتجر أصحابها فى نفس السلعة — فلتكن هذه سكر نبات وتلك أحذية الغرفة (شباشب) . ولا شك أن لهذا النظام مزاياه . فاذا كان أحد التجار يبيع بأسعار مرتفعة ، فقد تجد جاره يبيع بسعر أرخص منه . ثم إن التنافس المستمر بين التجار المتجاورين من شأنه أن يؤدى إلى خفض كبير فى الأسعار . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فانه يجب أن نعترف بأنه ليس أشق علينا من أن نشترى الرداء من ستة حوانيت فى أماكن مختلفة — فنشتري القماش من مكان ، والأزرار من مكان آخر ، والخيط من مكان ثالث ، والبطانة مكان رابع ، ثم نضطر إلى

المسير إلى مكان آخر مختلف تماما حيث نجد خياطاً لتفصيل هذا القماش وصنع الرداء المطلوب منه . وإذا كان من الضرورى أن نساوم كل بائع من هؤلاء ، وقد تصل المساومة إلى حد شرب القهوة أو التدخين مع البائع ، فاننا نستطيع أن نضع أنفسنا فى عداد الأشخاص المشهود لهم بالنشاط وسرعة البت فى الأمور إذا استطعنا أن نشترى رداء على هذا النحو فى صبيحة يوم واحد .

وفى واحدة من تلك الخزانات التى تقوم مقام الحوانيت ، قد نجد ذلك التاجر الذى نبحث عنه وقد لا نجده . فقد يتصادف أنه ذهب ليؤدى فريضة الصلاة ، أو ليزور صديقاً له ، أو ربما لم يشعر بالميل للعمل فى ذلك اليوم . وفى إحدى هذه الحالات نراه يغلق مصراع النافذة . ولما كان لا يسكن بالقرب من متجره ، وحتى لو كان كذلك ، فليس ثمة جرس أو باب خاص أو مساعد يمكن أن يدلنا عليه . وعلى ذلك فان علينا أن ننتظر هنـاك إلى ماشاء الله ، حيث نسأل ولا من مجيب . وقد يخبرنا جاره التاجر فى لطف وأدب بأن ذلك الرجل الممتاز الذى نسأل عنه قد توجه إلى المسجد . وحينئذ قد نتعرف إلى هـذا التاجر الجديد ونطلب منه ما جئنا لنطلبه من زميله . .

إن صديقنا الجديد هذا يجلس فى مكان يبلغ كل من طوله وعرضه خمسة أقدام . أما ارتفاعه فقد يتجاوز ستة أقدام بقليل ، والمـكان كله يرتفع عن الأرض بمقدار قدم أو قدمين . ومن الغريب أن صاحبنا استطاع فى مثل هـذا النطاق الضيق أن يضع جميع السلع التى يظن أنه يستطيع بيعها ، كما أنه استطاع أن يترك مكاناً لنفسه ولعملائه حينما تصل المساومة معهم إلى حد الجلوس وشرب القهوة والتدخين . وبطبيعة الحال إن ما يودعه هـذا التاجر فى متجره لابد أن يكون محدوداً جداً . غير أن زملاءه التجار على استعداد لأن يقدموا إليه يد المساعدة على الدوام . وأنت حينما لا تستطيع أن تجد ما تحتاج إليه فى حدود جدرانه الأربعة ، فإنه لا يعدم أن يدعك تذهب بعد أن يكون قد قدم إليك إبريقا من الشاى العجمى ، بينما يذهب هو ليأتى إليك بطلبك من عند أحد زملائه التجار المجاورين .

وبينما أنت تشرب القهوة ذات النـكهة العطرية وتشاهد الجموع المحتشدة من

المارة ، إذا ببضعة جمال محملة بالدريس أو التبن أو البرسيم تمشى بخطوات متثاقلة ، حتى إنه ليخيل إليك أنها سوف تنتزع كل شيء وكل شخص من مكانه ، وتجد سكان المدينة المحترمين راكبين حميرهم الشهب أو السمر ، وأولئك الصبية الذين لا رحمة ولا شفقة فى قلوبهم وهم يجرون وراءها ، فيحملون هذه الحيوانات على أن تسرع فى السير يمنة أو يسرة وهى تلتوى فى غير هوادة كما لو كان قد وضع فى وسطها مفصلة كمفصلة الباب . أما السراة فانهم يركبون العربات التى يجرها جوادان ، ومن أمامهم عداءون يلهثون من فرط التعب ويفسحون لساداتهم الطريق ، وهم ينادون بكل ما أوتوا من قوة وصوت مرتفع : « شمالك ياوله ! » « يمينك ياست ! » ، « افتح عينك ياعم ! » وما إلى ذلك . وتجد النساء وقد حملن فوق رءوسهن الصينيات ومن فوقها ألوان الطعام ، والسقاء وقد حمل تحت ذراعيه الماء فى قربة مصنوعة من جلد الماعز ، كما تشاهد جمهوراً آخر محتشداً من الرجال والنساء قد ارتدوا جميعاً رداء أزرق اللون وجاءوا ليقضوا بعض الحاجات ، غير أنهم يسيرون ويقضون حاجتهم فى تأن ومهل . فعلى الرغم من أن الجمهور قد يبدو محتشدا متدفقا فى جملته إلا أنه يتحرك فى بطء ، شأنه فى ذلك شأن كل شيء فى الشرق .

ثم يعود صاحبنا التاجر يحمل الشيء الذى ذهب للبحث عنه عند زملائه التجار. فنتقبله بادئ الأمر ولكن فى شيء من الحذر ، ثم لا نلبث أن نسأل ذلك السؤال المعهود : « كم ثمنها ؟ » فيكون الجواب عادة ضعف الثمن المعتدل . ومن ثم نعقب على ذلك الثمن الباهظ بقولنا « ياالله! » (من فداحة الثمن) ، ثم لا نلبث أن نقترح ثمناً يكون فى العادة نصف الثمن الذى طلبه التاجر، غير أن صاحبنا يهز رأسه ، وينظر إلينا فى شيء من اليأس وعدم الرضا ! ويقول لنا إنه لم يكن ينتظر مثل هذا القول من أناس فى مثل مظهرنا، ثم يضع السلع جانباً ويجلس ليشعل سيجارة جديدة. وبعد مساومة أخرى غير مجدية ، ننادى صاحب الحمير ونتاهب للرحيل . حينئذ يلين جانب التاجر ويعرض علينا ثمناً أقل من ذلك الذى عرضه فى بادئ الأمر. ولكن على الرغم من هذا فإننا نصمم على الرحيل ونأخذ فى الابتعاد فعلا ، فيتبعنا ويبدى شيئاً من الموافقة على الثمن الذى عرضناه عليه ، وهنا نعود إلى المتجر ، وندفع الثمن ونتسلم ما اشتريناه ، ثم ننصرف بعد أن ندعوا الله أن يحفظه

أما إذا لم يصل بنا الاتفاق إلى ما تقدم ، فإن المساومة قد تستمر حتى نصل إلى منزل صاحبنا التاجر. وهذا المنزل هوفى العادة صورة لما عليه منازل الطبقة الوسطى فى القاهرة . والواقع أن مسكن الطبقة الوسطى فى القاهرة قد يتصادف أن يكون فى بعض الأحيان بمثابة قصر من القصور : ونحن فى العصر الحاضر نجد الباشا يحتقر قصور النبلاء التى كانت فى أيام المماليك موضع فخر وإعجاب كثير ممن هم أحسن منه . وتراه يؤثر الإقامة فى « شارع رقم ٢٩ » ـ ذلك الطريق الذى لا ظلال فيه ـ أو هنالك حيث المنازل الحديثة المصنوعة من القرميد ، والتى تشبه الجنان وتعرف بحى الإسماعيلية . وهنا قد نجد التاجر يشغل فى بعض الأحيان منزلا من المنازل التى كان يسكنها أحد البكوات الكبار فى وقت من الآوقات ـ أولئك البكوات الذين كانوا يأمرون أتباعهم بالاصطفاف حينما يقتضى الأمر توجيه ضربة قاضية للوصول إلى العرش المتداعى الذى كان يقع دئما فى أيدى قواد أقوى الفرق . ولكن جميع منازل القاهرة القديمة قريبة التشابه إلى حد كبير ، ولكنها تختلف من حيث الحجم وكثرة الزخارف أو قلتها . وإذا كان منزل صاحبنا التاجر أفضل من معظم المنازل المجاورة له ، فما علينا إلا أن نتخير غرفة أو غرفتين من الغرف الفاخرة فيه نضاهى بينها وبين غرف المنازل الأخرى ، ليتكون لدينا فكرة واضحة عن ذلك المنزل .

إن الشارع الذى ندخله الآن يختلف كل الاختلاف عن ذلك الذى تركناه. فلقد كنا منذ لحظة وجيزة نطوف لنشترى من هذه الحوانيت، حيث نشترى السلع الرخيصة فى أحد أنحاء القاهرة المزدحمة ، والتى تواجه ذلك البناء الفخم لجامع السلطان المؤيد المملوكى ، ذلك الجامع الذي تقوم مئذنتاه على باب قديم بديع « باب زويلة » ، ولو أن الناس فى الوقت الحاضر يطلقون عليه عادة « باب المتولى »، لأنهم يعتقدون أنه كان فيما مضى مقراً «للقطب المتولى» زعيم الأولياء فى ذلك الوقت، والذى يحوط حياته شىء من الغموض والإبهام . وهذا الولى المقدس له قدرة عجيبة فى التنقل من مكان إلى آخر بحيث يكون خافياً على الأنظار. فهو يطير دون أن يراه أحد من أعلى الكعبة فى مكة إلى باب زويلة، وهناك يستقر فى مخدع خلف الباب الخشبى. والمؤمنون بهذا الولى يسبحون وهم يمرون بجانب هذا المخدع على حين يدفع غيرهم الفضول

إلى أن يختلسوا النظرات ليتحققوا هل الولى هنالك حقاً . وإذا انتابك صداع فليس من علاج ناجع إلا أن تدق مسمارا فى الباب ، والعلاج المحقق لألم الأسنان هو أن تنتزع السن الذى يسبب لك الألم وتضعه فى نفس تلك البقعة المقدسة . ولربما كان انتزاع السن أو الضرس فى حد ذاته علاجا للألم . غير أن الإيحاء يشتم منه رائحة الكفر والإلحاد . ومن ثم فإنه من الأفضل على أى حال أن ينتزع الضرس ويثبت هناك ، حيث تجد الباب يحفل بالكثير من النذور من أمثال هذه الأشياء الغريبة وغيرها . ولو كتب لهذه النذور جميعها النجاح لكان هذا القطب طبيباً بارعاً من غير شك .

وهذا الشارع الذى يعترضه باب زويلة عريض بالنسبة لمدينة القاهرة ، ويحده الحوانيت والجوامع والخانات والميضآت . وعلى عكس هذا تماما نجد الشارع الذى ندخل فيه الآن ، حينما نطوى زقاقاً ضيقا ، ثم نتحرف فجأة نحو اليسار . وهذا الشارع خال من الحوانيت ، ولو أن به جامعا صغيرا ، لعله ضريح أحد الأولياء الموقرين ، ويقع فى أحد الأركان ، وقد طليت جدران هذا الضريح بمختلف الألوان من أصفر وأحمر أو أبيض وأزرق مما يضفى كثيراً من البهجة على الزقاق الذى يقع فيه . أما جانبا هذا الطريق الضيق فإنهما يتكونان من جدران المنازل الخلفية العالية البيضاء اللون ، والتى ليس عليها شىء على الإطلاق سوى النوافذ المنقوشة القريب بعضها من بعض . وهذا الطريق الضيق يتفرع منه بين الفينة والفينة زقاقات أخرى أضيق منه ، تمتد إلى مسافات بعيدة فى مدينة القاهرة ؛ وفى أفنية هذه الدور تكثر المشربيات ، على حين لا نجد الكثير منها فى الطرق الواسعة الآهلة بالسكان . فالسكان فى العادة يحتفظون بالمشربيات الجميلة لنوافذ المنزل الداخلية التى تطل على الفناء أو الحديقة . ولكن فى الوقت نفسه نرى فى القاهرة شوارع غير قليلة حيث يقف المارة ويتأملون صفوف المشربيات البديعة التى تضفى على المنازل بهجة وبهاء .

واسم « المشربية » مشتق من الأصل وهو الفعل « يشرب » — ثم استعمل للنوافذ المصنوعة من الأعمدة الخشبية الرفيعة المشتبكة ، وذلك لأن أوعية الماء ذات المسام المصنوعة من الفخار كثيراً ما توضع عليها حتى تبرد بفعل الهواء . وفى أغلب الأحيان نجد هنالك مشكاة صغيرة نصف مستديرة تبرز من وسط المشربية لتوضع فيها

« القلة » أو الإبريق . والقطع الصغيرة الدقيقة التي تتكون منها المشربية ، يقترب بعضها من البعض الآخر بحيث لا يستطيع الجيران أن يروا من خلالها أي شيء في داخل المنزل . غير أنها تحتوى فى الوقت نفسه على مكان كاف يسمح بتخلل الهواء إليه . فالمشربية فى الواقع مكان رطب للانسان كما هو بالنسبة لقلال الماء . كما أن الجالس فيها يمكنه أن يرى الناس بالشارع من حيث لا يرونه ، فتستطيع نساء « الحريم » أن يشاهدن المارة دون أن يتمكن هؤلاء من رؤيتهن. ومع ذلك فهناك نوافذ صغيرة مناسبة فى المشربية يمكن فتحها إذا رغب أصحابها فى ذلك. وليس جميع نساء القاهرة الجميلات ممن يدعن المارة يمشون فى الطريق دون أن يأخذهن الزهو بأنفسهن فيفتحن النوافذ ليرى هؤلاء المارة أنهن جميلات حقا

وفى بعض تلك الحارات الضيقة نجد أنفسنا أمام مدخل دار يعلوه قوس ؛ وهنا ننزل من على الحمار ونقيده فى حلقة قريبة . والباب الذى نقف أمامه خليق بالدرس فى حد ذاته . فالجزء العلوي منه تحيطه النقوش العربية التى يتكون من مجموعها مربع مزركش فى أعلاه . وهذه الزخارف تكسب الباب فى العادة صورة بديعة رائعة إذا قيست بالأبواب القديمة . وفى بعض الأحيان نجد على الباب الخشبي نفسه بعض النقوش العربية ، وقد نقش عليه « الله الخالق الصمد » لتبعد المرض والشياطين وعيون الحساد ، وتذكر رب الدار بالموت كلما عاد إليه . وليس هناك ناقوس ، لأن النبى قد أعلن أن الناقوس آلة الشيطان الموسيقية ، وأنه لا يمكن أن تكون هناك ملائكة فى مكان به ناقوس . وفى بعض الأحيان لا يكون للباب حلقة فنضطر إلى قرع الباب بيدنا أو بعصا : وفى العادة قد يستمر القرع بعض الوقت حتى يسمع سكان المنزل ؛ وهذه بلاد لا يعرف من عليها للعجلة أو للاسراع أى معنى . ألم يقل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إن العجلة من الشيطان ؟ وعلى هـذا فاننا نسير على وفق ماجرت عليه الأمور فى هـذه البلاد ، ونواسي أنفسنا بتلك الآية الكريمة التى تقول « إن الله مع الصابرين » ، وفى نهاية الأمر نسمع صوتاً غريباً من الناحية الأخرى . إنه بواب الدار قد أخذ يحاول معالجة الباب ، فهو يحمل قضيباً صغيراً به أسنان نحاسية مرتبة ترتيبا خاصا ، ويحاول أن يدخله فى ثقب فى طرف المتراس ، ومن هذه يتكون القفل والمفتاح فى القاهرة .

وفى داخل الدار ممر ينعطف فجأة بعد خطوة أو خطوتين ، ويحول دون مشاهدة أى شىء فى الداخل وأنت بالباب الخارجى . وفى نهاية هذا الممر نجد أنفسنا أمام فناء متسع به بئر للمياه المالحة فى أحد الأركان الظليلة . وفى أغلب الأحيان نجد شجرة عتيقة للجميز . وفى هذا المكان لا نتلمس دليلا على أن ثمة حياة . فالأبواب مغلقة فى إحكام إمعانا فى الغيرة والحذر ، والنوافذ تحجبها تلك الستائر الخشبية البديعة التى تروق عين الفنان ، وتغرى الكثير من الغواة باقتنائها . والفناء الداخلى لايقل فى هدوئه وسكونه عن تلك الأجزاء التى تطل على الشارع نفسه . وهنا لا نرى أية علامة لحياة هؤلاء السكان المنزلية ، لأن غرف النساء منعزلة تماماً عن هذا الفناء ولا تطل عليه ، إنما تطل عليه غرف الرجال وحجرات الاستقبال وما إلى ذلك . والواقع أن هذا المكان الهادىء منعش جداً حينما يأوى إليه المرء بعد أن قاسي الكثير من الجلبة والصخب فى الشارع . حينئذ يشعر المرء أن المهندسين المصريين قد أدركوا لحسن الحظ ما تقتضيه الحياة فى الشرق . فهم يجعلون الشوارع ضيقة ، ويظلونها بالمشربيات البارزة حتى لا تصل أشعة الشمس المحرقة إليها ، كما هو الحال فى شوارع المدن الأوربية الواسعة ، حيث تستطيع أشعة الشمس أن تنفذ إلى هذه الدور ، ولكنهم يجعلون المنازل نفسها فسيحة الأرجاء ، ويحيطونها بالحدائق والأفنية ، لأن حرارة الشمس لاتطاق فى الغرف فى أثناء الصيف مالم يتخللها الهواء . إن فن المهندس الشرقى يتلخص فى أنه يبنى لك منزلك بحيث لا تستطيع أن ترى شيئاً من خلال نوافذ جارك وبحيث لايستطيع جارك فى الوقت نفسه أن يرى شيئاً مما يدور خلف نوافذ منزلك . والطريق الواضح للوصول إلى هذه الغاية ، هو أن تكون الحجرات بحيث يحيط بها فناء واسع فسيح الأرجاء ، وأن تكون النوافذ محتجبة بالستائر الخشبية المتشعبة التى تسمح لقبس ضئيل من النور أن يدخل ، وتدع قدراً وفيراً من الهواء يتخلل أجزاءها ، كما يسمح بالنظر من خلال هذه النوافذ دون أن يرى الغرباء من المارة ما بداخلها . والستائر الخشبية والفناء المنعزل من شأنهما أن يعملا على تحقيق ذلك النظام الذى يحتمه الإسلام بفصل الجنسين بعضهما عن بعض .

والحجرات السفلى التى تواجه أبوابها الفناء مباشرة ، هى تلك الحجرات التى يستطيع الشخص أن يمشى فيها آمناً ولا يخشى أن يرى وجهاً لأية امرأة فى البيت .

وإلى إحدى تلك الحجرات السفلى يتقدمنا مضيفنا طالباً إلينا فى أدب جم أن نوليه الشرف بأن نظهر كما لو كنا فى بيوتنا الخاصة . إنها حجرة الاستقبال ، أو المنظرة ، وهى بمثابة أنموذج لما ينبغى أن تكون عليه الغرف فى العادة . والجزء الذى ندخل منه فى الحجرة منخفض عن بقية الأجزاء . وإذا كان المنزل أنيقاً حقاً ، فإننا نجد هذا الجزء المنخفض مغطى بالرخام المصنوع من الفسيفساء ، وفى وسطه نافورة تعمل على تبريد الهواء ، وبإزاء الباب نجد قطعة مسطحة من الرخام محملة على أقواس ، حيث توضع قلال الماء وأقداح القهوة وأدوات غسيل الأيدى .

ونحن نخلع أحذيتنا الخارجية ونتركها على الجزء الرخامى من الحجرة قبل أن نطأ ذلك الجزء المغطى بالبسط ، وهناك نجد الأرض مغطاة ببسط من الصوف الخشن كما نجد بمحاذاة ثلاثة من أضلاع الحجرة « ديواناً » منخفضاً . وفى الحائط الخلفى مشربية بداخلها وسائد مريحة ، وبأعلاها نحو ستة من النوافذ مكونة من قطع صغيرة من الزجاج الملون ، ومن حولها إطار من الطلاء ؛ فتكون بذلك على شكل زهرة . وهذه النوافذ من شأنها أن تسمح لنصف الضوء فقط بأن يمر من خلالها : أما الجانبان الآخران فطليان بالجير ، وليس بهما خشب أو قرميد ، بل أعدت بها بضعة أصونة خشبية منخفضة لها أبواب صغيرة تفتح بطريقة هندسية معقدة . وعلى جانبى كل صوان من هذه الأصونة كوة صغيرة مقوسة ، وفى أعلاه رف وضعت عليه الأطباق الزخرفة والأوعية وغيرها من أدوات الزينة المنقوشة . أما سقف الحجرة فيتكون من ألواح مثبتة فى جذوع ضخمة ، ولونه فى العادة أحمر قاتم ؛ غير أنه فى البيوت القديمة نجد فى السقف غالباً بعض النقوش الجميلة ، ولانجد فى الحجرة مناضد أو كراسي أو مدفآت أو أى شىء من الأثاث الذى يعرفه الأوربى وحينما يحين وقت الطعام ، يحضر خوان صغير مستدير ، وإذا كان الجو بارداً قدم موقد أوقد فيه فحم الخشب . وبدلا من الكراسى نجد القاهرى يضع رجليه من تحته على الديوان ويجلس القرفصاء — تلك الجلسة التى إذا فكر الأوربى فى أن يجلس مثلها أصيب بتشنج فى الأعصاب .

وهناك فى أغلب الأحيان غرفة استقبال أخرى مرتفعة عن الأرض ، ولابد للوصول إليها من أن تصعد بضع درجات من الفناء الذى تطل عليه الغرفة من خلال

واجهة مفتوحة ومقوسة . كذلك نجد فى العادة منخفضاً فى الفناء تحت إحدى الحجرات العليا به ديوان يمكن الجلوس عليه حين يشتد الحر . ومن الفناء باب يطل على الدرجات التى تؤدى إلى غرف الحريم . وهنا لا يستطيع أى رجل أن ينفذ منه اللهم إلا رب الدار . وكلمة « حريم » معناها محرم على الرجال الآخرين ومحلل للسيد نفسه . وغرف الحريم هى الجزء المخصص للاسرة من الدار ؛ هناك يجد الرجل نفسه وسط أسرته حينما يعود إلى منزله طلباً للراحة من عناء عمله .

وإنه لمن العسير عليك حقاً أن تحاول إقناع البواب بأن يستدعى لك سيده فى تلك الفترة مهما كان الأمر الذى جئت من أجله إلى هناك . وفى جناح الحريم تجد



(فناء منزل)

فى العادة حجرة كبيرة للجلوس تشبه المنظرة تسمى « القاعة » ، وكثيراً ماتكون هناك قبة فى أعلى هذه القاعة . وأمام القاعة دهليز يستخدم للتهوية ، إذ أن الستارة التى تتدلى من فوق مكان مفتوح فى سقف هذه الحجرة ، تحول نسمات الريح الشمالية الباردة وتدفعها إلى داخل المنزل حين يشتد الحر . وهنا كثيراً ماينام أفراد الأسرة خلال فترة الصيف .

وليس فى المنزل الإسلامى حجرات خاصة للنوم ، أو على الأخص حجرات بها أثاث للنوم كما هو معروف عندنا الآن . ذلك أن هناك حجرات كثيرة منفصلة يمكن أن ينام فيها أهل البيت ، ولكن لم تكن أى واحدة من هذه الحجرات قد أعدت لتكون خاصة للنوم أو أن بها أثاثا خاصاً به . وكل مايلزم القاهرى فى أثناء الليل حشية ومخدة ، وربما أحتاج الأمر إلى بطانية فى الشتاء وناموسية فى الصيف . وكل هذه الأشياء يطويها فى الصباح ثم يودعها فى خزانة خاصة أوفى حجرة جانبية . وعند ذلك تتحول حجرة النوم فجأة إلى غرفة للجلوس . وثمة جانب آخر هام فى جناح الحريم هو الحمام ، وهو ليس عبارة عن حجرة خاصة بها مغسل للاستحمام مثبت فيها ، وإنما يتكون من عدة حجرات بعضها فى داخل بعض ، وهذه الحجرات مصنوعة من الحجر الذى يسخن بطريقة خاصة معقدة . وهذا الحمام أشبه مايكون بالحمام التركى العام . وهو ليس إلا بيتاً كبيراً يتمتع بهذا الترف ، ويخرج أكثر الناس إليه للاستحمام إذا أبدوا ثمة اهتماماً بالاستحمام .

ويعيش سكان مثل ذلك البيت الذى وصفناه على وتيرة واحدة تثير الكآبة والملل . غير أنهم لحسن الحظ قلما يشعرون بأن حياتهم خاوية موحشة . فإن رب البيت يستيقظ مبكراً جداً ، لأن المسلم لابد أن يؤدى صلاة الفجر . وكل مايطلبه قبل أن يتناول طعام الإفطار — الذى يكون خفيفاً فى العادة — هو الشيشة وقدح من القهوة قبل وجبة الغداء الخفيفة . وهو عادة يدخر شهيته للطعام للوجبة الأساسية التى يعتمد عليها ، وهى وجبة العشاء التى يتناولها فى العادة حالما تغرب الشمس . أما إذا استلزم منه عمله أن يتغيب عن المنزل يوما أو بعض يوم ، فإننا نراه يباشر عمله فى محله ، وهو يدخن بلا انقطاع تقريبا ، إما اللفيفة التركية التى اخترعت حديثا أو الشبك التقليدى ذا الفم البديع المصنوع من العنبر ، والجذع الطويل المصنوع من شجر الكرز ، والجفنة من الفخار الأحمر المطوعة بالطباق الخفيف الجبلى . أما إذا لم يكن

لديه عمل خاص يشغله ، فإنه يروح عن نفسه بزيارة أصدقائه ، أو بالجلوس ساعات طويلة حالمة فى ذلك الجو الدافئ فى الحمام العام ، حيث البخار المتصاعد من الأحواض التى التى يغلى فيها الماء ، وارتخاء المفاصل عند تدليكها ، وما يتلو ذلك من الاستراحة التى يتخللها الترطيب والتدخين وشرب القهوة — كل هذا له لذته الفائقة في الجو الحار . وإذا كان الرجل على جانب من الجاه أو المركز فلا يمكن أن يمشى على قدميه على الإطلاق ، بل إنه فى العادة يركب حماراً ، أو حصانا فى بعض الأحيان ، غير أن الحمار أكثر ملاءمة فى الشوارع المزدحمة . وفى الواقع إننا نجد فى الحمار المصرى الأصيل حيوانا بديعا قد يصل ثمنه فى بعض الأحيان إلى مائة جنيه . فخطواته سريعة ومريحة فى نفس الوقت . وليس من الصعب أن نكتب خطابا على قربوس سرج أحد هذه الركائب الحسنة المشية .

وبينما يكون رب البيت فى مقر عمله أوفى إحدى زياراته ، نجد نساء المنزل يعملن لتمضية الوقت فى أحسن صورة ممكنة : وعلى الرغم مما هو شائع فى كل مكان ، فإن المسلم قلما يتزوج بأكثر من امرأة واحدة ، ولو أنه قد تكون له فى بعض الأحيان علاقات أخرى مع فتاة حبشية أو جارية أخرى . ومع ذلك فإن جهوداً كثيرة تبذل الآن في سبيل مكافحة تجارة الرقيق ، وإذا ما تمخضت هذه الجهود حقا عن نجاح تام فى القضاء عليها ، مع أنها مباحة شرعا ، فإن القاهري لن يتزوج بأكثر من واحدة . وكان الخديو السابق نفسه قدوة حسنة فى هذه الناحية — شأنه فى غيرها من النواحي . والواقع أن هناك كثيراً من المسلمين لهم مثل أخلاق المسيحيين فى هذه الناحية . وسهولة الطلاق هى مشكلة المشاكل ، حقيقة إن الرجال لن يحتفظوا بزوجات عدة ، لأن هذا من شأنه أن يكلفهم الكثير فى الإنفاق علي منازل منفصلة أو منزل واحد ذى غرف متعددة . هذا إلى أن تعدد الزوجات لا يؤدى إلى الانسجام المنزلى . غير أن الواحد من هؤلاء لا يتردد فى أن يطلق زوجته إذا تطرق إليه الضجر منها ، ويستبدل بها زوجة أخرى جديدة تحل محلها . ولقد قيل إن الخليفة عليا استطاع أن يتزوج ويطلق مائتى امرأة فى حياته ، بل إنه حدث فى بغداد أن ارتفع هذا الرقم العجيب على يد أحد رجال الصياغة فيها إلى رقم أعجب منه ، إذ تزوج تسعمائة امرأة ، وقد توفى هذا الرجل فى سن الخامسة والثمانين : ولو أنه تزوج فى سن

الخامسة عشرة لسكان زواجه قد أصبح بمعدل مرة فى كل شهر طوال فترة السبعين سنة التى قضاها فى الزواج . لقد كان الطلاق عند هـذا الرجل من السهولة بحيث إنه لم يكن يرى أى ضير فى الزواج من تسعمائة امرأة . ولقد قيل كذلك إن امرأة تزوجت من أربعين رجلا ، وإنها خففت من متاعب الاحتفال بزواجها إلى أقل حد ، وإن ابنها قد تملكه الألم حينما حار فى التعرف على أبيه . ولم يكن أحد أمراء الصعيد فى مصر بأقل من هؤلاء فى هذا المضمار ، غير أن تلك العادة قد أمست فى طريقها إلى الزوال(١) .

ولعلنا نلتمس للنساء فى هذه الناحية عذراً أكبر من الرجال . فبينما يستطيع الزوج أن يسعى وراء سعادته هنا وهناك ، إذا بالمرأة لاتغادر المنزل أو تنحرف عنه بل تعيش عيشة مملة على وتيرة واحدة . حقيقة إنه قد يحدث فى بعض الأحيان أن تجتمع النساء فى الحمام العام ويأخذن فى الضحك والمرح ؛ وإن الصيحات التى تنبعث فى أثناء الضحك تحمل الدليل على روح المرح التى تتميز بها الفتاة المصرية . وقد تخرج السيدة أحيانا فى جلال وأبهة لتزور بعض صديقاتها ، فتركب حمارا كبيراً وترتدى ملاءة واسعة من الحرير الأسود ، وتحجب وجهها عدا عينيها ، بحجاب أبيض اللون ، وهى تسير ، وبرفقتها خادم أمين . وهذه الزيارات التى يتبادلها الحريم هى كل ماتظفر به المرأة القاهرية من مباهج وسرور . هنالك تسمع ثرثرة لاحد لها ، كما تشاهد ألوان الحلوى وتتفقد أدوات الزينة . وفى بعض الأحيان قد تشاهد هناك مغنية أو راقصة . هذا هو كل مايدخل عليهن السرور . وليس لأولئك النسوة ثقافة من أى نوع ، وهن لايستطعن أن يعرفن من المتع العقلية أكثر مما تقدره حواسهن ؛ فالمأكل والملبس ، والحديث ، والنوم ، والجلوس على الديوان ساعات طويلة ، والاستغراق فى الأفكار والأحلام ، ومحاولة إرضاء الزوج وكسب محبته وقصرها عليهن — كل هذه هى عناصر الحياة فى « الحريم » . ولقد سألت امرأة إنجليزية إحدى المصريات كيف تمضى وقتها فأجابت : «إنى أجلس على هذه الأريكة ، فإذا ما انتابنى الملل أو التعب نهضت لأجلس على تلك » . والتطريز والوشى من

(١) تركنا هذا الكلام على سبيل التفكه والتندر .

الأشغال التي قد تشغف بها النساء ، غير أنه ليس ثمة امرأة تفكر في أن تشغل وقتها في حديقة الأزهار الملحقة بمنزلها في الغالب . والواقع أن الجميلات اللاتي نتخيلهن وراء النوافذ الخشبية لسن من هذا النوع من النساء اللاتي يشغف بهن المرء كثيراً أو يلذ له التحدث إليهن . فهن لايجدن معرفة أي شيء ، ولايفكرن فيما يدور حولهن في قليل أو كثير . وكل ماهنالك أنهن — أو على الأصح قليل منهن — جميلات وحسب .

والواقع أن النساء المصريات لا يجرؤن على الظهور أو المباهاة ، وهن يتلقين تلك النظرة الوضيعة التي ينظر بها جميع المسلمين إلى النساء . فالرجال في الشرق يدينون بمبدأ ظلم المرأة واحتقارها ولا يحيدون مطلقا عن هذا المبدأ الذي هو جزء من دينهم . ألم يقل النبي ما معناها : اطلعت في الجنة فاذا أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت في النار فإذا أكثر أهلها النساء ؟ وفوق هذا ، أليست المرأة الأولى خلقت من ضلع عوجاء ، فاذا حاولت تقويم هذه الضلع كسرتها . وإذا تركتها وشأنها كان لابد من أن تستمر على اعوجاجها ؟ وفضلا عن هذا وذاك ، ألم يرو لنا أن الشيطان حينما سمع أن هناك امرأة قد خلقت في الجنة ضحك مبتهجا ثم قال مامعناه : « إنك نصف مضيفي ، ومستودع سري ، وسهمي الذي أصيب به ولا أخطيء ؟ » وعلى ذلك فليس مما نعجب له كثيراً أن ينصح أحد الفقهاء واحدا من تلاميذه ، فيطلب منه قبل أن يقدم على أي عمل خطير أن يستشير عشرة من أصدقائه المخلصين ممن يعهد فيهم الذكاء . أما إذا لم يكن له سوى خمسة فقط من أمثال هؤلاء الأصدقاء الذين تتوافر فيهم هذه الشروط ، فليستشر كل واحد منهم مرتين . أما إذا لم يكن له غير صديق واحد ، فعليه أن يستشيره عشر مرات في عشر زيارات مختلفة . ولكن إذا لم يكن له حتى هذا الصديق الواحد ، فليعد إلى منزله ويستشير زوجته ، وكل ما تقوله له فليعمل بعكسه : وبمثل هذه الطريقة يسير قدما في قضاء حاجاته ويصل إلى غايته . وقد اتبع المسلمون نصيحة هذا الأب الورع وعاملوا النساء على أنهن مخلوقات أقل منهم شأنا — مخلوقات وإن كان لها أهميتها ، فهي على الأقل أدوات للزينة ، ولكن مما لاشك فيه أنها ليست جديرة بأي احترام أو تبجيل . ومن ثم فانهم قلما يعلمون بناتهم . وهم إذا أرادوا الزواج لا يطلبون في زوجاتهم

غير الجمال والطاعة ، ثم يعاملونهن على أنهن لعب لطيفة تستخدم فى اللعب ثم تكسر فيلقى بها ، أو على أنهن وسيلة من وسائل الاقتصاد الاجتماعى : ينجبن أطفالا ، ويرعين شئون المنزل . (١)

ولعل أكثر ما يلطخ جبين المجتمع الإسلامى هو احتقار المرأة على تلك الصورة التى هى أبعد ما تكون من تلك النتائج الحسنة للعقيدة الإسلامية التى تنادى بالمساواة بين جميع المؤمنين أمام الله ، وحرية التصرف واستقلال الرأى كما يدل عليه معنى الإخاء فى شريعة الإسلام المقدسة . وقد تكون الصورة التى قدمناها للحياة اليوميه للرجل القاهري قاتمة إلى حد كبير ، وعلى ذلك فإن علينا أن نلاحظ صاحبنا التاجر فى لهوه ومسراته حين يتبين لنا ذلك الجانب الأكثر وضوحا من حياته . حقيقة ، أن هذه المباهج والمسرات تتقيد تقيداً شديداً بالدين . ولكن هذا هو الحال أيضا فى عطلات الكاثوليك . فاذا ما أراد أحد الأشخاص أن يرتكب ما يشين . فان عليه أن يرتكبه تحت كنف أحد القديسين ، وبذلك يتخلص من وخز الضمير . ولكن المسلم فى العادة يبتهج ابتهاجا لاحد له فى الاحتفالات الدينية ، وإنك لترى كيف أن احتفالات العرس يتلى فيها القرآن من أوله إلى آخره ، وأى عريس ذو مقام لا بد أن يعمل على إجابة مثل هذا الرجاء لأصدقائه المدعوين . وإذا ما أراد الناس فى القاهرة أن يلهوا ، فانهم يذهبون لزيارة قبور أقاربهم المتوفين ، ثم يجلسون فى منازل خاصة أعدت لاستقبال المعزين ، وهناك يستمع الجميع إلى تلاوة القرآن .

ومهما يقال عنا معشر الانجليز من أننا نكون مكتئبين على الدوام أثناء لهونا ، فانه حتى ذلك الجمهور اعتاد أن يشاهد مسرحيات إبسن Ibsen ، سوف يقف دهشا أمام تلك الاحتفالات الاسلامية . والمسلم فى احتفالاته قلما يفكر فيما يقدمه من ألوان مختلفة . فعلى حين لا يوحى عيد القديس سمعان والقديس يودا عليه بأى مرح للرجل الإنجليزى العابس ، تجد الرجل القاهرى يتمتع بأعياده الدينية إلى

---

(١) انظر كتابى Cairo Sketches, 120, 140.

أقصى الحدود بطريقته الرزينة الهادئة المعروفة .وتلك الأعياد جد كثيرة ، و «المولد» في القاهرة ليس احتفالا يستغرق يوما واحداً كما هو الحال في الأعياد المسيحية ، وإنما قد يمتد في بعض الأحيان إلى تسعة أيام : وكل سائح زار القاهرة لابد أن يعرف بعض هذه الأعياد . من ذلك الاحتفال بالكسوة الشريفة ، ومرور المحمل بقافلة الحجاج إلى مكة . هذه المشاهد جديرة بأن يراها كل منا . إذ تصادف وقوعها في موسم السياحة . فالسنة الهجرية لا تزال تسير وفقا للتقويم الذي يعتمد على القمر ، والذي لم يتم إصلاحه حتى الآن . فهـذا التقويم من شأنه أن يتغير فيغير معه الأعياد كلما دار الفلك دورته . والواقع أنه قد يندر أن يمر أسبوع واحد دون أن يكون هناك عيد أو احتفال . وقد يكون ذلك العيد يوم عاشوراء (أي اليـوم العاشر من شهر المحرم أول شهور السنة الهجرية) ، حيث يأ كل الناس الـكعك احتفالا بذكرى « الحسين » الابن الشهيد لسيدنا علي ، ويتوجهون إلى جامع الحسين حيث دفن رأس الشهيد كما يزعمون ، ويشاهدون التمثيل الهزلي العجيب الذي يقوم به الدراويش . ويتكون من اسم حسين هذا واسم أخيه الأكبر حسن ، اسم «الحسنين» الذي تقدم ذكره . والحسين هذا بنوع خاص أهم أولياء العجم الشيعيين ؟ ثم إنه كان السبب في كثير من الانشقاقات والاختلافات التي حلت بالعالم الإسلامي . ومن الغريب حقا أن يكون القاهريون — ومعظمهم من السنيين — ممن يهتمون بهذا العيد ويولونه مثل ذلك الاحترام والتبجيل ، ولـكن الحقيقة أنهم يتذرعون بأي عذر ويرجعون به ما دام يؤدي ذلك إلى منحهم عطلة . وفوق هذا ألم يكن سيدنا الحسين هذا حفيد النبي ؟ وهل يليق أن يترك لأولئك الملاحدة من كلاب الشيعة ؟ ومهما يكن من أمر الحسين هـذا ، فان مما لا شك فيه أنه ينال حقا من الاحترام والتبجيل في القاهرة ، وأن الاحتفال بمولده من المشاهد التي يسر لها السائح الأوربي كثيراً ، فليس هناك في الواقع أبهج ولا أروع من تلك المناظر التي نشاهدها في شوارع القاهرة وأسواقها في ليلة الحسين الـكبرى . والشيء الغريب حقا أنه في إحدى ليالي الشتاء وبعد موقعة التل الـكبير ، حينما كنت واقفا — لأن الركوب كان إذ ذاك متعذرا — وسط جمع محتشد غفير في شارع الموسكي ، وجاهدت لأشق طريقي إلى ذلك الزقاق الذي يؤدي إلى بيت القاضي ومسجد الحسنين — أقول إنه

من الغريب حقا أنى لم ألاحظ هناك أية روح سيئة أو تعصب ، على الرغم من وجود كثير من الأوربيين فى ذلك الوقت . والحق أن مثل هـذا الجمهور الطيب النفس ليس له نظير . فلقد كان أقل ما يمكن أن نتوقعه أن يحدث شيء من الاحتجاج على الأوربيين الذين كانوا يتجولون فى الطرقات البهيجة المزدانة بالأنوار فى ليلة عيد . ولـكنك بدلا من هذا كنت تجد النساء الإنجليزيات يتخللن الأسواق ، والضباط الإنجليز والسائحين يختلطون بالجمهور ، بل إنهم بلغوا فى بعض الأحيان أبواب الجامع القدس نفسه دون أن يمسهم أحد أو يبدى لهم أدنى مضايقة بل أقل ملاحظة . وفى بعض الأحيان قد تشاهد سيدة مصرية وهى تدعو بعض المسيحيين فى شيء من التهكم والسخرية وتطلب منه أن « يصلى على النبى » . وقد تذهل السيدة المصرية حينما يجيبها المسيحى بقوله « اللهم صل عليه » . على أنه إذا لم يعرف ذلك الأجنبي كيف يجيب عن مثل هـذه الأسئلة إجابة صحيحة ، فلن ينتج عن ذلك ضرر على الإطلاق ، فان طيبة القلب والطبيعة السمحة التي توحى بها مثل تلك الأعياد مما ينسى ذكرى الحرب أو البدع الدينية . ومن المؤكد أنه لا يمكن أن يكون هناك جمهور إنجليزى يعتمد عليه ويوثق به يستطيع أن يسلك مثل هذا المسلك البديع مع وجود أقلية غير مرغوب فيها معه .

ولما انحرفت فى أحد أزقة خان الخليلى الـكبير — أو البازار التركى الذى يواجه جامع الحسنين — كان ذلك المنظر يشبه إحدى صور « ألف ليلة وليلة » . فقد كان البازار الطويل مضاءاً بالشموع والمصابيح الملونة التى لاحصر لها ، ومغطى بسرادقات مصنوعة من الشيلان والأقمشة المزركشة . وإنك تستطيع أن تتبين من خلال قطع الخيام المنـازل المعتمة ذات الضوء القليل ، فتعجب للتناقض الغريب بينها وبين البهجة الموجودة فى أسفلها . أما الحالة التجارية فقد تغيرت تماما ، فلم تعد ترى هنـاك تلك السلع التى كانت مبعثرة هنا وهناك ، كما اختفت تلك الصينيات التى كانت تحمل شتى الخناجر والخواتم والملاعق وما إلى ذلك . بل إنك لتجد كل متجر قد تحول الى غرفة استقبال أنيقة . كما تجد الجوانب والسقف كلها مغطاة بالحرير والـكشمير والديباج والقطيفة والأقمشة الفاخرة الموشاة المعدومة النظير ، وعلى الجملة بكل ما لم يكن المشترى ليراه فى أى يوم من الأيام العادية . وبالاختصار فان جوانب البازار

قد تألفت منها كتلة متوهجة براقة من الذهب والضوء والألوان الزاهية . وبداخل كل متجر تجد صاحبه جالسا ، يحيط به نخبة من الأصدقاء على شكل نصف دائرة ، وقد ارتدى أنخر ما عنده . اما صاحبنا التاجر فقد تناهى في النظافة والأناقة ، ملازما جانب الأدب . ذلك أن التاجر القاهرى يظهر دائما بمظهر الرجل الكريم الأصل ، حتى حينما يغشك بطريقة تثير غضبك . إن ذلك الرجل الذى كنت تتساوم معه فى شدة وحرارة فى الصباح ، سوف يدعوك الآن فى أدب زائد لأن تجلس وتدخن معه . وإلى جانبه منضدة صغيرة من العاج أو الصدف ، يأخذ منها زجاجة بها شراب حلو الطعم من عصير اللوز أو الورد ، ويقدم إليك منها فى لطف زائد وأدب جم .

وإنك لتستطع وأنت جالس فى هـذه العزلة أن تشاهد تلك الجماهير المحتشدة وهى تندفع وتتزاحم ، حتى إنه ليخيل إليك أن سكان القاهرة بأسرهم قد تجمعوا فى ذلك المكان . ثم إنك تلاحظ أن كل واحد منهم قد ارتدى أحسن ماعنده ، فبدا أنيقا نظيفا تبدو عليه سيماء الفرح والبهجة . وعلى حين غفلة تسمع أنغام المزمار وقرع الطبول تنبعث من كل مكان . وهناك تجد جماعة تتغنى بمدح الرسول عليه الصلاة والسلام وبسيدنا الحسين علي السواء ، وهى تجوب الطرقات وتخترق الجماهير المحتشدة وقد أخذت البهجة منهم كل مأخذ . وعلى اليسار تجد محلا صغيراً جلس فيه أحد القصاصين البارعين يروى بطريقة تمثيلية قصة محببة إلى ذلك الحشد الذى التف من حوله مأخوذاً بسحر القصة وروعتها . وهناك بالقرب منه تجد أحد رجال الدين وقد انهمك من التلويح برأسه وهو يردد اسم «الله» جل شأنه أو بعض الآيات القرآنية المؤثرة . وفى مكان آخر تشاهد جماعة من الدراويش وهم يذكرون أو ينشد بعض القوم المتعبدين القرآن بأكمله . ومن المؤكد أن مثل هذا المشهد غير حقيق وأنه مبالغ فيه . فنحن نستطيع أن نتصور أنفسنا فى بلاد الجن أو فى مدينة النحاس وليس فى مدينة القاهرة أو فى القرن التاسع عشر

وإذا ماخرجنا من الخان ، وجدنا أناسا كثيرين يتدفقون إلى جامع الحسنين ، حيث تحدث مشاهد مروعة تقام خصيصا من أجل تلك الذكرى. ولابد من أن يجول كل فرد حول قبر الحسين . وعلى قيد بضع خطوات نرى بعض الرجال يدخلون إحدى الخيام . وإذ نتتبعهم لنرى ما خطبهم ، نشاهد فى الداخل بعض المشعوذين

وقد انهمكوا في عملهم في غير انقطاع . كذلك نجد حصانا صغيرا يقوم ببعض الحركات، وأحد المهرجين وهو يقوم بتقليد الرياضيين في صورة تبعث على المرح وتثير الضحك في كل مكان . وفي سرادق آخر نجد قرقوش يقوم بتدبير دسائسه . والواقع أن هذا الرجل الصغير السمين أو القراقوز المصرى يؤدى عمله خيرا مما يؤديه القراجوز الإنجليزى الذى يشبهه بعض الشبه . غير أنه لا يحسن انتقاء كلماته ، كما لا يراعى مسلكه وهو على تلك الصورة . ومن ثم نجد أنفسنا قد اضطررنا بعد قليل إلى مغادرة ذلك المكان حيث تأخذ النكات تلبس ثوب الخلاعة والمجون ، وحيث تبدأ الدواب في لعبها والقيام ببعض الحركات الخاصة . غير أن الطبقات الدنيا قلما تعنى بأن تدرك ما في ذلك من ضرر ، فتجد أفرادها قد أخذهم المرح حتى لتكاد جوانبهم تنفجر من كثرة الضحك على حركات قراقوش ، لا يبالون بشىء أو يهتمون بمن يقابلون من الناس ، ومهما يكن فقرهم وهمومهم الخاصة — كل ذلك لا يمكن أن ينال من طبيعتهم المرحة في ليلة الحسين الباركة .

ولعل أول ما يتميز به الجمهور المصرى أنه يمكن تسليته في سهولة تامة . فإن أبسط المناظر وأقدم النكات تبعث فيه المرح والسرور . ويكفى أن نجعل الأوربى المدقق يأسف على ضبط نفسه ليرى كيف أن هؤلاء القوم البسطاء يدخل المرح قلوبهم من أقل شىء(١) .

هـذا هو ما نذهب إلى القاهرة لنراه : الحياة الشرقية الحقيقية على صورتها الأصلية . وإن بعض تلك المناظر لأفضل بكثير من تلك المشـاهدات الباردة أو ذلك الرقص الفاتر الذى يحدث في الحى الأوربى حيث الفندق الذى نقطن فيـه . حقيقة إنك تستطيع أن تجد في القاهرة حياة الفنادق الهادئة ، أو حياة النوادى، وتجد ألعاب البولو والتنس وحتى الجولف — كل ذلك تجده كأحسن ما يكون في القاهرة الأوربية . غير أن هذه جميعها معروفة لدى جميع السائحين الذين يقدمون إلى مصر في الشتاء . إنما تستطيع أن تجد شيئاً لا مثيل له في حى الإسماعيلية حينما تذهب إلى السوق وتختلط بالناس . هنالك تجد الكثير مما يعشقه الرسام ومما يبعث على الخيال .

---

(١) انظر كتابي Cairo Sketches, pp. 174—5.

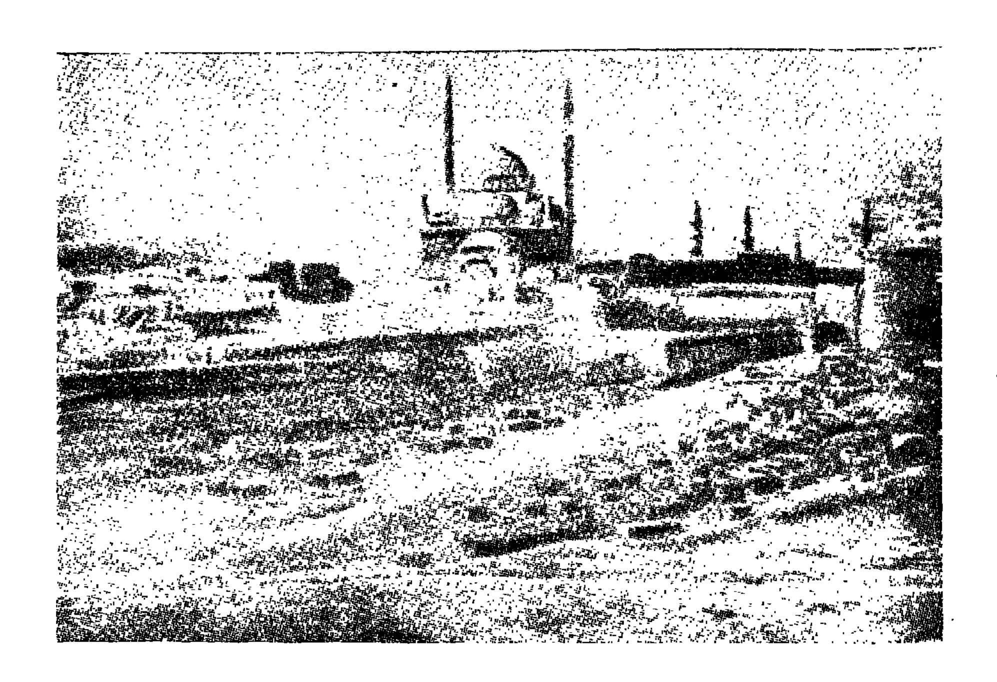
ومهما يكن من شيء فإن أكثر الأشياء التي تكون فيها متعة لنا هي تلك التي تكون غير مألوفة لنا في العادة . ونحن إذ ندخل مصر لأول مرة ، سرعان ما تكشف لنا هذه البلاد عن أفكار جديدة وألوان غريبة ، كما نشتم تلك الرائحة الخاصة التي تتميز بها الحياة القومية هناك .

وفي الأسواق أكثر من أي مكان آخر يمكن أن يجد الفرد كل ما هو غريب وغير مالوف لديه . ولكنك في نفس الوقت إذا أردت أن تتشبع بروح المدينة الإسلامية الحق ، فعليك أن تتسلق أسوار القلعة حينما تأخذ الشمس في المغيب ، ثم تمتع طرفك بما يكون تحتك وحواليك من مناظر رائعة . ومن سوء الحظ أنك ، لكي تستطيع الوصول إلى هناك ، لا بد من أن تمر من أكثر شوارع القاهرة قبحا وتشويها . غير أنه لحسن الحظ أن هذا التهدم قد حدث — على ما أذكر مع الارتياح — قبل أن تتسلم انجلترا مقاليد الحكم في مصر . ذلك أن إسماعيل هو الذي فتح شارع محمد على الذي يمر بأجمل أحياء القاهرة ، فهدم قصورها وحدائقها وشطر نصف أحد الجوامع الشهيرة حتى يتمكن بذلك من أن يجعل هذا الشارع مستقيما ، ولو أن ذلك لاينم عن ذوق سليم : وعلى جانبي هذا الشارع تجد هناك مساكن ومكانب حقيرة غيرمنظمة ، لاهي بالأوربية ولاهي بحيث تستطيع أن تحتفظ بصبغتها الشرقية . هنالك تمتزج الخمور العتيقة بالمشروبات الحديثة وتوضع جنباً إلى جنب كذلك .

وإن هذا الامتزاج يتجلى لك في وضوح حينما تشاهد مدرسة إسلامية تجاورها حانة أعدت لاستقبال رجال الجيش والبحرية . وبجانب جدار مسجدالسلطان حسن تجد حلاقا عربيا يقص للناس شعرهم بتلك الآلة الحديثة . كذلك تجد عربة للحريم مزركشة بالغة الروعة والبهاء واقفة أمام باب المسجد في حراسة أحد الأغوات . ويمر الشيوخ الموقرون بهذهالمناظر الغريبة جميعها دون أن يبدوا أية دهشة أواهتمام . وفي الهواء تسمع دوى المدافع ينبعث من قلعة صلاح الدين . إنها تحية العيد الكبير عيد الأضحى . أما الجنود هناك فليسوا من الأتراك الأشداء ، ولا من الأكراد الغلاظ الجفاة ، وقد ارتدوا تلك الملابس البديعة وأمسكوا بأيديهم الرماح والصولجانات ، كأولئك الجند الذين دفع بهم السلطان العظيم إلى ريتشارد قلب

الأسد ، وإنما جنود بريطانيون قد ارتدوا الملابس الكاكية بصورة لاتليق بأمثالهم . والقلعة ذاتها عبارة عن مستودع للاسلحة والذخيرة الحديثة . وهناك يحكم الضباط الإنجليز حيث كان يذبح البكوات المماليك فى يوم من الأيام . فالقديم والحديث فى نزاع دائم فى تلك القلعة التى يرجع عهدها إلى العصور الوسطى . وتتولى الكتائب الخاصة حراسة جامع أحد سلاطين المماليك .

ولكنك إذا وقفت على أسوار هذا الحصن لم تعد ترى أى اختلاف أو تناقض ، وإنما تبصر من حولك كل ماهو شرقى صميم . فالصبغة الأوربية لم تعد هناك بحيث تضفى على الصبغة الشرقية . هنالك تجد الكثير من القباب والمآذن والأديرة ذات القباب ، والمنازل المنبسطة الأسقف ، منها الأصفر والأبيض ، ومنها الأحمر . كذلك تشاهد بقعا خضراء هنا وهناك ، يتخللها شجر الجميز العتيق ذو الأوراق القاتمة اليابسة التى تكشف عما كانت عليه حدائق المدينة القديمة . وفى الجهة المقابلة تشاهد صفوفا من النخيل ، وأخدوداً من الفضة حيث يجرى ذلك النهر الطويل الصافى حالما بين ضفتيه القاتمتين . وهناك فى الأفق ، وفى مواجهة مرتفعات ليبيا ، حيث تأخذ الشمس فى المغيب فتترك من ورائها لونا أحمر قانيا ـ هناك تبصر الأهرام الخالدة . كذلك تشاهد المآذن الدقيقة وقد ارتفعت كثيراً عن مستوى القباب وسطوح المبانى الأخرى ، حيث تكون لنفسها عالما خاصا بها ، فيه الكثير من السحر والجمال . إن كل واحدة من هذه المآذن لها قصة جديرة بان ترويها لنا ـ قصة انتصار أو انكسار ، أو قصة مجاعة أو غزو ، أو قصة ثقافة وزهد . وإذا ما اتجهت بنظرك شمالا إلى اليمين ، شاهدت مآذن جامع المؤيد البديعة من فوق باب زويلة . إن هذه المآذن لتذكرنا بمئات الأحداث والقصص تخصص من ذلك الباب الذى كان فى يوم من الأيام المدخل الرئيسى لقصر الخليفة . ووراء هذه المآذن ترتفع مآذن حى النحاسين ، وهى أنموذج كامل للفن الإسلامى . ووراء هذه المآذن أيضا نشاهد بعض الأبرج ، إنها أبراج جامع الحاكم . وأمام هذه الأبراج يقع جامع السلطان حسن ، أكبر وأعظم المساجد التى ترجع إلى عهد المماليك . وإلى اليسار قليلا يرى الناظر بروج وأروقة جامع ابن طولون الذى يطل على التلال التى تحيط به ، والذى يحمل إلى أذهاننا ذكرى مدينة الفسطاط التى قامت منذ ألف سنة . وإلى اليسار أيضا خط المنحنيات



القلعـــة

التى تدلنـا على مكان هذه القناطر المقامة على أعمدة ، والتى امتدت إلى النيل لجلب ماء الشرب إلى القلعة زهاء خمسة قرون . وفيما وراء هذه القناطر نشاهد حشداً من القباب والمـآذن المتهدمة فى مقابر المماليك جنوبى القرافة . كما نستطيع أن نلمح ذلك الحصن المصرى القديم ، وهو حصن بابليون ، وجامع عمرو . وإذ ننظر إلى الجانب الآخر من مآذن المماليك ، نستطيع أن نرى أكمة قائمة من الحجارة هى بقايا هرم دهشور ، وصورة واضحة لهرم سقارة الذى يبعد خمسة عشر ميلا فقط عن القباب الإسلامية المتقدمة ، ولـكنه يبعد عنها بخمسة آلاف سنة تقريباً . وإذ تأخذ الشمس فى المغيب ويبدأ الليل يرخى سدوله ، تتجمع السحب القـائمة فى الغرب ، فتلقى ظلالها على الصحراء الممتدة من تحتها ، مما يوحى إليك بأن هنالك محيطاً جديداً قد انشق فى قلب إفريقية .

وهنا نعرف القاهرة لأول مرة على أنها مدينة من مدن العصور الوسطى ، بل أكثر من هذا نعرفها كمدينة لها تراثها المجيد منذ فجر التاريخ . فنحن حين نطل من أعلى أسوار القلعة ، ندرك أن هناك محيطات أخرى غير تلك التى نعهدها زاخرة بالمياه ، وأن حاضرة مصر لا يمكن أن يكون لها حدود أنسب من الصحاري التى هى بمثابة الدرع الواقى لها ، والأهرام التى تعلن فى جلاء ووضوح عن أعمالها المجيدة التى تمت منذ أقدم عصور التاريخ . ولقد قال الإسرائيلى الحكيم : « من لم يشاهد القاهرة لم يشاهد الدنيا ، فأرضها تبر ، ونيلها سحر ، ونساؤها حور الجنة فى بريق عيونهن ، ودورها قصور ، ونسيمها عليل ، كعطر الندا ينعش القلب . وكيف لا تكون القاهرة كذلك وهى أم الدنيا ؟ » .

الباب الثانى

مدينة الفسطاط

المدن المتعاقبة ــ الفتح العربى ــ عهد الصلح ــ مصر القديمة ــ بابليون والمقوقس ــ القبط ــ تأسيس الفسطاط ــ خطط القبائل العربية ــ جامع عمرو ــ حصن بابليون كنائس القبط .

حينما نطل من القلعة نشاهد مدينة لها كل مميزات العصور الوسطى . غير أنه من بين جميع المبانى العربية لا نجد بناءاً واحداً فى حالته الحاضرة يرجع إلى الفتح العربى . فقبل أن يغزو المسلمون مصر فى سنة ٦٤٠ م لم تكن هناك مدينة تسمى القاهرة . وإن نحن توخينا الدقة ، فإن هذه المدينة لم يكن لها وجود فى الواقع إلا بعد هذا التاريخ بثلاثة قرون ، حين وضع القائد الرومى أساس المدينة التى اتخذها الخلفاء الفاطميون مقراً لهم ، والتى أطلق عليها اسم القاهرة ، وهو الاسم الذى اشتق منه الأوربيون أسماء Cahere و Caire و Cairo . غير أن هذه ليست سوى ألفاظ لا طائل وراءها إذ أنها لا تدل على شىء ، وكما هو الحال فى إنجلترا فإننا نقصر اسم لندن على المدينة نفسها ونأبى أن نطلقه على مقاطعة وستمنستر وميفير . لقد كانت هناك حاضرة إسلامية منذ الفتح العربى . وعلى الرغم من أنها لم تكن تسمى القاهرة ، كانت قريبة من المدينة الحالية التى لا تعدو أن تكون اتساعا للمدينة الأصلية . وتاريخ هذا النمو والاتساع سوف يتجلى لنا حين ندرس التطور الذى لحق هذه المدينة وآثارها . أما الآن فإنه يكفى مجرد الإشارة إلى تاريخ نشأتها وتطورها . فقد بنيت فى بادىء الأمر المدينة العربية التى تسمى « الفسطاط » فى سنة ٦٤١ م . وفى سنة ٧٥١ م أضيف إليها حى فى الشمال الشرقى ليكون مقراً للأمراء ومعسكراً لجيوشهم ، فسميت بذلك « العسكر » . وإلى الشمال الشرقى أيضاً أضيف إليها ضاحية جديدة أو مدينة صغيرة بناها أول حاكم مسلم استقل بحكم مصر حول سنة ٨٦٠ م وهو ابن طولون . وهذه المدينة تسمى

« القطائع » لأنها كانت تنقسم إلى أحياء منفصلة كل منها يختص بشعب معين أو طبقة معينة ، ثم لم تلبث هذه المدن الثلاث أن أصبحت مدينة واحدة من الناحية العملية ، فقد تحولت كل من «العسكر» و «القطائع » — كما تحولت تشلسى وسانت جيمس إلى لندن — إلى الحاضرة التجارية وهى الفسطاط .

أما الخطوة الرابعة فى تطور هذه المدينة فتتلخص فى اتساع آخر نحو الشمال الشرقى أيضاً . وقد تركت مساحة كبيرة بينها وبين القطائع — التى كانت قد تهدمت إلى حد كبير جداً — حتى يتوافر الأمن والعزلة للخلفاء الذين كان ينظر إليهم أنصارهم نظرة الاحترام والتقديس ، والذين بنيت هذه المدينة باسمهم سنة ٩٦٩ م . وكانت هذه المدينة الأخيرة هى القاهرة الحقيقية ، ولكنها لم تكن الحاضرة التجارية ولا مقراً للحكم كما كانت العسكر أو القطائع من قبل . وكانت الفسطاط — على ضفة النيل — لا تزال سوقا للتجارة ، كما كانت أكبر مدينة للثقافة والأعمال . أما القاهرة فإنها كانت بمثابة قصر فخم ، وثكنات للجنود ، ومقرا للحكومة . ويلاحظ أن مؤرخى العصور الوسطى من أمثال وليم الصورى حين يكتبون عن مصر — وكلمة مصر تستخدم فى اللغة العربية للدلالة على القطر المصرى وعلى الحاضرة على السواء — فإنهم لا يشيرون إلى القاهرة ، بل إلى الفسطاط ، أو كما كانت تسمى عادة « مصر الفسطاط » . ولقد كان الأمير أو الخليفة أو السلطان يختار أية ضاحية يبنيها لنفسه ويحكم منها ، ولكن الحاضرة القديمة تظل أهم هذه المدن حقا . هنالك كان القضاة يجلسون فى الجامع العتيق ليصدروا أحكامهم ، وهناك كانت تصك نقود الدولة ، وهناك أيضاً كان يقيم عامة الشعب الذين لم يكن لهم اتصال بالقصر . ولم تصبح القاهرة الحاضرة الحقيقية ومركز الحكم فى مصر إلا بعد أن أحرقت الفسطاط عمدا فى سنة ١١٦٨م لتخليصها خوفا من أن تقع فى أيدى الصليبيين .

وكان صلاح الدين الأيوبى هو منشىء القاهرة الحقيقى كما هو معروف . ذلك أنه هو الذى وضع تصميم السور الذى كان يحيط لا بالقاهرة وحدها ، بل بالقلعة أيضاً وبما تبقى من مدينتى القطائع والفسطاط . ومنذ ذلك الوقت بدأت المبانى تقام

على ذلك الفضاء الذى كان يقع بين القلعة وقصر القاهرة ، والذى أخذ على مر الزمن يمتلىء بمبانى القاهرة التى نراها اليوم . وهكذا فإن نمو هذه المدينة يتكون فى الأصل من ثلاث مراحل من الاتساع نحو الشمال الشرقى . وكل من هذه الاتساعات المتعاقبة كان يتبعه بطبيعة الحال تهدم الأحياء والمناطق المهجورة ، وتكتل الأماكن الآهلة بالسكان وانضمام بعضها إلى بعض . ومنذ أيام صلاح الدين الأيوبى اختفى تماما كل ماتبقى من مدينة الفسطاط ، ولم يبق إلا تلك القرية المتفرقة التى نراها على مقربة من موقع الفسطاط الأصلى ، وتسمى « مصر العتيقة » ، وتعرف عند الأوربيين بهذا الاسم ، وهى ذلك الجزء الذى نستطيع أن نتتبع أثره إذا حاذينا أكوام القمامة الملقاة على جانبى الطريق . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نجد ثمة مدينة جديدة قد أقيمت بين القاهرة والنيل نتيجة لبعض المؤثرات الأوربية . غير أن هذه المدينة الشتوية الجميلة ليس لها أية علاقة على الإطلاق بمدينة العصور الوسطى .

وتاريخ غزو العرب لمصر غامض فى كثير من النواحى ؛ وهذا يرجع إلى أن العرب لم يبدءوا فى تدوين تاريخهم إلا بعد قرنين أو أكثر . وإن ماتركه يوحنا أسقف نقيوس — الذى يكاد يكون حجتنا المعاصر الوحيد — قد وصل إلينا فى ترجمة كتابه المحرفة . وقد دخل العرب مصر بقيادة عمرو بن العاص فى ديسمبر سنة ٦٣٩ م ، وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين . وكان عددهم لايزيد على أربعة آلاف مقاتل من الأقوياء . وبعد أن حاصر العرب الفرما وبلبيس وقاتلوا الروم فى حى أم دنين — وهى بالقرب من قصر عابدين الحالى — هاجموا مصر أو بابليون . وكانت هذه المدينة الأخيرة امتداداً إلى الشمال أو اتساعا لمنفيس الحاضرة المصرية القديمة التى كانت لاتزال حتى ذلك الوقت ، ولكن فى شكل أطلال بالية . وكانت تبعد عن القاهرة الحالية باثنى عشر ميلا تقريبا ، وقد تم نموها تحت حماية حصن بابليون الرومانى . ومما لامراء فيه أن الروم قد دافعوا عنها دفاعاشديداً حتى أن القائد العربى لم يجد بداً من طلب المدد حتى بلغ جيشه اثنى عشر ألفا قبل أن يتمكن من فتحها .

وقد قسم عمرو بن العاص قواته إلى ثلاث فرق ، وضع الأولى إلى الشمال من

حصن بابليون ، والثانية فى تندونياس (ومن المحتمل أن تكون هذه هى أم دنين التى تتكلم عنها كتاب العرب) ، والثالثة إلى الشمال من هليوبوليس . وقصد بذلك أن يحمل الروم على الخروج من حصونهم فيطبق عليهم القسمان الآخران من المؤخرة . وقد نجحت هذه الخطة ، إذ خرج الروم من حصونهم وأخذوا يهاجمون المسلمين فى هليو بوليس ، حيث أطبقت على مؤخرتهم قوات عمرو ، فاضطروا إلى الفرار إلى النيل وألقوا بأنفسهم فيه . عند ذلك احتل المسلمون تندونياس التى أبيدت حاميتها فى المعركة ، ولم ينج منها إلا ثلثمائة رجل أغلقوا أبواب الحصن من دونهم وهربوا بالقوارب إلى نقيوس ، وقد اقترن استيلاء العرب على تندونياس باستيلائهم على مدينة مصر كلها عدا القلعة التى أحاط بها العرب . ويذكر لنا يوحنا أسقف نقيوس — الذى نعتمد على تاريخه فيما نكتبه عن هذه الناحية — أن العرب لم يلاقوا أية مقاومة إلا حينما حاولوا الاستيلاء على الحصن(١) .

ومهما يكن من شأن مدينة مصر أو تندونياس ، فإنها قد اختفت تماما من عالم التاريخ بمجرد استيلاء العرب عليها . وآخر مانسمعه عنها فى معاهدة الصلح التى أبرمها عمرو بن العاص ، وهاك نصها :

« باسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما صالح عمرو بن العاص أهل مصر ، على أنفسهم ودينهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وأرضهم ومائهم ، لايدخل فى شىء من هذا ولا ينقص ، وأن يسمح لأهل النوبة بأن يقيموا بينهم ، وإن أذعن أهل مصر للصلح فرضت عليهم الجزية خمسين ألفا إذا هبط ماء نهرهم . وكل منهم مسئول عما يأتيه سراقهم من أعمال العنف . ومن لم يدخل فى هذا الصلح أدى ماعلى غيره من الجزية من تلقاء نفسه وتحت مسئوليته . وإذا نقص ماء النيل نقصت الجزية تبعا لهذا النقصان . ومن رضى من الروم والنوبيين بهذا الصلح عومل كغيره من أهل مصر ، ومن أبى وأراد الخروج أمن على نفسه حتى يبلغ مأمنه أو ترك بلادنا . وستجمع الضرائب على أقساط ثلاثة كل ثلث منها على حدة . وعلى عهد الله وعهد

---

(١) انظر كتاب تاريخ مصر فى العصور الوسطى ص ٤ .

ـهد الخليفة أمير المؤمنين ، وعهد المؤمنين .. شهد على ذلك الزبير وولداه
محمد وكتبه وردان »(١) .

ـل المؤرخون العرب هذه المعاهدة — التي يظهر أنها وثيقة لها قيمتها —
ـدينة مصر بعد موقعة هليوبوليس . ولكن لما كانت مصر يقصد بها القطر
ا يقصد بها الحاضرة ، فإن هذه الوثيقة نفسها إنما تثبت أن الفاتح العربي
الكرم والسخاء في معاملته لأهل مصر . فهي لاتذكر شيئاً واضحا
ـع مدينة مصر التي أصبحت تسمى بعدقليل الفسطاط ، على حين أن موقعها
ـف بعد ذلك . إنما التفسير الوحيد الذي يبدوصحيحاً هو أن المدينة المصرية
ـ أهميتها في الضعف كلما أخذت المدينة العربية في النمو ، وأن السكان كانوا
إلى الأماكن القريبة الأكثر رخاء من مدينتهم الأولى . وإن بقاياالأسوار
جنوبي مصر القديمة يمكن أن تمثل جانبا من موقعها ، وإن اختفاء إحدى
ـمرية له — لسوء الحظ — أكثر من سابقة ، فمدينة ممفيس نفسها قد
ـلهم إلا من بعض بقايا الجدران والتماثيل المتهدمة ، ولم ينج من مدينة
معابدها . والسبب في ذلك يرجع إلى أن المصري القديم كان يبني مسكنه
ـب المجفف في الشمس الذي كان معرضا للتلف والتهدم بعد وقت قد يقصر
ـل . أما الأحجار الصلبة فلم تكن تستخدم إلا في بناء مقابر العظماء ومعابد
الخالدين .

ـما يكن من شأن التغيير الذي لحق المدينة التي نحن بصددها ، فإن حصن
مازال قائماً حتى يومنا هذا . ولقد كلف حصار هذا الحصن العرب سبعة
ـتى تمكنوا من الاستيلاء عليه . فموقعة هليوبوليس قد كسبها العرب في آخر
٦٤ م ؛ ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على الحصن قبل شهر إبريل
٦ م . ويرتبط استسلامهذا الحصن بشخصية غامضة هي شخصية المقوقس الذي

نقل المؤلف هذه الشروط عن يوحنا أسقف نقيوس ، ومن أراد الاستزادة فليرجع
كتبه ابن عبد الحكم (كتاب فتوح مصر وأخبارها ــ القاهرة ١٩١٤ ص ٦٤ــ ٦٥) ،
ـى (خطط جـ ١ ص ٢٩٢ ـــ ٢٩٣) — المترجم .

دعاه العرب حاكم مصر(١) . وتذهب الروايات العربية إلى أن المقوقس هو الذي اقترح المعاهدة الآنفة الذكر التي ضمنت للمصريين حرية الدين وأمنتهم على حياتهم . ولما رفض الإمبراطور هرقل البيزنطي هذه المعاهدة تمسك المقوقس بكلمته وأصبح في صف العرب الذين كان لشجاعتهم وحماستهم أثر بالغ في نفسه . ولما عاد الرسل الذين كان قد بعث بهم إلى معسكر المسلمين ، سألهم عن حال المسلمين فأجابوا :

« رأينا قوما الموت أحب إليهم من الرفعة — ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولانهمة ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، لايعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد . وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم » . ومثل هذا الخلق كان جديداً بالنسبة إلى المصريين الذين كانوا قد قاسوا الكثير من فساد الإمبراطورية الرومانية الشرقية . ومهما يكن من شأن الدور الذي قام به المقوقس فيما أطلق عليه خيانة مصر المسيحية ، فما لاشك فيه أن الشعب نفسه قد ساعد الغزاة الفاتحين .

وعلى الرغم من أن المسيحية كانت الديانة الرسمية في مصر منذ أصدر ثيودوسيوس مرسوم سنة ٣٧٩م ، كانت لاتزال هنالك طقوس محلية قديمة على جانب عظيم من القوة . وأهم من هذا كانت لا تزال هناك أيضا نزعة قوية إلى بث روح القومية في الدين والدولة معا . فان حكم البيزنطيين لم يكن مما يرتاح له أهل مصر . أضف إلى ذلك اضطهاد الكنيسة الأرثوذكسية ، فانه لما عقد مجمع سنة ٤٥١ م رمي الأساقفة المصريون الذين دانوا بعقيدة أوتيخا بالإلحاد ، وأصبح الانقسام شيئا لامفر منه . ومن ثم أصبح في مصر منذ ذلك الحين كنيستان : الأولى كنيسة الدولة (مذهب الروم الأرثوذكس) وتؤيدها القسطنطينية ويطلق عليها الكنيسة الملكية ، والثانية الكنيسة القومية ، وقدأطلق عليها فيما بعد اليعقوبية وتعرف عادة بالكنيسة القبطية .

---

(١) راجع البحث الذى نشره الدكتور ا . ج . بتلر أخيراً فى .Proc·Soc Bibl Archeology,1902. فهو يحاول هنا أن يثبت أن المقوقس هذا هو قيرس Cyrus بطريرك لاسكندرية . غير أن هذا الرأى لايجد أى تعضيد من كتاب العرب الذين يوثق بهم .

أما من ناحية الاشتقاق اللغوى ، نجد أن كلمة قبطى « Copt » هى نفس كلمة « مصرى » (١) . والكنيسة القبطية لا تعنى أكثر من الكنيسة المصرية حينما انفصلت على أثر بدعة أوتيخا الدينية . ولم يكن المسيحيون المصريون من حيث كونهم قبطا قبل مجمع نيقية أقل مما كانوا عليه بعده . غير أن تمسكهم بالطبيعة الإلهية التي لم يستطع أن يدركها إلا القليل منهم ، هو الذى جعل منهم كنيسة مستقلة مما أدى إلى وقوع المصائب التى نزلت بهم وتنبيه أذهان المؤرخين إلى استجلاء ذلك الدور الذى يتعلق بتاريخهم . وكان تمسكهم بمذهب نيقية الذى يقول بأن للمسيح طبيعة واحدة ، أن عرضوا أنفسهم للاضطهاد والعزلة ، كما كان سببا فى أنهم لم يساهموا فى تلك الإصلاحات التى أفادت منها الكنائس الأخرى ، بل إنهم ظلوا فى جماعتهم الضئيلة المهملة لا يتغيرون نحوا من خمسة عشر قرنا ، واحتفظوا بنفس التقاليد والطقوس الدينية كما كانوا فى القرن الخامس الميلادى . وكانت كراهتهم الزائدة للملكيين هى التى ألقت بهم فى أحضان المسلمين الغزاة . فقد رأيناهم يعملون بنصيحة بطريقهم الذى كان منفيا ، ويمدون يد المساعدة للعرب منذ اللحظة التى وطئت أقدامهم فيها أرض مصر . وكان ولوعهم فى التخلص من الحكم البيزنطى ، وأهم من هذا نفوذ رؤساء الدين من الملكيين ، الذى جعلهم يؤثرون هذا الرأى على غيره . وبعد أن نجح المقوقس — بمساعدة أحد الرجال الكاثوليك — ولعله قيرس بطريرك الإسكندرية الملكانى — فى أن يحصل من القائد العربى على عهد الصلح الذى يدل على السخاء ، أسدى القبط كل مساعدة إلى المسلمين ، فكانوا يعاونونهم معاونة صادقة فى بناء الجسور ، كما أمدوهم بالمؤن . غير أنهم ما لبثوا أن أدركوا أنهم إنما غيروا سيدا بآخر . بيد أن العربى — على الرغم من نزعته إلى الأنفة والكبرياء وما كان يعتريه بين آن وآخر من نزعة التعصب والاضطهاد ، كان فى استعداده أرق من الحاكم الرومانى بكثير .

ولما وجدت الحامية الرومانية التى حاصرها العرب فى حصن بابليون نفسها

---

(١) وفى اليونانية Aiguptios ، وفى العربية قبط (بالفتح) وقبط (بالضم) ، وفى الإنجليزية Copt .

محرومة من مؤازرة الشعب ، اضطرت إلى التسليم فى ابريل سنة ٦٤١ م . وسرعان ما غزا العرب الدلتا وأرغموا الروم على الانسحاب إلى الإسكندرية التى استسلمت للفزع والرعب وقبلت الشروط السخية التى عرضها عمرو . وكانت الإسكندرية فى ذلك الوقت قد سادتها الانقسامات كما كانت محرومة من القواد الصالحين . وباستسلام هذه الحاضرة الرومانية فى أكتوبر سنة ٦٤١ م ، تم فتح مصر على أيدى العرب ، فلم تعد هنــاك مقاومة تستحق الذكر . وهكذا انتشر المسلمون فى البلاد حتى وصلوا إلى الشلال الأول للنيل وأصبحت مصر ولاية تابعة للخلافة .

وبعد أن عاد عمرو من الاسكندرية أسس مدينة الفسطاط ؛ وذلك لأن ميناء الإسـكندرية العظيم على ساحل البحر الأبيض المتوسط لم يعد صالحا لأن يكون حاضرة للقبائل العربية التى أدت طبيعتها البدوية إلى أن يتسلط عليها شىء غير قليل من الخوف من الإسكندرية وبحرها العميق . هذا إلى أن الإسكندرية كانت معرضة فى وقت فيضان النيــل لأن تصبح فى عزلة عن مركز سيادة العرب فى المدينة . كما أن الخليفة عمر بن الخطاب — الذى لم يكن يحلم فى ذلك الوقت بتأسيس إمبراطورية إسلامية شاسعة الأرجاء — كان مولعا بأن يكون على اتصال دائم بجيشه فى مصر . والواقع أن عمرا نفسه أراد أن يجعل الإسكندرية حاضرة لمصر ، وهم أن يسكنها وقال له « منازل قد كفيناها . » غير أن الخليفة عمر بن الخطاب لما سمع بذلك سأل رسول عمرو : « هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ » قال : « نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل . » عندئذ حول الخليفة وجهه عن الإسكندرية ، إذ كان ينظر إلى البلاد التى تم له فتحها على أنها بمثابة ثـكنات للجيش أكثر مما كان ينظر إليها على أنها مستعمرة . وعلى ذلك أصدر أمره إلى قائده عمرو بن العاص بأن يختار موقعا أكثر توسطا . وقد وجد عمرو هــذا المكان على بعد عشرة أميال شمال أطلال مدينة منفيس حاضرة مصر القديمة فى موقع الفسطاط الذى أقامه أمام حصن بابليون . وكانت هناك قناة تسمى أمنيس تراجانوس كانت قديما تربط بابليون بالبحر الأحمر عند السويس مارة بمدينة بلبيس أو بحيرة التمساح . وقد أعاد عمرو فتح هــذه القناة بعد أن نظفت مما كان بهــا من الأملاح ، حتى إن الضرائب وكذلك القمح ، أصبحت

ترسل إلى بلاد العرب بحرا عن طريق هذه القناة ، وبذلك احتفظت مصر بعلاقاتها الوثيقة مع الخليفة .

ويرجع السبب في تسمية مدينة الفسطاط بهذا الاسم إلى قصة طريفة لا يبعد أن يكون لها نصيب من الصحة . ذلك أن عمرو بن العاص حينما قاد قواته العربية إلى حاضرة مصر القديمة ، أقام فسطاطه حول المكان الذى يقع فيه جامع عمرو بن العاص الآن . وبعد سقوط حصن بابليون سار إلى مدينة الإسكندرية . غير أن الجند عندما ذهبوا ليقوضوا فسطاطه وجدوا يمامة قد باضت فى أعلاه ، فقال عمرو : « لقد تحرمت بجوارنا » ، وأمرهم بأن يقروا الفسطاط حتى يطير فراخها . ولما فتح عمرو الإسكندرية ، أخذ الجند يختطون منازلهم حول فسطاطه الذى خلفه قبل مسيره إلى الإسكندرية . وهكذا أصبحت أولى المدن العربية فى مصر ، الفسطاط أو مصر الفسطاط أو مصر . وكان الفضاء الذى يمتد بين النيل وجبل المقطم — حيث تقوم الآن القلعة على مكان بارز من الجبل — فضاء خاليا فى ذلك الوقت . فلم يكن هنالك « غير فضاء ومزارع » ، كما لم يكن هناك من المبانى سوى بعض الكنائس وحصن بابليون الرومانى ، أو باب اليون الذى يسميه العرب حتى اليوم « قصر الشمع » ، « وكان هذا القصر — كما يقول المقريزى — « يوقد عليه الشمع فى رأس كل شهر » ، وبذلك يستخدم كتقويم شهرى . غير أنه من المحتمل — كما يرى الدكتور بتلر — أن يكون هذا الاسم تحريف اسم آخر هو قصر مصر ، وأن قصة الشمعة قد اخترعت لتفسير ذلك الرأى (١) .

---

(١) لعل مما يؤيد رأى الدكتور بتلر ما ذكره بوكوك من أن قصر الشمعة كان يعرف فى وقته كذلك باسم قصر كيمان على أنه ليس من المؤيد أن قصر الشمعة هذا يمثل الجزء الاساسى فى بابليون . فقد كان هناك بناء رومانى آخر على إحدى التلال الصخرية ، كان النيل قد اكتسحه يقع جنوب شرقي قصر الشمعة . وهذا البناء — كما ذكر كتاب العرب الذين نقل عنهم المقريزى — هو مدينة مصر أو بابليون التى حاصرها عمرو بن العاص ، والتى كانت تحتوى على حصن يسمى قصر بابليون . ولا يبعد أن تكون أطلال هذا القصر هى التى ورد ذكرها فى « إسطبل عنتر » التى لايزال أساسها العظيم باقيا الى اليوم . انظر ما كتبه « لين » فى كتابه « القاهرة منذ خمسين سنة » ص ١٤٦ . وقد شوهدت آثار الأسوار بجانب قاع النيل جنوبى مصر العتيقة ، ومن المحتمل أن يكون هناك شواهد أثرية عن مدينة مصر الإسلامية القديمة التى لازالت معالمها =

وأما لماذا لم يحتل عمرو بن العاص مدينة مصر القديمة ، فهذا مما لا نعرف عنه شيئا . فكل ما كان له علاقة بتلك المدينة التي اندثرت لغز من الألغاز . ففي البلاد الأخرى التي فتحها العرب ، لم يترددوا عن الاستيلاء على الأقدم تاريخاً مثل دمشق والرهاء . أما في مصر فإنهم آثروا أن يستولوا على أراض جديدة . وربما كانت مصر صغيرة جدا أو من الممكن أن يكون الخليفة قد حرم عليهم أن يستحوذوا على الممتلكات وأن يستقروا في الريف ، مما دفع العرب إلى أن يحتلوا ذلك الفضاء الممتد بين بابليون وتلال المقطم . ومما لا شك فيه أن المكان الذي نزل فيه العرب أولا كان أشبه بمعسكر وقتي أكثر منه بمدينة بالمعنى الصحيح . فقد احتاجوا مساحة واسعة لكي يفصلوا القبائل المختلفة التي تألف منها الجيش العربي ، والتي كانت برغم الإخاء الذي ينادي به الإسلام عرضة لإثارة أحقادهم القديمة . وكان الموقع الذي اختاروه واسعا فسيحا لا يكاد يعوقه شيء . وكانت تلك البقعة تعرف بالحمراوات الثلاثة (١) — الحمراء الغربية ، والحمراء الوسطى ، والحمراء القصوى . من الواضح أن هذه التسمية ترجع إلى اللواء الأحمر الذي أقيم في الوسط .

وقد قسمت القبائل العربية هذه الحمراوات الثلاث فيما بينها ، واختطت منازلها فيها ، مبتدئة من حصن بابليون إلى حيث نرى جامع ابن طولون الآن . وفي وسط الفسطاط اختط عمرو بن العاص داره ، وبنى بجواره أول مسجد أقيم في مصر وهو جامع الفتح ، وتاج الجوامع كما أطلق عليه العرب من قبيل المباهاة والفخر . غير أنه لم يلبث أن أطلق عليه اسم الجامع العتيق ، ويسمى الآن جامع عمرو . وكان هذا الجامع أولا عبارة عن غرفة مسطحة مستطيلة جدا طولها نحو ٢٠٠ قدما

= باقية والتي يحيط بها سوران . وليس من المستحيل — على ما يظهر — أن تكون مصر هذه هي امتداد لمنفيس الحاضرة القديمة التي اختفت معالمها وأن المسافة التي بين أطلال منفيس الحالية وحصن بابليون تربو طبعا على عشرة أميال . غير أنه يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن منفيس كانت في وقت من الأوقات على شكل دائرة يبلغ محيطها سبعه عشر ميلا ، وأنها امتدت حتى بلغت مدينة الجيزة .

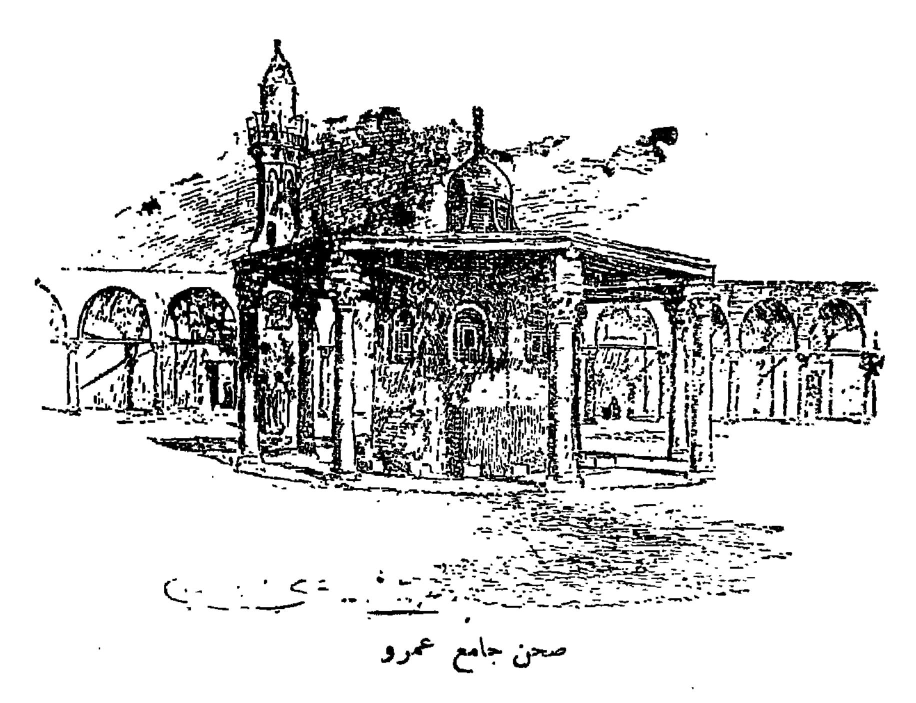
(١) عرفت الحمراء فيما بعد بخط قناطر السباع (القائمة على النهر) نسبة إلى الاسود المنقوشة عليه ، وهي السبع سقايات ، يشير بذلك إلى السقايات السبع التي كانت ترفع ماء النيل إلى القناطر القائمة على أعمدة لتوصيل ماء الشرب — المقريزي : كتاب الخطط في ج١ ص ٣٨٦ . المترجم .

وعرضها ٥٦ قدما ، وقد بنى من الأحجار الصلبة الملساء . وكان سقفه منخفضا جدا أقيم على عدة أعمدة وتتخلله بعض الثقوب لدخول الضوء . ولم تكن هناك للمسجد مئذنة أو مقصورة للصلاة . كذلك لم يكن هناك زينة أو أفاريز فى الخارج ، وحتى المنبر الذى اتخذه عمرو قد أزيل حين كتب إليه الخليفة يوبخه :

« أما بحسبك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس عند عقبيك ؟ » . وكان من واجب الفاتح أن يؤم الناس فى الصلاة ويلقى خطبة الجمعة فى ذلك المكان المتواضع الذى لم يلبث أن أصبح صغيرا جدا بالنسبة لأهل الفسطاط الذين أخذ يزداد عددهم مما أدى إلى زيادته فى سنة ٦٧٣م بأن ضم إليه جزء من دار عمرو . وفى الوقت نفسه أقيمت فيه بضعة أعمدة فى الأركان — وهذه هى نواة المآذن — ليؤذن المؤذنون من فوقها . وبعد خمس وعشرين سنة هدم أحد أمراء مصر هذا المسجد عن آخره وأعاد بناءه بعد أن وسعه . وكان من أثر الإصلاحات الكثيرة وتجديد المبانى ، أنه لم يبق هناك الآن قدم واحدة من البناء الأصلي . أما ما نراه اليوم فهو فى الواقع ذلك المسجد الذى أعاد بناءه عبد الله بن طاهر فى سنة ٧٢٧ م ، ثم أصلحه مراد بك فى سنة ١٧٩٨ م قبل أن يشتبك مع الفرنسيين فى معركة الأهرام فى إمبابة . وقد أصبحت مساحة الجامع اليوم أربعة أمثال مساحته الأصلية ، كما أنه يختلف عنه فى كل ناحية من النواحى (١) .

والجامع العتيق — كما يسميه المقريزي — كان محل احترام المسلمين قديماً . ففى هذا الجامع كان القاضى يجلس ليحكم بين الناس ، وكان يجتمع فى صحنه كثير من العلماء ، كما كان أيضاً المكان الذى يجتمع فيه السنيون ، فى الوقت الذى انقسم فيه المسلمون على أنفسهم . ولما احترقت مدينة الفسطاط فى سنة ١١٦٨ م ، نجا هذا الجامع برغم الأضرار الكثيرة التى لحقت به ، «جدده صلاح الدين الأيوبى (سنة ٥٦٨هـ) وأعاد صدر الجامع والمحراب الكبير ورخمه» . غير أن الناس لم يلبثوا أن غيروا نظرتهم إلى هذا الجامع حين وجدوا أنه قد أصبح تابعاً لبلدة أحرقت فأصبحت أطلالا دارسة . كما انفضت الاجتماعات التى كانت تعقد فيه من قبل . وهكذا حلت بجامع عمرو أيام السوء . وقد وجد ابن سعيد الرحالة المغربى الذى عاش فى القرن

(١) انظر المقالة الرائعة التى كتبها مستر . ك . كورييت عن «تاريخ جامع عمرو فى مصر القديمة» فى المجلة الأسيوية الملكية بإنجلترا سنة ١٨٣١ .



صحن جامع عمرو

الثالث عشر هذا البناء العظيم وقد غطاه العنكبوت ، وجدرانه التى علاها عبث العامة والمتعطلين ، وقد نثروا على أرضه ماخلفوه من فضلات الطعام . فى ذلك الوقت كان هناك عدد قليل من الأتقياء الحقيقيين ، على حين كان فيه عدد أكبر من العابثين . قال الجبرتى المؤرخ الذى عاش فى القرن الثالث عشر : إنه كان هناك كثير من الموسيقيين وقواد القردة والشعوذين والحواة والراقصات ممن كانوا يترددون على صحن الجامع . وقد تداعت أبنية الجامع وآلت للسقوط ، حتى إن هؤلاء الناس قد هجروه . ولولا أن مراد بك كان قلقا على حياته لأسباب معقولة جداً وأرضى ضميره بإنفاق بعض الأموال التى حصل عليها بطرق غير مشروعة على أعمال البر نحو إعادة بناء هذا الجامع ، لزال « تاج الجوامع » نهائيا . وفى مستهل القرن التاسع عشر ، كان هذا الجامع لايزال الجامع الذى يفضله أهالى القاهرة لإقامة صلاة الجمعة الأخيرة أو اليتيمة من شهر رمضان . وكانوا يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى يتقبل صلاة من يصلى فى هذا الجامع العتيق . فاذا تأخر فيضان النيل ، وخشى الناس هبوط مائه، وما يعقبه من القحط وندرة الأقوات ، صدرت الأوامر إلى كبار المشايخ والأئمة

وأهل الورع والعلم من المسلمين بأن يذهبوا إلى جامع عمرو ويصلوا صلاة الاستسقاء من أجل زيادة ماء النيل . كذلك كان يعقد قساوسة الكنائس المسيحية المختلفة اجتماعات لهذا الغرض ، ويشاركهم اليهود فى ذلك . وهكذا كان جامع عمرو المكان الذى يقدسه المسلمون والمسيحيون واليهود على السواء التماساً للمطر . ويقيمون فيه الصلوات العامة فى الوقت الذى حل القحط بالبلاد منذ عشرين سنة (١٨٢٥ — ١٨٢٨ م) ، وكان من أثر ذلك أن نزل المطر فى اليوم التالى (١) .

إن الناظر لأقدم هذه المساجد من الخارج ليتأثر كثيراً : ففى وسط أكوام القمامة التى تميز موقع مدينة الفسطاط ، نشاهد جدرانه المرتفعة الرمادية اللون التى لاأثر للنوافذ ولاللزينة فيها ، كذلك نميز بوضوح مئذنتيه اللتين هما غاية فى البساطة . أما من الداخل فانه يختلف كثيراً برغم مالحقه من التهدم والإهمال . هنا نجد فناء مساحته أربعون ألف قدم مربع تقريبا ، تحيط به البواكى والأعمدة الكثيرة التى تكون دعائم سقف الطرف الشرقى ، وهو المكان المخصص للصلاة . وهنالك نشاهد منظراً غاية فى الروعة والبهاء . ويزدحم المسجد بالمتعبدين الذين يؤدون صلاتهم فى انحناء منظم ، فيضفون على المكان جواً من الهيبة والجلال . أما الحنايا فيرجع تاريخها إلى عصور مختلفة ، وأما الأعمدة التى انتزعت من الكنائس فقد وضعت فى غير مواضعها فى أغلب الأحيان . والأروقة غير متوازية مع الجدران كالصوامع التى تحيط بالكنيسة ، ولكنها مقامة على شكل زوايا قائمة في صحن الجامع . والقطع الخشبية الطويلة تمتد من عمود إلى عمود لتحمل المصابيح التى كان يضاء منها ثمانية عشر ألف مصباح كل ليلة فى الأزمان السالفة . ونستطيع أن نتصور ذلك الضوء الساطع الذى كان يترامى أمام المسجد . غير أن ليالى الوقود قد ذهبت منذ أمد بعيد، وأصبح جامع الفاتح حطاما باليا ، يوحى إلى الخيال بما كان يتردد عليه من طوائف العلماء والصالحين والمتعصبين ورجال الدين والفقهاء والصوفية الذين كانوا يحنون هاماتهم أمام قبلته التى هجرها الناس فيما بعد (٢) .

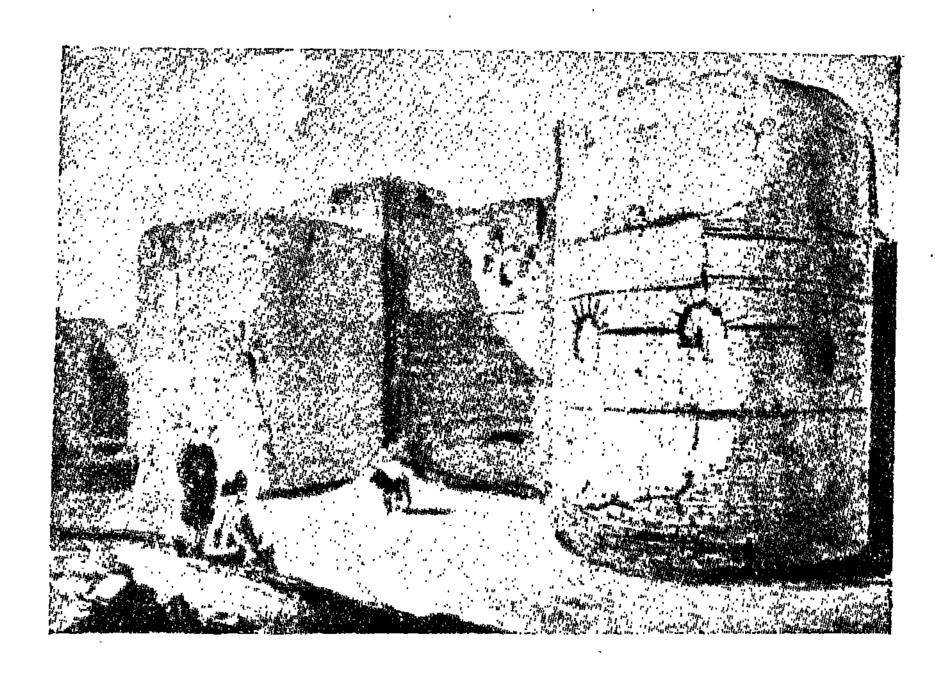
---

(١) أنظر كتاب لين : (القاهرة منذ خمسين سنة ص ١٤٢ — ١٤٣) .

(٢) حذفنا من كلام المؤلف بعد هذا الكلام عبارة لا تمت إلى التاريخ الصحيح بصلة ، وإنما هى من قبل الخرافات التى تجرى على ألسنة العوام . المترجم .

إن ذلك الجامع الأصلي الذى بناه الفاتح العربى قد امحى منذ أمد بعيد . غير أن ذلك الجامع الذى يمثله اليوم يقوم على نفس موقعه المبارك . وفى الوقت نفسه لا نستطيع أن نذكر عن مدينة الفسطاط التى شيدها عمرو مثلما ذكرنا عن جامع عمرو . فكل ما تبقى من تلك المدينه العظيمة — التى كانت حاضرة مصر ومرفأها النهرى خمسة قرون — قد اختفى تحت تلك الأكداس المتراكمة على غير انتظام من التلال الرملية التى تغطى ماخلفته تلك المدينة التى يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى . هنالك ، حينما تهب ريح عاصفه تثير الرمال ، تستطيع فى أغلب الأحيان أن تلتقط بطريق الصدفة بعض قطع من الزجاج أو الفخار أو المصابيح الرومانية ، والنقود والصور والنقوش التى تدون أسماء ولاة القرن الثامن الميلادى ، وما إلى ذلك من بقايا الأشياء التى كانت فى مدينة الفسطاط . أما المنازل وقصور الأمراء والحمامات والمدارس التى كانت فى الفسطاط فلا أثر لها البتة . ومن المؤكد أن مخازن غلال يوسف يرجع تاريخها على الأقل إلى عهد يوسف الأخير وهو صلاح الدين ؛ فقد رأى بنيامين التيوديلى هذه المخازن فى سنة ١١٧٠ م . ولكن مصر العتيقة أوالقاهرة القديمة قد بنيت على أرض كان يغطيها النيل فى الوقت الذى كانت فيه الفسطاط حاضرة مصر . أماماتبقى فخراب بلقع لا أثر للحياة فيه . وسوف نلقى نظرات سريعة على تاريخ القاهرة القديمة فى الأبواب التالية ، ونقرأ وصفها فيما كتبه الرحالة من الفرس والمغاربة أى من الغرب والشرق الإسلاميين . غير أن مثل هذا الوصف لا يمكننا من أن ندرك إدراكا كاملا المدينة العربية التى ذهبت معالمها الآن .

ومهما يكن من شىء فإنه قد تبقى هناك حتى الآن أثر يرجع تاريخه إلى الفتح العربى ، غير أنه ليس عربيا على أى حال . ذلك هو حصن بابليون الذى يقوم الآن حيث كان يشرف فيما مضى على خيام المسلمين ، ويشرف على الحاضرة العربية وهى تنمو تحت أسواره . ولكى نفهم سبب تسمية حصن بابليون بهذا الاسم — أو كما يسميه البعض باب لى أون أو باب أون ، يجب علينا أن نذهب إلى المطرية على بعد بضعة أميال شمالى القاهرة ، حيث تقوم مسلة منعزلة هى كل ماتبقى من مدينة أون On أو مدينة هليوبوليس (مدينة الشمس) . وهناك فى منبسط المطرية حارب الأتراك أمام هذه المسلة المنعزلة فى المعركة الأخيرة التى انتهت باستيلائهم على القاهرة



باب قصر الشمع

من أيدى المماليك فى سنة ١٥١٧ م وهنا أيضاً انتصر كليبر على الأتراك فى سنة ١٨٠٠ ؛ هنالك يقوم بعد أون On الذى كان يوتيفيراه — حمو يوسف — يعمل فيه كاهنا . هنالك أيضاً كان بيا شى — ملك الكهنة الأثيوبيين فى القرن الثامن قبل الميلاد — يستحم فى عين شمس ، ويقدم الثيران البيض واللبن والعطور والبخور والأخشاب العطرة المختلفة ، وحيث رأى عند دخوله المعبد أباه رع Ra (إله الشمس) فى المحراب . وكانت هليوبوليس جامعة أقدم حضارات العالم ، وقد سبقت جميع المدارس فى أوربا . ويغلب على الظن أن موسى كان يتلقى حكمة المصريين على أيدى كهنة رع . وهنالك عمل هيرودوت على نقض هذه التعاليم نفسها ، وأحرز شيئاً من النجاح فى هذه السبيل . وهنالك أيضاً أتى أفلاطون لتلقى تعاليمه ، كما ذهب العالم الرياضى يودوكس ليدرس الفلك ، كما شهد استرابون Strabo المنازل التى عاش فيها مشاهير اليونان .

وفى ذلك المركز العالمى ومصدر النفوذ الديني ، لم يبق من آثاره سوى تلك المسلة .

فلقد تـكسرت « صور بيت شمس » وضاع أثرها ، واحترقت « منازل آلهة المصريين »(١) .

وبجانب تلك المسلة المنعزلة الآنفة الذكر نشاهد شجرة جميز عتيقة جفت بفعل الزمن ، وشوهتها الأسماء التى لاعد لها ، هذه الشجرة هى التى استراحت تحتها العائلة المقدسة(٢) حينما هربت إلى مصر ، ومن هنا سميت شجرة العذراء . وعلى مقربة من هذه الشجرة نبع ماء عذب ، وهو بلاشك منظر غريب في تلك الضاحية المقفرة . ويقال إن ماءه قد أصبح عذبا لأن الطفل(٣) قد استحم فيه . ومن هذه البقع حيث تساقطت قطرات الماء من قماطه الذى غسل فى ذلك النبع المقدس ، نمت أشجار البلسم التى لم تنم ــ كما يعتقد البعض ــ فى أى مكان آخر . وليس هنـالك من شاهـد يدل على صحة هذه الأوهام التى هى أشبه ما تـكون بالخرافات . أما شجرة الجميز فقد خلفت بطبيعة الحال تلك الشجرة المزعومة ، وهى لم تزرع إلا بعد سنة ١٦٧٢ م . غير أن مايقال من أن أونياس اليهودى بنى معبداً ليتعبد فيه مواطنوه بالقرب من ذلك المـكان ، وأنه استحضر بعض المزارعين من اليهود ليتعهدوا نمو شجر البلسم ، يكسب هذه القصة شيئاً من الصحة .

لقد اندثرت هليوبوليس ، ولـكن حصنها المنيع « باب أون » الذى يحرسها مازال يتحدى الزمن ، والواقع أن اسم بابليون مصر الذى يستعمل للدلالة على الحاضرة (الفسطاط) وعلى الحصن ، يظهر كثيراً في تاريخ العصور الوسطى وأقاصيصها . مثال ذلك تلك القصة التى تصور لنا كيف انتصر ريتشارد قلب الأسد على صلاح الدين الأيوبى .

وسواء أ كان هناك أساس لما رواه كل من استرابون وديودورس ، من أن ذلك الحصن بناه أول الأمر بعض المنفيين من بابليون العظيمة فى بلاد كلديا ، فإن الحصن الحالى يرجع تاريخه إلى القرن الثالث ــ ولايبعد أنه يرجع إلى القرن الثانى من الميلاد . والواقع أن منظر الحصن من الخارج يضفى على النفس كثيراً من العظمة

(١) أرميا : إصحاح ٤٣ آية ١٣ (العهد القديم) . المترجم .
(٢) عائلة السيد المسيح .
(٣) السيد المسيح حينما كان طفلا فى ذلك الوقت . المترجم .

برغم تصدع جدرانه ، وتغطية الرمال قواعدها . غير أن منظره العام لم يطرأ عليه تغيير كبير ، إذ نستطيع أن نميز بوضوح طاباته الخمس وبرجيه المستديرين . أما الجدران فقد بنيت على الطريقة الرومانية التى كانت شائعة فى ذلك الوقت : خمس مداميك من الأحجار وثلاث من الطوب على التبادل . أما الأساس فلا يبعد أن يكون قد طلى باللونين الأحمر والأصفر كما كان الحال فى المساجد والدور الإسلامية . وحتى مظهر هذا البناء الضخم يجعل الإنسان يدرك فى سهولة ما كان لاستيلاء العرب عليه من أهمية .

وإذا دخلنا الحصن ، نستطيع أن نلمس لأول وهلة الطابع الخاص الذى يطبع به هذا الحصن . ذلك أننا نمر خلال ممرات معتمة أضيق وأظلم وأقذر من الأزقة التى تقع وراء مدينة القاهرة . هنالك يسود السكون الرهيب الذى يخيم على المكان بأ كمله . والمنازل المرتفعة التى تحجب الشارع ليس فيها الكثير من زخارف المشربيات التى تزين شوارع القاهرة . ولولا بعض الأصوات التى تصدر بين الفينة والفينة من داخل تلك المنازل ، وبعض الأبواب التى تترك نصف مغلقة ، لما خطر لنا على بال أن كان هنالك أى لون من ألوان الحياة فى ذلك الحصن . ومما يميز تلك المنازل كذلك صغر حجم نوافذها ذات القضبان الحديدية المتشابكة . وليس هناك حقا مايدل على أن تلك الجدران المنبسطة تحوى بين طياتها ست كنائس فخمة لكل منها هيكلها الخاص الحافل بالنقوش والصور والملابس الكهنوتية وغيرها من الأشياء التى ليس لها مثيل . والواقع أن الكنيسة القبطية تشبه الحريم عند المسلمين ـ فهى من الخارج غيرها من الداخل . فكما أن منظر معظم المنازل فى القاهرة لايدل على أى شىء مما تحويه من فناء واسع فى الداخل ، تحيط به غرف فسيحة نقشت على جدرانها أبدع الرسوم وأروعها ، وأسقف ليست بأقل بهجة ولا روعة . هذا فضلا عما تحويه من الطنافس الفاخرة التى تتلألأ من وراء ذلك الضوء القليل الذى ينعكس من وراء النوافذ ذات الزجاج الملون ـ كذلك الحال فى الكنائس القبطية حيث لايمكنك أن تتكهن وأنت فى الخارج بما تحويه هذه الكنائس فى الداخل . فإن الأسوار العالية تخفى كل ماتحويه هذه المبانى . والواقع أن القبط يخجلون فى العادة من الزائرين . وليس أدل على هذا من تلك الجدران

المرتفعة المحيطة بالكنائس من الخارج ، والتى لاتحوى أى نقوش ليتخلصوا بها من تلك الملاحظات التى كانت تثير فيما مضى الشراهة والتعصب الدينى .

وبعد أن نمر من الباب المتين ونعبر أحد الدهاليز أو نرتقى بعض الدرجات ، نجد أنفسنا أمام كنيسة فخمة ، لها محراب قد تحسدها عليه أية كنيسة فى انجلترا . وفى ذلك الضوء الضئيل نشاهد صفوفا من تماثيل رائعة للقديسين تطل عليك من فوق المحراب والستائر ، كما نجد بعض العبارات منقوشة بالذهب باللغتين القبطية والعربية مشيدة بتمجيد الله سبحانه وتعالى ، على حين نجد فى أعلى المكان حنايا فى إحدى حافتى الكنيسة ، تبين لنا أنه لايبعد أن تكون ثمة كنوز أخرى فنية سوف يكشف عنها فى المستقبل .

ولعل أهم ما تصطبغ به الكنيسة القبطية بوجه عام هو أنها من طراز بناء الكنيسة البازيليكية الشهيرة فى روما ، غير أن هناك بطبيعة الحال بعض أوجه الخلاف التى جعلت الكنيسة القبطية تخرج فى بعض الأحيان عن هذا الطراز ، والقبة القبطية تتميز بالطابع البيزنطى الذى يكاد يكون شائع الاستعمال فى العالم . وفى بعض الأحيان قد نجد كنيسة مسقوفة بعدد من القباب يصل إلى اثنتى عشرة قبة . وتتكون الكنيسة من صحن وأجنحة جانبية وبعض الحنايا (التى تشبه تماماً أقواس الكنيسة الإيرلندية القديمة والتى لم تكن لتوجد فى غيرها) . ومن النادر أن يكون لهذه الكنيسة أجنحة أو أنها تقرب من شكل الصليب . وفى مؤخرة الكنيسة مكان خاص تجلس فيه السيدات اللاتى خلف الرجل كما يرى أهل الرأى من القبط ، ويحولون بذلك دون حدوث أى اضطراب فى أثناء العبادة والصلوات فى حالة جلوس الجنسين بعضهما مع بعض كما يحدث فى بعض الكنائس الغربية ؛ ولذلك يفصل قسم النساء عن قسم الرجال حاجز ذو عوارض خشبية يكون عادة أعرض بكثير وأحسن زخرفة وتنميقاً ، كما يفصل قسم الرجال عن المرتلين فاصل آخر .

والكنيسة تحوى ثلاثة هياكل مختلفة ومنفصلة ، كل منها تعلوه قبة (ليست على شكل نصف دائرة) خاصة به . وبداخل كل هيكل أنفس الستائر محلاة بصلبان من العاج والأبنوس والأشكال الهندسية المنقوشة على الطراز العربى على

الخشب فى براعة ودقة ، تعلوها صور وعبارات منقوشة بالذهب باللغتين القبطية والعربية (١) .

وفى أثناء إقامة الصلاة تفتح الأبواب الداخلية والستارة الموشاة بالفضة ، فيبدو المذبح للمجتمعين المتعبدين فى صورة تذكرنا بالاحتفال الذى يثير العواطف كما يقام فى كاتدرائية القديس إسحاق بمدينة بطرسبرج . فالأبواب المنقوشة والستائر المزركشة والمصابيح المدلاة هنا وهناك والمشكاوات التى تشبه بيض النعام — كل هذا يعطينا صورة للمذبح ، بغطائه الحريرى أكثر من كونه مكعبا من الطوب أو الجبس ، وتلك المشكاة التى لا تقدر بثمن قد وضعت فى الجهة الشرقية ، وكان لها دلالة غامضة فى غابر الأيام ، أما الآن فإنها تستخدم لوضع الصليب فيها وحوله أوراق الورد عند الاحتفال بيوم الجمعة الحزينة (٢) تمهيداً للاحتفال بعيد القيامة ، والمذبح فى الكنائس القبطية منعزل عن جدران الهيكل التى تكون فى الغالب مغطاة بألواح رقيقة من الرخام الملون كما نرى فى المساجد . وقد تكون الجدران فى بعض الأحيان مغطاة بالزجاج الملون على الطراز المصرى . أما السقف فقد رسمت عليه صور بارزة على الخشب ، وأخرى بالألوان المائية تمثل الاثنى عشر رسولا وفى وسطهم السيد المسيح وهو يبارك الناس . ومن فوق المذبح رواق رسمت عليه صور الملائكة رسما رائعا . ويفصل الهيكل الرئيسى والمذبح التابع له عن الهيكلين الجانبيين ستائر مصنوعة من الخشب الرقيع المشبك .

---

(١) انظر كتاب الدكتور بتلر : الكنائس القبطية القديمة فى مصر ج١ ص ٦٨ — ٦٩ . وقد أمدنا لأول مرة ببحث مبنى على دراسة علمية دقيقة عن هذه الآثار . والدكتور بتلر وأبحاثه ليست بحاجة إلى تنائى لزيادة قيمتها ، ولكنى لا أستطيع أن أفوت هذه الفرصة دون أن أقول كيف يجب أن يدين كل من يهتم بالفن المصرى لأبحاثه الرائعة التى تدل على مقدار ما أنفقه من جهد فى استقصاء الآثار القبطية . ويعد كتابه أعظم ما نملكه من المصادر عن هذا الموضوع الذى يأخذ بمشاعر القلوب ، والذى يرجع الفضل إليه فيما أفدته من معلومات .

(٢) يوم الجمعة الحزينة هو اليوم الذى يحزن فيه الأقباط على صلب اليهود للسيد المسيح ، وهو اليوم الذى يسبق وقفة عيد القيامة — المترجم .

ومن الأشياء الغريبة فى الهيكل ، ذلك الصندوق الذى يحمل كأس التناول المصنوع من الفضة الخالصة ، وإن تلك المروحة التى تستخدم لطرد الهوام أثناء العشاء الربانى لاتقل مطلقا عما تقدم فى إثارة اهتمام الناظر ، وقد نقشت من الفضة الخالصة بحيث يبرز النقش على السطح المقابل . وهنالك مراوح مماثلة فى كتاب كيلا Kela الإيرلندى . وليس هناك إطلاقا صليب يظهر عليه المسيح مصلوبا . وقد نجد فى بعض الهيا كل بقايا عظام أحد القديسين ، ولكن الكنيسة القبطية لا تحرم مثل هذه البقايا ، على الرغم من أن معظم الكنائس تحوى الكثير منها ، وهناك كثير من المؤمنين يعلقون أهمية عظيمة على ما فى هذه البقايا من خواص تساعد على الشفاء ، وقد يكون أبدع ما نراه فى الزخارف المعدنية فى الكنيسة القبطية ذلك الصندوق الفضى الذى بداخله نسخة من الإنجيل يظن أنها ختمت بالشمع ، مع أنه ليس بداخله غير بعض أوراق الشجر ، وهو فى الغالب مثل جميل للنقوش المعدنية التى تمثل الصيد فيبرز النقش على السطح المقابل . وهذا الصندوق يؤتى به من على المذبح حيث يتسلمه أحد الشمامسة ويضعه على المقرأ ثم يقرأ من إنجيل آخر هناك . والمقرأ نفسه شىء بديع أعد ليكون أداة من أدوات الزينة ، وذلك المقرأ الذى كان فى الكنيسة المعلقة — والذى نراه الآن فى كنيسة الأقباط الكبرى فى القاهرة — مغطى بنقوش بديعة تشبه تلك النقوش التى نرها على أبواب المساجد ومنابرها .

ومن بين الكنائس الست التى كان يشتمل عليها حصن بابليون ، نرى ثلاثا فى غاية الروعة والبهاء . ذلك أنه على الرغم من أن كنيسة سان جورج الإغريقية التى تقوم على قمة البرج المستدير محلاة بالقرميد السورى والمصابيح المصنوعة من الفضة . فإن البرج الرومانى نفسه أكثر إمتاعا من الكنيسة المقامة عليه ، وذلك للبئر التى فى الوسط ، والدرجات الكثيرة ، والحجرات الغريبة المتلاصقة . ومن هذه الكنائس القبطية الأساسية الثلاث ، نجد كنيسة القديس سرجيوس أو « أبى سرجه » ، وهى التى يتردد عليها الناس أكثر من غيرها ، لأنه قد أثر أن العائلة المقدسة استراحت فى ناووسها حينما أتت إلى مصر . ومن المؤكد أن هذا الناووس أقدم من الكنيسة التى تعلوه بقرون كثيرة ، إذ يرجع تاريخها إلى القرن العاشر الميلادى . والكنيسة نفسها تتميز بستارة بديعة الصنع ، وعلى مقربة منها مثل واضح للنقوش القبطية

القديمة التى تمثل ولادة المسيح والقديسين المحاربين وقد بدت صورهم بارزة . وثمة مثل آخر لهذه الصورة المحفورة نراه فى كنيسة القديسة برباره .

وإلى جانب كنيسة أبى سرجة وكنيسة القديسة برباره ، لا تزال هناك كنيسة قبطية ثالثة جديرة بالذكر لا تقل عن هاتين الكنيستين روعة وبهاء . وهذه الكنيسة معلقة بين برجين رومانيين مرتفعين ، فوق باب من الطراز القديم منقوش عليه نسر . وقد سميت هذه الكنيسة — كما يدل على ذلك موقعها — الكنيسة المعلقة . وهذه الكنيسة جديرة بالملاحظة وتثير الانتباه لعدة أسباب ، لأنها أقدم كنائس بابليون على الإطلاق ، ولأنها خالية تماما من القباب . ولهذه الكنيسة مزايا أخرى . فليس لها هيكل كغيرها من الكنائس ، بل هنالك منصة مرتفعة أمام السقف المنخفض فى الجهة الشرقية . وهذه المنصة تؤدى الغرض الذى يؤديه الهيكل ، على حين نرى السقف مضاعفاً فى الجانب الشمالى ، والحاجز المنقوش فى الجانب الشمالى مطعم بالزخارف المصنوعة من العاج الرقيق مما يزيد فى بهجة المكان وجماله حينما كانت تضاء المصابيح المعلقة خلفه . أما المنبر فقد نقش نقشاً بديعاً رائعاً ، وهو مقام على خمسة عشر عموداً دقيقا صنعت على الطراز الإسلامى ، مقسمة إلى سبعة أزواج أقيم أحدها فى المقدمة . ولعل من أغرب ما تحويه الكنيسة المعلقة ، حديقتها المعلقة حيث ساعدت الخبرة على غرس النخيل فى الفضاء على تأييد تلك الرواية القائلة بأن السيدة العذراء حينما أتت إلى مصر أفطرت بعد صيامها من تمر ذلك النخيل .

وليس هذا مجال الكلام عن طقوس الكنيسة القبطية وعقائدها . إن صيام الأقباط الكبير الذى يستغرق خمسة وخمسين يوما ، والذى يمتنع فيه الشخص امتناعا تاما عن الطعام منذ شروق الشمس حتى غروبها فى كل من هذه الأيام — هذا الصيام لا شك أنه يوحى إلينا بصوم رمضان الأقل شدة عند المسلمين — وسر الزواج المقدس (١) يحمل بين طياته بعض العناصر الغريبة . غير أنه مما لا شك

---

(١) للكنيسة القبطية سبعة أسرار ، وهى أعمال مقدسة ومنح إلهية مؤسسة من الله لتكون واسطة لنيل المؤمنين فيض نعمته . وهذه الأسرار السبعة هى : ١ — سر المعمودية ٢ — سر الميرون ٣ — سر القربان ٤ — سر الاعتراف ٥ — سر مسحة المرضى ٦ — سر الزواج ٨ — سر الكهنوت — المترجم .

فيه أن معظم الاحتفالات التى تتم فى الكنيسة القبطية لها وقارها وهيبتها . فما من أحد يستطيع أن يشهد القداس فى كنيسة قبطية دون أن يثير ذلك انتباهه . وكذلك لايستطيع أحد ألا يتحرك لسماع أصوات الشمامسة وهم يترنمون فى الكنيسة القبطية فى صوت واحد مرتفع . ومهما يكن من شىء ، فلاينبغى أن ننكر ما تدين به الكنيسة القبطية من إيمان قويم .

الباب الثالث

القطائع

ولاة الخلفاء ــ حلوان ــ معاملة المسيحيين ــ الرهبنة ــ الأقباط المحافظون ــ « العسكر » المدينة العباسية ــ ولاة العباسيين : ابن ممدود ــ عبدالله بن طاهر ــ الخليفة المأمون فى مصر ــ اضطهاد المسلمين والقبط ــ ولاة الأتراك ــ تشجيعهم الفن ــ أحمد بن طولون ــ « القطائع » المدينة الجديدة ــ السقاية ــ جامع ابن طولون ــ مصادر العمارة العربية ــ حروب أحمد بن طولون ــ قصور خمارويه ــ الخلفاء يستردون مصر ــ قلعة الكبش :

أصبحت مصر بعد الفتح العربى سنة ٦٤٠ م ولاية تابعه للخلافة الإسلامية ، ومن ثم أصبح يحكمها ــ كما كانت سائر الولايات الأخرى ــ ولاة من قبل الخليفة . وقد احتفظ الخلفاء الأربعة بالمدينة المنورة التى اتخذها الرسول مقرا للحكومة العربية حاضرة للخلافة . غير أنه بعد مقتل على بن أبى طالب ، رابع الخلفاء الراشدين ، حولت الدولة الأموية مقر الحكم إلى دمشق التى جاء منها معظم الولاة الثلاثين الذين حكموا الديار المصرية فى أثناء التسعين سنة التى تولت فيها الخلافة الأموية الحكم . وكان بعض هؤلاء الولاة أولاد أو أخوات الخلفاء الذين كانوا يتولون الحكم فى ذلك الوقت . كما أن معظمهم كانوا من المقربين إلى أولئك الخلفاء . ولم تكن لهم خبرة فى أساليب الحكم وإدارة شئون البلاد ، كما كانوا يجهلون كل شىء سوى دينهم ولغتهم . وكانت غاية الخليفة فى دمشق أن يحصل على أكبر قدر ممكن من خراج الولايات التابعة له . وكانت مصر بوجه خاص ينظر إليها فى ذلك الوقت على أنها بقرة حلوب. وكان عمرو بن العاص الفاتح العربى أول من حكم مصر . ولما استقر فى حاضرته الجديدة « الفسطاط » أرسل نوابه فى أنحاء البلاد فتمكنوا من جمع مايقرب من ستة ملايين جنيه من شعب يتراوح عدده بين ستة ملايين وثمانية ملايين نسمة . ولما توفى

هذا المحارب القديم فى التسعين من عمره ودفن فى تلال المقطم ، قيل إنه ترك سبعين كيسا من الدنانير(١)، أو مايقرب من عشرة أطنان من الذهب . غير أن أولاده الذين اشتهروا بالاستقامة اعتذروا عن أخذ نصيبهم من الميراث .

ومهما يكن من شىء ، فإن من المؤكد أن الولاة كانوا يولون وجوههم شطر الضرائب بنوع خاص ، وأنهم لم يهتموا بشئون البلاد بقدر ما كانوا يهتمون بتحصيل الجزية وضريبة الأراضى . وكانوا يجمعون هذه الضرائب وينظرون إليها كما لو كانت ملكا يتصرفون فيه كما شاءوا. وليس من شك فى أن الوالى الذى كان متوسط مدة ولايته ثلاث سنين ونصف سنة ، والذى كانت معيشته بعد ذلك تعتمد فى العادة على ما ادخره فى خلال فترة حكمه — إذا عرفنا ذلك أدركنا أنه إنما وقع تحت إغراء شديد يدفعه إلى الاستفادة من هـذه الفرص القصيرة بقدر مايستطيع . وكان من بين هؤلاء الولاة الصالح وغير الصالح . غير أن قصر عهد الولاة واعتمادهم اعتمادا مطلقا على الخليفة فى دمشق قد حدّ من نفوذهم ونشاطهم ؛ ومن ثم قنعوا بالعمل على حفظ النظام وإرسال الجزية إلى خليفتهم . بيد أن منصب الوالى لم يكن سهلا ميسورا ؛ فقد كان هناك آلاف من جند العرب فى الفسطاط والإسكندرية وسائر المدن المصرية . غير أن الولاة المتعاقبين كانوا يجلبون معهم جنوداً يحلون بهذه البلاد . أما بقية السكان فكانوا من المسيحيين الذين عقدوا العزم على أن يظلوا على دينهم. والواقع أن تغيير المسيحيين لدينهم على نطاق واسع كان بمثابة نكبة تحل على الخزينة ، لأن ذلك معناه ضياع جزية مقدارها جنيه عن كل شخص من أهل الذمة . غير أن تلك الأقلية كان لها خطرها ، بدليل أن أحد الولاة الذى ولى مصر بعد الفتح بنحو تسعين سنة ، قد يئس من إدماج عدد يذكر من المواطنين المصريين إلى صفوف المسلمين ، فلجأ إلى استدعاء خمسة آلاف من العرب وإسكانهم فى الوجه البحرى . والواقع أن مصر لم تصبح إسلامية إلا بخطوات وئيدة ، وبعد اندماجهم فى أهالى البلاد الأصليين بالمصاهرة والزيادة المطردة فى العرب النازحين إلى مصر عن طريق الهجرة . وقد اقتصر نزول العرب على المدن الكبيرة دون سواها ردحا طويلا من الزمن .

---

(١) الدينار : عملة ذهبية يعادل وزنها نصف جنيه من الذهب .

ولابد أن تكون الفسطاط نفسها قد اجتذبت عددا كبيرا جدا من القبط من المدن المصرية المجاورة التى بدأت تندثر . ولم يكن هؤلاء القبط من النساء اللاتى اتخذهن الفاتحون العرب زوجات لهم وحسب، بل ومن الرجال الذين عملوا فى خدمة الحكومة . وكان طبعيا أن تكون جميع الأعمال الحكومية فى أيدى المحكومين من الشعب . ولم يكن عرب الصحراء ليعرفوا شيئا عن نظام الحكم أكثر مما كانوا يعرفونه عن النظام القبلى الذى درجوا عليه — ذلك النظام الذى يقضي بأن تكون السن والفضائل أساس اختيار شيخ القبيلة ، ومن ثم نراهم يطبقون أينما حلوا تلك النظم التى وجدوها فى البلاد التى خضعت لسطانهم . وكانت الوظائف الرومية تنقل إلى ما يقابلها من الوظائف العربية . وكان القبط — الذين ولدوا ليصبحوا كتابا وصيارفه — يتولون إدارة الدواوين جميعا . وقدظلت الكتب الحكومية والوثائق العامة تدون باللغة القبطية نصف قرن ؛ غير أن المنفعة لا تستلزم التسامح ، ومن ثم لم يسلم المسيحيون دائما من الاضطهاد على الرغم من الخدمات التى كانوا يؤدونها للحكومة . ومهما يكن من أمر هذا الاضطهاد ، فانهم لم يعاملوا معاملة أسوأ من تلك المعاملة التى يتوهمها البعض أحيانا . ولقد ساعد القبط عمرو بن العاص حينما كان يغزو مصر ، ولذلك نجد عمرا يذكر لهم هذا الجميل فيمنح اليعاقبة امتيازات ويرد بطريقهم من منفاه إلى كرسيه ، كما سمح وال آخر للقبط بأن يبنوا كنيسة لهم فى مدينة الفسطاط بجوار الجسر الذى كان يصل بين الحاضرة وجزيرة الروضة(١) .

كذلك نجد واليا ثالثا هو عبد العزيز ابن الخليفة الأموى مروان بن الحكم ، يشترى أحد الأديرة فى طمويه من الرهبان ويدفع لهم أكثر من عشرة آلاف جنيه ثمناً له حين أراد أن يمتلك داراً فى الريف . ولقد ذهب هناك للاستشفاء من الجذام من الينابيع الكبريتية فى حلوان التى تقع بين القاهرة ومنف . ومن عجب أن ندرك كيف أن هذه المدينة الصحية (وقد تحولت الآن نحو الصحراء) كادت تصبح حاضرة مصر . وقد بلغ من إعجاب عبد العزيز بجو حلوان أنه بنى هناك مساجد

---

(١) يقصد مسلمة بن مخلد (٥٣ — ٦٢ هـ) الذى أقر القبط على بناء الكنائس مع منافاة ذلك لشروط الصلح . المترجم .

فى سنة ٦٩٥ م ، كما بنى قصرا يعرف « ببيت الذهب » نسبة إلى قبته الذهبية . كما أنشأ فى هذه المدينة حديقة غناء، وغرس الأشجار، وأنشأ بها بركة كبيرة وقناطر(١) وبنى مقياسا للنيل .

وكان حد النيل الأدنى إلى ذلك الوقت يقاس فى مدينة منف . غير أنه فى سنة ٧١٦م شيد مقياس جديد للنيل فى جزيرة الروضة ، ثم بنى بعد ذلك مقياس آخر فى طرف الجزيرة الأعلى فى سنة ٨٦١ م . على أن الولاة المتعاقبين لم يشاركوا عبد العزيز ابن مروان فى آرائه الخاصة من حيث مباهج حلوان أو من حيث علاقته بالقبط . ومن ثم نقرأ عن ذلك النظام الذى أدخله العرب وآثار غضب القبط فيما يتعلق بجوازات السفر والشارات التى تميز الرهبان والغرامات وألوان التعذيب وتحطيم الصور المقدسة ، مما أثار مثل ذلك السخط ، حتى إن الناس أذكوا الثورات . وقد وجدنا أن ملك بلاد النوبة المسيحى سار إلى مصر ليطلب إطلاق سراح أحد البطارقة الذى زج به فى غياهب السجن .

ولم تكن هذه الاضطهادات من جانب المسلمين على أى حال أكثر من اضطهاد المسيحيين لليهود فى ذلك الوقت . غير أن هذا لا يبرر ما كان يقوم به المسلمون . ويظهر أن الرهبان هم الذين أثاروا تعصب المسلمين الأولين ، حيث لم تجد تعاليمهم الرهبانية قبولا لدى هؤلاء المسلمين . ولقد حدث فيما بعد أن الخلفاء الشيعيين فى القاهرة عاملوا رهبان القبط معاملة تنطوى على العطف والرعاية ؛ غير أن الحال لم يكن كذلك فى عهد الفتوح العربية . ولقد كانت الرهبنة فى مصر قوة لا يستهان بها منذ أقدم العصور . ففى القرن الثالث حدث أن انتشر أتباع القديس مرقص واستقروا فى جماعات مختلفة فى كافة أرجاء الدلتا ، وأخذوا يكونون ما يعرف « بالحكم المصرى » . ولا نعرف إلى أى حد نحن مدينون لأولئك النساك الأقدمين ، فيعتقد البعض أن المسيحية الإيرلندية التى تعتبر العامل الحضارى العظيم فى العصور

---

(١) ساق عبد العزيز الماء إلى البركة عن طريق قناطر معلقة تصل العيون القريبة من المقطم بالبركة، وقد أخذ العرب عن الرومان هذا النوع من القناطر التى كانت منتشرة فى بلاد الدولة الرومانية فى القرن الثانى الميلادى — المترجم .

الوسطى الأولى بين الأمم الشمالية ، هى التى تمخضت عنها الكنيسة القبطية . فهناك سبعة من الرهبان دفنوا فى Disert Ulidh . وهناك كثير من الحفلات وأساليب العمارة فى إيرلندة القديمة ، مما يذكر الإنسان ببقايا المسيحية فى العصور الأولى فى مصر . وكل منا يعلم أن الحرف التى كان يقوم بها الرهبان الإيرلنديون فى القرنين التاسع والعاشر ، كانت تفوق إلى حد بعيد ما عساه يوجد فى أى مكان آخر فى أوربا فى ذلك الوقت . وإذا كانت نقوشهم البيزنطية الرائعة على الذهب والفضة والمسابيح ترجع إلى تعاليم المبشرين المصريين ، فإن من العدل أن نشكر القبط شكراً لاحد له . ومما هو معروف فى تاريخ الفن أن العرب فى بنائهم يدينون للقبط بكثير من مباهج هذا الفن .

ومثل هذه الاعتبارات لم تكن لتستطيع بطبيعة الحال أن تؤثر فى أناس كالعرب انعدمت لديهم الروح الفنية تماما . فهم كانوا ينظرون إلى الرهبان الأقباط على أنهم مرشحون للوظائف الكتابية وحاملو أسرار جديرة بالحصول عليها لصالح المؤمن . أما الزمالة أو الصداقة فلم يكن لهما أى اعتبار . والحقيقة التى تقول بأن الاضطهاد لم يتخذ صيغة عامة ودائمة ، يجب أن تعزى إلى تكاسل بعض أفراد من الحكام أو إلى طبيعتهم المتسامحة . كذلك تعزى إلى ذلك المثل الحكيم الذى يحرم ذبح الأوزة التى تضع بيضاً من الذهب . ونقرأ بين حين وآخر عن مذابح تنطوى على القسوة ، وعن ألوان التعذيب وتخريب الكنائس القبطية ، ثم لا تلبث أن نسمع عن إذن ببناء إحدى الكنائس أو إعادة بنائها . كذلك نجد القبط يجتمعون فى هدوء فى حصن بابليون الذى كانوا يحتلونه دائما لانتخاب بطريق لهم . وفى الوقت نفسه تظهر بعض العبارات التهكمية والصور الساخرة والتماثيل التى تمثل الشيطان معلقة جميعها على أبواب القبط . وكم كان يحدث من وقت إلى آخر ثورة أو مشاجرة فى الطرق تتمخض دائما عن مذبحة مروعة يتبعها تخريب كثير من الكنائس وسقوطها.

ولكن على الرغم من كل ذلك الاضطهاد ، ومن مروق ضعاف الرهبان من دينهم ، لاتزال الكنيسة تحتفظ بوجودها الذى يكتنفه الكثير من الصعاب . والواقع أن ثبات تلك الطبقة الجاهلة — لأن رجال الدين من القبط لم يكن لهم فى ذلك

الوقت حظ من التعليم — على ما كان عليه الأقدمون من إيمان وعقيدة ، مما ينم عن الكثير من صفات البطولة والشهامة . فقد احتفظوا بطقوسهم واحتفالاتهم الدينية كما كان يقوم بها آباؤهم من قبل ، ولو أن جدران كنائسهم الباقية الكثيرة الثقوب ، وأبوابها الضخمة المتينة ، وممراتها السرية — كل هذا يشهد بما كانت تتعرض له تلك الاحتفالات من أخطار . وكان كثير من هذه الكنائس يصل إلى درجة كبيرة من الغنى ، كما تدل على ذلك النقوش الرائعة . ولعل ذلك راجع إلى أن أصحابها لم يستطيعوا أن يستغنوا عن فن الكتابة والحساب الذى درجوا عليه . ولقد كان لاختصاص القبط فى هذا الفن واحتكارهم إياه وتمسكهم بعقيدتهم القديمة أنهم لم يتغيروا حتى اليوم على الرغم من مرور القرون والأجيال ، بل لقد بقوا محتفظين بشخصيتهم وتقاليدهم الخاصة رغم مالحق بهم من ألوان الاضطهاد . فالقبط ما زالوا حتى اليوم شعبا منعزلا ، أقل امتزاجا بالدم الأجنبى من سائر سكان وادى النيل . فملامحهم تذكرنا بملامح قدماء المصريين التى نراها على آثارهم ، وهى فى هذا أقرب من ملامح الأهالى من المسلمين . وليست الناحية الجسمية وحدها هى التى تبين لنا أن القبط هم خلفاء قدماء المصريين ، بل إن اللغة أيضا تدلنا على ذلك . فلهجتهم — كما نسمعها اليوم فى طقوسهم واحتفالاتهم الدينية فى الكنائس — ترجع فى أصلها إلى اللغة الهيروغليفية وإلى حجر رشيد . وهم بطبيعة الحال يستعملون اللغة العربية فى حياتهم اليومية . غير أن الكلمات المقدسة فى دينهم لا تزال مفهومة بعض الشىء لدى رجال الدين ، كما أنها تحتفظ فى الوقت نفسه بمكانتها وجلالها بجانب الترجمة العربية إذا ما استخدمت فى أغراض الكنيسة . ومما يدل على جمودهم أنهم يحتفظون بتلك اللغة القديمة ، لا من حيث النصوص التى تتعلق بها — وهى عبارة عن الكتابة على شكل رسوم — بل من حيث هذا الضرب من الحروف الكبيرة البارزة التي نراها فى المخطوطات الإغريقيه القديمة . وإن شعبا من سلالة الفراعنة يتكلم بلغة رمسيس ويكتبها بحروف كادموس ، ثم يستخدمها بعد ذلك فى عقائده وطقوسه الدينية التى لم يستطع اثنا عشر قرنا من الاضطهاد أن يغير منها شيئاً — إن شعبا كهذا لهو فى الحق أعجوبة من أعاجيب التاريخ .

ولقد جاء العباسيون بعد أسلافهم الأمويين سنة ٧٥٠ م . وكانت مدينة الفسطاط فى ذلك الوقت مسرحا لذلك الصراع الأخير . فلقد هرب مروان آخر خلفاء الدولة التى قدر لها الزوال إلى مصر حيث أشعل النار فى طريقه إلى الفسطاط وإلى الجسر الذى كان يصلها بجزيرة الروضة . وبعد ذلك فر إلى الشاطىء الغربى للنيل . غير أن التدابير التى اتخذها قد ذهبت أدراج الرياح . ذلك أن القائد العباسى وجند خراسان سرعان ما وجدوا الوسائل لعبور النيل . وكان طواف المدن برأس مروان دلالة على زوال عهد وقيام عهد جديد . ونحن نعرف أن المغتصبين يمقتون أشد المقت أن يقيموا فى دور من غلبوهم على أمرهم . وهكذا تحول الخلفاء العباسيون عن دمشق وبنوا لأنفسهم حاضرة ذائعة الصيت فى بغداد . أما ولاتهم فى مصر فقد صرفوا نظرهم عن بيت الإمارة فى الفسطاط ، وأسسوا ضاحية رسمية جديدة كقصر فرساى بالنسبة إلى باريس ، فى المكان الذى عسكر فيه الجند ، وأطلقوا عليها « العسكر » . وكان موقع هذه المدينة فى الناحية الشمالية الشرقية من الفسطاط تقريبا على جزء من الحمراء القصوى التى كانت قد احتلتها ثلاث من القبائل إبان الفتح العربى ثم هجرتها فاستحالت إلى صحراء . فى ذلك المكان تكونت ضاحية جديدة تمت على مر الزمن وغدت تمتد من الفسطاط إلى جبل يشكر حيث يقوم جامع ابن طولون الآن . وسرعان ما بنى هناك مسجد وقصر للوالى وثكنات لجيوشه . ولم تلبث تلك الضاحية الجديدة أن امتلأت بالشوارع والميادين ، كما أحاطت القصور الكبيرة بهذه المدينة الجميلة التى اتخذها الخمسة والستون واليا الذين كانوا يمثلون الخلفاء العباسيين مركزا لحكومتهم مدة مائة وثمانى عشرة سنة . ولقد بنى أحد هؤلاء الولاة لنفسه فى سنة ٨١٠ م قصرا صيفيا أطلق عليه « قبة الهواء » على طرف المقطم حيث بنيت قلعة القاهرة . وإلى ذلك المكان كان يختلف ولاة مصر من حين إلى حين لينعموا بالنسيم العليل ؛ غير أن تلك الضاحية الجديدة لم تكن سوى حى للموظفين ودور للقضاء ، وهى فى الوقت نفسه لم تقلل من أهمية الفسطاط باعتبارها حاضرة مصر .

غير أن تلك الضاحية الجديدة لم يتبق منها أى أثر ، بل إن سجل الولاة الذين

عاشوا هناك قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الزوال (١) ، وكان عمل هؤلاء الولاة أصعب من عمل أسلافهم الذين حكموا مصر تحت ظل الخلفاء الأمويين ، كما كان عليهم أن يقضوا على الخلافات التى قامت بين المسلمين ، والثورات التى اشتعلت بين القبائل العربية والقبط . ولقد شهدت مدينة الفسطاط هذه الثورات التي أطاحت برءوس آلاف الثائرين ، كما أن شجاعة الخارجين كان ينتابها الوهن حين كانوا يرون بأعينهم رءوس زعمائهم وقد رفعت فى جامع عمرو بن العاص . والواقع أن تاريخ هذه الفترة بين سنتى ٧٥٠ و ٨٦٠ م عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الفتن والثورات والإلحاد والانشقاقات والمؤامرات السرية والعقائد المتطرفة . غير أن هذه الاضطرابات قلما أثرت فى تلك الحاضرة الغنية . وكان ثراء بعض الولاة أكثر إثارة لسخط المدنيين الآمنين ، فلقد كان أبو صالح بن ممدود فى سنة ٧٧٩ م شديدا نوعا ما ، فأظهر نشاطا عظيما فى القضاء على اللصوصية وقطع الطريق فى الريف . وقد بلغ من رضائه عما اتخذه من إجراءات أن اكتفى بإقناع نفسه بعدم استحالة وقوع السرقات فى المدن ، وأدى به اقتناعه بهذا الاعتقاد إلى أنه أمر أهل الفسطاط بغلق أبواب منازلهم وحوانيتهم فى الليل ، وألا يتخذوا أية وسيلة من وسائل حمايتها أكثر من وضع شرائح القصب لتمنع الكلاب من دخول الأبواب . كما منع حراس الحمامات من الجلوس فيها وقال : من ضاع له شيء فعلى أداؤه . فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول: يا أبا صالح احفظها(٢) .

وهكذا لم يكن أحد ليجرؤ على الاقتراب من تلك الملابس . وبطبيعة الحال فمثل هذا الأمن كان يستلزم الكثير من السهر واليقظة من جانب ذلك الوالى . غير أن ما سنه من القوانين الغاشمة عن الملابس وتدخله فى شئون الناس قد أثار سخط الأهلين حتى لقد كانت قسوته أبعد أثرا من المساوىء التى قضت عليها .

---

(١) للوقوف على سنى حكم ولاة مصر راجع كتاب تاريخ مصر فى العصور الوسطى للمؤلف ص ١٨ — ٥٨ .

(٢) انظر كتاب الولاة وكتاب القضاة لأبى عمر الكندى ص ١٢٢ . المترجم .

وهناك قصة رويت عن الخليفة المشهور هارون الرشيد ، وإن لم تكن من القصص التى تجلب له الاحترام والتبجيل من ناحية الذين رشحوه للخلافة . ذلك أن أحد ولاة زمانه ويدعى موسى [بن عيسى] (١) العباسى كانت له خبرة واسعة بأعمال الحكم ، كما أحسن إلى القبط وسمح لهم ببناء ما تهدم من كنائسهم . وقد بلغ الرشيد أنه يريد الخروج عليه [ولا يبعد أن يخلفه إذا كان أحد أفراد بيته] فصاح : « والله لا عزلته إلا بأخس من على بابى » فنظر فإذا عمر [بن مهران] كاتب [الخيزران] أم الرشيد . . . يركب بغلا . . . فخرج إليه جعفر [بن يحيى البرمكى] وقال : أتتولى مصر ؟ قال : نعم ! فسار إليها ، فدخلها وخلفه غلام على بغل للثقل ، فقصد دار موسى [فى مدينة العسكر] فجلس فى أخريات الناس . فلما انفض المجلس قال له موسى [وكان لا يعرفه] : ألك حاجة ؟ فرمى إليه بالكتاب ، فلما قرأه قال : لعن الله فرعون حيث قال : (أليس لى ملك مصر) ؟ ثم سلم إليه ملك مصر ، فمهدها عمر المذكور ، ورجع إلى بغداد وهو على حاله (٢) » .

هذا من جهة . ومن جهة أخرى نجد فى بعض الأحيان ولاة أكفاء يبعث بهم من بغداد أحياناً . ومن أمثال هؤلاء عبد الله بن طاهر والى خراسان شمالى بلاد فارس (حيث أسس دولة فيما بعد) وكان عمله فى مصر ينحصر فى طرد جموع غفيرة ممن لجئوا إلى مصر من أسبانيا ، وكانوا قد استولوا على الإسكندرية حيث ساعدتهم إحدى القبائل العربية المتحمسة فى الخروج على الحكومة . غير أن عبدالله بن طاهر اضطر فى أثناء اضطلاعه بهذا العمل إلى القبض على سلفه [عبيد الله ابن السرى] الذى أبى أن ينزل له عن الولاية . وكان من أثر ذلك أن حوصرت الفسطاط براً وبحراً فى سنة ٨٢٦ م . وقد حدث أن جاء إلى معسكر عبد الله بن طاهر فى إحدى

---

(١) ولى مصر ثلاث مرات : الأولى سنة ١٧١ — ١٧٢ هـ ، والثانية سنة ١٧٥ — ١٨٦ هـ ، والثالثة سنة ١٧٩ — ١٨٠ هـ . المترجم .

(٢) راجع كتاب النجوم الزاهرة لأبى المحاسن (جـ٢ ص ٧٨ — ٧٩) حيث وردت هذه العبارة عند كلامه على ولاية موسى بن عيسى الثانية . المترجم .

الليالى ألف عبد وألف جارية يحمل كل منهم ألف دينار فى كيس . غير أن عبدالله أبى أن يقبل هذه الرشوة ، وأرغم حامية الحصن على الخروج من المدينة بعدأن مات أكثرهم من شدة الجوع . ولكن عبد الله بن طاهر عاد إلى فارس لسوء الحظ بعد أن انتهت مهمته ، وفقدت مصرمثالا نادراً للحاكم العادلالرحيم ، كما كان عالماً محباً للشعر معضداً للشعراء .

ومما يؤثر عن حكم عبد الله بن طاهر « العبدلاوى » ذلك النوع من الشمام الذى أدخله عبد الله لأول مرة فى مصر ، والذي تذوقه الأوربيون فى أى فندق من فنادق القاهرة .

ولقد حدث فيما بعد أن جاء الخليفة المأمون بن هارون الرشيد بنفسهإلىمدينة العسكر فى سنة ٨٣٢ م لإخماد تلك الثورة الجامحة التى أذكى نارها القبط فى الوجه البحرى وقد اشتهر المأمون بتشجيع العلم والفلسفة . فقد أتم القضاء على الثورة بإحكام ومن غير شفقة ، حتى إنه لم تقم بينهم حركة قومية فيما بعد من هذا القبيل . وقد دان بالإسلام كثير من القبط . واستقر العرب فى الأراضى والقرى بدلا من المدنالكبيرة وبذلك أصبحت مصر آخر الأمر بلداً إسلامية . وكانت تلكهى المرة الأولىالتى يزور فيها النيل خليفة عباسى ، ومن ثم وجدنا الشعراء يتسابقون إلى مدحه مديحاً عاطراً غير أن المأمون حين شاهد هذا المنظر من « قبة الهواء » تملكه الاستياء وقال ما قاله موسى بن عيسى والى مصر الأسبق : « لعن الله فرعون حيث قال (أليس لى ملك مصر) ؟ » (١) .

غير أن زيارة الخليفة المأمون لمصر ، وإن كانت قد أخمدت ثورات القبط فإنها أثارت متاعب أخرى جاءت نتيجة لها . فلقد كان من أثر شغفه بالتفكير فى الله وفيما وراء الطبيعة — ذلك التفكير الذى أدى إلى تشجيع دراسة الفلسفة اليونانية فى بغداد — أنه دان بالعقيدة التى تقول بخلق القرآن والتى تعارض رأى المسلمين من أهل السنة معارضة صريحة ، وكان هذا المذهب الجديد البغيض بمثابة امتحان

---

(١) قرآن كريم . سورة الزخرف ، آية ٥١ .

القضاة . كما أن كل من حدثته نفسه بمعارضة هذا الرأى كان يلقى كثيراً من ألوان العنت والإرهاق ، ولقد حدث أن عارض أحد قضاة القضاة فى الفسطاط هذا المذهب فنزعت لحيته وطيف به فى طرقات المدينة وضرب بالسياط وهو على حمار ، كما أن أساتذة مدارس المذهبين الحنفي والشافعى قد طردوا شر طردة من جامع عمرو ابن العاص . هذا من جهة . ومن جهة أخرى كان هذا العار أقل ما لحق بإنسان ؛ لأن القضاة كانوا فى ذلك الوقت يمثلون فريقا لا يستهان به من موظفى الحكومة المصرية . ذلك أنهم كانوا يعرفون بالاستقامة والنزاهة بصفة عامة . كما أن قاضى القضاة كان مستقلا تمام الاستقلال عن سلطة الوالى ، وكان بمثابة وزير العدل فى مصر فى ذلك الوقت . يفسر الشريعة ويشرف على تطبيقها . ولم يكن يتردد فى اعتزال منصبه إذا لم تقبل أحكامه . ومهما يكن من شىء ، فإنه لم يكن مستعداً لأن يكبح جماح تعصب بنى جلدته وقد تبع القضاء على ثورة المسيحيين اضطهاد لم يسبق له مثيل . وبعد وفاة الخليفة المأمون أخذ عداء أهل السنة يظهر من جديد ، وجاء الخليفة المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) فأصدر عدداً من القوانين التافهة بقصد إذلال القبط (٨٥٠ م) : « فأمر (سنة ٢٣٥ هـ) أهل الذمة بلبس الطيالسة العسلية وشد الزنانير ، وركوب السروج بالركب الخشبية . . . وعمل رقعتين على لباس رجالهم . . . وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب (أو نسانيس أو كلاب) ، ومنعهم من لبس المناطق ونهى أن يظهروا فى شعانينهم صليبا وأن لا يشعلوا فى الطريق ناراً » (١) . وكان الغرض من هذا بطبيعة الحال تهيئة الفرصة لاغتصاب الأموال وفرض الغرامات على كل من تحدثه نفسه بمخالفة لوائحه .

ولسنا فى حاجة إلى أن نسهب فى الكلام عن فترة الحكم العربى فى مدينتى الفسطاط والعسكر . فإن الولاة من العرب لم يخلفوا من ورائهم إلا أثراً ضئيلا . ومع أنه مما يؤسف له أنه لم يبق أمامنا اليوم مثل واحد من أبنيتهم — مما كان يكون حلقة من حلقات الفن الإسلامى — فلا بد أنه كان لتلك المبانى قيمة عظيمة . والواقع أن العرب لم يبتكروا فى الفن شيئا . وما يعرف فى أسبانيا « بالفن العربى » يرجع فى

---

(١) المقريزى : كتاب الخطط ج ١ ص ٤٩٤ .

أصله إلى أجناس أخرى أكثر رقيا من العرب ، كذلك فى مصر فإننا لا نجد أى أثر للفن الأسلامى إلا حينما أخذ الخلفاء يقلدون مصر ولاة من الأتراك .وفى الوقت الحاضر نسمع الكثير عن سوء حكم الأتراك . ولكن فليكن هذا الحكم طيبا أو سيئا ، فإن أحدا لا يستطيع أن ينكر أن التركى يستطيع أن يحكم . ذلك أنه فى العصور الوسطى كان يبدو أن الأتراك هم الشعب الوحيد الذى كان يمتلك أساليب الحكم . وليس أدل على هذا من أن أعظم حكام آسيا فى القرن الحادى عشر الميلادى هو ملكشاه السلجوقى وكان تركيا . كذلك كل ما نطلق عليهم مغول الهند من أمثال بابر ، من الأتراك ، وحينما تقسمت أوربا المنازعات والمنافسات كان نفوذ سلاطين الأتراك فى القسطنطينية يمتد من نهر الطونة إلى المحيط الهندى ، ومن القوقاز إلى جبال أطلس وليس أشد عجبا من هذه الحقيقة وهى أنه حينما وجد حكم تركى فى العصور الوسطى ازدهرت الفنون والآداب تبعا لذلك . والواقع أن الفن لم ينتعش فى بلاد كثيرة حتى أتى الاتراك فاستمد وحيه منهم . وليس معنى ذلك أن الأتراك أنفسهم كانت لديهم قدرة فائقة خاصة على الابتكار فى الفن أو الأدب — ذلك أنه من الصعب أن نشير على الأقل من بين الحكام من الأتراك الذين حكموا مصر — مع فترة تقل عن مائتى سنة كان جميع حكامها تقريبا أتراكا فى الأحد عشر قرنا الماضية — إلى عدد كبير كان أهلا لترقية الثقافة . على أن ذلك كان يرجع إلى تلك اليد القوية التى ساعدت على استقرار النظام الذى هو من مستلزمات نشر الثقافة . ثم إن جنودهم كانوا لا يتورعون عن جلب النقود التى كان الحكام فى حاجة إليها لبناء القصور الفخمة التى كانوا يحبون أن تنعكس عليها قوتهم وثراؤهم .

ولا يبعد أن يكون لأولئك الحكام شغف غريزى بالفن ، كما أن معظمهم كانوا مولعين بالبذخ وحب الظهور ، ميالين إلى أن يحيطوا أنفسهم بكل ما هو فاخر ونفيس .

كما أن كثيرين منهم كانوا يعتقدون أن إيقاف المال على أماكن العبادة قد يكفر عن الذنوب التى يرتكبها الفرد فى حياته . وهم فى هذا إنما يذكرون قول النبى صلى الله عليه وسلم «من بنى بيتا لله ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا فى الجنة » ومهما يكن من شأن الأسباب التى دفعت الأتراك إلى هذا كله ، فإن الحقيقة التى سوف تبقى دائما هى أننا نجد

أثرا لنفوذ الأتراك في جميع أنحاء الشرق من البوسفور إلى الكنج . وإلى أتراك دلهى وأجرا يرجع الفضل فيما عرفناه عن قطب منار والتاج والزينات الدقيقة فى فاتبور سكرى . كذلك بنى الأتراك مسجد عطاء الله فى چونپور ، ومساجد أحمد أباد والفور وبيجاپور . كما بنى الاتراك السلاجقة المبانى الفخمة فى قونية وقيسارية وسيواس وغيرها من مدن آسيا الصغرى . أما الأتراك العثمانيون فقد بنوا أضرحة بروسة والمساجد السلطانية . التى تأتى فى الأهمية بعد مسجد القديسة صوفيا في القسطنطينية. ومثل هذا تماما نجده فى مصر . فأول أنموذج للفن الإسلامى الخالص لم يظهر إلا حينما بدأ الأتراك يقبضون على زمام الحكم ، فحتى سنة ٨٥٦ م كان حكام مصر جميعا من العرب ، وباستثناء جامع عمرو بن العاص ، لم يكن هناك ما يتميز بالطابع العربى . أما منذ سنة ٨٥٦ م فإن حكام مصر قد أصبحوا من الأتراك . وبعد عشرين سنة ظهر جامع ابن طولون، أول وأعظم المبانى التى تتميز بطابع الفن العربى فى مصر .

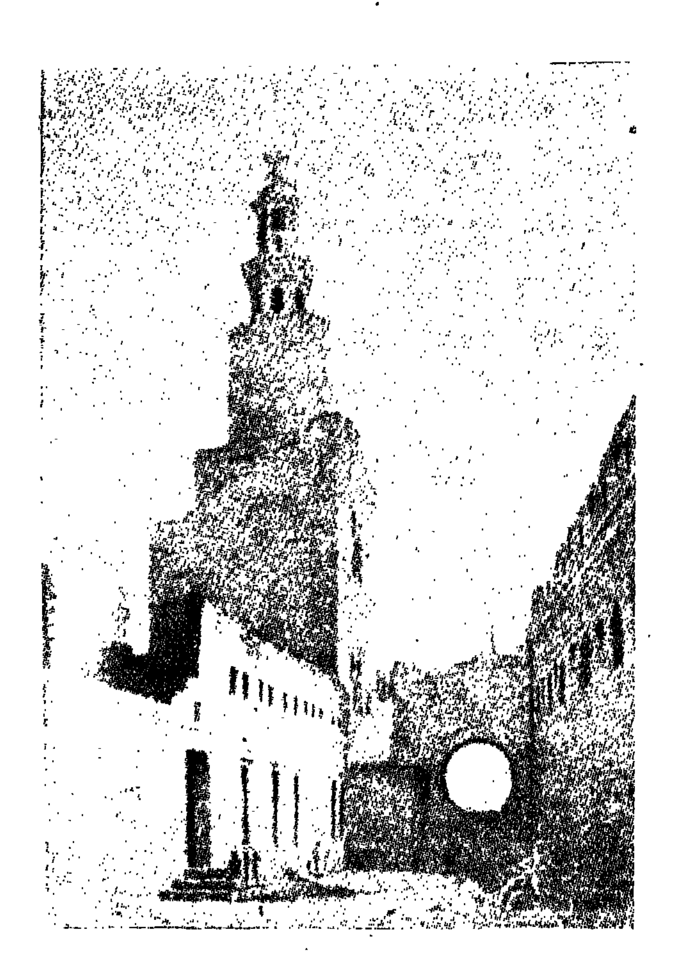
وإذاً أردنا أن نبين كيف آل حكم مصر إلى الأتراك ، فقد يخرج بنا ذلك كثيرا عن نطاق الموضوع الذى نحن بصدده ، وهو تاريخ القاهرة نفسها . ولكن الذى يهمنا أن نعرفه هنا ، أن تلك الحركة — التى ساعدتها سياسة الخلفاء — كانت جزءا من تلك الحركة الكبرى التى قامت بها شعوب أواسط آسيا ، والتى كانت قد بدأت منذ فجر التاريخ . ذلك أن العباسيين قلقوا من ازدياد نفوذ ولاة الأقاليم فى بلاد الفرس . كما أن تلك القبائل العربية الثائرة قد هددت نفوذهم فى بلاد الجزيرة . ومن ثم نجد العباسيين يبعثون فى طلب حرس من المرتزقة الذين كانوا يجلبون من أسواق النخاسة ببلاد ماوراء نهر جيحون ، وأخذ يتملكهم العجب والزهو بحماية هؤلاء الشبان الأقوياء من الأتراك . غير أن هذه المسألة لم تلبث أن تمخضت عن سؤال حائر لم يكن فى الحسبان . وقد أدرك خلفاء بغداد المترفون بعد فوات الفرصة أنهم بشرائهم أولئك العبيد الأشداء قد حكموا على أنفسهم بالاستعباد . وغدا رئيس الحرس ناظر للسراى (١) فى بغداد مع الخلفا المستضعفين . وبدأ الأتراك يشغلون

---

(١) يشير بذلك الى نظار السراى فى أواخر عهد ملوك الميروفنجين . المترجم .

مناصب الدولة ، وعهدوا إلى أصدقائهم بتقلد الولايات الغربية للحصول على إيراد هذه الإقطاعات دون أن يهتموا بمشاغل الحكم . وقد حدث أن كان بعض الأمراء الأتراك يعيشون فى بغداد أو فى غيرها من بلاد الجزيرة ويحتفظون بهذه الإقطاعية ويحصلون على مايفيض من خراج مصر عن طريق نوابهم من العرب . غير أنه فى سنة ٨٥٦م أصبح النائب صاحب الإقطاع من الأتراك / وفى سنة ٨٦٨م أرسل بابك صاحب إقطاع مصر أحمد بن طولون زوج ابنته ليحكم مصر نيابة عنه .

كان أحمد بن طولون فى الثالثة والثلاثين من عمره حين وصل إلى الفسطاط . وقد جمع بدرجة رائعة بين الكفاية الحربية والإدارية التى امتاز بها أبناء جلدته ، إلى جانب الثقافة الإسلامية التى كانوا حديثى عهد بها. وقد تلقى علومه على علماء بغداد ، بل سافر إلى طرسوس حيث تلقى العلم على بعض علمائها . وتعمق فى دراسة اللغة العربية والعقائد الإسلامية . وكان إلى جانب ذلك ذا نشاط لا يحد ، صادق الفراسة ، كما عرف كيف يختار مرءوسيه ويستغلهم لمصلحة دولته . وكان عادلا شجاعا جوادا. وكان شعاره : « من مد يده إليك فأعطه » ، وكانت صدقاته على أهل المسكنة والستر متواترة ، وكان راتبه لذلك ألف دينار فى كل شهر . وقد جاء مصر مفلسا إلا مما اقترضه من أحد أصدقائه ، ولكنه خلف عند وفاته عشرة ملايين دينار فى بيت المال ، سوى عدد عظيم من مماليكه وخيوله ومائة سفينة حربية . ومع ذلك فإنه أتم هذه الأعمال الاقتصادية دون أن يلجأ إلى زيادة الضرائب. والواقع أنه ألغى ضرائب كثيرة مختلفة ، وكان يعتمد فى دخل دولته على تشجيع الزراعة . فقد كان شديد الاهتمام بالزراعة ، وكان يعمل دائما على أن يجعل الفلاح آمنا فى أرضه . ولأول مرة منذ الفتح العربى نجد مصر دولة قوية ذات سيادة. ذلك أن أحمد بن طولون سرعان ما أبطل كل مظهر من مظاهر التبعية سوى التبعية الإسمية للخلافة . وبعد أن تغلب على الدسائس وقمع ثلاث ثورات قامت فى مصر ، سار إلى سورية واحتل أرضها حتى بلغ طرسوس والفرات . وحارب جيوش الخلافة ، كما حارب جيوش الدولة البيزنطية المقيمة على الحدود عند كيلكيا ، ومد نفوذه من الأراضى الممتدة من برقة فى ليبيا حتى حدود الإمبراطورية البيزنطية فى آسيا الصغرى ، ومن نهر الفرات حتى شلال النيل الأول .



منظر جامع ابن طولون

وإلى جانب هذه السياسة الاستعمارية بذل أحمد بن طولون جهوداً جبارة وأموالا ضخمة على تجميل حاضرته . فإن دار الإمارة في العسكر — وهي الضاحية الرسمية في الفسطاط — قد ضاقت بحاشيته وجنده الكثيرين. ولم يكن ليقنع بمجرد قصر يكون مقرا لحكمه . وفي سنة ٨٧٠ م اختار المكان الواقع إلى أقصى الشمال الشرقي من العسكر بين جبل يشكر وسفح المقطم قرب دار الإمارة. وأمر بحرث قبور المسيحيين واليهود ، وأسس ضاحية رسمية جديدة تسمى « القطائع » . وقد سميت كذلك لأن

لكل طبقة (مثل غلمانه وغيرهم من الروم والسودانيين) قطيعة خاصة بها وكانت المدينة الجديدة تمتد من الرميلة الواقعة تحت قلعة الجبل إلى مسجد زين العابدين ، وهى مساحة قدرت بميل فى ميل . أما القصر الجديد فقد بنى تحت «قبة الهواء » (١) القديمة ، وجعل له حديقة غناء وميدانا فسيحاً يضرب فيه بالصوالجة . ويلحق بهذا الميدان بناء خاص بتربية الخيل وآخر لعرضها . وكانت دار الإمارة جنوبى الجامع العظيم الذى لا يزال قائما إلى الآن . وكان للقصر طريق خاص يخرج منه ابن طولون للصلاة. أما الحريم فكان لهن قصر منفصل. وسرعان ماعمرت هذه المدينة وأقيمت فيها الحمامات العظيمة الأسواق ووسائل الأبهة والبذخ(٢) .

وقد بنى القواد والضباط دورهم حول القصر ، وأقيمت الدور العظيمة ، وأصبحت أسواقها أحسن من أسواق الفسطاط وزخرت بمختارات السلع وأحسنها. أما الميدان الذى كان أحمد بن طولون وقواده يروحون فيه عن أنفسهم بأن يلعبون فيه بالصوالجة(٣) فقد أصبح المكان المفضل الذى يختلف اليه الناس . وقد بلغ من شغف الناس بذلك الميدان أن كنت إذا سألت أحدهم: إلى أين أنت ذاهب؟ أجاب : إلى الميدان. وكان لهذا الميدان أبواب كثيرة كل منها لطبقة خاصة : فهناك باب الخاصة وباب الحريم . كذلك كانت هناك أبواب تسمى بأسماء خاصة مميزة ، كباب السباع وعليه سبعان من جبس وباب الساج لأنه عمل من خشب الساج ، وباب الدرمون لأن حاجبا أسود يحمل هذا الإسم كان يجلس عنده . ولم يكن أحد يستطيع أن يمر من الباب الأوسط سوى أحمد بن طولون نفسه . وكان جنده الذين بلغ عددهم ثلاثين ألفا يمرون من البابين الجانبين . وكان الأمير يجلس فى أيام عرض الجيش فى مكان مرتفع يشرف منه على القطائع، ويرى الناس وهم يدخلون من باب الصوالجة ويمرون من باب السباع الذى كانت تعلوه مقصورة خاصة يجلس فيها فى ليلة العيد ، حتى إذا

---

(١) انشأها حاتم بن هرثمة عامل الامين العباسى على مصر على جبل المقطم حيث جبل القطم الآن . المترجم.

(٢) أنظر كتابنا تاريخ مصر فى العصور الوسطى ص ٦٠ — ٧١ . القريزى : خطط جـ١ ص ٣١٣ ، ٣١٥ .

(٣) يراد بذلك لعبة الكرة المعروفة عند الانجليز باسم «پولو» Polo وهى شبيهة بلعبة كرة القدم . المترجم .

رأى أحدهم فى حاجة إلى إصلاح حاله ، أمر له بما يصلحها : وكان هذا المنظر يمتد من هذه المقصورة إلى مدخل الفسطاط وإلى النيل ، ولذلك كثيرا ما كان هـذا الأمير يفضل الجلوس فيها .

وكان الماء يصل إلى القصر من عين فى الصحراء الجنوبية عن طريق قناطر معلقة لا تزال آثارها باقية إلى اليوم — وليست هـذه هى القناطر التى يجرى فيها الماء من النيل إلى القلعة والتى ترجع إلى عصر متأخر كثيراً ، غير أن النـاس بدأوا يتشككون فى قيمة هذا الماء القراح الذى لم يعتادوه من قبل حيث كانوا يشربون من مياه النيل والآبار العكرة . وقد اتصلت الشائعات بابن طولون ، فبعث فى طلب الفقيه محمد بن عبد الحكم ليستجلى حقيقة هذه الشكوك . وقد روي هذا الفقيه تلك القصة فقال :

« كنت ليلة فى دارى إذ طرقت بخادم من خدام أحمد بن طولون فقال لى : الأمير يدعوك ، فأيقنت بالهلاك وقلت للخادم : الله الله فى فإنى شيخ كبير مضعف مسن ، فتدرى (كذا) مايراد منى ؟ فارحمنى ! فقال لى : حذار أن يكون لك فى السقاية قول ، وسرت معه وإذا بالمشاعل فى الصحراء وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية وبين يديه الشمع ، فنزلت وسلمت ، فلم يرد على ، فقلت : أيها الأمير إن الرسول أعنتنى وكدنى وقد عطشت ، فيأذن لى الأمير فى الشرب ؟ فأراد الغلمان أن يسقونى ، فقلت : أنا آخذ لنفسى ، فاستقيت وهو يرانى ، وشربت وازددت فى الشرب حتى كدت أنشق ثم قلت : أيها الأمير ! سقاك الله من أنهار الجنة ، فلقد أرويت وأغنيت ، ولا أدرى ما أصف ، أطيب ماء فى حلاوته وبرده أم صفائه ؟ أم طيب ريح السقاية ؟ فنظر إلى وقال : أريدك لأمر ليس هذا وقته فاصرفوه ، فانصرفت فقال لى الخادم : أصبت ، فقلت : أحسن الله جزاءك فلولاك لهلكت » .

على أن الأثر الذى خلد اسم ابن طولون حقا ، هو جامعه الذى بقى وحده من مدينة القطائع العظيمة بعد أن دهمتها الحرب الأهلية وفعل فيها الإهمال فعله . والواقع أن هـذا المسجد أبدع مافى مصر الإسلامية من آثار ، كما أنه نقطة تحول هامة فى تاريخ العمارة . وهناك شيئان يميزان هذا المسجد بصفة خاصة : الأول أنه بنى من

موّاد جديدة تماما ، وليس من أسلاب الكنائس والمعابد القديمة ؛ والثانى أنه المثال الأول لاستعمال العقود المدببة الشكل (١) ، وهى العقود التى لم تظهر فى انجلترا إلا بعد ذلك بقرنين على الأقل . وهذه العقود مدببة فعلا ، ولها قاعدة تماثلها قليلا ، ولكن شكلها لايشبه نعل الفرس . ويروي لنا المقريزى كيف أن أحمد بن طولون عثر على كنز فى تلال القطم فى مكان يسمى تنور فرعون ، وأنه عول على أن يبنى فيه مسجداً جامعاً بعد أن ضاق مسجد العسكر بالمصلين ، وعمل على أن يكون الموضع الذي يبنى فيه ذلك المسجد تلك القمة الصخرية المسطحة بأعلى جبل يشكر ، لأنه مكان مبارك معروف بإجابة الدعوات ، إذ كان بعضهم يعتقد أن موسي كلم يهوذا عليه . وفى هذا المكان وضع ابن طولون أساس المسجد فى سنة ٨٧٦ م (٢٦٣ هـ) . وبعد سنتين تم بناؤه وأقيمت فيه الصلاة بحضور الأمير .

وقد واجهت أحمد بن طولون صعوبة فى الحصول على الأعمدة الثلثمائة التى دعت الحاجة إليها لحمل العقود . غير أن مهندسه ـ وكان مسيحيا وقبطيا من غير شك(١) ـ كتب إليه ، وكان مسجونا فى ذلك الوقت ، أنه يستطيع بناء المسجد بلاعمد إلا عمودي القبلة . ومن ثم أمر الأمير بإحضاره وقال له : « ويحك ! ماتقول فى بناء الجامع ؟ فقال : أنا أصوره للامير حتى يراه عيانا بلا عمد إلا عمودى القبلة » . فأمر بأن تحضر له الجلود ، فأحضرت ، وصوره ، فكان ذلك بلاشك أول ما عرف عن نماذج بناء المساجد . ووقف أحمد بن طولون على مزايا هذا التصميم فى الحال ، فخلع علي المهندس ، وعهد إليه ببناء المسجد ، وأعطاه مائة ألف دينار لتنفيذ مشروعه . ولما تم البناء أعطاه عشرة آلاف دينار أخرى . وبلغ ما أنفقه ابن طولون على بناء هذا المسجد مايربو على مائة وعشرين ألف دينار ، أى نحو ثلاثة وستين ألف جنيه

---

(١) نرى فى الواجهة الجنوبية الغربية لمسجد عمرو بن العاص بعد زيادته على يد عبد الله بن طاهر فتحات مدببة هى الأولى في مصر ، ظهرت بعدها هذه العقود المدببة فى جامع ابن طولون . المترجم .

(١) أطلق المقريزى علي هذا الرجل «النصرانى» ، ولو كان بيزنطيا لسماه «الرومى» . وروى المسعودى قصة طويلة عن المحادثات التى دارت بين ابن طولون وبين رجل قبطى ذكى كبير السن من أهالى الصعيد كان من المقربين إليه ، وكثيرا ما كان ابن طولون يجلس معه ويتعلم أشياء عجيبة كثيرة اكتسبها من خبرته .

وإن استعمال العقود والدعائم من الآجر بدل استعمال الأعمدة من الرخام يرجع إلى كراهة ذلك الأمير حرمان الكنائس المسيحية من أعمدتها الكثيرة ، كما يرجع بوجه خاص إلى رغبته فى أن يكون مسجده بمنجاة من الحريق . وقد قيل له إنه إذا بنى مسجده من الآجر الأحمر والرماد والجير فإنه سوف يقاوم النار أكثر مما لو استعملت أعمدة الرخام فى بنائه . ومهما يكن من شىء فإن الحقيقة التى لاريب فيها أن هذا المسجد قاوم النيران التى دمرت سائر مبانى القطائع ، وأن استعمال هذه الطريقة الجديدة فى البناء ، وهى استعمال الدعامة المصنوعة من الآجر بدل الأعمدة الرخامية ، قد أدى إلى استخدام العقود المدببة . كما أن استبعاد الرخام قد أوحى باستعمال الجص فى الزخرفة التى لايزال كثير منها محتفظا بروعته إلى اليوم .

ويتكون الرواق الجنوبى الشرقى ، أى رواق القبلة ، من خمس بلاطات (Aisles)(١) ، ومن بلاطتين فى كل من الأروقة الثلاثة الأخرى . والدعائم تعلوها عقود مغطاة بالجص ، وكذلك الزخارف التى تجدها بأعلى العقود وبواطنها وحول النوافذ قد صنعت بيد فنان عن طريق الحفر فى الجص . والفرق بين هذه الزخارف الدقيقة والزخارف القالبية(٢) التى نشاهدها فى قصر الحمراء والتى استخدمت فيها الآلة فى الجص الرطب ، كالفرق بين الفنان والصانع .

وفى كل ركن من أركان الدعامة المستطيلة التخطيط عمود متصل تاجه على شكل زهرة ، ومغطى بزخارف نباتية .

وعلى كل من جانبى العقود المشرفة على صحن الجامع — وهى أيضاً مدببة الشكل ومحمولة على أعمدة متصلة — فتحات معقودة مدببة على أعمدة متصلة يكتنفها من جهتيها وريدة ، ويعلو جميع العقود والفتحات شريط يجرى حول الصحن مكون من وريدات يعلوها شرافات جميلة . أما العقود الداخلية فتختلف عن العقود التى

---

(١) البلاطة عبارة عن المساحة المحصورة بين صفين من العقود أو بين صف من العقود (Arcade) والحائط — المترجم .

(٢) يلاحظ تأثير فن سامرا على الزخارف الجصية فى هذا المسجد . المترجم .



داخل رواق القبلة في مسجد ابن طولون

حول الصحن . وحول العقود والنوافذ الداخلية شريط من الزخارف النباتية يجرى حولها ، ثم يسير أفقيا فوق الدعامات . ويعلو هذا الشريط شريط آخر يجرى أفقيا تحت السقف عليه كتابات بالخط الكوفى منقوشة على الخشب ، ويمثل نموذجا من الكتابة الكوفية فى هذا العصر التاريخى . والسقف مغطى بعروق من الخشب تغطيها من أسفلها ومن جانبيها ألواح من خشب الجميز مزخرفة بأشكال هندسية محفورة فى الخشب ، وفى الرواق الشمالى الغربى المقابل لرواق القبلة ، نوافذ معقودة

بعقود مدببة ومغطاة بزخارف هندسية ، عنصر الزخرفة بداخلها وريدة أو نجمة ، وهى مخرمة فى الجص(١) .

ويشبه مسجد أحمد بن طولون من حيث التخطيط مسجد عمرو بن العاص بعد أن أعيد بناؤه ؛ وهذا لا يختلف عن تخطيط مساجد القاهرة بين القرنين التاسع والثالث عشر . وكان صحن الجامع الفسيح المربع الشكل ، الذى تبلغ مساحته ثلاثة أفدنة ، يتسع لأكبر عدد من المصلين . أما الأروقة المسقوفة فقد حالت دون تسرب أشعة الشمس إلى جماعات الطلاب وأهل الورع والفقراء الذين كانوا يتخذون من المساجد مأوى لهم . والرواق الجنوبى الشرقى ، أو رواق القبلة أو قاعة الصلاة (٢) ، بما فيه من بلاطات عميقة ، كان يشتمل على المقصورة الخاصة ، على حين يوجه المحراب المصلين نحو الكعبة . وهو تجويف معقود داخل فى الحائط ، ومحمول من جهتيه على عمودين . أما المنبر والدكة فكانا — ولا يزالان — يساعدان المؤذنين والمبلغين على سماع المصلين خطبة الجمعة وقراءة القرآن . وفوق المحراب قبة محمولة على مقرنصات ترجع إلى عصر السلطان لاجين .

أما من حيث الابتكار أو التجديد فلا نجد فى هذا الجامع شيئا جديدا (٣). ولا يبعد أن يكون العرب قد اقتبسوا شكله من معابد الساميين القديمة ، كما لا يبعد أن يمثل الصحن الفسيح الفناء الواسع فى الكنيسة البيزنطية على شكل البازيليكا (Basilica) ، ويمثل الليوان أو الإيوان الكنيسة نفسها (٤) ، غير أنه يقوم على دعامات بدلا من السقوف المغطاة بالأقبية . كذلك نرى فى الحائط المحراب المجوف الذى يوجه المصلين نحو الكعبة . ومما لا شك فيه أن هذا الأسلوب يلائم

---

(١) أنظر كتاب الفن العربى فى مصر من ٥٤ — ٥٩ ، وهذه النوافذ لا يبعد أن تكون راجعة الى عصر متأخر .

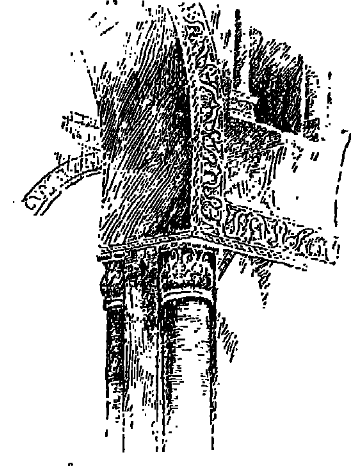
(٢) سماها لينبول «ليوان» وهى تسمية خطأ وتطلق على القاعة المغطاة بقبو ، وهى مفتوحة من جهة ومسدودة من الجهة الأخرى ، والأصل فيها إيوان كسرى بالمدائن (طيشفون) . المترجم

(٣) يلاحظ أنه متأثر بمساجد العراق من ناحية التخطيط ومادة البناء والزخارف الجصية . المترجم .

(٤) المقصود بالايوان هنا رواق القبلة . المترجم .

تمام الملاءمة ما يتطلبه الجو ، فلم يكن ثمة حاجة إلى تغيير أو تبديل .

أما القبة والمئذنة ، وهما من مميزات مساجد القاهرة التي بنيت بعد ذلك ، فإن جامع ابن طولون يختلف عنها في شكل برج حلزوني درجاته من الخارج ، وهي تشبه الآثار الأشورية المعروفة بالزيجورات وقد بنيت على طراز « الملوية » وهي مئذنة مسجد المتوكل في سامرا على نهر دجلة . ولا يبعد أن يكون الجزء العلوي الذي تراه على شكل مبخرة قد أعيد بناؤه في زمن متأخر . ولو أن منارة جامع ابن طولون كانت من غير شك لا تزال على حالها الأول في سنة ١٠٤٧ م حيث وصفها ناصر خسرو ، فإنه من الصعب أن نسميها مئذنة بما تدل عليه هذه الكلمة(١) وليست هناك قبة ، إذ لا شأن لها بالصلاة وبالتالي بالجامع (٢) فهي التغطية الأصلية لسقف ضريح . ولا توجد إلا حيث يوجد تغطية هذه القبة ، أو على الأقل إذا عقد العزم على بناء ضريح تحت هذه القبة . ولا نجد قبة إلا حيث يوجد بناء ملحق



زخرفة حول العقود والدعائم وأعلى الدعائم وتيجان الأعمدة

---

(١) يقول المقريزي (خطط ج ٢ ص ٢٨٥) إن مئذنة جامع أقبغا الصغير (الذي كان من بين مباني الأزهر والذي تم بناؤه في سنة ١٣٣١) كانت أول مئذنة بنيت من الحجر بالديار المصرية بعد المنصورية التي بناها المنصور قلاوون . ومن ذلك نستنتج أن مئذنة قلاوون (سنة ١٢٨٤م) كانت أول مئذنة من الحجر عرفها المقريزي . ومن المحتمل أنه لم يكن ليسمي منارة جامع أحمد ابن طولون مئذنة بالمعنى الصحيح . ومن الواضح أنه لم يعرف شيئا عن مآذن جامع الحاكم التي بنيت من الحجر . أنظر جامع الحاكم .

(٢) هناك قبة صغيرة فوق المحراب ، غير أن هذه القبة ، كالمنبر والزخارف التي عملت في المسجد يرجع تاريخها الى الاصلاح الذي قام به لاشين في سنة ١٢٩٦م ، وكذا الميضأة التي تعلوها قبة في وسط الصحن ، فترجع إلى عصر متأخر إذ حلت محل الفوارة الرخامية المسقوفة والمقامة على أعمدة .

بالمسجد يضم فى العادة قبر منشىء هذا المسجد أو أسرته . وليس من الضروري أن تكون هذه القبة قريبة من مكان الصلاة . على أنه قد يكون من قبيل المصادفة أن يكون من مساجد القاهرة عدد كبير من هذه المساجد التى يضم كل منها حجرة تضم قبر مؤسس المسجد . وإن تلك القباب التى لا عدد لها والتى تشاهد من قلعة الجبل ، لما يوحى إلينا بهذه الفكرة الطبيعية ، وهى أن لكل مسجد من مساجد القاهرة ضريحا خاصا به . حقيقة أن لمعظم المساجد التى بها أضرحة قبابا ، غير أنه فى الوقت نفسه لا ترى مسجدا لم يكن من المقرر أن يبنى فيه ضريح فى أول الأمر ، يحتوى على قبة ما . وقد ترجع القبة فى أصلها إلى تلك القباب التى كانت تعلو قبور بابل والتى لابد أن يكون الكثير منها مألوفا لدى العرب (بل أكثر من ذلك لدى الأتراك) الذين احتفظوا بشكل القبة على حين لم يعملوا قط على استعمالها ، مثلهم فى ذلك مثل القبط والبيزنطيين حينما اقتبسوا سقوف كنائسهم وواجهاتها .

ولكن إذا لم يكن هناك إلا القليل من الابتكار فى شكل المسجد ، فإن عقوده المدببة ونقوشه الجميلة جديرة بالدرس . وكذلك نجد العقود المدببة فى مقياس النيل الذى بنى فى جزيرة الروضة سنة ٨٦١ م ، أى قبل بناء جامع أحمد بن طولون بخمس عشرة سنة . ويقال إن المهندس الذى بنى هذا المقياس من أهالى فرغانة على نهر سيحون . وليس ثمة دليل على أن تلك العقود قد بنيت على مثال الكنيسة القبطية ولكنا نجد من جهة أخرى أن النقوش المختلفة الخالية من التكلف والمصنوعة من الجص والتى وضع رسمها المهندس القبطى ، قد اقتبسها كلها بلا ريب من النقوش التى حذقها مواطنوه (١) . ولم يكن العرب فى وقت من الأوقات ، من الفنانين أو حتى من الصناع المهرة . فقد استحضروا الفرس والروم ليبنوا لهم دورهم ومساجدهم ويزينوها . ولكنهم كانوا أكثر من هذا يستخدمون القبط الذين كانوا صناع مصر المهرة خلال آلاف السنين التى مرت بتاريخها . ونحن إذ نقارن بين النقوش المصنوعة من الجص فى مسجد أحمد بن طولون وبين النقوش القبطية المحفورة التى نراها بدار الآثار المصرية فى القاهرة ، وتلك التى أحضرت من مقابر عين الصيرة

---

(١) يلاحظ أن الزخارف الجصية متأثرة بالأساليب الزخرفية فى سامرا .

والمودعة بدار الآثار العربية ، تبين لنا في جلاء مصدر الزخارف التي علي شكل زهور ، والتي يرجع تاريخها إلى المدرسة البيزنطية في سورية ومصر (١) . أما النقوش الكوفية المحفورة على الخشب فهي ترجع في الواقع إلى الفن العربي الخالص ، وقد تطورات فيما بعد حتى أصبحت من أهم مميزات الفن العربي (٢) . كذلك الزخارف الهندسية الموجودة في النوافذ ترجع إلى أصل إغريقي ، كما قرر ذلك مسيو بورجوان في رسالته المستفيضة عن الزخارف. غير أنه ليس من المؤكد أن تاريخ هذه الزخارف ترجع إلى المباني الأصلية . كما أن الأشكال التي على هيئة نجوم توحي إلينا بأن النوافذ المفتوحة قد تكون جزءا من الإصلاحات التي تمت فيما بعد (٣) .

غير أن اهتمام أحمد بن طولون بالبناء لم يقف في سبيل مطامعه في الفتوح . فلقد قام بدور ملحوظ في سياسة بلاد العراق ، وكاد ينجح في أن يجعل الخليفة في قبضة يده . وكان الرئيس الديني في الإسلام (المعتمد) يسره أن يهرب من أخيه الطاغية وهو الموفق ، غير أن هذه الخطة قد منيت بالإخفاق . وبذلك فقدت مصر الفرصة التي أتيحت لها لتصبح مقر الخلافة الإسلامية ، وكان من أثر ذلك أن أصبح ذلك الأمير الطموح يلعن في مساجد العراق ، وكذلك عجز ابن طولون عن الاستيلاء علي مدينة مكة المقدسة . غير أن حكمه انتهى بحملات مظفرة قام بها في وجه امبراطور الروم ، حيث هزمت القوات المصرية العدو على مقربة من طرسوس ، وقتلت — على ما يقال — ستين ألفا من المسيحيين ، ووقع في أيديهم كثير من الصلبان الذهبية والفضية والجوهرات والأواني المقدسة . غير أن ابن طولون سار نحو الشمال ليخضع نائبه . وكان الشتاء في ذلك الوقت قارسا فأرسل نائبه الماء من نهر البردان ففاض على الأراضي وكاد يغرق عسكر ابن طولون في «أذنة» . وهنالم يجد ابن طولون بداً من العودة إلى انطاكية ، حيث شرب كثيراً من لبن البقر — على أثر ما شعر به

---

(١) توجد في القاعة المجاورة لمدخل دار الآثار العربية إلى عين الداخل ، مجموعة من الزخارف التي تشبه زخارف سامرا والتي نقلت عنها .

(٢) هناك بعض نماذج للنقوش العربية المحفورة على الخشب من جامع احمد بن طولون نراها

(٣) M. van Berchem, Notes d'Archéologie Arabe, Extr. du Journal Asiatique, 125 (1891).

من الجوع والإجهاد فى المعركة — ومرض بالدوسنتاريا وطلب العودة إلى مصر ، وثقل عليه ركوب الدواب ، فعملت له عجلة كانت تجرها الرجال ، ولما وصل إلى الفسطاط ساءت حالته . وكان هذا الأمير فى مرضه مصدر فزع أطبائه الذين لم يستمع إلى إرشاداتهم وأبى أن يتناول الغذاء الذى كانوا يشيرون عليه بتناوله ولما زادت علته أمر بضرب طبيبه بالسياط . وذهبت سدى صلوات المسلمين واليهود والنصارى ودعواتهم بشفائه ، ولم يستطع القرآن ، أو التوراة ، أو الإنجيل أن ينقذ حياته ، ومات فى شهر مايو سنة ٨٨٤ م قبل أن يبلغ الخمسين من عمره .

ولقد أضاف خليفته خمارويه الكثير إلى حاضرة أبيه الزاهرة ، ولا غرابة فقد شارك أباه ميوله فى إقامة المبانى الفخمة وفى سياسته التى كانت تهدف إلى التوسع فى الفتوح . لذلك زاد فى القصر ، وحول « الميدان » إلى بستان غرس فيه الأشجار النادرة والرياحين على اختلافها . وتأنق فى هذا البستان فكسى جذوع الأشجار نحاسا مذهبا حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وجذوع الشجر أنابيب الرصاص وأجرى فيها الماء . وكانت مياه هذه الأنابيب لا تزود الأشجار وحدها بالماء ، بل كان يخرج من تضاعيف الشجر عيون الماء منحدرة إلى نافورات يفيض منها الماء إلى مجار تسقى البستان على اتساعه . أما الريحان فكان على صورة نقوش وكتابات يتعهدها البستانى بالمقراض . وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر ، واستورد عيدان النيلوفر العجيب الشكل ، كما أهدى إليه من البلاد عيدان الثمار والزهور ؛ وطعم شجر المشمش باللوز والليمون وغيرهما . وفى وسط البستان بنى خمارويه برجا فيه أصناف القمارى والنونيات وغيرها من الطيور الشجية التى كانت تسبح فى القنوات الجارية فى البرج . كما طلى حيطان بيت الذهب فى القصر بالذهب المحلى باللازورد ، واتخذ على حوائطه صوراً بارزة من الخشب تمثله وتمثل حظاياه ومغنياته بأشكال بلغت حد الكمال ودقة الزخرف . وعلى رؤوس تماثيل النساء ، أكاليل من الذهب الخالص مرصعة بالجواهر ، وعلى آذانها المثبتة فى الحوائط بمسامير ، أجراس ثقال الوزن محكمة الصنع ، وقد لونت أجسادها بالأصباغ العجيبة التى تبدو للرائى كأنها ثياب حقيقية وبنى خمارويه أمام القصر فسقية مملوءة بالزئبق ، وقد أشار عليه طبيبه باتخاذ هذه

الفسقية بعد أن شكا إليـه ما كان يصيبه من الأرق . وكان طولها عشرين ذراعا وعرضها عشرين ذراعا (٢٢٥ متراً مربعاً) . فإذا نام خمارويه على فرش من أدم يملأ بالريح حتى ينتفخ ، ارتج الفراش وتحرك بحركة الزئبق لأنه رجراج ، وإذا نام خمارويه سهر زريق ، أسده الأمين على حراسته ، وبعد أن زال القصر بزمن طويل جعل الناس يحفرون فى الأرض التماسا للزئبق المنساب بين شقوق البركة التى كانت بمثابة أرجوحة للأمير .

كذلك بنى خمارويه فى هذا القصر بيتا على مثال قبة الهواء أطلق عليه « الدكة » ، وضعت فيه الستائر والبسط الفاخرة ، وكان خمارويه يجلس فى هذا المكان ويشرف على ما فى قصره وبستانه ، فيشاهد النيل والجبـل والصحراء ؛ وفى بيت آخر بناه أبوه أحمد بن طولون أقام المكبرون الذين كانوا يكبرون ويعلنون أوقات الصلاة ، ويرتلون الآيات القرآنية الكريمة . وكان خمارويه إذا جلس لسماع الغنـاء وسمع المكبرين يكبرون ، أمر المغنيات بوقف الغناء ، وأخذ يسمع أصوات المكبرين فى سكون وخشوع .

وقد أسهب المقريزى (١) فى ذكر عجائب دار الحيوان وما كانت تحويه من السباع والنمور والفهود والفيلة والزرافات ، واصطبلاته التى وقف عليها كوراً بأكملها كانت تزرع بها العلوفات ، ومطابخه التى كان ينفق عليها إثنى عشر ألف دينار فى الشهر ، وأبهة حرسه الذين جمعهم من عرب الدلتـا وشنائرة الضياع . « وكان مهابا ذا سطوة . وقد وقع فى قلوب الكافة أنه متى أشار إليـه أحد بأصبعه أو تكلم أو قرب منه ، لحقه مكروه عظيم ، فكان إذا أقبل لا يسمع من أحد كلمة ، ولا سعلة ولا عطسة ولا نحنحة ألبتة ، كأنما على رءوسهم الطير ، ومن المحزن حقا أنه لم يبق لكل هذه العظمة والأبهة من أثر بعد سنين قليلة — اللهم إلا آثار بركة الزئبق .

غير أن السبع أو الحرس الذى اتخذه خمارويه من شبـان العرب الأشداء لم

---

(١) خطط ج ١ ص ٣١٨ .

يستطيعوا أن يعملوا على إنقـاذه من غيرة حريمه . ففى مستهل سنة ٨٩٦ م انتهت المؤامرة التى دبرها له الخدم والجوارى بذبحه فى دمشق ، وصلب قتلته . وفى غمرة العويل والصراخ ، دفن جثمان خمارويه إلى جانب جثمان أبيه على مقربة من قصره تحت سفح المقطم .

ولم تدم أسرة خمارويه بن أحمد بن طولون بعده طويلا ، ذلك أن ولديه الصغيرين لم يتمكنا من مقاومة جهود الخليفة فى سبيل استرداد ولايتى مصر وسورية الغنيتين ، اللتين ظلتا تحت سلطان أحمد ابن طولون وابنه ثلاثين سنة . ففى سنة ٩٠٥ م دخل القائد العباسى محمد بن سليمان مدينة القطائع ، وقتل جند الطولونيين من السودان وضرب مبانيها الجميلة . وهكذا أصبحت العسكر مرة أخرى مقراً للحكومة ، كما كانت فى عهد ولاة العباسيين الأولين ، أما القطائع فإن ما تبقى منها بعد أن عاث فيها الجند فساد أربعة أشهر ، أخذ يتهدم على مر الزمن ، وتقوضت المائة ألف منزل — إذا كان لنا أن نصدق المؤرخين — تدريجياً .

غير أن الخراب قد زال نهائيا فى عهد المستنصر فى القرن الحـادى عشر حين انتشرت المجاعة وشاعت الفوضى فى البلاد . وسوف نتحدث بعد عن هذا الحـكم الملىء بالفوضى والاضطراب . غير أنه يجدر بنا أن نشير فى هذا المقام إلى ما انتهت إليه كل من العسكر والقطائع . ففى سنة ١٠٧٠ م كانت هاتان المدينتـان قد وصلتا إلى درجـة كبيرة من الخراب ، حتى إنهم بنوا سوراً على طول الطريق بين قصر القاهرة الجديد إلى الفسطاط — وبعبارة أخرى من باب زويلة إلى ما يقرب من جامع عمرو بن العاص — حتى لا يستاء الخليفة من منظر هذه المدن المتهدمة إذا خرج ممتطيا جواده . وقد أصبحت أطلال القطائع والعسكر كما لو كانتا محجراً يزود الناس بمواد البناء ليستعينوا بها فى أماكن أخرى . كما أن الفضاء الذى كان يقع بين القاهرة الجديدة والفسطاط قد تحول كله إلى ما يشبه الصحراء ، اللهم إلا بضع حدائق ومنازل ريفية . ومع أن الناس أخذوا يبنون دورهم خارج باب زويلة بعد سنة ١١٢٥ م ، بقى سائر موقعى هاتين المدينتين غير آهل بالسكان ، اللهم إلا حول جامع أحمد بن طولون . وقد ظلت الحال كذلك إلى اليوم الذى كتب فيه المقريزى فى سنة ١٤٢٤ م .

ولا عجب إذا أصبح المكان القريب من جبل يشكر الذى يعرف بقلعة الكبش[1] — حيث قامت « مصطبة فرعون » فى يوم من الأيام فى المكان الذى قدم فيه سيدنا إبراهيم قربانه — مسكناً للجن. وفى القرن الثامن عشر كان هناك تابوت قديم بداخله جثة سيدة تنتمى إلى الأسرة السادسة والعشرين لا يزال يحتل مكان مصطبة فرعون ، وكل شىء كان الناس يحضرونه إلى هناك — حتى ولو كان كومة من البلح — لا بد أنه كان يتحول مباشرة إلى ذهب . أما الآن فإن علم الكيمياء قد انتهى ، واحتل التابوت مكانه فى المتحف البريطانى حيث لم تحدث معجزة من هذا القبيل ، بل إن الجن قد هجر ذلك المكان .

---

(١) أنظر صورة قلعة الكبش (شكل ١٥) وهذا البناء العجيب بناه الصالح — حفيد أخى صلاح الدين الايوبي — حول سنة ١٢٤٥ (ولا يبعد أن يكون قد بناه على أساس قديم) ، وكان يستعمله بمثابة قصر ملكي . وفى هذا المكان نصب بيبرس الأول ، الخليفة الحاكم العباسى ، ثم أعاد الناصر بناء قلعة الكبش فى سنة ١٣٢٣ ، وعاش فيه الامير صرغتمش ، وبنى له السور والأبراج المحيطة به . غير أن الاشرف شعبان هدم جانبا منه وأصبح يستخدم للسكن (المقريزى ج ٢ ص ١٣٣) .

الباب الرابع

مصر

مصر ـ الفسطاط الحاضرة التجارية ـ وزراء المادرائين ـ الإخشيد ـ المسعودى فى مصر ـ جزيرة الروضة ـ رجال الدين فى مصر ـ الشعراء ـ بلاط كافور ـ ثورات المسلمين ـ حكومة كافور ـ مصر فى القرنين العاشر والحادى عشر ـ وصف ناصر خسرو ـ حريق مصر ـ اعادة بعض المبانى الى ما كانت عليه ـ وصف ابن سعيد .

أصبحت مصر بعد سقوط البيت الطولونى ، ولاية تابعة للخلافة فى بغداد . وبعد أن دمر الفاتحون مدينة القطائع ، اتخذ الحكام الجدد « العسكر » مقرا لهم ، غير أن إسم العسكر سرعان مازال وأصبحت هذه الناحية جزءا من الفسطاط أو مصر . وفى طوال الوقت الذى قامت فيه أو زالت الأحياء الرسمية ، كانت مصر ـ حاضرة مصر الحقيقية ـ آخذة فى النمو والازدهار . وكان الجند وموظفو القصر يقيمون فى عزلة فى هاتين المدينتين ـ فى الوقت الذى حرم فيه بعض سكان المدن مزاولة بعض أنواع التجارة ـ قد خفف عنهم قسوة الجند السود وطغيان الموظفين الحكوميين ، كما تركهم أحرارا يزاولون ماشاءوا من أنواع التجارة وكان النصيب الأكبر من تجارة الهند وبلاد العرب مع أوربا ـ تلك التجارة التى أصبحت فيما بعد ذات أهمية عظمى ـ يمر بمصر ، التى كانت أرصفتها مكدسة بالسلع الواردة من كثير من البلاد الأجنبية . حقا إن مصر وحاضرتها قد أصبحت بعد سقوط الطولونيين فريسة للاستبداد العسكرى ، وكان قواد الخلفاء يفعلون ما يحلو لهم ، إذ لم يكن لأشراف بغداد عليهم سلطة قوية . تلك الأيام كانت أياما قاسية فى مصر ، حين طرد أحد الشبان الثائرين ـ ويدعى الخلنجى ـ الذى عمل على عودة الدولة الطولونية بمساعدة الشعب الذى تحمس لفكرته واستولى على الحاضرة وعلى الإسكندرية بل أحل الهزيمة بجيش جديد من بغداد وظل هذا الثائر متماديا فى قحته حتى أعدم بعد ثمانية أشهر من ذلك الصراع ، سنة ٩٠٦ م على أثر مؤامرة دبرها له أعداؤه وكأن هذه الأحداث لم تكن كافية فى ذلك الجيل ، إذ أرسل

الخلفاء الفاطميون القيروان الذين كانوا يختلفون فى المذهب الدينى جيشا من المغرب إلى أهل مصر الوادعين وأغاروا على العسكر الواقعة على النيل عند الجيزة ، حيث خندق جيش الاحتلال الذى أرسل من بغداد بقيادة ذكا الرومى . وانتهت حملة الفاطميين على مصر فى سنة ٩١٠ م بالفشل وطرد جند إفريقية غير أن أحوال البلاد لم تتحسن على الرغم من ذلك فقد كان الحاكم التركى يحتفظ بقواته فى قصره الخاص لحمايته ، وبعد موته ، طرد ابنه من البلاد على أيدى الجند الذين طالبوا بما تأخر لهم من رواتب وهنا اختفى المادرائى عامل الخراج وأخذ الحكام المتنافسون يتنازعون على السلطة ويحشدون قواهم وينتشرون فى البلاد المنقسمة وتبع ذلك حدوث زلزاله مروع أتى على كثير من الدور والقرى واقترن ذلك الزلزال بوابل من الشهب المفزعة التى أدخلت الرعب في قلوب الناس .

وكان أولئك الذين أفادوا من هذه الفوضى أكثر من غيرهم المشرفين على بيت المال الذين يظهر أنهم تصرفوا فى الموارد كيفما شاءوا ولقد شغل منصب عامل الخراج ثلاثة من أفراد أسرة المادرائى التى تنتسب إلى قرية مادرايا القريبة من البصرة على نهر دجلة . وقد نعم بذلك المنصب أحد هؤلاء الثلاثة فى عهد خمارويه وعهد ولديه بل فى عهد بعض ولاة الخلفاء ثم فى عهد الأسرة التى وليت حكم مصر بعد ذلك . وعلى الرغم من كل ماانتاب موارد الدولة ، جعل محمد المادرائى هذه الموارد تصل إلى مبلغ يربو على مائتى ألف جنيه فى السنة ، عدا الإيجارات المختلفة . غير أنه كان يجمع كثيرا ، ويعطى كثيرا أيضا ، فقد كان يوزع كل شهر على الفقراء مايزن مائة ألف رطل من الطعام وحرر آلافاً كثيرة من الرقيق ووقف الأموال على المؤسسات الدينية . وكان ينفق فى كل عام مبلغا يتراوح بين ستين ألفا وثمانين ألفا من الجنيهات على رحلاته لأداء فريضة الحج إلى مكة التى بلغت إحدى وعشرين ، لأنه كان رجلا تقيا ورعا ، يقوم بالفروض الدينية من صلاة وصوم على أكمل وجه ممسكا المصحف دائما فى يده . ومما أثر عن إحسانه الواسع النطاق فى موسم الحج أنه لم يكن ثمة شخص فى مكة لم ينعم بخيراته ويشبه المادرائى هذا ، القاضي العظيم ابن حربويه الذى كان يستقبل حتى الولاة فى زياراتهم الرسمية وهو جالس . وهذان الموظفان يعدان بحق من الأمثلة الاستثنائية النادرة للموظفين بين هذا العدد الكبير من المستبدين .

وفى النهاية تقلد زمام الحكم أحد الأتراك الأقوياء ، وإذا كان محمد « الإخشيد » الذى استمد لقبه من أسلافه ملوك فرغانة ببلاد ماوراء النهر لم يترك أى أثر فى « مصر » كسلفه العظيم ابن طولون وإذا كانت سياسته قد قامت على الحيطة والحذر وقنع بأن يمتد ملكه إلى ماوراء دمشق بدلا من أن يمتد إلى نهر الفرات ، فإنه استطاع على الأقل أن يحفظ النظام فى مصر ، ويبعد عنها الغزاة من أفريقية كما أشعل الحرب فى سورية ، وجعل قصره العظيم فى « بستان كافور » غربى سوق النحاسين الحالى — مقرا له . وهناك الكثير من القصص التى تروى عن بطولته التى تجلت فى أثناء حربه مع ابن رائق ذلك الزعيم التركى الذى أصبحت له السيادة على سورية ردحا من الزمن . فقد أخذ الحزن هذا الأمير كل مأخذ حين وجد جثة أحد إخوة الإخشيد بين القتلى . حتى إنه أرسل ابنه إلى خصمه رهينة يتصرف فيه كيف شاء . وهنا تجلت شهامة الإخشيد فخلع على هذه الضحية وأرسله إلى أبيه مكرما ، وتزوج هذا الشاب من ابنة مضيفه الباسل .

وفى صيف سنة ٩٣٥ م شهد سكان « مصر » موكبا رائعا من سفن الإخشيد الحربية وهى تتقدم فى النيل من دمياط وتحتل جزيرة الروضة التى كان يصلها بالمدينة جسر يتألف من السفن العائمة . وفى أغسطس من تلك السنة دخلت القوات الحاضرة وأخذت فى السلب والنهب مدة يومين وظلت على ذلك حتى أصدر ذلك الأمير الحازم الأمر بالعدول . وبعد الفوضى التى حلت بالبلاد خلال الثلاثين سنة التى تلت سقوط الطولونيين ، بذل الحاكم الجديد جهده فى تغيير هذه الحال فى سبيل خير البلاد ولقد عبر الناس عن مشاعرهم حينما قفز ابن الخالاتى فى حماس على الحصان الخشبى القائم أمام قصره ثم ترك حمامة تطير إلى الأمير الجديد بعد أن عطرها بالمسك وماء الورد(١) وقد استعاد جامع عمرو العتيق ما كان له من مكانة سابقة باعتباره أهم دور العبادة كما زوده الإخشيد ببعض الحصر الجديدة وكذلك وضع فيه الكثير من المصابيح والعطور . وكان يحضر بنفسه فى الليلة الأخيرة من شهر رمضان مرتديا الملابس البيضاء

---

(١) ابن سعيد : النصر العربى ص ١٤

ومن ورائه خمسمائة تابع يحملون المشاعل وفي اليوم التالي وهو أول أيام عيد الفطر كان يقيم عرضا على النحو الذي كان يقام به في أيام ابن طولون .

وقد جرت العادة أن يشترك الجيش في هذا العرض ، وكان الجيش الذي بلغ يسير طول اليوم يتبعه ثمانية آلاف مملوك يحمل كل منهم درعا لامعا ويمر هؤلاء أمام دار الإمارة . وفي اليوم التالي — أي في اليوم الثاني من أيام العيد — كان الأمير يحضر الصلاة في الجامع وتفتح أبواب القصر للناس ولما أرسل الخليفة إلى الإخشيد الخلعة والقلادة والسوار ازدانت الشوارع والأسواق بأفخر الفرش والبسط الثمينة ، وغطيت أبواب الجامع العتيق بالديباج الموشى بالذهب بمناسبة مرور موكب الأمير — وهو مرتد خلعته الجديدة — وهو في طريقه إلى الصلاة في يوم الأربعاء (١)

تلك كانت أياما زاهرة في مدينة « مصر » وقد كاد الناس ينسون المصادرات الكثيرة وأعمال القسوة التي امتاز بها نظام الحكم الجديد إزاء هذه البهجة التي نعموا بها ، ولقد أخذ الأدب العربي في الإزدهار في الحاضرة الواقعة بجانب النيل ، على الرغم من أن المنافسة كانت لا تزال بعيدة عما كان بينها وبين حاضرة الخلفاء على نهر دجلة حيث كان للمؤثرات الفارسية أثر في ظهور دراسات لم يكن الجو قد تهيأ بعد لوصولها إلى حاضرة مصر التي كانت أكثر تمسكا بمبادىء المذهب السني ومن ثم كانت الدراسات العربية لا تزال في المهد في أيام الإخشيد غير أن الشعر كان مزدهراً على الرغم مما ساده من التقليد . ولكن التاريخ أخذ يدون ، وأما العلوم فإنها لم تمتد إليها يد البحث اللهم إلا في صورة ناقصة تتمثل في علم التنجيم ، ولم تكن هناك أسماء عربية قد أخذت تلمع في محيط الأدب إلا نادرا .

وكان الكتاب يتناولون حياة النبي ويصوغونها في شكل تاريخ ومن أشهر هؤلاء وأقدمهم إثنان هما : الطبري والمسعودي وكانا معاصرين للاخشيد والواقع أن المسعودي

---

(١) كان الإخشيد مولعا بالعنبر . وقد اعتاد الناس أن يقدموا له كميات كبيرة منه في أول العام الجديد وفي أعياد الربيع ، وكان يبيعها بأثمان عالية . وبعد وفاته أحرق منزل أرملته ووجد به من العنبر ما يساوي خمسين ألف جنيه (ابن سعيد).

زار مصر فى سنة ٩٤٢ م ، ومع أنه — لسوء حظنا — لم يصف حاضرة هذه البلاد المصرية كما شاهدها فقد وصف « ليلة الغطاس » وصفا شائقا — وكانت من المواسم المسيحية — التى تبين لنا كيف احتفل بها أهل مصر احتفالا ينطوى على البهجة والسرور . وفى ذلك يقول : « لليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها ، وهى ليلة عشر تمضى من كانون الثانى . ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس فى مصر ، والإخشيد محمد بن طغج قد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألفا مشعل . غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع . وقد حضر فى تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم من فى الزوارق ومنهن فى الدور المجاورة للنيل ، ومنهم من على الشطوط لا يتناكرون الحضور ، ويظهرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والرقص ، وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا ، ولا تغلق بها الدروب ويغطس أكثرهم فى النيل ، ويدعون أنه أمان من المرض» . (١)

ويحدثنا هذا الرحالة كيف أن النـاس كانوا يطلبون من الإخشيد السماح لهم بالتنقيب علهم يعثرون على الكنوز التى ورد ذكرها فى النصوص القديمة غير أنهم لم يجدوا سوى بضعة كهوف ملأى بالعظام والأتربة أو بقايا جثث الموتى . ويذكر لنا المسعودى مقياسى النيل اللذين أقيما فى جزيرة الروضة التى يسميها « دار الصناعة » أما المقياس الأول الذى لا يزال قائما إلى الآن ، فقد بناه أسامة ، وبنى الثانى — أو على الأصح أعاد بناءه — ابن طولون ، ولم يكن يستعمل إلا وقت الفيضان . كما شاهد هذا الرحالة الجسر الذى كان يصل مصر بجزيرة الروضة ، والجسر الآخر الذى كان يصل هـذه الجزيرة بالجيزة من الضفة الغربيـة . وقابل فى مدينة مصر تجاراً من القسطنطينية . غير أنه لم يذكر لنا شيئا عن المدينة نفسها . غير أن ابن سعيد وغيره من المؤرخين لم يذكروا أن الإخشيد بنى فى مصر دارا للصناعة حلت محل الأحواض

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٤ — ٣٦٥ ولقد قابل المسعودى المؤرخ أوتيخا Eutychius فى مصر حيث انتهى من وضع كتابه « التنبيه » وذلك سنة ٣٤٥ هـ .

القديمة بجزيرة الروضة حيث أقيم فيه حديقة ودار للنزهة ، وقد بلغ من ميل الإخشيد إلى الاقتصاد أنه لما بلغته قيمة نفقات إنشاء هذه الحديقة ، صاح قائلا : ماذا ؟ ثلاثون ألف دينار لدار النزهة ؟ ! ثم أمر فى الحال بإنقاص هذه التكاليف إلى خمسة آلاف وكما أن دار الصناعة فى الروضة حلت محل دار صناعة مصر ، كذلك حلت محلها فيما بعد ميناء المقس على بعد ميل منها . أما دار الإخشيد التى بناها للنزهة فى جزيرة الروضة وراعى فى بنائها الإقتصاد لم يبق منها أى أثر . غير أن جزيرة الروضة نفسها بقيت المكان الذى كان يفضله الأمراء الذين ولوا حكم مصر ولا شك أن بناء الإخشيد قد هدم ليحل محله الهودج وغير ذلك من مبانى الأيوبيين التى تعد أكثر عددا وفخامة من مبانى الإخشيديين . وكان شغل رجال العلم الشاغل فى ذلك الوقت تفسير الشريعة الغراء كما ورد ذلك فى القرآن الكريم والحديث الشريف وأحكام الفقهاء . ولما كان القرآن من الكتب السماوية ، كان لزاما على القاضى المسلم أن يكون من رجال الدين . وكان علماء مصر فى صدر الاسلام من الفقهاء بالمعنى الصحيح وكان للمدارس التى تمثل المذاهب الأربعة — الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى — مكان من جامع عمرو بن العاص . أما الشافعية والمالكية فكان لكل منهم خمسة عشر رواقا ، وأما الحنفية فكان لهم ثلاثة فقط . وكان صحن الجامع الكبير يضج بمنازعاتهم . وقد تبدو لنا الآن ضآلة الفرق بين هذه المذاهب ، غير أنها لم تكن كذلك بالنسبة إلى المسلمين فى ذلك الوقت ، فقد كانت فروقا لها أهميتها وخطرها ، وكثيراً ما كان علماء الدين يحتدون فى أثناء مناقشاتهم وجدلهم فى الجامع العتيق حتى أن الإخشيد اضطر إلى إزالة الحصر والوسائد وإغلاق المسجد إلا فى أوقات الصلاة ومن ثم كانت المساجد — كما هى الحال بالنسبة إلى بعضها فى الوقت الحاضر — دورا للعلم وليست مجرد مدارس دينية . وكان شعراء العرب قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام ينشدون قصائدهم فى الأسواق أمام جمهور النقاد من مواطنيهم . أما فى العصر الإسلامى فقد كان النقد يتخذ صورة أخرى ، فإذا نظم الشاعر شعرا زعم أنه قد أجاد فيه ، وأسرع إلى المسجد واشترك مع جمهور النقاد وهنالك يجد فريقا من الفقهاء والشعراء والمفسرين وقد جلسوا جميعا القرفصاء على السجاجيد حول صحن الجامع ، وأخذوا يشرحون للفيف من الطلبة الجالسين من حولهم بلاغة الأسلوب

ودقته ، وكان الشاعر ينشد أمام النقاد فى زهو وإعجاب آخر ما نظمه من القصائد ولـكن فى شىء من الخوف والوجل . تلك كانت تجربة قاسية لأن بعض المستمعين كانوا من المنافسين له ، كما كانوا جميعا نقادا لاذعين لا يسمحون بأية هفوة أو خروج عن الوزن أوخطأ فى المعنى وكانت لهم فوق هـذا طريقة للتعبير عن آرائهم . حينئذ كنت تسمع الجدل يحتد ، ثم تنشد بضعة أبيات من شعر الشعراء المتقدمين ويبدأ الإمتحان ، ويدافع الشاعر حيال هذا كله عن قصيدته ويدلى بحججه ، ولا ينصرف فى نهاية الأمر إلا بعد أن يكون قد استهدف لأقسى تجربة مر بها .(١)

ولم يكن للمسائل الدينية وحدها صدى فى جامع عمرو فى أيام الإخشيد ، فإنه ، على الرغم من أنه كان هنـاك كثير من الفقهاء وعلماء الدين الذين دون ابن سعيد تاريخ حياتهم وغير ذلك . كان هناك كثيرون غير هؤلاء . كانت هناك أسرة طباطبا المشهورة التى ترجع فى نسبها إلى على بن أبى طالب — وكان كل أفرادها من الشعراء الذين حفل شعرهم بحب الطبيعة وبالحب نفسه . غير أن أحدهم لم يمتدح الخمر ، على الرغم من أنه كان محببا إلى شعراء الإسلام . ألم ينظم أحد هؤلاء الشعراء (٢) شعرا فى الغناء كهذا الشعر الذى يقول فيه ؟

إذا الـكروانُ صاح على الرمال ... وحلّ البـدرُ فى برج الـكمال

وجَعّد وجْـــهُ بِركتنا هبوبٌ ... تمرُّ به الجَنُوب مع الشّمال

وحُرِّكتْ الغصونُ فشابَهَتْها ... قُدودُ سُقَاتِنا فى كل حالِ

فهاتِ الـكأْسَ مُتْرعَةً ودَعْنى ... أُبادر جِـــدَّتى قبل ارتحال

فـكلُّ جماعـــةٍ لابد يوماً ... يُفرِّقُ بينهم صِرْفُ الليالى

ومن هؤلاء أبو الفضل الذى ينتسب إلى أسرة القرات المشهورة ، ومع أنه كان

---

(١) أنظر ما كتبه المؤلف تحت عنوان Arab Classic فى كتابه Among my Books, p. 90. ص ٩٠

(٢) هذا الشاعر هو أبو محمد القاسم بن أحمد الرسى بن طباطبا . أنظر كتاب المغرب لابن سعيد ص ٤٩—٥١ — المترجم .

ثقة فى رواية الحديث ، كان شاعرا مجيدا ، لم يزدر كغيره من الفقهاء الكثيرين ، أن ينظم قصيدة جيدة من حين إلى حين . من ذلك قوله :

مَنْ أَخْمَل النفس أحياها وروَّحها   ولم يَبِتْ طاويا منها على ضَجَر [1]

إنّ الرياح إذا اشتدّت عواصِفُها   فليس ترمى سوى العالى من الشجر

بل إن أبا الحسن منصور كان ينظم بعض الشعر الرصين ، مع أنه هو الذى أثار مثل هذه الجلبة حين أفتى باعالة الزوجات المطلقات فى عهد ولاية ذكا الرومى ، حتى إنه لم يجد بدا من المسير فى حراسة الجند ، حتى لقد قيل إنه كان حول نعش منصور ما بين سيف وسكين آلاف ، وأظهروا سب القاضى ، ونسب الناس سبب موته إليه إذ أنه قد نقل عنه فى الدين كلام . وكان أبو القاسم سعيد المعروف بقاضى البقر شاعر البلاط الذى تقدمت به السن . معينا لا ينضب من القصص المسلية الممتعة ، حتى إن الإخشيد كثيرا ما كان يبعث فى طلبه فى المساء ويطلب إليه أن يروى له إحدى قصصه . وقد طلب منه الإخشيد أن يروى له قصة صغيرة وقال له : حدثنى بحديث صغير ، فقال سعيد : ما فىّ نفس ، فقال الإخشيد : « صغير بطول الأصبع » فروى له قصة ذى الكلاع . وكان هذا الشاعر المسن الذى اشتهر بالمديح الذى يدخل على النفس الغبطة والسرور هو الذي وصف كأس الراح فى هذه الأبيات التى نكتفى بأنْ ننقل منها هذين البيتين :

ياربِّ دعنى بلا صلاح   يا رب ذَرْنى بلا فلاح [2]

يدى مدى الدهر فوق رِدْفٍ   وراحتى تحت كأس راح

ثم اقرأ ما نظمه الزينى الشاعر فى مصر وفضائلها :

---

(١) ابن سعيد ص ٨٧ .

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١٠٣ . المترجم .

أنا بالفسطاط ثاوٍ ودع السلائم يلحا[1]
كم به من غصن بان قد غدا يطلع صبحا
أنا لا أترك مصراً لا ، ولا اذكر شرحا

أما المسبحى المؤلف المشهور فقد عاش فى مصر متأخراً ، إذ أنه لم يولد حتى سنة ٩٧٧ م . غير أن مؤلفاته كانت تصطبغ بما يصطبغ به القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) فى مصر . وقد كتب ثلاثين كتابا تشتمل على نحو أربعين ألف صفحة ، تتضمن الكثير من الموضوعات المختلفة كالشعر والنقد ، وتاريخ مصر ودياناتها ، كما دون رسائل فى الخمر واللهو وألوان الطعام والطهى ، كما كتب فى النجوم والشياطين والأحلام والرغائب والقسم والقصص والأمثال وغير ذلك من الموضوعات التى يمكن أن توصف بأنها « غريبة » . والواقع أن ازدهار الأدب يرجع فى الغالب إلى ذلك العبد الحبشى المحب للهو ، وهو كافور الإخشيدى ، الذى حكم هذه البلاد بعد موت مولاه سنة ٩٤٦ م اثنتين وعشرين سنة . وقد تولى فى بادىء الأمر الوصاية على ولدى مولاه المتوفى . وقد عاشا فى غموض لم يعرفا عن أمور العالم شيئا اللهم إلا ما يتعلق باللهو والمجون .

أما السنتان أو الثلاث سنوات الأخيرة من حياته فقد تقلد فيها إمارة مصر بصفة رسمية . والواقع أننا قلما نجد بين الشخصيات التاريخية ، أغرب من هذا العبد الخصى البطين . وكان قبيحا مشقوق القدمين ثقيل البدن مثقوب الشفة السفلى الأمور التى أخذ المتنبى — آخر شعراء العرب الكلاسيكيين — يسخر منها ويهزأ بها بعد أن وجد أن مديحه لذلك الأمير الأسود لم يحقق ما كان يرجوه منه وقد أصبح كافور بعد ذلك لوكولوس Lucullus وميسيناس Maecenas عصره . ذلك أنه نال قسطا لا بأس به من الثقافة والمعرفة ، شأنه فى ذلك شأن أغلب العبيد الأذكياء وكان كأكثر العبيد المجدين يدنى الشعراء والنقاد وكانت تقرأ عنده فى كل

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٦ .

ليلة السير وأخبار الخلفاء الأولين . وكانت هـذه الحلقات تجمع كثيرين من العلماء المبرزين ورجال الفكر . هنا كنت ترى الكندي مؤلف كتاب « فضائل مصر » الذي يدين له المقريزي بالكثير مما كتب والبحتري النحوي المشهور وابن عاصم الذي كتب الكثير من الشعر الغنائي ، وكان كافور يثني على هؤلاء جميعا ويجيزهم وكان كغيره من السود يحب الموسيقى ، هذا إلى أنه كان يمتلك أموالا ضخمة كان يغدق منها على أصدقائه من الأدباء الذين قابلوا هذه الهبات بالإطراء والمديح الذي كان ينطوي على كثير من الملق والرياء . مثال ذلك أن أحد الشعراء حين نظم قصيدة ذكر فيها أن الزلازل المتكررة التي كانت تحدث في ذلك العصر كانت ترجع إلى أن مصر كانت ترقص طربا لما كان يتحلى به كافور من فضائل ، تملك ذلك الأمير الحبشي السرور حتى إنه نثر على الشاعر ألف دينار وكانت مائدته تزخر بالكافور وكان كافور مسرفا في كرمه وقد بلغ ما كان يجلب إلى مطبخ القصر في كل يوم مائة شاة ومائة خروف رميس ، ومائتين وخمسين أوزة ، وخمسمائة دجاجة ، وألف طير من الحمام وغير ذلك من الطيور ومائة صحن حلوى وكان يعمل في مطبخ كافور في كل يوم ألف وسبعمائة رطل من اللحم عـدا الطيور والحلوى ، وخمسون وعاء من الفقاع(١) كان يستهلكها الخدم وحدهم . وكان عصير السفرجل في ذلك الوقت من الشراب المفضل ، لذلك كان قاضي أسيوط يرسل إلى كافور خمسين ألف سفرجلة في كل موسم(٢).

وعلى الرغم من تمسك الناس بالدين في ذلك الوقت وإيمانهم بالقضاء والقـدر ، وما كان لذلك من أثر ، كان العرب في العصور الوسطى يعرفون كيف يتمتعون بحياتهم كما كان يفعل أجدادهم في الصحراء . والغريب في أمر هذا المجتمع الإسلامي القديم أنه ظل كما كان على الرغم من ظهور الإسلام . ومع ما اقترنت به حياتهم الإجتماعية من صلاة وصوم وطقوس دينيـة مختلفة عرف المسلمون في العصور الوسطى كيف

---

(١) هو شراب يتخذ من الشعير ، سمى بذلك لما يرتفع في رأسه ويعلوه من الزبد

(٢) انظر كتاب Hist. of Egypt in the Middle Ages. pp. 88-89 وابن سعيدس ٧٨ وما يليها .

ينعمون بالحياة ، بل إنهم كانوا يجدون فرصا للمرح حتى فى دينهم . فقد كانوا يقيمون كثيرا من الحفلات الدينية ويرتدون أفخر الملابس وينظمون الإجتماعات وقد يحتفلون بزيارة القبور وينقدون جميع الخدم ليروحوا عن أنفسهم فى طرقات المدينة المضاءة بالأنوار المتلألئة التى كانت تحفل بالراقصات والمغنيـات والمقرئين ، أو فى المساجد حيث كان الدراويش يقومون بطقوسهم الدينية الغريبة . ومثل هذه الملاهى كانت تضفى على الحياة بهجة وبهاء وكان البعض يعتقد أن ما قدر له قد نقش على جمجمته ، كما وجد بعض المتقشفين من أهل الورع عزاءهم فى إطالة النظر إلى حائط أبيض حتى يرى اسم « الله » يلمع عليه .

غير أن الطعام كان أكثر ما يدخل السرور على المسلم فى العصور الوسطى . حقا إن العرب لم يعرفوا الطهى العلمى الذى نعرفه اليوم ، كما أنهم لم يتفننوا فى انتقاء ألوان الطعام . فقد كانوا يشربون حتى الثمالة ، ويأكلون حتى تمتلىء بطونهم، ونحن نقرأ عن مأدبة عامة غطى السماط فيها إحدى وعشرون صفحة كبيرة يحتوي كل منها على واحد وعشرين خروفا سمينا وثلثمائة وخمسين من الحمام والدجاج وقد تـكدست هذه جميعها حتى بلغ ارتفاعها قامة الرجل ، وكان السماط يغطى بألوان الحلوى المختلفة . وبين هذه الصحاف الـكبيرة خمسمائة طبق أقل حجما من الأطباق الأخرى يحتوى كل منها على سبع دجاجات عدا الحلوى . وكانت الورود تنثر فوق المائدة وتزينها ويصنع الخبز على شكل فطائر . أما الحلوى فكانت توضع فى صحفتين كبيرتين على شكل قصر يزن كل منهما سبعة عشر قنطارا وكان يؤتى بها إلى المائدة فوق أعمدة يحملها الرجال على أكتافهم . وقد يستطيع الرجل أن يأكل خروفا أو خروفين دون أن يتعرض لأى ضرر ، وإذا أفرط فى تناول الطعام تناول الخمر فى إسراف على الرغم من أن النبى نهى عن شرب الخمر ، وكانت الـكأس وقتئذ تسع رطلا كاملا من الخمر وطالما كان يملأها من جديد .

ومهما يكن من أمر تلك المآدب وذلك الإفراط فى الطعام فإن هناك مسألة يجب ألا تعزب عن بالنا . ذلك أن العربى لم يكن يروقه شرب الخمر فى وحدته ، بل كان يحب دائما الإجتماعات التى يسودها المرح والبهجة ، كما كان يحب أن تزخر مائدته

بالأزهار والعطور . وكان العرب يعنون بملابسهم ويعطرون لحاهم بالمسك وماء الورد ولم تكن حجراتهم تخلو من مبخرة يحترق فيها العنبر الذى ينبعث فى الحجرات .

ولم تكن للأعياد عندهم بهجة بغير الموسيقى والمغنين من الرجال والنساء على السواء ، فكنت ترى إحدى الجوارى ذات القوام الممشوق ، والوجه الذى يشبه البدر فى تمامه ، تغنى بصوت ساحر جميل بعض الأغانى الحزينة العذبة ، وكانت تصحب العود فى غنائها ، حتى يستولى الفرح على نفوس السامعين ولم تكن أكثر الولائم تخلو من نكات أحد الظرفاء المشهورين بسرعة البديهة ، ولم يكن ذلك الظريف مجرد شخص قادر على استخدام الجناس من قبيل المزاح ، بل كان من الأدباء المتعمقين فى الأدب العربى وسعة اطلاع وجمال الذوق بحيث كان يستطيع أن يكمل فى الحال أية عبارة مقتبسة ، وكان هذا الظريف بحق زينة الأدباء . ولقد بلغ من ولع الخلفاء والوزراء للشعر والغناء إنهم لم يبخلوا بأى شىء على من كان يدخل السرور عليهم من الشعراء . بل إن المتسول الذى كان يجيب بشعر رصين ، كان يملأ له وعاؤه بالذهب . أما الأديب الذى يجيب إجابة مفحمة فقد يملأ فمه بالجواهر وخزانة ملابسه بأفخر الملابس . ولقد حدث أن توفى أحد الشعراء وخلف من ورائه مائة خلعة ، ومائتى قميص وخمسمائة عمامة .

ولكن كافورا كان أكثر من محب اللهو أو مسرف فى الملذات . لقد كان قويا كالحصان ، ولكنه كان طول المارد وكان عالى الهمة يميل إلى المرح كما كان سياسيا محنكا ، إذ كان يقضى كثيراً من وقته ، وينفق جهده فى إدارة شئون الدولة . وكثيراً ما كان يظل حتى ساعة متأخرة من الليل ، واشتهر بالعدل والحلم والكرم والتقوى ، وعلى الرغم من أنه ترك ثروة طائلة من الذهب والأحجار الكريمة والعبيد والحيوان . فقد كان يغدق الكثير فى وجوه الخير وينفق فى ذلك بغير حساب وقد توفى فى سنة ٩٦٨م وكتب على قبره فى دمشق :

ما بال قبرك يا كافورُ منفردا ... بالصَّحصح المرْت بعد العسكر اللَّجب

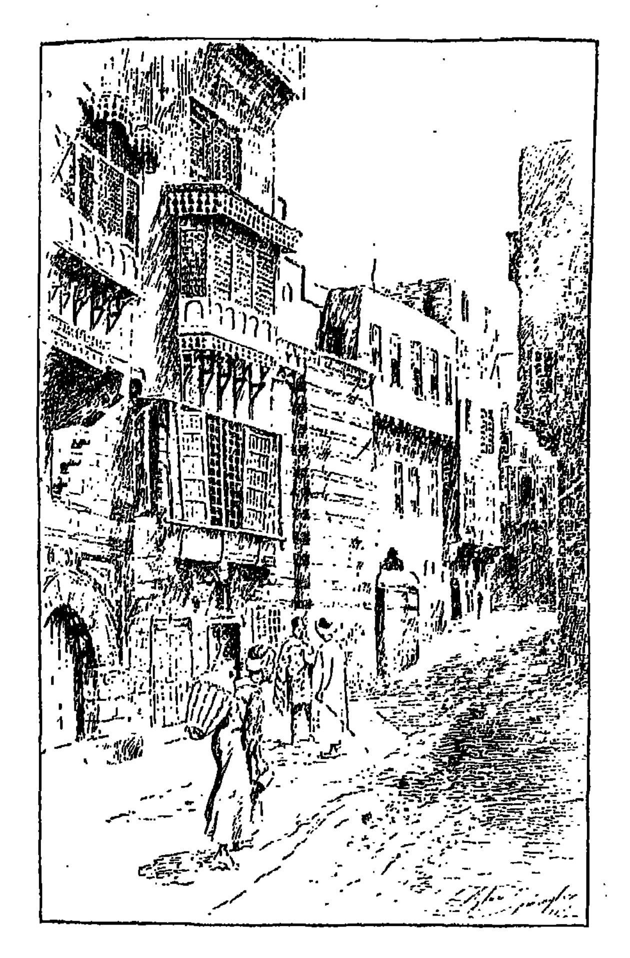
يدوس قبركِ آحاد الرجال وقد ... كانت أسودُ الشَّرى تخشاكَ فى الكتب

وفى هذه الكلمات شىء من الصحة ، ولو أنه مبالغ فيها كثيرا . حقيقة كان

كافور شجاعا ، غير أنه لا يمكننا أن نصفه بأنه كان قائدا ناجحا ، على الرغم من الانتصارين اللذين أحرزهما فى أيامه الأولى فى سورية . وإلى حنكته السياسية ومهارة موظفيه يرجع الفضل فى الاحتفاظ ببلاده — التى كانت تمتد إذ ذاك إلى حدود سورية الشمالية وتشمل بلاد الحجاز حيث نجد المدينتين المقدستين مكة والمدينة ـ حتى سادها الأمن والطمأنينة وانتشر فيها الرخاء طوال مدة إمارته ، على الرغم من انخفاض النيل أكثر من مرة ، وما تبع ذلك من القحط والزلازل المروعة التى انتابت البلاد والحريق الهائل الذى دمر أكثر من ألف وسبعمائة منزل فى مدينة مصر سنة ٩٥٤م . ومع ذلك فقد عرف الخصى الأسود كيف يحفظ النظام ، غير أنه لسوء الحظ لم يترك من يخلفه بعد موته ، مثله فى ذلك مثل معظم الحكام المستبدين المشهورين . وكان من أثر ذلك أن غزت البلاد تلك القوات التى كان يعدها الخلفاء الفاطميون منذ زمن بعيد ، نتيجة للضعف الذى كانت عليه حكومة الأمير الجديد حفيد الإخشيد .

وليس هناك وصف يستحق الاقتباس لمدينة مصر فى ذلك العصر الذى عرف بالثراء . غير أن الرحالة ابن حوقل قد أمدنا بوصف موجز بعد ذلك بقليل سنة ٩٧٨ م ، فيقدر مساحتها بثلث مساحة بغداد تقريبا، وهو يخص بالذكر أسواقها البديعة وطرقاتها الضيقة ودورها المبنية من الطوب ، وكان ارتفاعها يبلغ خمس طبقات بل سبعا فى بعض الأحيان ، وكانت تتسع لمائتين من السكان . أضف إلى ذلك الحدائق وأماكن النزهة التى كانت تحيط بتلك المدينة . وكان مسجد عمرو بن العاص الذى يقع فى وسط المدينة لا يزال أهم ما يلفت النظر من بين المبانى القائمة ، مما يدل على أنه لم تكن هناك قصور فخمة أو دور حكومية شاهقة .

وكان قصر كافور يقع فى خارج المدينة ، وأغلب الظن أنه كان فى الحديقة المسماة « بستان كافور » ، مع أنه بنى لنفسه فى وقت من الأوقات قصراً جديداً كلفه مائة ألف دينار ، وكان بجوار بركة قارون على مقربة من جامع ابن طولون . غير أن العفونة التى كانت تنبعث من المياه الراكدة دفعته إلى ترك ذلك القصر . وكانت تلك الحاضرة تقع فى مكان غير المكان الذى تقع فيه مدينة القاهرة الحالية ، لأن النيل كان قد أخذ فى ذلك الوقت يغير مجراه نحو الغرب مما أدى إلى تكوين جزيرة بولاق أو « الجزيرة » .



شارع فى مصر القديمة

وفى عصر الإخشيد . كانت مياه النيل تجرى تحت أسوار حصن بابليون ، وتحف بالعسكر ، وتمر بالمراكز التى تعرف الآن بباب اللوق وباب الحديد (١) . وكانت المياه تغمر وتتخذ جميع أحياء مصر القديمة وقصر العينى وقصر الدوبارة وبولاق . وكانت الحاضرة تنتشر على جانبى النيل وتمتد إلى جامع ابن طولون تقريبا .

ولعل أحسن وصف فى هذا الصدد ما أورده ناصر خسرو الفارسى الذى زار

(١) أنظر المقريزى ج٢ ص ١١٤ ، ١١٥ ، ١٦٣ ، ١٧٧ ، ١٨٥ وغيرها .

مدينة « مصر » فى سنة ١٠٤٧ م أى بعد وفاة كافور بثمانين سنة . حقا — ولو أن ذلك ليس من المحتمل — أن هناك تغييرات هامة قد حدثت فى تلك الفترة ، وناصر خسرو هذا لا يعرف شيئا عن القطائع . ومن ثنايا وصفه لمصر كمدينة بنيت على أرض مرتفعة وما إلى ذلك ، يتضح لنا فى جلاء أن القطائع كانت فى أيام ذلك الرحالة من أحياء مدينة مصر ، وأنه كانت لا تزال هناك بعض الدور على الرغم من الدمار الذى أعقب سقوط البيت الطولونى . وكان مسجد ابن طولون يقع فى ظاهر المدينة ويحيط به إذ ذاك سور مزدوج أقوى مما شاهده هذا الرحالة فى بلد من البلاد ، اللهم إلا إذا استثنينا آمد وميافارقين . وليس من شك فى أنه كانت هناك مأذنة قائمة فى ذلك الوقت (١) . وكان هناك سبعة مساجد فى مصر القديمة أهمها مسجد عمرو بن العاص بمحرابه المغطى بالرخام الأبيض الذى نقشت عليــه الآيات القرآنية كلها . وكان صحن المسجد يزخر بالأساتذة والطلاب وغيرهم من مختلف الطبقات ، الذين كانوا يتخذون هذا الصحن لعقد الاجتماعات العامة وبحث شئونهم المختلفة . وقد انتهى أمر هذا الجامع إلى أن اشتراه الخليفة الحاكم الفاطمى — الذى سنتكلم عنه بعد قليل — بمائة ألف دينار . أما المسجد الذى بناه ابن طولون فقد كلفه خمسة وثلاثين ألف دينار فقط ، وأدخل عليه بعض إصلاحات وقدم إليه ثريا كبيرة من الفضة علق فيها سبعمائة قنديل . وقد بلغ من ضخامة هذا المصباح أنهم لم يجدوا بدا من خلع أحد أبواب المسجد ليتمكنوا من إدخاله . وكان قاضى القضاة حتى ذلك الوقت لا يزال يعقد مجالس القضاء فى صحن المسجد .

أما فى الخارج فقد كانت أبواب المسجد تطل على الأسواق ، وفى الشمال زقاق القناديل الذى لم ير له ذلك الرحالة مثيلا فى أى مكان آخر . ولقد أعجب بما عرض هناك من بللور وأصداف وغير ذلك من النقوش الدقيقة ، كما شاهد كثيراً من سن الفيل وريش النعام وغيرها من منتجات السودان والحبشة . وفى ذات يوم — أو إذا شئنا الدقة فى الثامن عشر من شهر ديسمبر سنة ١٠٤٨ — أحصى أنواع الأزهار والخضراوات والفواكه التى شاهدها فى أسواق مدينة مصر : الورد الأحمر ، والزنبق

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامه (طبعة شيفر) ص ١٤٥ وما يليها .

والنرجس ، والبرتقال ، والنارنج ، والليمون ، والتفاح ، والياسمين ، والبطيخ ، والموز ، والزيتون ، والبلح ، والعنب ، وقصب السكر ، والقرع ، والبصل ، والثوم ، والباذنجان ، والجزر ، والبنجر ، مع أن هذه كانت تظهر فى مواسم مختلفة . وقد أضاف ناصر خسرو إلى ما تقدم أن مصر عبارة عن أرض فسيحة تنتج الفواكه التى تنمو فى الجو البارد والحار على السواء ، وأن محاصيل جميع الكور كانت تجلب إلى الحاضرة حيث تكون معدة للبيع فى الأسواق . وقد بلغ من إتقان الخزف أن ناصر خسرو كان يستطيع أن يرى يده من خلاله ، وبلغ من مهارة الصناع فى طلائه أنه كان يشبه الثياب القلمونية . وكان هنالك أيضا زجاج أخضر شفاف غالى الثمن .(وقد أيد هذا كله بقايا القمامة التى عثر عليها بين أطلال المدينة القديمة) . ومما شاهده ناصر خسرو بعض الأوانى النحاسية الكبيرة المصنوعة من النحاس الذى كان يستورد من دمشق . وقد حدث أن وجدت هناك امرأة تملك خمسة آلاف من هذه الأوانى ، كانت تؤجر الواحدة منها بدرهم واحد فى الشهر .

وكان من دواعى اغتباط ناصر خسرو أن كشف أنه لم تكن ثمة حاجة لأن يحمل المرء معه قارورة أو ورقة إذا ذهب إلى الأماكن التى تباع فيها العقاقير أو إلى تجار الحديد . فقد كان هؤلاء يزودون عملاءهم بما يودعون فيه سلعهم ، والأغرب من هذا أن التجار كانوا يبيعون بأسعار محددة بدلا من المساومة .

وإذا سولت لأحد التجار نفسه أن يغش ، طيف به على جمل يسير فى السوق وحمل جرسا وصاح يقول : لقد ارتكبت غشاً وهأنذا أنال جزائى ، ولعل الله أن ينزل عقابه بمن يرتكبون مثل هذا الجرم . وكان جميع التجار يذهبون من دورهم إلى حوانيتهم ممتطين الحمير ، وكانت هناك عند مفترق الطرق حمير للاجرة بلغ عددها خمسين ألفاً على ما نقله ناصر خسرو عن أهل مصر — ولم يكن يركب الخيل سوى الجنود .

وكانت المدينة تمتد على طول شاطىء النيل ، والأكشاك والفساطيط تشرف على النهر ، حيث كان الشخص يستطيع أن يحصل على الماء عن طريق الحبال . وكان السقاءون فى ذلك الوقت يحملون الماء — كما يحملونه الآن — فى قرب كبيرة يحملونها على ظهورهم أو على ظهور الجمال .

وبعض الدور تتألف من سبع طبقات ، فى الطابق العلوى فى كل منها حديقة ينمو فيها شجر البرتقال وغيره من أشجار الفاكهة ، ترويها ساقية يديرها ثور يحمل إلى أعلى الدار حين كان لا يزال عجلا صغيراً . وقد بلغ حجم هذه الدور من الضخامة ٣٠ ذراعاً مربعاً ، حتى إن إحداها كانت تتسع لخمسين وثلثمائة من السكان .

وكانت بعض الطرقات والأسواق المسقوفة تضاء بالمصابيح باستمرار لأن ضوء الشمس لم يكن يصل إليها .

ولكى يعبر المرء جزيرة الروضة كان هناك جسر مكون من ستة وثلاثين قاربا ؛ غير أنه لم يكن هناك فى ذلك الوقت جسر آخر يصل الروضة بالجيزة . ومن ثم كان على المرء أن يركب قاربا . وكان عدد القوارب فى « مصر » — لحسن الحظ — أكثر منه فى بغداد أو فى البصرة . ويقول ناصر خسرو إن سكان هذه المدينة كانوا يتمتعون برخاء كبير فى سنة ١٠٤٨ م . وقد حدث فى ذلك الوقت أن ولد أمير جديد فأخذ الناس يقيمون معالم الزينة فى المدينة ، حتى إنه اعتقد أن النـاس لن يصدقوا ذلك الوصف .

والواقع أن ناصر خسرو لم يعرف قط بلداً تمتع بمـا تمتعت به مصر من رخاء ونظام . وهو يحدثنا عن قصة رجل مسيحي موسر التقي به فى مدينـة « مصر » كان يمتلك مراكب للشحن لا عداد لها ، وأنه حين لجأ إليه الوزير فى إحدى سنى القحط ، قال له ذلك الثرى إنه يمتلك مخازن من القمح تسد حاجة الحاضرة ست سنين . أما الخان الذى كان يعرف بدار الوزير فقد بلغت إيجاراته اثنى عشر ألف دينار فى السنة ؛ وقد قيل إنه كان هناك مائتان من أمثال هذه الخانات .

ومن المحتمل أن تكون تلك المدينة التى وصفها هـذا الفيلسوف الفارسى فى سنة ١٠٤٧—١٠٤٨ م قد تغيرت قليلا فى أواخر ذلك القرن الذى نعمت فيه بالثراء . وكان أساس مدينة القاهرة قد فصل مرة أخرى الدوائر الرسمية والقضائية عن مدينة « مصر » قبل زيارة ناصر خسرو لها بثمانين سنة . ومع ذلك احتفظت الحاضرة

القديمة بما كانت تتمتع به باعتبارها مركز التجارة . وليس هناك ما يدعو إلى الزعم بأن شأنها قد انحط فى المائة والعشرين سنة التالية . ولقد سبقنا الحوادث حين وصفنا مصر على ما كانت عليه فى القرن الحادى عشر الميلادى . ويجدر بنا هنا أن نختم هذا الموضوع بالكلام على ما انتابها من الدمار فى القرن الثانى عشر . ففى سنة ١١٦٨ م تقدم عمورى ، ملك بيت المقدس اللاتينى ، نحو القاهرة وقد عقد العزم على غزو مصر التى آمن الصليبيون بأهميتها لسلامتهم فى فلسطين . ففى شهر نوفمبر استولى على بلبيس ولطخ اسمه بذبح كل رجل وامرأة وطفل . وقد دفع الخوف من وقوع أمثال هذه الفظائع وخطر وصول الغزاة إلى مكان قريب من القاهرة أن أمر شاور — وزير الخليفة الفاطمى فى مصر — بإحراق الفسطاط . ففى اليوم الثانى عشر من شهر نوفمبر أشعل عشرة آلاف من المشاعل وعشرين ألف برميل من النفط واستمرت هذه النيران أربعة وخمسين يوما . ولا تزال بعض آثار الحريق فى التلال الرملية جنوبى القاهرة وتمتد أميالا فوق هذه الآثار المطمورة . وكان الناس يهربون من الحريق كما لو كان قد نفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث ينسلون . وقد هجر الأب بنيه وافتقد الأخ أخاه ، وتدافعوا إلى مدينة القاهرة لينجوا بأرواحهم الغالية . وقد استغل أصحاب الجمال هذه الكارثة المفجعة فكان الواحد منهم يؤجر جمله بثلاثين قطعة ذهبية لقطع مسافة ميل أو ميلين(١) . وكان الدخان المتصاعد من النيران يرتفع إلى السماء فى شكل سحب كثيفة سوداء ، مما اضطر الغزاة إلى أن يعسكروا على مسافة بعيدة منها . وربما كان هذا الإجراء القاسى ضرورة لا بد منها ، على الرغم من أن مدينة القاهرة قد أمكن تخليصها بوسائل أخرى . غير أننا فى الوقت نفسه إذ نتطلع إلى تلك التلال الرملية المقفرة التى تحدد موقع مدينة الفسطاط الزائلة وتحمل إلى أذهاننا ذلك الأمن والرخاء اللذين شاهدهما الرحالة الفارسى ، يبدو لنا أن ألفا من غزاة الصليبيين كانوا أهون بكثير من ضياع تلك المدينة القديمة وهى « مصر » .

ومع أن هذه المدينة لم تسترد قط مكانتها بعد ذلك اليوم الذى أتت فيه النيران

---

(١) أنظر كتاب صلاح الدين للمؤلف ص ٩٣.

عليها ، يجب ألا نظن أن ثمة جهودا لم تبذل فى سبيل إعادة بنائها . وليس من السهل أن يغير الإنسان المكان الذى اعتاد أن يعيش فيه ، فما أن طرد الصليبيون حتى أخذ الناس يعودون إلى هذه المدينة ويبحثون عن دورهم التى غطاها السواد ويحاولون إصلاحها للاقامة فيها من جديد .

ولما زار ابن جبير ، الرحالة العربى الأندلسى ، مصر فى سنة ١١٨٣ م ، أى بعد أن شب فيها ذلك الحريق الهائل بأربع عشرة سنة فقط ، وجد المدينة أقل خرابا مما قد يتبادر إلى أذهاننا من العبارات التى دونت عن ذلك الحريق الذى دام أربعة وخمسين يوما . وقد قضى وقتا فى فندق « أبى الثناء » فى زقاق القناديل ، وقد سمى بهذا الاسم لأنه كانت تقيم فيه طائفة من النبلاء أمام كل دار منهم « قنديل » ، كان لا يزال بالقرب من جامع عمرو .

وعلى الرغم من آثار ذلك الدمار الحديث أعاد الناس كثيراً من الدور المخربة ، وأصبحت المبانى الجديدة التى تنتظم صفوفا لا تكاد تنقطع تكوّن مدينة عظيمة مع بقايا المدينة السابقة الممتدة من خلفها ومن حولها وعلى مقربة منها : وكل هذه المبانى تبين فى وضوح إلى أى حد كانت المدينة القديمة تمتد من قبل(١) .

غير أن الجهود التى بذلت لإعادة هذه المدينة القديمة إلى ما كانت عليه لم تصادف شيئا من النجاح . وليس أدل على هذه الحقيقة من نقص عدد السكان ، على الرغم من أن صلاح الدين وخلفاءه أسسوا فى مصر وما حولها عشرة معاهد للعلم ، اعتقادا منهم أن هذه المدينة سوف تسترد مكانتها ، فإنه لم يبن بها مسجد واحد بعد ذلك الحريق المروع ، وكانت القاهرة فى ذلك الوقت قد بدأت تحل محلها بسرعة . ولما زار ابن سعيد مصر حول سنة ١٢٤٠ م ، أحزنه منظر حيطان هذه المدينة السوداء ودورها المتهدمة وحالتها التى تنم عن القذارة والإهمال . وكان لا يزال هناك جمهور كبير فى الطرقات الملتوية ، ولفيف من الباعة المتجولين

---

(١) ابن جبير طبعة Wright ص ٥١ . أنى مدين لستر جاى لى سترينج بهذه العبارة التى ذكرتها هنا .

ينادون على سلعهم بين الطلاب والأطفال فى الجـامع العتيق الذى كان يغطيه نسيج العنـكبوت وتلقى فيه القاذورات . وكانت السفن التجارية الـكثيرة لا تزال تختلف إلى مدينة الفسطاط ، كما كانت هنالك مصانع للسكر والصابون لا يزال يجري العمل فيها(١) . إلاأن الخراب كان برغم هذا يعم المدينة بأسرها ، وتحولت عظمة «مصر» إلى القاهرة .

---

(١) المقريزى ج ١ ص ٣٤١

الباب الخامس

القاهرة

الانقلاب الشيعي — الخلافة الفاطمية — المعز — فتح مصر — تأسيس القاهرة — — نتائج الانقلاب — القبط تحت الحكم الفاطمي — العزيز — الجامع الأزهر يصبح جامعة — مدينة القصر — القصر الكبير — أبواب القاهرة — باب زويلة — وصف « وليم الصوري » — البلاط الفاطمي — ميناء المقس والأسطول — الثروة والفن والترف أيام الفاطميين — جامع الحاكم — الخليفة الحاكم — دار العلم — ألوهية الحاكم — الاستبداد العسكري وضياع الأقاليم — القاهرة في سنة ١٠٤٧ — جبر الخليج — اليازوري — الأتراك والنهب والسلب — مجاعة السبع سنين — بدر الجمالي — السور الثاني وأبواب القاهرة — الوزراء الأرمن — حكم الوزراء — الاغتيالات والاستبداد العسكري — ابن رزيق — فن العمارة الفاطمي

إن تأسيس مدينة القاهرة الحقيقية ، كما تتميز عن مدينة مصر القديمة وضواحيها ، ليدل على انقلاب خطير أبعد أثرا من مجرد تغيير دولة بأخرى ، أو انتقال موقع . فلقد كان الفتح الفاطمي الذي تمخض عن المدينة الجديدة بمثابة انقلاب في الدين وفي نظام الحكم والثقافة .

وإن الاختلافات الدينية التي حولت جامع عمرو مكانا لا نظام فيه ولا ترتيب في أيام الإخشيد ، لم تكن شيئا ، لبعد الشقة بين المذهب السني القديم وبين مذهب القادمين الجدد . وإذا أمعنا النظر في مذهب الشيعة مذهب الفاطميين وجدنا أنه لا يمت إلى الاسلام بصلة ما ؛ ذلك أنه لم يفعل أكثر من أنه اتخذ ذلك الانقسام الذي حدث في الإسلام أساسا تبنى عليه حركة سياسية واسعة النطاق . وقد نجم ذلك الشقاق القديم عمن يرث الخلافة ، ثم استحال إلى ذلك الخلاف بين نظريتي الانتخاب العام والحق الإلهي . فقد ذهب أصحاب المذهب القديم أو مذهب السنة إلى أن انتخاب الخلفاء الثلاثة الأول وهم أبو بكر وعمر وعثمان كان يتمشى مع نظام الشورى في الإسلام ، على حين ذهب الشيعيون إلى أن الحق الإلهي الذي يؤيد دعواهم

فى الخلافة ينحصر فى بيت النبى ، أى عن طريق على زوج ابنته فاطمة وأولاده من بعده ، فهؤلاء وحدهم هم ورثة محمد صلى الله عليه وسلم . وهكذا أصبح على بدوره رابع الخلفاء الراشدين . غير أنه لقى معارضة مريرة وانتهى الأمر بقتله ، وأقصى أولاده ، وهم أحفاد النبى ، عن الخلافة . ولما حاول أحدهم ، وهو الحسين ، أن يطالب بحقه فيها ، هزم وقتل . ومنذ ذلك الوقت بدأت مأساة الاستشهاد فى كربلاء تثير أعمق مشاعر الشيعة فى شهر المحرم من كل عام .

وكان اضطهاد الخلفاء الأمويين لآل محمد ، داعيا إلى عطف الناس عليهم والتأثر لمحنتهم . غير أن أحدا من خلفائهم لم يلمع نجمه فى سماء السياسة . ومن ثم فإن ثورات العلويين التى كانت تحدث فى القليل النادر أهم من المحاولات الأخيرة التى قامت فى اسكتلندة لإحياء دعاوى المدعى . ولم يكن من البعيد أن تتلاشى هذه الحركة على أنها لم تكن أكثر من عارض جديد فى عالم السياسة ، أو بمثابة تجربة سجلت على صفحات التاريخ . غير أن شيئا من هذا لم يحدث بفضل التطور الذى أدخله على تلك الحركة فى القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) ، عبد الله بن ميمون القداح الفارسي الذى كان يشتغل بالسحر والشعوذة معا .

ولقد دبر هذا الرجل الذى كان يضمر الكراهية والبغضاء للعرب وخلفائهم مؤامرة ترمى إلى القضاء على الدين الإسلامى بمساعدة هؤلاء الذين فتحوا بلادهم من غير أن يدركوا الأغراض التى كان يرمى إليها . أما عقيدته الدينية التى كانت تعمل على الإفادة من نظرية العلويين القائلة بالحق الملكى ، فإنها لم تقتصر على جذب المتحمسين الذين كانوا لا يزالون يبكون مأساة كربلاء ، بل إنها عملت على استمالة جميع الذين لم يقبلوا اعتناق الدين الإسلامى الذى ينطوى على التعصب . وقد نشر عبد الله تعاليمه التى تقول إن الله قد تجسد دائما فى شخص أحد الأئمة أمثال آدم وإبراهيم وهكذا حتى على بن أبى طالب ؛ كما قال إن العالم لم يكن أبدا بدون إمام ، غير أنه ليس من الضرورى أن يكون هذا الإمام مما تراه العين ، وهذا هو بيت القصيد فى الموضوع . وعلى ذلك فقد حدث أن قطعت سلسلة الخلافة بعد على بن أبى طالب . غير أنه على الرغم من ذلك ، كان هناك فى الوقت نفسه إمام مختف ينتحين

الفرصة للكشف عن نفسه أمام العالم . وحينما ظهر هذا الإمام المختفى إذا بالناس يجدونه « المهدى » فيصرفون نظرهم عن الخلفاء الذين اغتصبوا سلطته . وفى أثناء هذه المدة كان لابد لأولئك الذين ينتظرون عودته من أن يعدوا عدتهم من الرجال . ولئن كان الإمام لايزال مختفيا ، فإن هذا لا يمنع من أن يعمل أنصاره فى حماسة على نشر الدعوة له . وفى أثناء غيبة ذلك الشخص الذى لايعدو أن يكون لغزا من الألغاز والذى أودعت فيه كافة أسرار الله سبحانه وتعالى وجب على أنصاره أن يسيروا فى البلاد ويدعوا الناس إلى الحق .

وهكذا كانت الدعاية قائمة على قدم وساق ؛ وكانت هناك جمعية سرية أحسن تدريبها تعمل فى سائر بلاد العالم الإسلامى ، وكانت أنشط ما تكون فى بلاد العرب والجزيرة وشمال إفريقية . وكان الدعاة يختارون ويدربون على تعليم المبادىء التى يستطيع الذين دخلوا حديثا فى الدعوة قبولها فى سهولة ويسر . فأما العامة والجهال فكانوا يلقنونهم ما يبدو فى ظاهره دروسا من القرآن ويشيرون دائما إلى قرب ظهور المهدي تلك الشخصية الرائعة الغامضة . وأما المثقفون ذوو العقول المستنيرة فكانوا يلجئون معهم إلى المناقشات التى تتناسب مع إدراكهم الواسع وميولهم حتى يصلوا بهم إلى مايبغون من التشكك .

ولم يكن هؤلاء الدعاة كالمسلمين فى عقيدتهم ، بل كانوا زنادقة فيما بينهم وبين أنفسهم ، وكانوا أى شىء أمام النـاس . وكانت أهدافهم سياسية محضة ترمى إلى قلب الإسلام بمـا يدخلونه فى تعاليمه ثم ينقضون على المسلمين فيسلبونهم سلطانهم . وقد استخدموا لبلوغ غايتهم جميع مبادىء الدين دون حرج ، وكانت كلها فى نظرهم باطلة ، وإنما انتفعوا بها للوصول إلى الأهداف التى كانوا يرمون إليها ، ويبذلون قصارى جهدهم فى جذب الأتبـاع ، ولا يلقنونهم من أسرار مذهبهم إلا بقدر ما يضمنون ولاءهم . وكم استعملوا اسم على بن أبى طالب وأحاطوه بهالة من القداسة وبشروا بقرب ظهور مهدى جديد ، لالاعتقادهم فى هذا أوذاك ، ولالاعتقادهم فى الخلافة أو فى التجسد الروحى ، وإنما كان لابد لهم من أن يضربوا على وتر رنان يطرب لسماع نغماته الدهماء .

لقد أصاب دعاة الشيعة (١) ثلاث خطوات من النجاح : الخطوة الأولى هى سيادة القرامطة على بلاد العرب والجزيرة وسورية فى القرنين التاسع والعاشر ، والخطوة الثانية هى امتداد الخلافة الفاطمية إلى شمال إفريقية ومصر ، والخطوة الثالثة والأخيرة كانت انتشار مبادئ الإسماعيلية أو الحشاشين الرهيبة فى بلاد فارس ولبنان . والذى يهمنا هنا هو الخطوة الثانية ، ولو أن القرامطة والحشاشين كان لهما تأثير فى مصر .

وكانت الخلافة الفاطمية التى اشتقت اسمها من فاطمة زوج على بن أبى طالب وبنت النبى أقوى وأبرز ما تمخضت عنه حركة الشيعة ، التى وجدت فى بلاد البربر تربة خصبة لنشر مبادئها بين البربر البسطاء . وأصاب أصحاب الدعوة نجاحا كبيراً بعد أن نجحوا فى إيجاد خليفة لعلى بن أبى طالب وزوجه فاطمة فى شخص عبيد الله المهدى فى القيروان حاضرة البلاد التى تسمى تونس الآن وذلك فى سنة ٩١٠ م . ولقد خضعت بلاد المغرب من فاس فى مراكش إلى الحدود المصرية لنفوذ المهدى بعد أن غزاها مرتين ، فورث بذلك ملك الأغالبة الذين كانت لهم أعظم قوة بحرية فى الجزء الأوسط من البحر الأبيض المتوسط مائة سنة ، والذين أخضعوا بها صقلية وسردينية وقرسقة ومالطة ، فدمرت أساطيل الفاطميين فرنسا وإيطاليا ، وكانت تسلب وتنهب وتحرق أينما حلت .

وكان المعز رابع الخلفاء الفاطميين من أسرة المهدى ، وصاحب الفضل فى فتح مصر رجلا قديرا نزيها ذكيا وسياسيا بارعا خبيرا بشئون السياسة . وكان إلى جانب ذلك خطيبا مفوها ملما باللغات اليونانية والعربية ولغة البربر ، واشتهر بأنه مسلم عادل أمين لمذهب الشيعة .(٢) لقد كانت هناك اختلافات بين طوائف الشيعة فى تعاليمها ،

---

(١) أو الاسماعيلية

(٢) يجمل بنا هنا أن نشير إلى القطيعة التامة التى كانت بينه وبين القرامطة على الرغم من أن هؤلاء كانوا مصدر الانقلاب الفاطمى ، مما دعاهم إلى غزو مصر مرتين بعد فترة وجيزة من الفتح الفاطمى وذلك فى سنتى ٩٧١ ، ٩٧٤ م . وقد حاصروا القاهرة وشقوا لهم طريقا من أحد أبوابها . وليس ثمة ريب فى أن كره المعز الزائد لهذه العصابات الأعرابية كان يرجع إلى أسباب سياسية ، غير أنه لو كان متمسكا بآراء الشيعة المتطرفة لما عادى كبير زعمائهم .

بعضها متطرف غامض وبعضها يظهر واضح الهدف ، ولـكنهما متقاربان حتى إنه ليصعب التمييز بينهما . والمعروف أن المعز كان كمعظم من جاء بعـده لا يشارك الشيعيين المتطرفين آراءهم ، ولـكنه كان يؤمن بمبادىء القرآن التي تتفق مع آراء العلويين .

ذلك هو الخليفة الفاطمى الذى عزم أخيرا — بعـد أن أخضع ممتلـكاته فى إفريقية — ووصل بفتوحاته إلى المحيط الأطلسى (٩٥٩ م) ، على أن يتم غزو مصر التى حاول جده إخضاعها من قبل والتى كانت غاية ما تصبو إليه نفسه . فلم تـكن أرض بلاد المغرب الجدباء ولا قبائلها الثائرة لتقـارن بوادى مصر الخصب وتجارته النافقة . ومن ثم كان الخليفة قد وضع خطته لغزو مصر ، ولم يكن ذلك الغزو إذ ذاك أمرا عسيرا . ذلك أن مولاه جوهر الرومى الذى نشأ فى الإمبراطوريه الرومانية الشرقية سار إليها فى شهر فبراير سنة ٩٦٩ م ، فسلمت إليه الاسكندرية ، لأن المصريين الذين قاسوا كثيرا من المجاعة التى أعقبها وباء هلك فيه أكثر من نصف مليون من السكان فى مصر وما جاورها وخضعوا لقيادة ضعيفة وتعرضوا لنهب الجنود الثائرين ، كانوا قد استمعوا لهؤلاء الذين اندسوا بينهم من أنصار الفاطميين ، فلم يقاوموا الغزاة مقاومة تذكر ، وتقدم جوهر فعبر النهر بعد أن اشتبك مع جند المصريين عند الجيزة . عند ذلك تقدمت إليه نساء مصر يلتمسن منه الرحمة . وقد أعقب التسليم عفو شامل ، وأمر جوهر جنده بالـكف عن النهب والسلب ، ودخل الجيش الفاطمى « مصر » فى الخامس من شهر أغسطس .

وفى نفس تلك الليلة وضع جوهر أساس مدينة جديدة ، أو على الأصح أساس قصر حصين لاستقبال مولاه العظيم . وكان هو قد عسكر فى الأراضى الرملية التى تمتد شمال شرقى الفسطاط على الطريق المؤدى إلى هليوبوليس . وهناك على مسافة تبعد عن النهر بما يقرب من الميل وضع حدود الحاضرة الجديدة . ولم تـكن هناك مبان سوى دير العظام القديم ولا زرع سوى تلك الحديقة الجميلة المسماة ببستان كافور مما يعين جوهرا من إتمام خطته . وقد وضعت القوائم فى مربع يبلغ كل ضلع من أضلاعه ألفا ومائتين من الياردات ، وأخذ المنجمون من المغاربة الذين كان المعز يثق بهم ثقة عمياء يتشاورون فيما بينهم عن تحديد موعد الافتتاح ، وعلقت الأجراس على

الحبال الممتدة من عامود إلى آخر فى انتظار إشارة تعطى حينما يتفق هؤلاء العلماء المنجمون على حسن الطالع فتدق الأجراس ويبدأ العمال فى العمل فورا . غير أنه حدث ماعجل بالأمر وسبق كلمة المنجمين ، إذوقف غراب على طرف أحد الأعمدة، فأخذت جميع النواقيس تدق ، وبدأت المعاول تعمل فى الأرض وتحفر الحفر اللازمة للبناء . وكان ذلك طالعا غير سعيد ، فقد كان كوكب المريخ (القاهر Mars) فى صعود، ولكن ماتم عمله لم يمكن نقضه . وهكذا سميت المدينة (القاهرة) نسبة إلى هذا الطالع غير السعيد أملا فى أن يتحول الفأل المشئوم إلى نتيجة مظفرة . والواقع أنه يمكن القول بأن القاهرة قد خيبت أوهام المنجمين ، فقد حذف اسم الخليفة العباسى من صلاة الجمعة فى مسجد عمرو بن العاص القديم، وحرم لبس السواد شعار العباسيين، فلبس الخطيب ملابس ناصعة البياض ودعا فى خطبته للامام المعز أمير المؤمنين، وطلب له ولأجداده — على بن أبى طالب وفاطمة وجميع أفراد أسرتها المباركة — الرحمة والرضوان . وكانت الدعوة إلى الصلاة من فوق المآذن مما يتفق وميول الشيعة . هذا وقد أرسلت كل هذه الأخبار السارة إلى الخليفة الفاطمى على الهجن السريعة التى حملت رءوس القتلى ، وضربت السكة باسم الخليفة فضرب على أحد وجهيها : « دعاء الإمام معد بتوحيد الإله الصمد » ، وفى السطر الثانى : « المعز لدين الله أمير المؤمنين » ، وفى السطر الثالث : « (بسم الله) ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلثمائة » ، وضرب على الوجه الآخر « لا إله إلاالله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، على أفضل الوصيين وزير خير المرسلين »(١). واستمرت المساجد ودارصك النقود مدة قرنين من الزمان تنحو هذا النحو الذى يتفق وآراء الشيعة(٢) .

كان التغيير الذى تم أكثر من إبدال عقيدة بعقيدة أخرى . ويرجع الفضل فى ذلك إلى سياسة التسامح التى سار عليها الفاتحون وتجنب مبادىء الشيعة المتطرفة ، فقد رضى الناس بالنظام الجديد ولم يقابلوه بالاعتراض أو التعصب ، اللهم إلا عند ماجابههم

---

(١) انظر المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٦ — المترجم

(٢) انظر كتاب مصر فى العصور الوسطى.

الشيعيون بالاحتفال باليوم الأول من شهر المحرم تـكريما لذكرى شهداء كربلاء ، وظل السواد الأعظم من الشعب يدين بعقائد المذهب السنى ؛ أما التغيير الحقيق فـكان سياسياً ؛ فلم تعد القاهرة حاضرة ولاية تابعة للخلافة العباسية ، ولا ولاية مستقلة استقلالا داخليا داخل حدود الخلافة ، وإنما أصبحت حاضرة دولة مستقلة منافسة تشتمل على إمبراطورية من دول البحر الأبيض المتوسط . حقيقة إن الإمبراطورية لم تلبث أن فقدت ولاياتها الإفريقية البعيدة كما فقدت الجزر الأوربية وانكمشت حتى لم تعد تشمل سوى البلاد التى وصلت إليها فى عهد أحمد بن طولون . غير أن قوة الدولة الفاطمية وغناها كانا شيئا جـديدا . وكان للتنافس بين القاهرة وبغداد ، أو بين خلافة الشيعة الناشـئة والنظام السنى المتداعى ، أثر بعيد المدى فى مضمار السياسة والحضارة ، إذ كانت قوة الفاطميين البحرية واتصالهم بدول أوربا عاملا جديداً فى السياسة الخارجية وفى تنشيط التجارة وفي تغيير حضارة مصر وسورية في نواح عديدة .

ومن جهة أخرى فإن عزلة القاهرة أدت إلى نمو حضارة خاصة بها لم تـكن كلها فى مصلحة مصر ، وذلك أن غلوها فى نشر مذهبها قد عزلها عن المراكز الثقافية الهامة فى العالم العربى فى بغداد ودمشق وقرطبة . ثم إن الامتزاج القديم الذى كان من شانه أن يجلب الأساتذة والطلاب من كل أنحاء الدولة الإسـلامية إلى مساجد المدن الـكبيرة قد أصبح مستحيلا فى حاضرة مثل القاهرة كانت المساجد فيها فى أيدى رجال الدعوة الشيعية المتطرفين . ومن ثم كانت القاهرة بمعزل عن تقدم الدراسات الإسلامية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر . وقلما ظهر هناك قادة فى محيط الفـكر أو الأدب العربى تحت الحـكم الفاطمى .

أما فى بعض الفروع الأخرى كالفسلفة والعلوم الطبيعية والطبية فقد كان من المنتظر أن يظهر بعض التقدم نتيجة لسياسة حرية الفـكر التى ينادى بها الشيعيون . وذلك هو ماحدث فعلا إذ سجل بعض العلماء والأطباء المسيحيين واليهود تقدما يذكر . ولـكن هذه الحالات الفردية لا تعد شيئا إذا قورنت بالخسارة العامة التى عادت على مصر من عزلتها عن سائر العالم الثقافى . وقد تـكون القاهرة قد استفادت شيئا من

اختلاطها بأوربا . غير أن أوربا فى القرنين العاشر والحادى عشر لم تكن شيئاً مذكورا فى ميدان الثقافة .

على أن الذين استفادوا حقا من تغيير الحكومة هم القبط المسيحيون ، فحتى ذلك الوقت كان مصير القبط على الدوام يتوقف على مزاج حكام العرب أو الأتراك المختلفين . ولكن مع الخلافة الفاطمية بدأت فترة من التسامح لاعهد لهم بها ؛ فقد كان الحكام الجدد — إذا استثنينا واحدامنهم — يرعون على الدوام رعاياهم المسيحيين . وكثيرا ما بنيت أو أصلحت كنائس فى عهدهم .

وكان للخليفة العزيز بن المعز — الذى حكم من سنة ٩٧٥ إلى سنة ٩٩٦م زوجة مسيحية . وكان اثنان من أخوتها بطاركة ملكانيين . كما كان للخليفة من بين اليعقوبيين رجلان من خاصة أصدقائه ، هما البطريق افرايم وساويرس أسقف الأشمونين . وكان الأسقف يشجع على المجىء إلى القصر والتحدث فى اللاهوت مع رئيس القضاة ، كما أن البطريق قد سمح له باصلاح كنيسة الانبامكاريوس(١) فى خارج مصر . ويحدثنا أحد الكتاب الأرمنيين أنه كانت لهذا القديس كنيسة تقع على ضفة النهر ، غير أنها كانت متهدمة ومستعملة كمخزن لقصب السكر . وذلك أنه حدث فى أيام البطريق مكاريوس أن تساءل الناس عن صحة العقيدة المسيحية ومقدار صحتها أو كذبها ، فتجمع الأهالى من المسيحيين وذهبوا إلى الجبل وخرج المسلمون واليهود يشهدون الأمر بأنفسهم ، فصار المسلمون يصلون ويدعون الله أن يبين لهم الحق من الباطل ، وداموا على تهجدهم ينادون الله اكبر ، ولم تحدث المعجزة التى كانوا يرقبونها. ثم جاء اليهود وقاموا بدورهم يطلبون من الله إظهار الحق ، ولكن لم يكن حظهم أوفر من حظ المسلمين . ثم تقدم البطريق مكاريوس يتبعه الدباغ الذى كان الله قد أجرى على يديه معجزة من قبل، وتبعهما المؤمنون من الشعب ، فأخذا فى الصلاة والدعاء وإحراق البخور ، ونا ديا (كيرياليسون — ارحمنا يارب) ثلاثا . وما أن أتما ذلك حتى حدثت المعجزة وتحرك الجبل (جزء من جبل المقطم قريب من قلعة الكبش بين القاهرة ومصر) بقوة إيمان الدباغ الذى فقأ عين نفسه فى حضرة الخليفة العزيز بالله وكبار رجال حكومته

---

(١) كنيسة أبى سيفين بمصر القديمة الآن .

والفقهاء . ولما شاهد العزيز هـذه المعجزة التفت إلى البطريق وقال له : كفى أيها البطريق فقد رأينا مافعل الله لك وطلب اليه أن يتمنى عليه ما يشاء ليحققه له، فتمنع البطريق أولا . غير أن إلحاح العزيز عليه جعله يطلب إليه أن يأذن بإصلاح كنيسة قديمـة كان قد لحقها الخراب ، فأجابه العزيز إلى ماأراد . ويقال إنهـا هى نفس كنيسة الانبامكاريوس(١) . ومما يستحق الذكر أن البطريق لم يقبل المال الذى منحه إياه العزيز لإصلاح الـكنيسة ، ولـكنه أصلحها من ماله الخاص ، وتم هـذا العمل تحت حراسة قوات الخليفة التى كانت تحمى المسيحيين من (عامة المسلمين) الذين لم يكونوا يطيقون التساهل مع أولئك (المشركين) .

وكان أحد وزراء العزيز يهوديا أسلم ووزير آخر مسيحياً (ابن نسطورس) . وكان المسلمون لا يظهرون بطبيعة الحال ارتياحهم لمثل هذا التسامح الدينى مما دعاهم إلى هجاء الخليفة . أما النساء فـكن دائما فى صف المسيحيين ، وقد نجحن كما هى العادة. وحتى فى أيام الخليفة الحاكم ـ الذى سبقت الإشارة إلى أنه كان دون الخلفاء جميعا رعاية للقبط ، والذى جاء وقت اضطهدهم فيه اضطهاداً مريراً ـ كانت الوظائف الـكبرى لا تزال فى أيدى المسيحيين . وعلى الرغم مما حدث من السلب والنهب فى أيام الوزير اليازورى فى منتصف القرن الحادى عشر، يبدو أن ذلك كان نتيجة عسر مالى وليس نتيجة اضطهاد دينى. ومما لاشك فيه أن الوزراء الأرمن فى النصف الأخير من ذلك القرن كان لهم أثر عظيم فى تحسين شعور العداء نحو المسيحيين، حتى إن ناثرى الخليفة الحافظ فى القرن الثانى عشر يتلقى دروسا فى التاريخ مرتين فى كل أسبوع على يد البطريق الأرمنى ، كما أن كثيراً من الخلفاء الذين جاءوا بعده كانوا يزورون الحدائق ذات الظلال الوارفة فى الأديرة القبطية حيث كان يستقبلهم الرهبان ويبالغون فى إكرامهم . وكثيراً ماقرأ عن مساعدات قيمة أسديت لإقامة إحدى الـكنائس أو الأديرة . وقد اتخذ الخليفة الآمر راهبا مساعدا له وبنى نزلا له فى أحد الأديرة القريبة من الجيزة ، كان ينزل فيه كلما خرج للصيد ويدفع للرهبان الف درهم كلما زارهم . وكان يداخله السرور كلما وقف فى مكان القسس من الـكنيسة ، ولو أنه كان إذا دخل

---

(١) أبو صالح طبعة إفتس

سار إلى الخلف حتى يتجنب الانحناء إذا دخل من الباب المنخفض . وكذلك كان العاضد آخر خلفاء الفاطميين يلجأ إلى دير العذراء على مسافة بضعة أميال من القاهرة ينعم بالهواء وبمنظر النيل الخلاب(١) .

وكما كان للكنائس نصيب من العناية فى هذا العهد كان للمساجد نصيب لا يقل عنها . وعلى الرغم من أن عهد الفاطميين لم يكن مشهورا بكثرة المساجد التى أقامها أهل الخير والإحسان كما كانت الحال فى الشطر الأخير من عهد المماليك ، اقترن عهد الفاطميين بإنشاء جامعين كبيرين فى القاهرة كانت تعقد فيهما اجتماعات حافلة . فقد كان أول ماقام به جوهر بعد أن بدأ فى بناء أسوار القاهرة أن وضع أساس ذلك الجامع الذى لا يزال قائما حتى اليوم ، والذى أشتهر فى العالم باسم الجامع الأزهر . وقد وضع أساسه فى يوم الأحد ٣ إبريل سنة ٩٧٠ م ، وتم بناؤه في الرابع والعشرين من شهر يونيه سنة ٩٧٢ م .

وفى سنة ٩٨٨ م أصبح العلماء يؤمون هذا الجامع من كل حدب وصوب . ومنذ ذلك الوقت صار من أهم الجامعات الإسلامية كافة ، يجتمع فيه عدد كبير من الطلاب من من جميع أنحاء العالم الإسلامى من ساحل الذهب إلى ولايات الملايو . ولكل شعب رواق خاص به . ويتلقى هؤلاء الطلاب على أيدى الشيوخ دروسا فى مختلف فروع الثقافة العربية القديمة : القرآن والحديث والتفسير والفقه والنحو وعلم العروض والمنطق والبلاغة والجبر وما إلى ذلك .

وإلى سنة ١٩٠١ كان يختلف إلى الجامع الأزهر أكثر من تسعة آلاف طالب يتلقون دروسهم على أيدى تسعة وثلاثين ومائتين من الأساتذة ؛ ويتعلم هؤلاء الطلاب بالمجان . ولم يبخل أهل العلم والأدب فى القاهرة وفى كثير من الحواضر الأخرى بعلمهم وثقافتهم على طلابهم ، وكانوا يكسبون عيشهم من التدريس ومن نسخ الكتب الخطية . وكان الغرباء من الطلاب لا يتلقون العلم بدون مقابل فحسب ، بل كانوا يعطون قدرا

---

(١) هناك أدلة كثيرة على هذه العلاقة الوثيقة بين الخلفاء والرهبان من القبط وردت فى كتاب أبى صالح الأرمنى المسيحى الذى كتب بين عامى ١١٧٣ ، ١٢٠٨ والذى ترجمه وعلق عليه ونشره المستر إيفتس بمساعدة الدكتور بتلر (كنائس وأديرة مصر)

من الطعام ينفق عليه من المال الموقوف (الجراية) . وكانت الثقافة الأزهرية فى بادىء الأمر محدودة ، ولكن على الرغم من ذلك فانها مثل طيب للتعليم الحر الذى يفتح أبوابه للفقراء دون تمييز فى الجنس أو اللغة أو الطبقة .

وليس على المرء أن ينسى منظر الطلاب وقد التفوا على شكل حلقة حول أستاذهم وأخذوا يستمعون إليه كأن على رؤوسهم الطير ، أومنظرهم وهم يمشون مقبلين مدبرين يستظهرون ماتعلموه من أساتذتهم . والواقع أن هؤلاء يمثلون فى أذهاننا ما كانت عليه الثقافة العربية فى العصور الوسطى حيث الرغبة الصادقة فى العلم التى لا يتحمس فى طلبه بقصد الحصول على الجوائز أو اجتياز الامتحانات ، وذلك ماتفتقر إليه الجامعات الغربية .

والواقع أن قسما من البناء الحالى للأزهر يمثل البناء الأصلى القديم ، فقد أصلح أكثر من مرة ، وأعيد بناؤه على نطاق واسع فى القرن الثامن عشر ، وفى منتصف القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من أن بعض الأفاريز الكوفية والأروقة الفارسية التى يتميز بها الحكم الفاطمى ، نراه يصطبغ الآن على وجه العموم بصبغة حديثة .

ومهما يكن من شىء فإن الصحن المربع الشكل يقع فى نفس المكان الذى قام فيه الخليفة المعز بالصلاة فى سنة ٩٩٣ م ، عشية دخل المدينة دخول الظافر المنتصر تسبقه توابيت جثث أسلافه حيث أودعها ثرى تلك المدينة الجديدة التى بناها قائده الأمين جوهر دون أن يحفل بأمر مدينة الفسطاط الحاضرة الأولى التى كانت تستقبل الحاكم الجديد وهي فى أبهى حللها . ولقد أم الخليفة المصلين فى يوم عيد الفطر ، وخطب فيهم ، ثم غادر المسجد فى موكب حافل يحوطه الوقار ويحف به جنوده ويحرسه أولاده الأربعة شاكى السلاح يتقدمهم اثنان من الفيلة ، وظل على ذلك حتى وصل إلى القصر الذى كان قد أعده قائده جوهر لنزوله . ولم يكن الغرض من بناء تلك الأسوار الحصينة أن تضم حاضرة مصر ، إنما كان الغرض منها أن تضم مقر الخليفة ورجاله وعبيده وموظفيه وقواته من المغاربة . ولم يكن العامة من أهل مصر يدخلون إليها ، إذ لم يكن يسمح لأحد بالدخول من أبوابها بدون إذن ، حتى إن سفراء الدول

الأجنبية كانوا يترجلون حين يصلون إلى الأسوار ، ثم يمشون إلى القصر فى حراسة بعض الجند كما كانت الحال فى بيزنطة . وبالاختصار كانت القاهرة مقر الخليفة ولم تكن مدينة عامة لجميع طوائف السكان . وكانت أسوارها المرتفعة وأبوابها التى أقيم عليها الحراس تمثل العزلة والغموض الذى كان يشغف به الخليفة ، وإن اسمها الذى عرفت به وهو القاهرة (المحروسة) يوضح تلك العزلة وذلك الغموض .

وكانت الأسوار الأصلية القديمة قد بنيت من الطوب الكبير الحجم الذى يبلغ طوله قدمين تقريبا وعرضه خمس عشرة بوصة . وكان سمك هذه الأسوار بحيث يسمح لفارسين أن يسيرا فوقه جنبا لجنب . ولقد قاس المقريزى ما تبقى من هذا السور الأول فى سنة ١٤٠٠ م وقال إن الأيام لم تبق على شىء منه(١).

وكانت المساحة الأصلية القديمة أقل بمائة قدم من كل جهة من المساحة التى بنى بها سنة ١٠٨٧ م . ومن السهل علينا أن ندرك طول المدينة الأصلية التى بناها جوهر ، إذا علمنا أن باب الفتوح الحالى (بما فى ذلك جامع الحاكم) وباب زويلة (بما فى ذلك جامع المؤيد) يقعان خارج المساحة الأصلية .

أما عرض تلك المدينة فكان يمتد من باب الغريب خلف الأزهر شرقا إلى الخليج غربا ، والحد الغربى الذى كان يحاذى الخليج لا يزال يتمثل فى الشارع الذى يسمى « بين السورين » فى آخر الموسكى . وهكذا كان المكان كله يبلغ طوله من كل جهة ألفا ومائتى ياردة وتقرب مساحته من نصف ميل مربع .

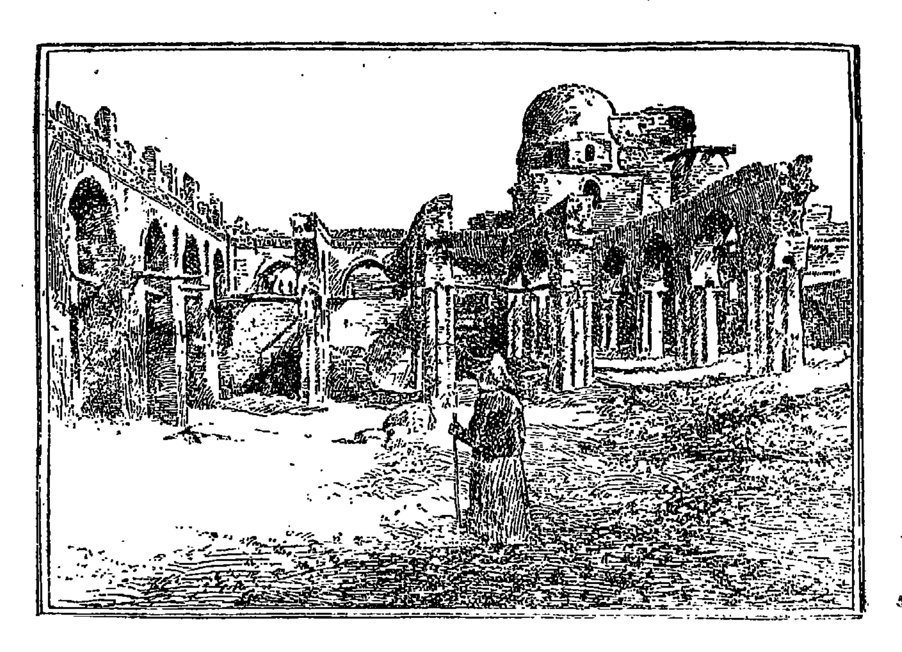
وبالقرب من وسط المدينة كان يقع ذلك الميدان المسمى « بين القصرين » ، وهو الاسم الذى لا يزال يطلق على جانب من الشارع المعروف باسم سوق النحاسين ، والذى يتاخمه الآن بعض المساجد التى يرجع تاريخها إلى ما بعد ذلك . وهذا الاسم يفسر نفسه ، لأن الميدان الذى كان أعرض بكثير من الطريق الحالى ويتسع لعرض عشرة آلاف جندى كان يفصل بين قصرين يواجهانه .

هنالك كانت تعقد الاجتماعات العامة بالمدينة . أما القصر الذى كان يقع على

---

(١) المقريزى ج ١ ص ٣٧٧ .

الجانب الشرقى فهو القصر الكبير الذى بناه جوهر للمعز ، ويقع خان الخليلى على أحد جوانبه والحسينية على الجانب الآخر . وأما القصر الصغير الذى بناه العزيز فإنه



جامع الحاكم

يواجه القصر الكبير . وقد بنى مارستان قلاوون على جزء من أرضه ، ويطل من الخلف على بستان كافور الفسيح الأرجاء الذى بنى فيه قصر الإخشيد .

وقد أفرد المقريزى نحو مائتى صفحة لوصف هذين القصرين العجيبين ، فنقرأ فى هذا الوصف عن أربعة آلاف حجرة وعن باب من الذهب يوصل إلى ردهة من الذهب ، وعن مقصورة فخمة كان يجلس فيها الخليفة فوق عرش من ذهب يحيط به حجابه وحاشيته (وكانوا فى العادة من الروم أو السودان) حيث يشاهد احتفالات المسلمين وراء ستر من الذهب . كذلك نقرأ عن قاعة الزمرد ذات الأعمدة المصنوعة من الرخام ، وعن الإيوان الكبير الذى كان الخليفة يختلف إليه فى يومى الإثنين والخميس ، فيجلس قريبا من النافذة وفوق رأسه قبة فخمة ، كما نقرأ عن الباب الذى يجلس

عنده الخليفة كل مساء يستمع إلى أصحاب المظالم ويقضى فى شكاياتهم .

كل هذه الأبنية التى تكون فى مجموعها ما يعرف بالقصر الكبير لم تكن وليدة سنة واحدة ولم تكن من عمل حاكم واحد . فقد بدأ جوهر فى بناء القصر فى نفس الليلة التى وضع فيها أساس مدينة القاهرة فى يولية سنة ٩٦٩ . وفى شهر مارس التالى كان قد تم بناء بابين من أبواب هذه المدينة . وفى سنة ٩٧٠ — ٩٧١ أقيم سور حول القصر . ويقول ناصر خسرو — الذى كتب عن هذا السور بعد ذلك بثلاثة أرباع قرن — إن قصر الخليفة كان يبدو من خارج المدينة كأنه جبل لارتفاع بنائه ، غير أن المرء حين يقترب منه قلما يتبين منه شيئا ، وذلك لارتفاع السور الذى أقيم حوله(١) .

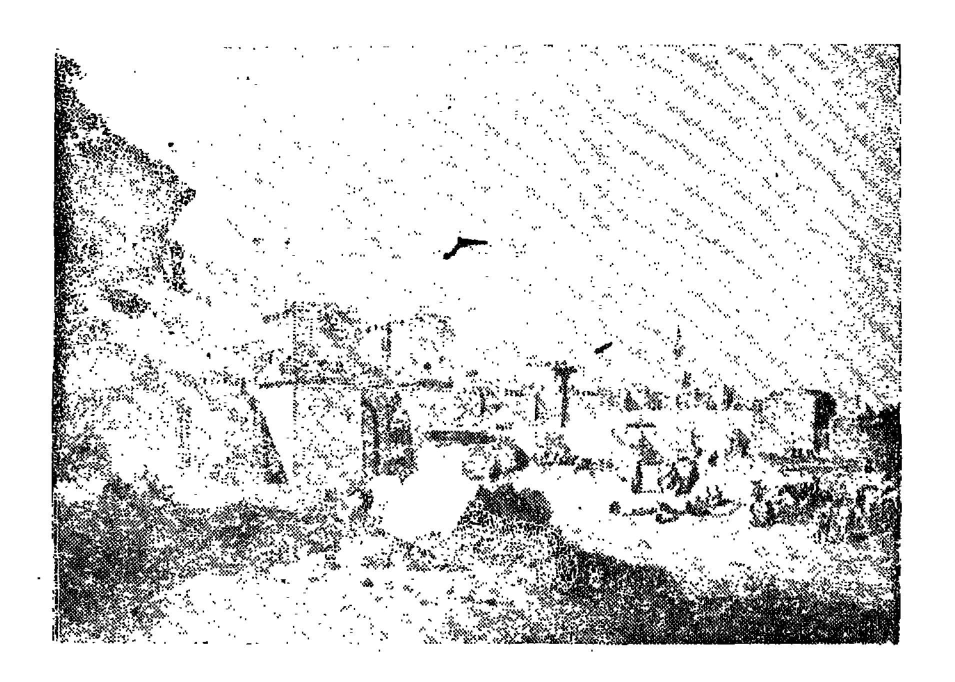
لما وضع الخليفة المعز رسم القصر الأصلى لم يكن يحوى نصف الأبهاء الفخمة التى وصفها المقريزى . فقد بنى الخليفة العزيز الذى اعتلى العرش من بعده قاعة الذهب والإيوان الكبير والقصر الصغير فى الجهة الغربية ومنظرة اللؤلؤ فى بستان كافور . وقد وسع الخلفاء والوزراء هذا القصر بعد ذلك وعدلوا فيه ، حتى إنه لما أطلق على هذه القصور اسم القصور الزهراء كانت تشمل بضعة مساكن منفصلة وعدة غرف بنيت فى أوقات مختلفة . وكان للقصر الكبير وحده عشرة أبواب عدا ممر تحت الأرض يصل منه الخليفة راكبا بغلته إلى القصر الغربى الذى أفرد للحريم . وقد بلغ عدد الخدم فى هذه القصور فى القرن الحادى عشر اثنى عشر ألفا ، وإذا أضيف عدد النساء إلى هذا العدد بلغ من كانوا يقيمون فى هذه القصور ثلاثين ألفا .

وقد قام مسيو رافيس برسم هذه القصور الفاطمية وخطط تصميمها مستعينا بوصف المقريزى فى كتابين لهما قيمتهما (٢). وعلى الرغم من أن بعض التفصيلات يجب

---

(١) من الواضح أنه يشير هنا إلى سور القصر لأنه يذكر لنا فى صراحة أن سور المدينة لم يكن له وجود .

(٢) يقع هذا الكتاب فى مجلدين يجب أن يرجع إليهما كل من يرغب فى دراسة القصور الفاطمية .



باب النصر

أن ينظر إليها على أنها ناقصة وعرضة للنقد وإعادة النظر ، فانها تمثل التنظيم الحقيقى للمدينة الفاطمية . وعلى ما جاء فى هذه الأبحاث الشائقة نجد أن القصر الشرقى الكبير كان يحتوى أولا على ثلاثة مبان مستطيلة الشكل مختلفة الأحجام تؤلف فى مجموعها ثلاثة أرباع المربع . أما الباقى وهو المربع الشمالى الشرقى فقد كان به البهو الذى كانت تقام فيه الاحتفالات ، وهومكان مكشوف يقع بين القصر الكبير ودار الوزارة حيث كان الأهالى يحتفلون بالأعياد . ويقع القصر الكبير الذى وصفناه بين دار الوزارة والأزهر . وكان الأزهر يشغل المساحة الواقعة بين خان الخليلى وحى الحسينية إلى شارع الجمالية حيث جامع بيبرس الجاشنكير الآن .

وكانت الأبهاء والقاعات والدواوين المختلفة موزعة فى تلك المبانى . أما الإسطبلات والخزائن فكان لها أبنية أخرى بعيدة منعزلة . وإلى الجانب الآخر من « بين الصورين »



مآذن باب زويله

يبدأ القصر الغربى حيث المارستان الآن ويمتد إلى حارة برجوان . وكان له جناحان بارزان فى كلا الطرفين لكى يمتد بين القصرين . أما المسافة بين القصر الغربى وسور المدينة الغربى فكان يشغلها بستان كافور تتخللها أكشاك مختلفة تطل على الخليج . وأما سائر المدينة المسورة خارج القصور فكانت فرق الجيش الفاطمى المختلفة تعسكر فى حاراتها مثل الجودرية والديلم وكتامة والبرقية وزويلة وحارة الروم وهكذا .

أما أبواب المدينة فكانت تتألف من باب النصر وباب الفتوح فى الشمال وباب القنطرة المؤدى إلى جسر جوهر فوق الخليج وباب الفرج أو باب الشعرية (١) — كما يسمى أحيانا — وباب السعادة (٢) وباب الخوخة فى الغرب وتفتح على الخليج، وباب زويلة (٣) الذى كان عبارة عن بابين فى الجنوب . أما فى الشرق فكان هناك الباب المحروق الذى سمى بهذا الاسم ، لأن بعض المماليك الهاربين كانوا قد أحرقوه فى القرن الثالث عشر الميلادى ، والباب الجديد الذى بناه الخليفة الحاكم ، وباب البرقية الذى يسمى الآن بباب الغريب . وقد سبق أن ذكرنا بعض الخرافات الحديثة المتصلة بباب زويلة ، وكان دائما مرتعا للأشباح ، وزاده رهبة أن عقوبات الإعدام كانت تنفذ على مقربة منه . ويذكر لنا المقريزي أن الباب الأصلى الذى كان بجوار معبد سام بن نوح كان يتكون من بابين ، أحدهما يسمى باب القنطرة ومنه دخل المعز حين جاء إلى القاهرة فى موكبه الرسمى الأول وحذا حذوه الناس جميعاً . أما الباب الثانى فقد تشاءم الناس ولم يدخلوا منه . ويقول المقريزى إن هذا الباب لم يكن له وجود أو أثر إلا أنه يفضى إلى الموضع الذى يعرف بالحجارين حيث تباع آلات الطرب مثل الطنابير والعيدان وما إلى ذلك ؛ وما زال شائعا بين الناس أن كل من يسلك من هناك لا تقضى له حاجة . ويقال إن السبب فى ذلك يرجع إلى أن الآلات الموسيقية لا توجد إلا فى بيوت اللهو والعبث وفى دور المغنين والمغنيات من الرجال والنساء . ولكن الأمر على العكس من ذلك ، فإن هذا القول كان جاريا على ألسنة أهل القاهرة منذ دخلها المعز وقبل أن يصبح هذا المكان سوقا للمعازف (٤) .

ولعل هذه التفاصيل الطبوغرافية تهم رجال الآثار أكثر من غيرهم . وإنه ليتحتم علينا أن نبحث فى أسفار الرحالة عن أوصاف أكثر وضوحا عن محتويات هذا القصر . غير أنه لسوء الحظ أن الأجانب الذين كانوا يزورون ذلك القصر

---

(١) نسبة إلى إحدى قبائل البربر .

(٢) نسبة إلى أحد قواد المعز (وهو سعادة بن حيان) — المترجم .

(٣) ينطق الاسم فى العادة زويله بكسر الزاى ، اما النطق الصحيح فهو زويلة بفتحها نسبة إلى إحدى قبائل البربر — المترجم .

(٤) المقريزى ج ١ ص ٣٨٠ .

الفاطمى قليلو العدد . ومن ثم فإننا قلما نجد وصفا جديدا نضيفه إلى ماخلفه المقريزى، حقيقة إن الرحالة الفارسى ناصر خسرو ذهب إلى هناك فى سنة ١٠٤٧ م ، إلا أن وصفه لم يكن واضحا . وإنا لنلمس غموضا ونقصا فى وصفه قاعة الذهب وما كان يوشى جدرانها وسقفها من الرسوم والصور التى تمثل الصيد ، وفى وصفه الستر المرصع الذى كان يفصل العرش عن الجزء الآخر من القاعة ، وكان من الذهب أيضا ، وفى وصف الدرجات المصنوعة من الفضة التى كانت توصل إلى العرش . ولعل أحسن وصف هو ما ذكره وليم الصورى عن بعثة الصليبيين فى سنة ١١٦٧ م حينما ادعى عمورى أنه حامى الخليفة ، ولو أن القصر كان قد تغير كثيرا عما كان عليه منذ قرنين من عهد إنشائه . ولقد كان مثول السفراء المسيحيين فى حضرة الخليفة أمرا لم يسبق من قبل ، حتى إنه لم يكن ليتاح ذلك إلا لقليل من المسلمين من ذوي المكانة الرفيعة . غير أن عمورى كان قويا ، وبذلك تمكن من تنفيذ ما أراد . وقد أوفد هيو صاحب قيصرية وجوفرى فلتشر أحد فرسان المعبد فى هذه البعثة إلى الخليفة . ولما حضرا أوصلهما الوزير بنفسه فى حفل رائع إلى القصر الفاطمى الكبير ، وسار بهما فى ردهات سرية يحرس أبوابها جند من السودانيين شاكى السلاح ، ثم تخطى بهما فناء فسيحاً مكشوفا تحيط به أروقة مقامة على أعمدة من الرخام ، وسقوفها تغشاها صفائح من الذهب مزينة بالألوان ، وأرضها مغطاة بالفسيفساء مما بهر أنظار هذين السفيرين وتركهما فى دهشة وإعجاب من إبداع فى الصناعة والفن الذى لم يكونا قد رأيا له مثيلا من قبل في بلاد الغرب . وكانا كلما سارا طالعهما عجب جديد : فهنا نافورات من المرمر وطيور ذات أصوات مختلفة وريش بديع اللون لا شبيه لها فى العالم الغربى . وهناك فى قاعة أخرى حيوانات أبدعت يد الفنان الماهر فى رسمها وتصويرها أو تفتقت قريحة الشاعر فى نظمها فى قصائده أو تخيلها نائم فى أحلامه ، مما لا تجود به إلا بلاد الشرق والجنوب والتى لا يراها الغرب أو يكاد يسمع بها .

وأخيرا بعد سير طويل فى منعطفات وأروقة وصلا إلى قاعة الذهب حيث عرش الذهب فشاهدا عددا كبيرا من الخدم والأتباع بملابس مزركشة فاخرة تتناسب مع عظمة مولاهم الخليفة . وهنا أخرج الوزير سيفه من غمده وانحنى أمام الخليفة فى

خشوع زائد ثلاث مرات ، كما لو كان ماثلا أمام معبود فى أحد المعابد . عند ذلك فتحت الستائر الثقيلة الموشاة بالذهب واللؤلؤ ، وظهر الخليفة جالسا على عرش من الذهب ، وقد ارتدى من الملابس الفاخرة التى لم توجد عند كثير من الملوك .

ثم قدم الوزير الفارسين الأجنبيين فى أدب جم وخشوع زائد ، وأعلن لمولاه فى صوت منخفض مقدار الخطر الخارجى ، ونوه بصداقة ملك بيت المقدس الوطيدة . فأجاب الخليفة الشاب فى وقار وجلال وعبر عن رضائه عن العلاقة القائمة بينه وبين حليفه العزيز ؛ غير أنه حينما طلب إليه أن يمد يده دلالة على توثيق ذلك الرضا ، تردد قليلا وسرت فى الحاضرين موجة من الغضب على هذه الجرأة . إلا أن الخليفة ما لبث أن مد يده — والقفاز فيها — إلى السير هيو ، وكان رجلا صريحا جريئا . فقال : يا مولاى لا يحتاج الصدق إلى ما يخفيه عهد الأمراء ، وأخيرا ابتسم الخليفة فى ألم كأنما كان ينزل عن شىء من كرامته ، فخلع القفاز ووضع يده فى يد السير هيو ، ثم أقسم بأن يرعى عهده(١) .

وليس من شك فى أن الخلفاء الفاطميين كانوا أكثر الملوك الذين حكموا مصر حبا للمظاهر . ومع أن المعز لم يكن ميالا إلى الترف والنعيم ، فقد كان يستمتع بنفسه على الدوام إلى كل كبيرة وصغيرة من شئون الحكم ، وكان ينظر فى المظالم ويدير شئون الجيش الذى كان يستمد منه قوته وسلطانه ، كما بنى دارا للصناعة عند المقس بالقرب من الأزبكية فى شمال دار الصناعة القديمة التى كانت فى الروضة وفى مصر . واستمرت المقس ميناء القاهرة ودار صناعتها حتى تغير مجرى النهر فحلت محلها بولاق .

وقد بنيت فى المقس بعد ذلك ستمائة سفينة ، وقد شاهد ناصر خسرو فى سنة ١٠٤٧ م بعض سفن المعز راسية هناك ، وكان طول كل منها نحو ٢٧٥ قدما

---

(١) راجع كذلك كتاب صلاح الدين الأيوبى للمؤلف ، ويلاحظ أن المؤرخين العرب لم يذكروا أمر هذه البعثة .

وعرضها ١١٠ أقدام(١) . وعلى الرغم من أن المعز كان يميل إلى الجد والعمل ، كان فى الوقت نفسه محباً للأبهة والظهور . فقد كانت تحيط به العظمة والجلال حين يشرف حفلة جبر الخليج ، وينفق أموالا طائلة فى صنع كسوة الكعبة بعد أن اعترفت مكة بسلطانه . وكان يعرض هذه الكسوة على الناس فى عيد الأضحى . والمعز هو الذى وضع رسم مبانى جميع القصور . ولم يكن جوهر إلا المنفذ لإرادته والقائم على أعماله المختلفة . وكانت هذه المدينة الجديدة العظيمة أكبر دليل على ميل الخليفة إلى الترف وعلى تعدد موارده وكثرتها . والواقع أن ثراء الفاطميين كما يصوره لنا المؤرخون كان يفوق كل وصف . وإنا لنقرأ عن بنتين للمعز ، تركت إحداهما مليونين وسبعمائة ألف من العملة الذهبية ، وتركت الأخرى حجرات متعددة ملأى بالجواهر ، من بينها خمسة أكياس من الزمرد وثلاثة آلاف قطعة فضية وثلاثين ألف ثوب صقلى ، حتى كان الشمع الذى استعمل فى الختم على هذه الثروة أربعين رطلا . وقد اشترى المعز نفسه مقطعا من النسيج الفارسى قدر باثنى عشر ألف من الجنيهات رسمت عليه أقطار العالم وبلدانها . كما أنفقت زوجه فى سنة ٩٦٦ م مالا كثيراً فى بناء مسجدها بالقرافة ، الذى رسمه الحسن الفارسي وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة .

وكان من أثر ذلك قبول الآراء الفنية التى كان يمقتها السنيون والتى عمل على تشجيعها الفاطميون . من ذلك رسم صور الأشخاص وتمثيلهم فى مختلف نواحي الفن ، وكان ذلك محرما فى أيام النبى(٢) .

وعلى أى حال فإن مسجد القرافة فاق كل ما بنى فى مصر من قبل إذا استثنينا ما قيل عن قصر خماويه فى القطائع . وكان رسمه كرسم غيره من المساجد ، وكان مربع الزوايا ، وعلى جوانبه أروقة كالأزهر . غير أن النقوش التى على جدرانه كانت فى غاية الإبداع ، وكانت المقصورة يدخل اليها من أربعة عشر بابا مربعة ،

---

(١) سفرنامة — طبعة شارل شيفر .

(٢) كتاب فن العرب فى مصر ص ١٠ و ١٦٣ و ٢٠١ و ٣٤١ .

أمام كل باب قنطرة مقوسة على عمودين من الرخام فى ثلاثة صفوف . وكانت الأبواب مدهونة بالأزرق والأحمر والأخضر ، كما كانت السقوف ملونة بمختلف الألوان . وكان أمام الباب الأوسط قنطرة على هيئة قوس ، ملونة بألوان مختلفة ، يكاد الناظر اليها يخالها شكلا طبيعياً . وقد حاول النقاشون أن يحاكوها فما استطاعوا .

وإنا نقرأ كذلك عن اثنين من الفنانين كان أحدهما ينافس الآخر ، أولهما القصير والآخر ابن عزيز العراقى ، وكانايتمتعان برعاية الوزير اليازورى. وقد صور أحدهما راقصة فى ثياب بيض، فى قوس ملون بالسواد ، يخيل إلى من رآها أنها داخلة فيه . وصور الآخر راقصة أخري فى ثياب حمر فى قوس أصفر ، يخالها الناظر بارزة عن القوس . وكان فى إحدى دور القرافة صورة للكتامى أحد نقاشى جامع القرافة تمثل يوسف عليه السلام يتهيأ للراحة وهو فى الجب(١) .

وكانت نفقات ذلك القصر الفخم وسكانه الذين تراوح عددهم بين عشرين ألفا وثلاثين ألفا يعيشون فى بذخ وترف . وكانت هذه النفقات تأتى من الضرائب والأجور المتأخرة من جراء سن نظام جديد للضرائب بدل نظام الضرائب القديم ، وقد جمعت كل دوائره فى مركز واحد فى دار الإمارة المجاور لجامع ابن طولون ، وتشددت الحكومة فى تحصيل ماتأخر منها . وكان من أثر هذه السياسة أن زادت موارد الدولة زيادة كبيرة ، حتى لقد بلغ ما كان يستخرج من الفسطاط فى يوم واحد مقدارا يتراوح بين خمسين ألفا ومائة وعشرين ألف دينار . وكانت الضرائب كلها تدفع بالعملة الفاطمية الجديدة ، أما العملة العباسية فقد أبطل استعمالها .

أما العزيز — الخليفة التالى — فقد كان خبيرا بالجواهر ، ابتدع نوعا جديدا من العمائم محلاة بخيوط الذهب وسروجا معطرة بالعنبر . وكانت أسلحته محلاة بالذهب ، واقتنى كثيراً من الطرف يزين بها موائده. وشغف — كخمارويه بن أحمد بن طولون — بجوارح الطير الغريبة ، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان . غير أنه فى

---

(١) راجع المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٣١٨ .

الوقت نفسه شابه أباه فى حبه للسياسة وإدارة البلاد، ولم يشغله عنها حبه للترف والنعيم.

وقد بنى العزيز أسطولا لمحاربة الإمبراطور بازيل ، وقام بنفسه بحملة موفقة ضد سورية السنية التى لم تكن قد خضعت لسلطان الفاطميين . كان عهده عهد سلام لمصر ، وكان اسمه يذكر فى صلاة الجمعة فى المساجد من جزيرة العرب إلى المحيط الأطلسى، كما كان يؤم الناس فى الجامع الأزهر باعتباره رئيسا دينيا ودنيويا . أما الجامع المعروف باسم جامع الحاكم ، فيرجع الفضل فى وضع أساسه فى أواخر سنة ٩٩٠ م إلى الخليفة العزيز ووزيره ابن كلس الذى أتمه ، وأقيمت فيه صلاة الجمعة بعد ذلك بسنة . أما الزخرفة والمآذن وغير ذلك من الأشياء الثانوية فإنها لم تتم إلا فى عهد ابنه الحاكم الذى بدأ جميع الأعمال فى سنة ١٠٠٣ م ، وأتم نقش المنبر وزخرفته فى شهر مارس من سنة ١٠١٣ م . وهكذا شهدت القاهرة مسجدها الجامع الثانى ، وكان يسمى فى أول الأول (الجامع الجديد) (أو الجامع الأنور) (على غرار الجامع الأزهر)، ثم أطلق عليه اسم جامع الحاكم . ولقد مرت بهذا الجامع أحداث أقسى مما حدثت لجامع عمرو ، فإنه لما احتل الصليبيون القاهرة فى سنة ١١٦٧م حولوا جانبا من جامع الحاكم إلى كنيسة . ولما أعاد الأيوبيون المذهب السنى إلى مصر وأبطلوا استعمال الجامع الأزهر ، لأنه كان مركز التعاليم الشيعية ، أصبح جامع الحاكم الجامع الرسمى للحكومة إذ ذاك .

ويبدو أن هذا الجامع قد استعمل بعد ذلك لمرابط الخيل . وفى سنة ١٣٠٣م قوض دعائمه زلزال مروع ، ثم أعاد بيبرس بناءه فى العام التالى . وماجاءت سنة ١٤٢٠ التى كتب فيها المقريزى عن هذا المسجد حتى كان قد تهدم مرة أخرى بفعل الحريق والإهمال، وبدأ سقفه تتساقط لبناته واحدة بعد أخرى . ومنذ ذلك العهد غدا الدهر يقسو عليه يوما بعد يوم . أما الفناء فقد تحول إلى ملعب ثم إلى منشر للملابس ، ثم إلى طريق عام يصل إليه السائر من داخل مقهى أو حانة أو مصنع للمسابح والخرز . وخير ما استعمل له هذا المسجد أنه صار متحفا للفن العربى الذى ظل فى العشرين سنة الماضية يشغل جانبا من أروقته الشرقية التى احتفظت بنقوشها الكوفية وأروقته الجميلة القديمة ، فصارت أنسب مكان تدخر فيه هذه الكنوز النادرة من الفن العربى .

وعلى الرغم من البؤس الذى يبدو على صحن جامع الحاكم وما حوله من الجدران والأروقة المتهدمة ، مازال يحتفظ بقسط كبير من أهميتــه . ويلاحظ أن الأروقة الشائعة فى جميع المبانى الفاطمية هى الفارق الوحيد الذى يميزها عن البناء الفارسى . ويعزى هذا إلى أن بناءه كان فى أوائل عهد الفاطميين ، وإلى محاكاة هــذا البناء لجامع ابن طولون . ومما يتميز به هــذا المسجد مأذنته التى يطلق عليها عادة اسم مباخر لمــا لها من شكل عجيب انفردت به . ويلاحظ أن القواعد المربعة الثقيلة لا دخل لها ببنــاء المآذن الأصلية التى بنى الجزء الأسفل منها من أحجار منتظمة الشكل عليها نقوش فاطمية . وقد تدع أبحاث هرتز بك وفان برشم ما يدعو إلى الشك بأن الطوب الذى استعمل فى المآذن يرجع إلى الإصلاح السريع الذى عمل فى سنة ١٣٠٤ م عقب حادث الزلزال الذى تقدمت الاشارة إليه . ذلك أن بيبرس لم يعن بإعادة بناء المآذن إلى الأسلوب القديم ، ولــكنه استعمل الطوب ، وربما أحاط القاعدة وغطاها بمكعبات قبيحة الشــكل خدعت كثيرا من علماء الآثار فى حقيقة شكل المآذن الأصلى . ولا يبعد أن يكون تاريخ هذه المــكعبات راجعا إلى العصر المتأخر الذى شاهد بناء أبواب المدينة . على أن بقايا المآذن الحجرية له أهميته ، لأنه يمدنا بالدليل الوحيد علي أن أسلوب بناء هذا النوع من المآذن يرجع إلى عهد الفاطميين لا إلى ذلك العهــد الذى كتب فيه المقريزى ، وذكر أن بناء المآذن من الأحجار لم يعرف قبل عهد قلاوون أى قبل سنة ١٢٨٤ . وهذه المآذن تشبه المآذن التى بنيت فى آخر عهد المماليك ، فهى تبدأ من أساس مربع يتحول إلى شكل مثمن (ذى ثمانية أضلاع) ، وأخيرا ينتهى إلى جزء أسطوانى . أما من الداخل فكانت هناك درجات حلزونية الشــكل تؤدى إلى نوافذ كان المؤذنون ينادون منها إلى الصلاة (١) .

ويعتبر الخليفة الحاكم من أبرز شخصيات التاريخ المصرى ، ولو أن شخصيته متناقضة غريبة ، حتى إن المؤرخين الذين كتبوا عنه كانوا فى آخر الأمر يفسرون

---

(١) فان برشم — مذكرات عن الآثار العربية طبعة ١٨٩١ .

سلوكه بضعف قواه العقلية . وكان الحاكم بن العزيز الوحيد ، وكانت زوجته المسيحية التي كانت شقيقة اثنين من البطارقة ، وذلك مصداق ما قيل من أن أقارب رجال الدين ليسوا أفضل من سائر الناس في أحوالهم العامة . ولم يكن الطفل الصغير يدرك شيئا عن الحكم حينما وجد نفسه يعتلي العرش طفرة واحدة وهو في سن الحادية عشرة . وكان قائده برجوان عبدا صقلبيا — ما زال اسمه يطلق على إحدى الحارات التي لا تبعد عن بين القصرين — وكان يرتع ويلهو في قصر اللؤلؤة في بستان كافور بينما كان الجند من البربر والترك يتقاتلون في الشوارع . وقد رأى الحاكم في صباه رجال الحرس من الأتراك يقدمون له رأس زعيم قواد البربر بعد أن انتصروا عليه . ولم يكن هذا إلا مقدمة لقتل نائب الملك نفسه . وبعد ذلك بأربع سنين قضاها الحاكم تحت وصاية ضعيفة تسلم أمور الدولة وكان قد بلغ الخامسة عشرة .

وكلما بدا الخليفة الصغير أمام الشعب ظهر شذوذه وتناقضه . وكان وجهه الغريب وعيناه الزرقاوان المخيفتان تجعل الناس يهابونه، وكان صوته الأجش يجعلهم يرتجفون منه . وكان معلمه يسميه الحرذون (سحلية) ، لأنه كانت له طريقة خاصة في التسلل بين الناس كما تفعل الحرذون. وكان مشغوفا بالظلام ، حتى إنه كان دائما يجمع مجلسه في الليل . وكثيرا ما ركب حماره الأشهب وجاب به الشوارع يتجسس على الناس ليطلع على آرائهم وماتنطوى عليه نفوسهم تحت ستار التفتيش على الموازين والمكاييل في الأسواق حتى صار الليل نهاراً والنهار ليلا . ذلك أنه أمر بمباشرة الأعمال ومزاولة التجارة ليلا ، فكانت تفتح الحوانيت بعد غروب الشمس وتضاء المنازل .

وكان شديد الوطأة على من يسيء إليه ، وقد حرم على النساء مغادرة منازلهن، وعلى الرجال الجلوس على المقاهي، ومنع صانعي الأحذية من أن يعملوا أحذية للنساء حتى لا يتمكن من مغادرة المنازل .

ولم يكن يسمح لهن أن يقتربن من نوافذ المساكن أو الاختلاف إلى أسطح المنازل لاستنشاق الهواء . كما حرم على الناس التمتع بأنواع الطعام والشراب . وكان الحاكم لا يشرب الخمر ، شأنه في ذلك شأن كل مسلم يحافظ على تعاليم دينه

فقد حرم شرب الجعة وصادر النبيذ والخمور واقتلع الكروم ومنع تجفيف العنب وحرم أكل الملوخية ، وجمع العسل وألقى به فى النيل . ومنع لعب الشطرنج وأحرق لوحاته وقطعه ، وأمر بقتل الكلاب كلما عثر عليها فى الطرقات ، وقلل من ذبح خيار الماشية إلا فى عيد الأضحى .

وكان يعاقب كل من تسول له نفسه مخالفة أمر من الأوامر بالجلد أو بقطع الرأس ، أو بالقتل بإحدى الطرق العديدة التى تفنن هذا الخليفة الغريب الأطوار فى إبتداعها . وليس من شك فى أن كثيرا من هذه اللوائح والتعليمات قد أملته روح الإصلاح ؛ غير أنها كانت روح مصلح مجنون .

لقد كان الواجب أن لا يترك لنساء القاهرة المرحات ، الحبل على الغارب يفعلن مايبدو لهن . ولكن من كان يظن أن يكون السبيل إلى ذلك هو مصادرة أحذيتهن ؟ أما تحريم الخمر ولعب الميسر وغير ذلك من وسائل التسلية ، فقد كان صادرا عن شخص متطرف فى أمور الدين مبتعد عن زخرف الحياة ومباهجها ، رائده فى ذلك العمل على رفع المستوى الخلقى فى البلاد ، غير مراع ما جره ذلك من استياء رعاياه وسخطهم . ولكن العس بالليل والأحكام التعسفية والقيود التى لا داعى لها كانت كلها تشير إلى عقل غير متزن . وإذا كان الحاكم يقصد الخير فقد كان الطريق إليه غريبا غير مألوف . ومن الصعب علينا أن نسبر غور هذا الجنون أو أن نميط عنه اللثام . فقد كان المسيحيون فى بادىء الأمر يتمتعون بقسط كبير من العدالة والتسامح ، ولكن حول سنة ١٠٠٥ م بدءوا يتعرضون لسلسلة من الاضطهادات والمضايقات . فقد اضطروا إلى لبس شارات مميزة لهم وملابس خاصة بهم ، كما تعرضوا إلى مصادرة أملاكهم وهدم كنائسهم . على أن المسلمين لم يكن حالهم أحسن منهم ، فقد كان الوزراء من المسيحيين والمسلمين يقتلون أو يشنقون بلا تمييز أو تحقيق ، حتى إن ابن جوهر القائد العظيم اغتيل داخل القصر ، كما أن كثيرا من الموظفين على اختلاف طبقاتهم قتلوا أو عذبوا لأتفه الأسباب . ويقال إن أحد القواد المشهورين — بعد أن أخمد ثورة أقامت مصر وأقعدتها مدة عامين — حضر حين كان الحاكم يقطع طفلا كان قد قتل — فقد حياته جزاء إزعاج مولاه حين كان مشغولا — كل هذا كان يحدث

بينما كان الخليفة الشاب يشرف على تجميل مسجده(١) وإنشاء المعهد المعروف بدار العلم داخل حرم القصر الكبير حيث كان المثقفون على اختلاف آرائهم يجتمعون ويتناقشون فى أى موضوع شاءوا ، تغذيهم مكتبة قيمة . وهذه الاجتماعات تذكرنا بالمصلى الذى بناه أكبر فى أجرا . وليس هذا هو وجه الشبه الوحيد بين هذين الرجلين العظيمين ، على الرغم من أوجه الخلاف العديدة بينهما . فقد سمح أكبر لنفسه أن يعبده الناس كأنه إله ، ووصل الحاكم فى النهاية إلى نفس النتيجة . وكان هذان الرجلان يتأثران بتعاليم الشيعة .

وليس ثمة ريب فى أن جولات الحاكم الفردية فوق حماره الأشهب فى تلال القطم المقفرة ، وتلك الليالى الطويلة التى كان يقضيها فى المرصد فوق المنحدرات حيث كان يرصد النجوم ويسبح فى الأوهام تدل على عقل تشبع بتعاليم الشيعة الغامضة . فقد كان فى نظر نفسه الإمام الذى تقمصت فيه روح الله لتظهر للعالم الجاهل ، وهو الوحيد المطلع على الأسرار الإلهية . ومن السهل أن ينتقل بعد ذلك إلى الاعتقاد بأنه إله . لقد استغرق وصوله إلى هذه الدرجة أكثر من عشرين سنة ، وساعده فى ذلك بعض المتصوفين من الفرس . حقيقة لم ينجح هؤلاء الدعاة فى نشر دعوتهم وإثبات ألوهية الحاكم ، فإن الناس كانوا لهم بالمرصاد ، فقد قتلوا واحدا وذبحوا الآخرين الذين دنسوا مسجد عمرو بكفرهم ، حتى إن الدرزى زعيم المذهب المشهور فى جبال لبنان هرب من ثورة الأهالى والناس فى إثره حتى دخل القصر ولم ينجه من أيديهم إلا تدخل الخليفة نفسه .

لم يقبل أحد التعاليم الجديدة التى كانت غير مقبولة فى نظر السنيين . ولم يكن السواد الأعظم من الأهالى من الشيعيين المتدلين بل كانوا فى الحقيقة سنيين من ذوى الآراء القديمة . وكانت مصر كلها تغلى ، وكانت قاب قوسين أو أدنى من الثورة ، إلا أن الجنود السود قاموا بأعمال وحشية ، فنهبت الحاضرة القديمة واقتحموا

---

(١) مما بناه الحاكم كذلك مصلى العيد بجوار باب النصر وجامع المقس بجوار النيل وآخر فى الحى الذى كان يسمى راشدة جنوبى القطائع على مقربة من المقطم . انظر كتاب مصر فى العصور الوسطى ص١٢٦ .

الدور وأساءوا إلى النساء وأشاعوا الرعب والفزع فى البلاد ، فقضى على الثورة فى مهدها ، وتجمعت الرجال فى المساجد تطلب المعونة والرحمة .

وجاءت المعونة من مصدر لم يتوقعه أحد . ذلك أن القوات السودانية لما أسرفت فى أعمالها الوحشية تعاون جند الأتراك مع البربر ضد السودانيين ، لا رحمة بالأهالى ولكن لمجرد كبح جماح السودانيين . وفقد الخليفة الحاكم سيطرته على الجيش ونفر منه نساء القصر ، إذ كان قد طعن فى شرف أخته ، التي أبت أن تقف إلى جانبه وتدرأ عنه الأخطار ، وتآمرت عليه . فبينما هو فى إحدى جولاته على تلال المقطم يسير في غير مبالاة ولا اكتراث كما جرت عادته ، إذا به يلقى مصيره فى اليوم الثالث عشر من شهر فبراير سنة ١٠٢١ م . وقد وجد الحمار الذى كان يركبه والملابس التي كان يرتديها وعليها آثار الطعنات التي لا شك في أنها قضت عليه . غير أنهم لم يقعوا على أثر لجثته ، وظل الناس ردحا طويلا من الزمن يتوقعون عودته فى خوف ووجل كما يفعل الدروز فى لبنان إلى اليوم .

وبعد زوال ذلك الكابوس المروع كانت القاهرة فى حاجة الى الراحة والاستقرار ، وقد تحقق لها ذلك بعد فترة من الزمان . فقد أعقب الحكم العسكرى القاسى فترة حكم فاسد على يد عصابة من رجال البلاط ، ثم حدثت فى سنة ١٠٢٥ م مجاعة دفعت بالشعب الجائع إلى قطع الطرق ، وأرهقت ميزانية الدولة ، وسلك عبيد القصر سبيل التمرد والعصيان ، وأعلنت سورية الثورة . كل ذلك والخليفة الجديد ـ الظاهر ابن الحاكم ـ يلهو مع المغنين والراقصات . غير أن حسن طالع الفاطميين لم يكن قد فارقهم بعد حيث هدأت أحوال البلاد نسبيا ، فقد جاء وفاء النيل فى مواعيده تباعا ، ونشط عامل سورية فى قمع الثورة هناك ، وهدأت حركات الجند بعد أن اختفت الحزازات بين عناصرها . وشاهدت مصر ربع قرن من الهدوء والاستقرار . وكان الوادى (مصر) هو كل ما بقى للفاطميين من أملاكهم ، فقد انسلخت بلاد البربر عنهم فى سنة ١٠٤٦ م ، وانتهى سلطانهم على البحر الأبيض المتوسط إلى الأبد ، ولم يكن يربطهم بسورية إلا قوة السلاح . وأما بلاد العرب من المدينة إلى اليمن وحضرموت ، فعلى الرغم من أنها كانت تخضع للخليفة فى مصر ، كان أميرها

الشيعى يكاد يكون مستقلا ، ولم يكن يذكر اسم الخليفة الفاطمى فى صلاة الجمعة فى بغداد مدة أربعين أسبوعا فى سنتى ١٠٥٨ و ١٠٥٩ م راجعا إلا إلى الدسائس السياسية فى أراضى الخلافة الشرقية وليس بسبب قوة الخلافة الفاطمية .

وعلى كل حال ، لم يكن هناك ما يقلق الفاطميين فى مصر : فقد اعتلى الخلافة فى سنة ١٠٣٦ م طفل صغير يبلغ من العمر ثمانية أشهر ، يدعى المستنصر ، الذى استطاع — دون أن يكون له أى نفوذ — أن يحتفظ بالخلافة حتى سنة ١٠٩٤ م . وقد اقترنت هذه الفترة الطويلة منذ أن اعتلى العرش — ولا يصح أن نقول منذ أن حكم — بالسعادة والبؤس . وعلى الرغم مما كان لوالدته السودانية من أثر سيء ، إذ جلبت من أبناء جلدتها كثيراً من ذوى البطش الذين ارتكبوا كثيرا من الأعمال الوحشية لإحداث الرعب والفزع بين سكان الحاضرة وإرهابهم — على الرغم من ذلك ، ساد هذه البلاد عهد من الاستقرار والهدوء فى أواسط القرن الحادى عشر لم تره إلا نادرا . يدل على ذلك ما كتبه ناصر خسرو بين سنتى ١٠٤٧ و ١٠٤٩ م ، حيث قال إن مصر عامة كانت فى ذلك الوقت فى بحبوحة من العيش وإنها كانت فى هدوء واستقرار لم تشهده من قبل (١) . وكان الخليفة المستنصر محبوبا من الشعب ، ولم يكن أحد يخشى سلبا أو تعديا فى ظل حكومته . ولقد ساد الأمن والنظام فى وقته ، حتى إن تجار الجواهر والصيارف لم يكونوا يحفلون بإغلاق حوانيتهم ، إذ كانوا لا يخشون عليها من اللصوص . وكان فى القاهرة وحدها ما يربو على عشرين ألف متجر كانت كلها ملكا خاصا للخليفة . وكان إيجار كل منها فى الشهر يتراوح بين دينارين وعشرة دنانير .

وقد قيل إنه كان يمتلك عشرين ألف منزل ، يبلغ ارتفاع أحدها خمسا أو ست طبقات ، وكان إيجار أحدها فى المتوسط يبلغ أحد عشر دينارا فى الشهر (أى سبعين

---

(١) كان المعتقد أن الخليفة العباسى سوف يرسل أسيرا الى القاهرة ، وأن منافسه الفاطمى كانت لديه عربة ذهبية صنعت خصيصا من أجله . وأنه أنفق مليونى دينارا لتهيئة القصر الغربى لاستقبال ضيفه . والواقع أن العرش العباسى والملابس والعمامة العباسية قد بقيت جميعها فى القاهرة إلى عهد صلاح الدين الأيوبى الذى استرد الملابس . أما العرش فقد احتفظ به ، ثم نقل فيما بعد إلى جامع بيبرس الجاشنكير — انظر كتاب مصر فى العصور الوسطى ص ١٣٩ .

جنيها فى السنة) . وكانت الدور محكمة البناء ، مبينة بالحجر لا باللبن ، يفصل بعضها عن بعض حدائق بهيجة . ولم يكن هناك أسوار للمدينة (إذ كان السور القديم قد تهدم ولم يكن الثانى قد بنى إلا بعد أربعين سنة من ذلك الوقت) . غير أن المنازل المرتفعة كانت فى حد ذاتها – كما يقول الرحالة – كالحصون فى مناعتها ، وكل قصر منها حصن منيع. (١) وكانت المسافة بين القاهرة ومصر تبلغ ميلا فى طولها ، وكانت المساحة التى تغطيها الحدائق والمنازل الريفية عرضة لأن تطغى عليها مياه الفيضان فتبدو كالبحر .

ولقد شهد الرحالة الفارسى ناصر خسرو أحد الاحتفالات التى تقام فى مصر كل عام . وهى الاحتفال بوفاء النيل أو جبر الخليج . فقد كان يحتفل به بحضور المستنصر نفسه ، وفى ركبه عشرة آلاف فارس يمتطون الخيول المطهمة الملجمة ، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب ، والأحجار الكريمة ، المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة . ويلى هؤلاء صفوف من الجمال عليها هوادج مزركشة ، وكذا كانت عدد البغال عليها من الزينة والجواهر شيء كثير . وكانت فرق الجنود تسير فصيلة تلو فصيلة ، ميممين فم الخليج ، وتتكون جنود البربر من قبيلة كتامة . وكان عددهم ٢٠٫٠٠٠ وهم من سلالة أبطال المعز ، ومن المغاربة ١٥٫٠٠٠ ، ومن المصامدة ٢٠٫٠٠٠ ، ومن الأتراك والفرس وهم المشرقيون ولو أنهم ولدوا فى مصر ١٠٫٠٠٠ ، ومن بدو الحجاز ١٥٫٠٠٠ ، ومن السودان ٣٠٫٠٠٠ (٢) . ويلى كل هؤلاء الأرقاء والحجاب

---

(١) يذكر لنا ناصر خسرو أن المدينة كانت فى ذلك الوقت مقسمة إلى عشرة أحياء وهى : حارة برجوان ، وحارة زويلة ، وحارة الجودريه (نسبة إلى قوات خاصة أصلها من بلاد المغرب) ، وحارة الأمراء ، وحارة الديالمة (الفرس) ، وحارة الروم ، وحارة الباطليه (نسبة إلى بعض جنود جوهر) وقصر الشوق (وهو قصر ثانوى) وعبيد الشراء ، وحارة المصامدة (المغاربة السمودة) . وهو يذكر لنا أيضا خمسة أبواب فقط : باب النصر ، وباب الفتوح ، وباب القنطرة ، وباب زويلة ، وباب الخليج .

(٢) كان يطلق على هؤلاء : عبيد الشراء — المترجم .

والموظفون على اختلاف مراتبهم ، والشعراء والأطباء والأمراء من مراكش واليمن ، وأمراء النوبة والحبشة وآسيا الصغرى والقوقاز وتركستان ، حتى الأمراء من أبناء سلطان دهلى ، وكانت أمهم تقيم فى القاهرة إذ ذاك .

وكان الخليفة شابا فى مقتبل العمر ، بهى الطلعة ، حليق اللحية ، يرتدى كساء طويلا ناصع البياض ، وكان الخليفة يمتطى بغلة عارية من كل مايزينها، يسير فى ركابه ثلثمائة من الديلم ، حاملين المناول مرتدين الحلل السندسية المصنوعة فى بلاد الروم . ويسير إلى جانب الخليفة أحد كبار رجال الدولة يحمل مظلة الخليفة (١) ، ويحف بهما خصيان يطلقون البخور . وكان النـاس إذا مر الخليفة سجدوا له إ كبارا واجلالا ، حتى يصل إلى الفسطاط المصنوع من الحرير الذى أقيم له عند فم الخليج . فإذا ألقى الخليفة عصاه على السد ، قام الجميع بمعاولهم ، حتى تنساب مياه النيل فى الخليج. ومن ثم يهرع الناس للتنزه فى زوارقهم فى النهر فرحين جزلين ، يتقدمهم زورق يحمل جماعة من الصم والبكم تيمنا وتفاؤلا .

كان الرحالة ناصرخسرو حسن الحظ بزيارة مصر فى ذلك الوقت ، إذ أن البلاد تعرضت بعد مدة وجيزة من زيارته إلى شر مستطير ، فقد قامت بها أعمال السلب والنهب ، وواجهت من أسباب الخراب ما واجهته لأول مرة منذ إنشائها منذ قرن من الزمان(٢) . ولقد استطاع الوزير الـكفء اليازورى أن يسيطر على جميع الأحزاب ويقضى على الخلافات الحزبية ، كما أنه بذل جهودا موفقة فى تخفيف وطأة المجاعات المتكررة . وربما كانت خرائب مخازن الغلال الـكائنة فى مصر القديمة والمعروفة باسم مخازن يوسف — هى المخازن التى كان يستعملها اليازورى لحفظ مايسد حاجة البلاد فى أيام القحط ، إذ لم يكن فى ذلك العهد رجال من أمثال ولـكـكس وسكوت منكريف، لوضع تصميم القناطر والخزانات التى تخضع النيل لخدمة الفلاح الفقير . فإن مياه النيل كانت فى أيام الفيضان إذا لم تصل إلى ارتفاع خاص من مقياس النيل بالروضة — وهو الذى كان يطلق عليه اسم نا كرونـكير — تحدث المجاعة ويصحبها

---

(١) كانت عمامة صاحب المظلة مزينة بالأحجار الكريمة ، وكان ثوبه من جنس ثوب الخليفة . أما المظلة فكانت مرصعة باللآلىء والأحجار الكريمة — المترجم .

راجع : الفاطميين فى مصر للدكتور حسن ابراهيم حسن ص ٢٥٠ .

(٢) يقصد الفتنة التى حلت بالبلاد فى عهد كافور الإخشيد — المترجم .

الوباء ، وكثيراً ما كانا متلازمين . وبعد انتشار القحط تحل الفوضى وتكثر الجرائم . وقد أبعدت مخازن اليازورى الخطر عن الحاضرة بعض الوقت ، ولكن بعد أن مات هذا الوزير بالسم فى سنة ١٠٥٨ م ، لم يبق هناك من يستطيع منع الاختلافات والسيطرة على الأحزاب . وهل أدل على عدم الاستقرار من تعاقب أربعين وزيراً فى الحكم في فترة لا تتجاوز تسع سنوات ؟ .

وكان الخليفة يستمع إلى نصيحة كل من يتقدم إليه ، حتى أصبح صغار القوم ومن لا رأى لهم يغشون مجالسه . أما الحكام الحقيقيون فكانوا هم الأجناد التركية الذين تحالفوا مع جنود البربر ، وطردوا الجنود السودانية من القاهرة وطاردوهم إلى الصعيد ، حيث عاثوا فيها وأدخلوا الرعب إلى قلوب أهلها حتى ترك الفلاحون مزارعهم وأراضيهم .

ثم غدر الجنود الأتراك بالبربر وطردوهم من القاهرة ، فهاجر البربر إلى الوجه البحرى وتعمدوا إفساد نظام الرى لنشر القحط بين الفلاحين . أما الجنود التركية فقد كانت السلطة فى القاهرة فى يدهم ، ينهبون ويسلبون ، و يجردون قصور الخلفاء مما فيها ، فبددوا المجموعات الفنية التى لاتقوم بمال(١) والأحجار الكريمة والجوهرات . وأمعن من هذا الإجرام بعثرتهم محتويات المكتبة النفيسة التى لم يكن لها نظير ،

---

(١) كتب المقريزى كشفاً باسماء ما كان فى قصور الخلفاء من الكنوز ، مالا نستطيع أن نرويه كله ، ولكنا نقتبس منه هنا : — عدا الكميات الوافرة من الأحجار الكريمة والأوانى الفضية والأوعية المصنوعة من الذهب والبلور والملابس الموشاة بالذهب وجميع أنواع الفخار — كؤوس نقش عليها اسم هارون الرشيد وأوان نقشت بالميناء تأهديت للعزيز من امبراطور الروم ، وسيف النبي ودرع الحسين شهيد كربلاء وسيف المعز ، وكميات من الرماح المرصعة بالجواهر ، وجراب وأسلحة وصحاف ومحابر من ذهب ، وعدد كبير من الشطرنج ، رقعته من الحرير موشاة بالذهب ، وقطعه من الأبنوس والعاج ، ومرايا من الصلب ، وأكواب من العنبر ، ومنضدة من العقيق ، وطاووس من الذهب له عينان من الياقوت الأحمر ، وريش من المعدن بالميناء وظبي مرصع باللآلئ وعمامة مرصعة بالجواهر تزن سبعة عشر رطلا ، وثمانية وثلاثون زورقا ملكياً بينها واحد من الفضة وفسطاط الخليفة الظاهر والأوتار المصنوعة من الفضة وفسطاط اليازورى ذى النقوش البديعة التى استغرق صنعها تسعة أعوام كاملة عمل خلالها خمسون رساما ، وكان يبلغ طول عمودها مائة وعشرين قدماً ومحيط الفسطاط حوالى ألف قدم .

والتى كانت تحوى ضمن ما تحويه مائة ألف مخطوط لا يزال المستشرقون يجدون فى البحث عن بعضها . ولقد استخدم هؤلاء العابثون تلك الكنوز الثقافية النفيسة فى رتق أحذيتهم وفى إشعال النيران ، بل كانوا يلقون بها فوق أكوام القاذورات .

ولما أصبحت مصر العليا والسفلى فى قبضة جند السودان والبربر ، انقطعت المؤن عن الحاضرة وبدأت المجاعة الكبرى فى سنة ١٠٦٦ م واستمرت سبع سنين ، قاست منها مصر الأمرين ، وأصبحت على شفا الخراب ، وظل الجنود السرحون يلقون الرعب فى قلوب الفلاحين ويشلون حركتهم فى أعمال الزراعة ، ولم يكن هناك من يخفف من سوء الحالة الناشئة عن انخفاض النيل أو من يقوم ببذر حبوب العام التالى . وبانقطاع استيراد المؤن العادية إلى القاهرة ومصر أحس الناس فى هاتين المدينتين بالضيق والحرمان ، ومسهم الضر ، حتى إن ثمن الرغيف بلغ ثمانية جنيهات والمنزل يستبدل بربع من الدقيق ، والنساء يلقين بمجوهراتهن النفيسة لأنهن لم يجدن من يأخذها مقابل شىء من الطعام . وكانت الخيل والكلاب والقطط تباع بأثمان فادحة ويقبل الناس على التهام لحمها ، وسرعان ما عدمت أمثال هذه الحيوانات حتى لم تبق فى المدينتين دابة تذبح . وقد أقفر إسطبل الخليفة ، حتى إن خدمها الجياع لم يبق عندهم إلا ثلاثة أفراس هزيلة عجاف ، وبدأ الناس يخطفون بعضهم ليسدوا رمقهم ، وبيع لحم الإنسان عند القصابين ثم أعقب ذلك وباء حصد الأرواح بمنجله حصداً ذريعاً ، واكتسح الديار داراً بعد دار لا فرق بين غنى وفقير ، حتى إن السادة المترفين كانوا يعرضون أنفسهم فى الحمامات العامة لقاء كسرة من الخبز . أما الخليفة فكان مديناً بحفظ حياته لابنة أحد الفقهاء بما كانت تقدمه له من الطعام ، إذ كانت تجرى عليه رغيفين فى كل يوم ، بعد أن سلبه الأتراك ما عنده وهجرته حاشيته وفرت زوجته وبناته إلى بغداد خوفاً من الطاعون .

ولم يحدث أن مر بمصر فى حياتها كلها مثل تلك السنين السبع العجاف . غير أن لكل شىء نهاية ، فقد جاء محصول سنة ١٠٧٣ م وفيراً ، وقتل قائد الجنود التركية وقطعت جثته إرباً ، ثم من الله على البلاد بوزير خطير فى سنة ١٠٨٤ م فأنقذ الدولة من الدمار — ذلك هو بدر الجمالى الذى أرسل إليه الخليفة يستدعيه فى محنته . وكان بدر أرمينياً ، ولكنه لم يكن مسيحياً . وقد نشأ نشأة مملوك ، ثم رفعته عبقريته إلى

أعلى المناصب ، فكان واليا على دمشق ثم عكاء ، وكان بدر هذا رجل الساعة. وقد حدث أن دخل على الخليفة، والقرىء يتلو بين يديه : « ولقد نصركم الله ببدر » (١). فتفاءل الخليفة وقاطع القرىء ولم يتركه يتم قراءته وقال : ألا لو قلت بعد هذا شيئا لقطعت رأسك . لم يتوان القائد العظيم فى التخلص من طائفة الأتراك فأعمل فى قوادهم القتل ونجى مصر من عهد الإرهاب . وقد قلده الخليفة قيادة الجند ، ومنصب قاضى القضاة وداعى دعاة الشيعة ، وصار رب السيف والقلم . ومالبث أن أعاد الأمن إلى الحاضرة ، ثم وجه همته إلى الأقاليم ، فأخضع البربر والسودان والعرب وأعمل فيهم السيف حتى ساد الأمن والنظام فى كافة البلاد من الإسكندرية إلى أسوان . وقد بدأ الفلاحون — بعد أن عاد إليهم الأمن والطمأنينة — فى فلاحة أراضيهم مرة أخري، فزادت، واردالدولة بسرعة واستردت البلاد خلال عشرين عاما نشاطها وحيويتها .

والواقع أن القاهرة قد استفادت إلى حد بعيد من تلك السياسة الرشيدة التي اتبعها ذلك الأرمنى العظيم — بدر الجمالى — فقد كان التجديد فى مبانيها قد وقف منذ أن بنى العزيز قصره الغربى ومنظرة اللؤلؤة قبل قرن من الزمان ، ولو أن الحاكم أتم بناء مسجده الأول ، وبناء دار العلم . أما المستنصر فكان يفضل منظرته التى بناها فى هليوبوليس على مثال بناء الكعبة الشريفة بمكة ، وأنشأ بجوارها بركة من خمر متمثلا فيما عمل ببئر زمزم حيث كان يطيب له أن يتهكم على الحجر الأسود وعلى مياه البئر الآسنة بما لم يجرؤ عليه رجل من المسلمين . وما أن بدأ بدر الجمالى عهده حتى سمعت أصوات آلات البنائين ، وكان لا بد من تحصين القاهرة لتأمين شر تمرد الجند وعصيانهم كما حدث من قبل . وكان السور القديم المبنى بالآجر قد هدم فى الوقت الذى اتسعت فيه رقعة المدينة لامتدادها خارج الأسوار التى بناها جوهر ، فهدمت الأبواب وأعيد بناؤها بالحجارة بين سنتى ١١٨٧ و ١١٩١م بحيث ضمت بينها مساحة أكبر من مساحة المدينة القديمة : من ذلك الحى اليونانى فى الجنوب الذى دخل فى نطاق المدينة . وبنى سور جديد من الآجر قام صلاح الدين الأيوبى بتوسيع مساحة الأرض التى يضمها ، ولكن أسوار بدر الجمالى مازالت باقية الى الآن ،

---

(١) يشير بذلك الى غزوة بدر ، أولى غزوات الرسول .
من سورة آل عمران — المترجم

وتصل باب النصر بباب الفتوح من جهة الشمال وتمتد إلى طابية على مسافة ثلثمائة وثلاثين قدما غربي باب الفتوح ، وإلى زواية شرق باب النصر ما يقرب من مائتى قدم ، كما توجد قطعة أرض أخرى مما حوته هـذه الأسوار بين المنازل التى تقع على مقربة من باب زويلة ، كما كانت هناك قطع أخرى من تلك القطع التى كانت فى داخل الأسوار حتى سنة ١٨٤٣ م غربى الأزبكية .

ولم يطرأ على الأبواب الثلاثة الكبيرة تغيير يذكر إلا ما كان منها خاصا بأبراج باب زويله، حتى اقتطع منها قليلا بحيث يسمح لمآذن مسجد المؤيد الذى بنى فى القرن الخامس عشر بالظهور . وهـذه الأبواب هى فى الحقيقة أروع آثار الفاطميين . إلا أنها بيزنطية وليست عربية . ويقول أبو صالح الأرمنى إن راهبا قبطيا يقال له حنا هو الذى قام بعمل الأسوار والأبواب للوزير الأرمنى ، غير أنه مهما يكن ماقام به هنا فى تصحيح الأسوار أو الأبواب، فإنه لايمكن أن يكون هو المهندس الذى وضع رسم هذه الأبواب التى أقيمت على الطراز النورمندى(١) . وعلى ذلك فإن المقريزى كان على حق فى نسبتها إلى ثلاثة إخوة من أهالى الرها ، وهى مدينة يكثر فيها الأرمن وكان من الطبيعى أن يلجأ إليها بدر الجمالى ـ وهو الخبير بسورية ـ للبحث عن المهندسين الذين يحتاج إليهم ، وقد بنى كل واحد منهم بابا . ومما يؤيد صحة هذا القول أن هذه الأبواب بنيت على الطراز المعروف بالسورى البيزنطى ، وأنها تحمل شواهد كثيرة من أساليب العمارة البيزنطية . وعلى الجملة ، فإن أبواب القاهرة وأسوارها ، كما ذكر فان برشم ، بنيت على مثال فرسان المعبد ـ تمييزا له عن الطراز الفرنسى ـ فى الهندسة العسكرية ، وهو طراز فرسان المعبد البيزنطى العظيم الذى يمكن أن نتتبع خصائصه فى مختلف البلدان والعصور فى القسطنطينية ونيقية وبروسة ، وفى الحصون العربية القديمة فى شمال سورية ،وفى العصور التى تلت الحروب الصليبية فى أسوار بيت المقدس .

وأهم مايميز هذا الطراز من البناء هو الأبراج المربعة ونوافذها المربعة أو المستديرة التى تختلف عن الطراز الفارسى ذى الأقواس، وهو ما بنيت على غراره المساجد الفاطمية

---

(١) أبو صالح والمقريزى أنظر مذكرات فان برشم (طبعة ١٨٩١) ص ٣٧ — ٧٢ فى بحث هندسة الأسوار والأبواب .

والأبراج المستديرة الموجوده فى سور صلاح الدين . ويتراوح سمك الجدار فيها بين أحد عشر وثلاثة عشر قدما ، وتقع فيه حجرات الرماة بالقوس وآلات الدفاع الأخرى ، وتتكون هذه الأبواب من فتحة مقنطرة سقفها المقوس مستدير . وعلى جانبيها أبراج أعدت بها أماكن الرماة بالقوس أو بإلقاء الأحجار ، ويتصل بعضها ببعض بطرقات فوق قنطرة الباب . ومما يزدان به باب النصر درجات حلزونية بديعة الشكل وأفاريز رائعة الصنعة ، ودروع منقوشة وكتابات كوفية جميلة (١) تمثل عقيدة الشيعة ، شأنها شأن كتابة مماثلة على باب الفتوح . على أنها بقيت ثمانية قرون دون أن تمحوها الحكومات السنية التى حكمت مصر في هذه المدة . والخلاصة أن الأبواب الثلاثة الكبيرة هى أثر رائع لأحد وزراء القاهرة العظام فى العصر الوسيط . وقد أفادت مصر كثيرا من حكم الأرمن مدة ستين عاما .

ومات بدر الجمالى فى سنة ١٠٩٤م ، وهى السنة التى مات فيها الخليفة المستنصر . ولكن الأفضل خلف أباه بدر الجمالى فى منصبه وظل على ذلك حتى أمر الخليفه الآمر بقتله فى سنة ١١٢١ م . وفى سنة ١١٣١ م كان أبو على بن الأفضل يحكم نيابة عن الخليفة المنتظر . وهكذا نرى العودة إلى نظرية الشيعة القديمة التى تقول باختفاء الإمام متجاهلين بذلك حقوق الفاطميين .

ولما قتل أبو على بن الأفضل وهو فى طريقة إلى ملعب الكرة (بولو) تقلد الوزارة يانس أحد عبيد الأفضل ، ثم خلفه بهرام الأرمنى المسيحى حتى سنة ١١٣٧ م. وقد أدى نفوذ الأرمن المتزايد إلى حصر المناصب الرئيسية فى مختلف دواوين الحكومة فى أيديهم . وكان لهذا رد فعل طبيعى أدى إلى طرد بهرام وألفين من بنى جلدته ، وزال نفوذ الأرمن بعد أن خدموا البلاد خدمات جليلة وحكموا حكما يتسم بالعدل وبعد النظر واتساع الأفق . ولاشك فى أن بدر الجمالى وابنه قد أسديا الى مصر خدمات جليلة . ولئن قيل إنهما جمعا ثروة طائلة — إذ بلغ ماجمعه الأفضل ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وبلغ دخله من بيع ألبان ماشيته خمسة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين ألف من الجنيهات — فإن آل الجمالى قد جمعوا ثروتهم بجدهم وذكائهم . وكان العدل

---

(١) نشر هذه الكتابة المستر هـ . ل كاى فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية .

والكرم من شيمتهم . أماسياستهم نحو القبط فقد لهجت الألسنة بالشكر والثناء عليهم . ومع أن أبا على أحيا تلك النظرية الشاذة الخاصة بالإمام المختفي الذى نقشت صورته على النقود ، فقد ورث عن أبيه وجده صفاتهما الطيبة وتسامحا إزاء المسيحيين، وأظهر اعتدالا ، كما كان صديقا لهم ونصيرا للعلم .

وسوف نرى أنه منذ عهد وزارة بدر الجمالى أصبحت مصر لا يحكمها الخلفاء ، وإنما يحكمها الوزراء ، وهذا يشبه النظام الميروفنجى الذى كان عماده ناظر السراى أو القهرمان (١) .

والواقع أنه منذ عهـد الحاكم الذى اتسمت سياسته بالاستبداد ، لم يحاول أى خليفة أن تكون له سلطة مباشرة فى شئون الدولة ، اللهم إلا الخليفة الآمر الذى حاول أن يكون وزير نفسه بمساعدة الراهب ابن كنة . غـير أن هذه التجربة قد أخفقت ، فقد تملك الراهب الزهو والغرور ، وأمر الخليفة بقتله ، فضرب بالسياط حتى مات . ولما كان الآمر قاسيا كرهه النـاس ولم يلبث أن قتله أحد الإسماعيلية وهو فى طريقه من الهودج ، وهو المنزل الريفى الصغير الذى بناه فى جزيرة الروضة إرضاء لميول زوجته البدوية ، وكان ذلك فى سنة ١١٣٠ م . ولم يكن له أثر إلا بناء المسجد الأقمر بين القصرين . ومنذ مقتل الآمر نزل الخلفاء عن السلطة للوزراء الذين أصبحوا هم أنفسهم أداة تحركها الأحزاب العسكرية . أما التقشف والعزلة التى نادى بها الفاطميون من رجال الدين ، فقد كانت لا تزال تراعى فى ذلك الوقت كما ذكرنا فى وصف الفارسين اللذين أرسلهما عمورى ملك بيت المقدس ؛ غـير أنه يجب أن نعرف أن ذلك التبجيل والاحترام الزائد قد صارا أقرب إلى الهزل منـه إلى الجد . فإن قتل الآمر والظافر ، وحبس الحافظ ، وقتل الوزير الشاعر رضوان أمام مسجد الأقمر على يد حراسه السودانيين المدمنين على الخمر ، ودس الخليفة السم لابنـه على يد طبيبه المسيحى ، ومنظر سفك الدماء المروع فى القصر حيث عرض الطفل الفائز أمام رجال القصر بصفته إمامهم الروحى ، وهم يرتجفون من الخوف

---

(١) نسبة إلى أول ملوك الفرنجة فى فرنسا ، والاسم مشتق من ميروفنج جد كلوفس ملك الفرنجة — المترجم .

والفزع(١) — كل هذا لا يدل على أي احترام حقيقي لخلافة الشيعة الغامضة . وقد عرفت بغداد الخلفاء الذين لا سلطة لهم منذ عهد طويل ، وكان منافسوهم على ضفاف النيل أيضا أشباحا لمجد غابر .

وكان الرعب الذى حل بالبلاد أخيراً أكثر مما يحتمله سكان القاهرة الذين طالما قاسوا الشدائد واحتملوها : فإن قتل الخليفة الظافر بعد قتل الوزير الكردي ابن السلار بفترة وجيزة ، والمذبحة المروعة التى حدثت فى القصر ، والجرائم التى تمت بتدبير الأقرباء والندماء ، والوحشية التى انطوى عليها عرض الخليفة الطفل وهو فى سن الرابعة وسط جو من الرعب والهلع — لاشك أن ذلك كله قد أثار روح الانتقام . وسرعان ماهرب الوزير الجديد عباس ورجمه الأهالى بالحجارة حتى قتل بالقرب من البحر الميت . أما نصر ، وهو القاتل ، فقد ألقى جماعة فرسان المعبد القبض عليه وسلموه إلى نساء القصر لقاء مبلغ ثلاثين ألفا من الجنيهات ؟ فقمن بتعذيبه وقطع أوصاله وسمل عينيه ، وبعث ليشهر به فى شوارع القاهرة ثم يصلب على باب زويلة . وكانت النساء قد أرسلن فى أثناء اشتداد المحنة بهن خصائل من شعورهن إلى والى الأشمونين فى صعيد مصر يستنجدون به ؟ فلبى طلائع بن رزيق نداءهن فى سنة ١١٥٤م ، وركب إلى القاهرة وهو يلوح بتلك الخصائل ، ووركابه تابع عربى واحد ، وتسلم الوزارة فى دار المأمون (٢) ، فاستعادت الحاضرة ثقتها . وكان طلائع قد تشبه بالوزراء المحدثين ، فاتخذ لقب ملك ، ولقب نفسه الملك الصالح . ويعد طلائع هذا آخر دعامة للدولة الفاطمية المتداعية .

وكان طلائع رجلا مثقفا شاعرا واسع الإدراك ، كريما متواضعا ، يتعهد الأمور فى كياسة وحكمة . ويدل مسجده الذى لا يزال بالقرب من باب زويلة ، على تقواه

---

(١) هذا المشهد يصفه لنا الأمير العربى أسامة بن منقذ الذى كان يقيم فى القاهرة فى ذلك الوقت ، والذى كان صديقا لعباس قاتل الخليفة والوزير على السواء . أنظر حياة أسامة تأليف ديرامبرج ص ٢٠٥ — ٢٦٠ .

(٢) شيد هذا القصر أحد الوزراء السابقين ثم حوله صلاح الدين إلى مدرسة ، ويقع بالقرب من جامع الأشرف الحالى فى شارع الغورية .

وسماحته ، كما يدل على ما بذل من جهد فى سبيل تجنيب مصر العواصف التى كانت تتركز فى سورية وفلسطين نتيجة الارتباكات السياسية . إلا أن نساء القصر وجدن أنهن قد استدعينه لإنقاذهن ، ولكنه كان مؤدبا قاسيا ، فنسين فضله ودبرن أمر مقتله . وكان آخر ماقال إنه آسف لعدم غزو بيت المقدس واستئصال شأفة الفرنجه ، وحذر ابنه من شاور العربى أمير الصعيد . وكان على حق فى نصحه ، لأن شاور عزل رزيق (ابن الوزير) ثم قتله فى مستهل سنة ١١٦٣ م . ولم يمض عام حتى كان ملك بيت المقدس المسيحى فى مصر .

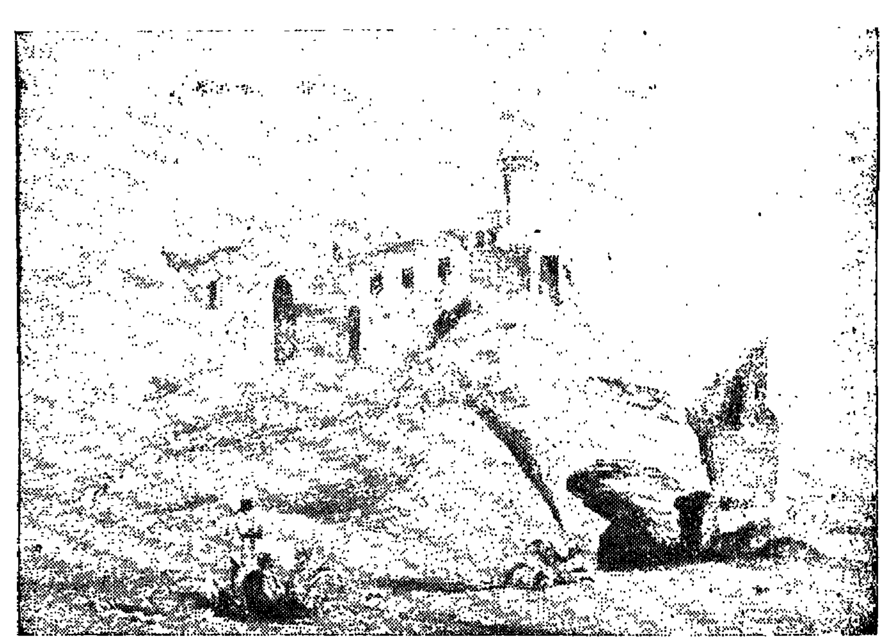
وقبل أن ننتقل إلى غزو الصليبيين للقاهرة وإلى وصول صلاح الدين الأيوبى اليها وانتهاء حكم الفاطميين بموت العاضد آخر خلفائهم ـ يجمل بنا أن نذكر شيئا عن بقايا المدينة التى خلفتها تلك الدولة الفاطمية وهيأت لها كل عوامل الفخامة والأبهة التى لامثيل لهـا ، إذ لم يبق بماشيد من الأبنية التى تشهد لهذه الدولة بالعظمة سوى الأبواب الثلاثة العظيمة وجانب من الأسوار وبقايا أربعة مساجد (١) . أما القصور فقد عفت آثارها ، ذلك أن الذين خلفوا الفاطميين لم يستعملوها ، فتهدمت على مر السنين ، ورثاها الشاعر عمارة اليمنى فى سنة ١١٧٤ م ، كما تهدمت دار العلم ودار المأمون ودار الوزراة وغيرها من قصور الخلفاء الفاطميين وحاشيتهم . ولم يكن ذلك نتيجة تخريب أو تدمير متعمد ، ولكنه كان نتيجة إهمالها وعدم موالاتها بالتعمير حتى تداعت من تلقاء نفسها

ومن بين الآثار الباقية نجد أن أقدمها وأصدقها شاهدا على عظمة الفاطميين هو جامع الحاكم . ذلك أن الأزهر لا يحتفظ إلا بالقليل من بنائه الأصلى وزخرفته القديمة ، يتلوه جامع الأقمر الذى بناه الخليفة الآمر بين القصرين ، وهو أول مسجد بنى من الحجر إذ كانت جميع المساجد من قبل تبنى بالآجر . على أن واجهته فقط هى التى بنيت من الحجارة ، وكانت منتظمة الشكل جميلة النقش . أما الأروقة الداخلية فكانت من الآجر وأعمدتها من الرخام . وعلى صغر حجمه وتهدمه ، فإنه من بين المساجد الفاطمية يتميز بواجهة جميلة تختلف كثيرا عن الواجهات العادية البسيطة للمساجد الأخرى . ومما يسترعى الاهتمام جمال النقوش التى زينت بها تجوة المحراب

(١) بنى مسجد الظافر فى سنة ١١٢٩ ، ومازال قائما فى أحد أركان شارع السكرية (سوق السكر) ، ويعرف باسم جامع الفكهانى ، وقد أعيد بناؤه فى سنة ١٧٣٥ م .

والـكتابة الـكوفية والنقش الذى يزين المشكاة الجانبية وما يجاورها من الأفاريز .

ومن هذه النقوش ، اثنان يحملان اسم الخليفة الآمر . ويرجع تاريخهما إلى سنة ٥١٩ ﻫ (١١٢٥ م) ، وهو تاريخ بناء المسجد . كما أن هناك نقشين آخرين يسجلان إعادة البناء على يد الأمير يلبغا السالمى سنة ٧٩٩ ﻫ (١٧٩٦ م) . ومن حسن الحظ لم تؤد إعادة بنائه إلى تغيير كبير فيه . وعلى الرغم من أن مسجد طلائع بن رزيق فى ١١٦٠ م بالقرب من باب زويلة قد تهدم ، إلا أنه يرينا تقدما ملحوظا فى فن النقش إلى حد أننا لانرى بين النقش العربى شيئاً أبدع من هذا فى أي مسجد بنى بعد ذلك التاريخ . وهناك أمثلة عديدة فى دار الآثار العربية تصور لنا فى جلاء قوة الفاطميين وبراعتهم فى فن النقش ، نخص بالذكر منها تلك الأبواب المبينة بالصفائح الرقيقة كالورق من أيام الحاكم والمحاريب الثلاثة ، وقد أخذ إثنان منها من الأزهر ونقش عليهما مايفيد أنهما صنعتا على يد الخليفة الآمر فى سنة ١١٢٥ م ، والثالث أخذ من ضريح السيدة رقية ، ويرجع تاريخه إلى سنة ١١٣٥ م ، ويحوى نقوشا هندسية معقدة بين الزخرف العربى والـكوفى .



جامع الجيوشى

ومن سوء الحظ أن العقائد المخالفة للسنة، ولو أنها قد عملت على تشجيع النواحى الفنية، إلا أنها فى الوقت نفسه كانت السبب فى هدمها وإزالتها، إذ لو لم يكن الفاطميون مغالين فى معتقداتهم الدينية، لأبقى من جاء بعدهم من الحكام السنيين على هذه القصور الجميلة وتلك التحف النادرة، ولما تحمس مخالفوهم فى العقيدة لإزالة كل أثر من الآثار التى قضوا عهدهم فى تشييده، مما كلفهم أموالا طائلة ومجهودات فنية عظيمة.

الباب السادس

قلعة صلاح الدين

عوامل غزو مصر — الأتراك والصليبيون — شاور وضرغام — عمورى وشيركوه فى مصر — صلاح الدين يتقلد الوزارة — عزله الخليفة الفاطمى — حروب صلاح الدين — أعمال صلاح الدين فى القاهرة — الأسوار الجديدة — القلعة — الثورات فى القاهرة — رأس الحسين — صلاح الدين يشيد المدارس السنية — أقوال ابن جبير — المستشفيات — خصائص المستشفيات والمساجد — أثر إحياء المذهب السنى وتشجيع العلم .

كانت القاهرة فى مستهل القرن الثالث عشر الميلادى ، مدينة تختلف تمام الاختلاف عنها يوم أن كانت مقرا للفاطميين . ذلك أنها صارت أوسع رقعة ، وكانت تحوى عددا من المبانى الجديدة ذات صبغة لم تعرفها مصر من قبل ، كذلك كان بها قلعة . وكل هذه التغييرات يرجع الفضل فيها إلى صلاح الدين الأيوبى ، ولو أنه لم يعش حتى يراها وقد تم تشييدها . وإذا أردنا أن نتتبع فى شىء من التفصيل الأسباب التى أدت إلى غزو مصر على يد ملك بيت المقدس الصليبى ثم طرد الفرنجة على يد جيوش نور الدين سلطان دمشق ، لخرجنا بذلك عن الموضوع الأصلى الذى نكتب فيه . غير أن أهم العناصر فى الموقف السياسى يتلخص فى تقسيم سورية بين قوتين جديدتين متعاديتين : الصليبيين والأتراك السلاجقة . فإن تسرب القواد الأتراك إلى خلافة بغداد أدى إلى غزو كبير بقيادة السلاجقة الذين لم يكتفوا فى أواسط القرن الحادى عشر بإخضاع بلاد فارس وبلاد الموصل واتخاذ الخلافة العباسية آلة فى أيديهم ، بل يغزو أملاك الفاطميين فى سورية ، وكانت قبضتهم عليها ضعيفة فى كل وقت . وقد استولوا على دمشق فى سنة ١٠٧٦م ولم يمنعهم من غزو مصر نفسها سوى ما أقامه الوزير الأرمنى بدر الجمالى من الاستحكامات الحربية والرشوات التى كان يقدمها لهم . لقد تفككت الدولة السلجوقية فى أواخر ذلك القرن ، ومع ذلك لم تكن سورية تحت قيادة الأتابك زنكى وابنه نور الدين بأقل خطراً على الفاطميين من الدولة السلجوقية الموحدة .

وفي الوقت نفسه جد عامل زاد السياسة السورية تعقيداً ، فقد بدأت الحملات الصليبية وأعاد المسيحيون بيت المقدس في سنة ١٠٩٩ م وأقاموا هناك مملكة لاتينية ، وبدأت جيوش الفاطميين تتقهقر نحو الجنوب . وحاول الأفضل بن بدر الجمالي أن يتفاوض مع الصليبيين ، فلما أعياه ذلك حاربهم ردحا من الزمن في فلسطين ، ولكنه لم يستطع رد الصليبيين أو إيقاف تقدمهم فسقطت طرابلس في سنة ١١٠٩ م ، وصدر في سنة ١١٢٤م ، وقاومت عسقلان وهي آخر معاقل الفاطميين مدة طويلة ولكنها استسلمت في سنة ١١٥٣ م . وأصبح الصليبيون على الحدود المصرية ، وقطعت حصونهم في الكرك وفي منتريال الواقعة عند البحر الميت مواصلات الفاطميين مع سورية ، ولم تكن إحدي المملكتين : اللاتينية في بيت المقدس وسلطنة دمشق التركية من القوة بحيث تستطيع أن تسحق الأخرى ، فكانت مصر هي القوة المرجحة ، فإذا استطاعت إحدى القوتين الاستيلاء على النيل ، تمكنت من مهاجمة منافستها وكتب لها الفوز . وكان طبيعياً أن تتآلف المملكتان الإسلاميتان في دمشق والقاهرة ، ولكن اختلاف المذاهب الدينية وقف حجر عثرة في سبيل هذا الائتلاف ، إذ كان نور الدين سنيا متحمسا لمذهبه لا يطيق موالاة دعاة الشيعة ، ولم يشجع المفاوضات التى فاتحه فيها الوزيران ابن السلار وطلائع ، وبقى بعيداً عن مصر ، حتى رأى جيش الصليبيين في القاهرة ، وحينئذ فقط رضي أن يرسل جيوشه لمساعدة مصر .

وكان سبب هذا التدخل أن الوزيرين شاور وضرغام كانا يتنافسان على ما بقي للفاطميين من سلطان ، فلما تغلب ضرغام على منافسه شاور وطرده من الوزارة ، استنجد هذا الأخير بنور الدين . أما ضرغام فقد تحالف مع عموري ملك بيت المقدس الذى كان قد قام فعلا بغزو مصر ليطالب بالأتاوة المالية السنوية ، التى كانت الحكومة الفاطمية المتداعية قد ألزمت نفسها بدفعها لجارتها المسيحية . وفي سنة ١١٦٤ م عاد شاور يعاونه جيش سوري بقيادة شيركوه ، ومن بين هيئة أركان حربه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، وهزم ضرغام في بلبيس وأرغمه على أن يحتمي بالقاهرة ، على حين عسكر شاور ومن معه في مصر .

وكان لضرغام من الصفات ما حبب فيه الناس ، فقد كان عربيا شجاعا ، قاتل الصليبيين في غزة ، وكان يقود كتيبة من الجيش الفاطمي من أهل برقة ، غير أنه

أساء إلى نفسه حين امتدت يده إلى أموال الأوقاف ليدفع منها مطالب جيوشه ، فامتنع الخليفة عن مساعدته وتخلى عنه أتباعه . وكان منظره فى آخر مواقفه يدعو إلى الأسى ، فإنه عندما اشتد عليه القتال أمر بدق الطبول ، ونفخ فى البوق يدعو المحاربين إلى أماكنهم على الحصون ، لم يجبه أحد ، ووقف الأمير اليائس فى خمسمائة من حرسه أمام قصر الخليفة إلى الغروب يستحلفه بأجداده أن يطل على الناس ويدعوهم لمؤازرته ، والخليفة يصم أذنيه عن ندائه . وقد بدأ الحرس ينفض من حوله حتى لم يبق معه إلا ثلاثون رجلا . وسمع من يحذره ويطلب إليه أن ينجو بحياته ، وقد دقت طبول شاور آتية من باب القنطرة ، وحينذاك ركب القائد المخذول متجها إلى باب زويلة ، إلا أن المذبذبين من أفراد الشعب قطعوا رأسه وطافوا به الشوارع فرحين مهللين ، وتركوا جثته فريسة للكلاب . وهكذا كانت خاتمة سيد شهم اتصف بالبطولة وقرض الشعر .

وما أن تخلص شاور من منافسه، حتى استدار الوزير الخائن وطلب من عموري ورجاله من الصليبيين أن يساعدوه فى طرد منقذيه السوريين . وبعد معارك طويلة عقد الفريقان هدنة ، وانسحب الجيشان المسيحى والسوري دون أية نتيجة حاسمة . غير أن الغزو الذى قام به السوريون كان بداية احتلال دائم ، إذ بينما كانت الجند السورية عائدة فى طريقها إلى دمشق أخذت تنشر أخباراً عن ضعف الحكم الفاطمى وتحث نور الدين على غزو مصر موضحة له أهمية ذلك . ولكن السلطان كان حذراً فلم تغره هذه الأقوال إلا بعد أن علم أن عمورى يتآمر مع شاور . وحينذاك أرسل الجيش السورى للمرة الثانية لغزو وادى النيل ، فعبر النهر فى نفس الوقت الذى وصل فيه جيش الصليبيين فى سنة ١١٦٧ م ، واحتل مدينة القاهرة وعقد المعاهدة التى سبق أن أشرنا إليها حينما أرسل الفارسين سير هيو صاحب قيصرية وجوفرى فواشر أحد فرسان المعبد (١) .

أما شيركوه فقد احتل الوجه القبلى ، بينما احتل صلاح الدين الإسكندرية وبقى بها

(١) أنظر الباب الخامس

خمسة وسبعين يوما ، ثم عقد الصليبيون والسوريون هدنة ثانية ورجع الجيشان إلى بلادهما . غير أن الصليبيين تركوا نائبا عنهم فى القاهرة وأقاموا حرسا منهم على أبواب المدينة ،وعسكر بعض جنودهم فى جامع الحاكم . وكانت تقارير هؤلاء الشهود عن ضعف الحكومة وتخبطها فى الحكم ، سببا فى قدوم عمورى فى السنة التالية ، وقد عقد النية على ضم مصر لأملاكه نهائيا .

وكان هذا الغدر من جانب الصليبيين والمذبحة الشنيعة التى أقدموا عليها فى بلبيس ، مما أشاع الفزع والرعب فى قلوب المصريين ودعاهم إلى الاستنجاد بسلطان دمشق ، حتى إن الخليفة حرك شعور نور الدين بإرساله خصلات من شعر نسائه ليخف إلى نجدته . وللمرة الثالثة دخل شيركوه مصر بصحبة صلاح الدين فى سنة ١١٦٩ م ، وقد صح عزمهما على البقاء نهائيا ، وانسحب عمورى دون أن يشتبك مع شيركوه فى قتال . أما شاور فقد حاول اغتيال منقذيه بتدبير المؤامرات ضدهم ، ولكنه أخفق وألقى القبض عليه وأعدم . فتقلد شيركوه الوزارة وبقى فى ذلك المنصب شهرين . ولما وافته منيته خلفه عليها صلاح الدين الأيوبى فى سنة ١١٦٩ م .

كان مركز صلاح الدين مركزا شاذا ، باعتباره وزير الخليفة الفاطمى الشيعى ، والجندى النائب عن سلطان دمشق السنى . وعلى الرغم من أنه اضطلع بأعباء الحكم مدة عامين ، كانت الخلافة الفاطمية قد آذنت بالزوال ، فى وقت كان آخر الخلفاء يلفظ أنفاسه الأخيرة . وكانت الفرصة مواتية للتغيير المنتظر ، ففى صلاة الجمعة فى العاشر من شهر سبتمبر سنة ١١٧١ م ، ذكر اسم الخليفة العباسى السنى فى الخطبة فى جميع مساجد القاهرة . وقد ذكر لنا أحد الرحالة العرب وصفا شبيها بهذا حدث فى أسبانيا بعد ذلك باثنتى عشرة سنة .

قال ابن جبير — فى أحد المساجد قام الخطيب اليوم فى صلاة الجمعة ، متبعا الطريقة المأثورة عن السنيين : « فأكثر بالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، ورضى عن أصحابه ، واختص الأربعة الخلفاء بالتسمية رضى الله عن جميعهم ، ودعا لعمى النبى صلى الله عليه وسلم حمزة والعباس ، وللحسن والحسين ووالى الرضى عن جميعهم ، ثم دعا

لأمهات المؤمنين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ، ورضى عن فاطمة الزهراء وعن خديجة الكبرى بهذا اللفظ » . ثم ألقى عظته بعبارات بليغة ، أثرت فى السامعين حتى لانت له أقسى القلوب وسالت من العيون الدموع الغزيرة ، « وكان لابسا ثوب سواد — وهو شعار العباسيين — مرسوما بذهب ، وعليه طيلسان شرب رقيق (يسميه الأسبان الأحرام) ، ومتعمما بعمامة سوداء مرسومة أيضا ، وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده دون تقلد له . فعند صعوده فى أول درجة (قلده المؤذن المذكور السيف) ثم ضرب بنعلة سيفه فيها ضربة أسمع بها الحاضرين — إشارة منه إلى التزام السكون — ثم فى الثانية ثم فى الثالثة ، فإذا انتهى إلى الدرجة العليا ضرب ضربة رابعة » . ثم أخذ يتلو الدعاء ، وهو واقف بين علمين أسودين عليهما علامات بيضاء ، وقد ثبتا فى أعلى المنبر ، « ثم دعا للخليفة العباسى أبى العباس أحمد الناصر (لدين الله بن المستضىء) ثم لصلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب ولولى عهده أخيه أبى بكر بن أيوب »(١) .

ولم يدهش هذا الدعاء جمهور المصلين الذين سمعوه لأول مرة فى سنة ١١٧١م ، ولم يبد أحد تذمرا(٢) . وربما كان ذلك لأن الدعوة الشيعية لم تتغلغل فى نفوس أهل القاهرة ، واستمر الجمهور متأثرا بعقيدته السنية ، على الرغم من سيادة غلاة الشيعيين مدة قرنين . وعلى كل حال فقد تم الانقلاب دون مقاومة ومات آخر الخلفاء الفاطميين (العاضد) قبل أن يعلم بزوال ملكه . وأما أهله وأقاربه فقد عوملوا معاملة كريمة فى الأسر . غير أن حاشيته وعبيده قد استغنى عنهم وذهبوا حيث شاءوا . ولما كانت قصور الخلفاء من الفخامة بما لا يتفق ومطالب صلاح الدين المتواضعة فقد أنزل بها قواده ، واكتفى هو بقصور الوزراء . أما المكتبة النفيسة التى كانت تضم مائة وعشرين ألف كتاب جمعت بعناية بعد أن أتلفت المكتبة الأولى منذ قرن من الزمان ، فقد أهديت إلى القاضى الفاضل ، ووزعت النفائس التى اقتناها الفاطميون أو بيعت .

---

(١) ابن جبير (طبعة رايت) ص ٤٦—٤٧ .
وهذا هو نص ما ورد بهذا الصدد فى ابن جبير ، أورده المترجم ، كما أثبته هذا الرحالة فى كتابه .

(٢) عبر المؤرخون عن ذلك بقولهم : فلم ينتطح فيها عنزان — المترجم .

وهكذا زالت قصور الفاطميين بالتدريج ، وبقيت مساجدهم ، وساد المذهب السنى مرة أخرى فى مصر .

وكان أغلب حياة بطل الإسلام العظيم فى خارج مصر . ذلك أن صلاح الدين الأيوبى لم يقض من مدة حكمه التى بلغت أربعة وعشرين سنة سوى ثمانى سنوات فى مصر (ونقول حكمه لأنه كان يحكم فعلا ، وما كانت تبعيته للملك دمشق التى دامت خمس سنين إلا تبعية اسمية) . كما أن أعظم انتصاراته وهزائمه القليلة كانت فى سورية وبلاد الموصل وفلسطين . ولما غادر القاهرة فى اليوم الحادى عشر من شهر مايو سنة ١١٨٢ م وخرج رجال القصر لتوديعه ووقف الركب عند بركة الحبش وصدحت الموسيقى ، سمع صلاح الدين شاعرا ينشد شعرا تشاءم منه ووقع فى نفسه أنه لن يرى مصر بعد ذلك اليوم . وقد صح حدسه فلم تكتحل عينه برأى مصر بعدها . وقد غزا أرض الفراتين ، واستولى على دمشق التى كان قد ضمها إلى أملاكه بعد موت نور الدين ، وانتصر على الصليبيين فى موقعة حطين ، واسترد بيت المقدس التى كانت مقدسة بالنسبة إليه كما كانت بالنسبة إلى المسيحيين ، وأخضع الأرض المقدسة بأسرها ، وحارب فرسان أوروبا حول عكاء نحو سنتين ، ونازل آخر الأمر ريتشارد ترالإ جعل اسم صلاح الدين يتردد على كل لسان حتى فى أوربا نفسها . وأخيرا أمضى معاهدة الصلح فى الرملة بعد أن هاجم يافا وصد عنها . ومات صلاح الدين فى شهر مارس سنة ١١٩٣ م فى دمشق .

لقد انتهت الحرب المقدسة وانتهى معها صراع خمس سنوات ، فلم يكن للمسلمين قبل موقعة حطين (يوليه ١١٨٧م) شبر واحد من فلسطين غربى الأردن . أما بعد صلح الرمله الذى عقد فى شهر سبتمبر سنة ١١٩٢ م ، فقد أصبحت جميع الأراضى فى أيدى المسلمين إذا استثنينا جزءا ضيقا من الساحل بين مدينتى صور ويافا . لقد دعا البابا العالم المسيحى أن يحمل السلاح لتخليص بيت المقدس ومملكة أورشليم . وقد استجاب لندائه الإمبراطور وملوك إنجلترا وفرنسا وصقلية وليوبولد صاحب النمسا ودوق برغندية وكونت الفلاندرز ومئات من مشاهير البارونات والفرسان من جميع الأقطار ، وانضموا إلى ملك بيت المقدس وأمراء فلسطين وفرسان المعبد والكنيسة .

غير أن الامبراطور قد مات وعاد الملوك من حيث أتوا ، وقد تركوا أنبل جماعة من رعاياهم قتلى فى الأرض المقدسة . غير أن بيت المقدس بقيت فى يد صلاح الدين، ولم يبق لملكها الإسمى إلا قطعة صغيرة من الأرض حول عكاء . لقد تجمعت كل قوى العالم المسيحى فى الحرب الصليبية الثالثة ، ولكنها لم تستطيع أن تنال من قوة صلاح الدين وسلطانه . ولما انتهت حروب السنوات الخمس وخفت محنها ومصائبها لم يكن لصلاح الدين منافس يحكم الأقطار التى تقع بين جبال كردستان وصحراء ليبيا . وكان ملك جورجيا وكاثوليك أرمينية وسلطان قونية وإمبراطور القسطنطينية ـ وكلهم وراء الحدود ـ يتوددون إليه يخطبون وده ويتوقون إلى محالفته (١) .

وعلى الرغم من أن مدة إقامة صلاح الدين الأيوبى لم تطل فى القاهرة ، لم يترك أحد ممن سبقوه من الحكام فيها مثل ما خلف من الآثار الخالدة . فإليه يرجع الفضل فى اتساع الحاضرة ، وتنسيق هندستها التى كانت تفخر بها إلى عهد قريب : فالقلعة وهى أبرز معالمها من إنشائه ، والمدرسة التى بناها هى أكثر عمائرها ذيوعا وشهرة ، وكل هذه التغييرات تمت بفضل توجيهاته . ولما غادر صلاح الدين القاهرة بعد أن مكث فيها ثمانى سنوات ، ظل يبعث فى طلب إمدادات منها بمعاونته فى حروبه السنوية .وقد ترك بها من القواد والأقارب من قام بإتمام ما بدأه من أعمال ، كان بعضها من أجل الدفاع عن البلاد وبعضها فى سبيل الدين . فأما الأعمال الدفاعية ، فقد تجلت فى إنشاء القلعة والسور وجسر النيل ، وكلها من الأعمال المستحدثة التى لم يسبقه اليها أحد ، إذ أن الحكام الذين جاءوا قبله جعلوا هدفهم بناء مبان حكومية أو ضواح ملكية ، كل يبعد عن سابقه نحو نصف ميل إلى الجهة الشمالية الشرقية من المدينة ، حتى إن القاهرة الفاطمية نفسها لم تكن تشمل سوى قصور الخلفاء والوظفين ولم تكن حاضرة للبلاد المصرية . أما صلاح الدين فكان أول من وضع بأحكام ، تصميم شامل لحاضرة عظيمة ، إذ أنه بدلا من أن يحذو حذو من سبقوه من الحكام ويقيم ضاحية جديدة كما أقام أسلافه ، عقد العزم على توحيد جميع الأحياء الآهلة بالسكان وإحاطتها بسور عظيم وتتويجها بقلعة منيعة . وكانت مدينة مصر التى أتى عليها الحريق ، تناضل ما استطاعت لتنفض عن نفسها الرماد وتصلح ما فسد منها ، ومد صلاح الدين يد المعونة لها . وكان لا بد له من

---

(١) ستانلى لينبول ـ صلاح الدين ص ٣٥٨ و ٣٦٠

أن يجمع شتات المساكن المبعثرة في الأطراف وأن يضم ميناء المقس إلى المدينة بمد الأسوار إليها ، كما كانت بيروس بالنسبة لأثينا . وقد أراد أن يكون السور من الأحجار وأن يكون امتدادا لسور بدر الجمالي الأرمني حتى المقس غربا وإلى جبل المقطم جنوبا ، ومن هناك يمتد إلى النيل ليضم بقايا مدينة الفسطاط . غير أن هذا المشروع العظيم لم يتم قط لأن واضعه صلاح الدين كان منشغلا بحروبه في سورية ، ولم يتمكن أعوانه في القاهرة إلا من جمع الأموال والرجال اللازمين له في حروبه والقيام بالضروري فقط من المباني . وربما هداه تفكيره هو وأعوانه إلى أن حالة مباني مدينة مصر المتهدمة لا تستحق ما كان سينفق من الأموال على مد الأسوار إليها ، وكل ما تم هو مد سور بدر الجمالي في الشمال من الخليج إلى نهر النيل حيث أقيمت أبراج المقس المحصنة . أما من جهة الشرق فقد مد السور القديم جنوبا إلى باب الوزير بالقرب من سور القلعة الجديدة ، إلا أن موت السلطان قد أوقف العمل قبل أن يتم ضم الأسوار ، أما الأسوار الجنوبية فلم يكن قد بدء بعد في بنائها . ولا تزال بعض أسوار صلاح الدين قائمة إلى الآن ، ولو أن بعضها قد اختفى من بين المنازل ، غير أنه يمكن تتبعها فيما بين الخليج وباب الحديد الذي كان يسمى باب البحر بالقرب من حصن المقس الذي اندثرت معالمه . ويمكن المقارنة بين الأبراج الفاطمية القديمة والأبراج المستديرة في سور صلاح الدين بما فيها من أبراج ومنافذ للمراقبة .

ونجد هذه المميزات في السور الشرقي الذي يفصل المدينة عن قرافة قايتباي ، ثم يظهر طراز جديد عند باب الوزير (١) ، فإن جانبا من السور عند الزاوية الشمالية الشرقية — بما في ذلك برج الظافر — يتوغل في الصحراء ، مما يدل على أن المدينة قد انكمشت في هذه البقعة إلى حدودها التي كانت عليها في القرن الثاني عشر الميلادي .

والواقع أن الأسوار لم تكن إلا امتداداً لأسوار بدر الجمالي .. أما القلعة فقد كانت فكرة جديدة ، ربما استوحاها صلاح الدين من كراهيته للسكنى في القصور الفاطمية ، التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالشيعة ودعاتها . وعلى الرغم من أن صلاح الدين

---

(١) انظر مذكرات فان برشم طبعة (١٨٩١) ص ٦٨،٥٥ — ٧٠

لم يتخذ مقامه فى القلعة مدة طويلة كان ينوى أن يجعل فيها مقر إقامته كما فعل خلفاؤه . على أن التفسير الظاهر لذلك ، هو أن صلاح الدين بنى القلعة مسترشداً بما رأى فى سورية ، حيث كان لكل مدينة كبيرة قلعتها أو حصنها . وكان من الطبيعى أن يدرك صلاح الدين ، وهو الجندى المحنك ، أن أصلح مكان لبناء قلعته هو سفح جبل المقطم . ولم يكن يقلل كثيراً من مركزها — وهى تشرف على « مصر » من ارتفاع مائتين وخمسين قدما — وجود أماكن أخرى من الجبل أكثر منها ارتفاعا ، ذلك لأن أسلحة الحروب فى ذلك الوقت كانت تنحصر فى قذف الأحجار بالمقلاع والمنجنيق . وإذن كانت القلعة حصنا منيعاً فى نظر مهندسى القرن الثانى عشر ، كما أنهم عملوا على تحصينها من الأسفل اتقاء خطر الفتن والثورات فى المدينة .

وقد بدأ العمل فى سنة ١١٧٦ — ١١٧٧ م تحت إشراف الأغا قراقوش أحد أمراء صلاح الدين المخلصين ، الذى اختلط اسمه لسوء الحظ بذلك المهرج المشهور ، على الرغم مما قام به هذا الجندى العظيم من الخدمات الجليلة والأعمال الحربية المتعددة . ولم تتوج القلعة باسم مؤسسها إلا بعد بنائها بست سنوات ، وما زال يعلو باب المدرج فى الجزء الأصلى (الغربى) من القلعة .

وهذه هى الكتابة المنقوشة على باب القلعة :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أمر بإنشاء هــذه القلعة الباهرة ، المجاورة لمحروسة القــاهرة بالعرمة التى جمعت نفعا وتحصينا واسعة ، على من التجأ إلى ظل ملــكه وتحصينا ، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه وولى عهده الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد خليل أمير المؤمنين ، على يد أمير مملــكته ومعين دولته قراقوش عبد الله المــكى الناصرى ، فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة » (١) .

كانت أهرام الجيزة الصغيرة تتخذ محاجر لجلب الأحجار اللازمة ، وكان الأسرى

---

(١) ترجم المؤلف هذا النص إلى اللغــة الإنجليزية . وقد رجعنــا إلى الأصــل وأثبتناه — المترجم .



قلعة الكبش

من الفرنجة والأوروبيين الذين وقعوا فى قبضة صلاح الدين فى حروبه يستخدمون فى أعمال البناء .

ولقد زار الرحالة الأندلسى ابن جبير مصر فى سنة ١١٨٣ م ، وشاهد العمل فى بناء القلعة يجرى على قدم وساق ، فقال: «وشاهدنا أيضا بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة ، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة . والمسخرون فى هـذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته ومئونته العظيمة كنشر الرخام ونحت الصخور العظام وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور ، وهو خندق ينقر بالمعاول نقرا فى الصخر عجبا من العجائب الباقية الآثار ، العلوج الأسارى من الروم ، وعددهم لا يحصى كثرة . ولا سبيل أن يمتهن فى ذلك البنيان أحد سواهم . وللسلطان أيضا بمواضع أخر بنيان ، والأعلاج يخدمون

فيه ، ومن يمكن استخدامه من المسلمين فى مثل هذه المنفعة العامة ، موفة عن ذلك كله ولا وظيفة فى شىء من ذلك على أحد» (١). وذلك لأن السخرة لم تكن شيئا جديدا فى مصر ، ولو أنها بدت غريبة فى نظر الرحالة الأندلسى .

ولم يكتمل بناء القلعة إلا فى سنة ١٢٠٧ — ١٢٠٨ م ، حين كان الكامل ابن أخى صلاح الدين سلطانا على مصر . ولما كانت القلعة مقر حكام مصر حتى سنة ١٨٥٠م فقد أجريت بها تعديلات كثيرة ، ووسعها كثير من سلاطين المماليك ، وقام محمد على باشا نفسه ببعض التعديلات ، حتى إنه يبق حينذاك من المساجد أو القصور التى بنيت فى عصر صلاح الدين شىء إذ أن المسجد القديم كان قد بناه الناصر محمد فى سنة ١٣١٨م ، وأما المسجد الذى اشتهر بآذنه التركية الدقيقة فهو من بناء محمد على فى سنة ١٨٢٤ م ، وبئر يوسف التى يعتقد الكثيرون أنها من بناء صلاح الدين لم تكن سوى جانب من أحد قصور المماليك . كذلك الأبراج الداخلية لم تكن من البناء الأصلى ، وبنى الباب الذى يؤدى إلى الرميلة فى أواسط القرن الثامن عشر . وعلى الرغم من ذلك كله ، لم تزل هناك أجزاء من البناء الأصلى بخلاف البئر الشهيرة المعروفة باسم بئر السبع سقايات التى يبلغ عمقها مائتين وعشرين قدما ، والتى حفرها قراقوش . وهناك أيضا أجزاء من السور التى بناها صلاح الدين . ولكن لكى نميزها مما بنى بعد ذلك يجب أن يكون المرء على شىء من العلم بفن البناء ، كما أن بعض الممرات الداخلية يرجع تاريخ بنائها إلى وقت بناء القلعة . ومما هو جدير بالذكر أن شيوع استعمال الأبراج المستديرة البارزة التى تحمى جانبا من السور ، وانعدام الممرات الداخلية ، والحجرات والفتحات فى الجزء الأسفل من الأسوار ، وكثير من النقط الصغيرة الأخرى — يكشف لنا أن هندسة البناء الأصلى أقرب إلى الطراز السورى الفرنجى منه إلى الطراز البيزنطى .

وآخر الأعمال الدفاعية ، كان جسر الجيزة الذى شيد على الضفة الغربية للنيل . وقد وصفه ابن جبير فقال : « من مفاخر هذا السلطان وآثاره الباقية المنفعة

---

(١) أثبتنا هنا النص الذى أورده فى هذا الصدد : الرحالة ابن جبير — المترجم .

المسلمين ، القناطر التي شرع في بنائها بغربي مصر ، وعلى مقدار سبعة أميال منها بعد رصيف ابتدىء به من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض تسير به مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة ، وهي نحو الأربعين قوسا من أكبر ما يكون من قسى القناطر . والقنطرة متصلة بالصحراء التي تفضى منها إلى الإسكندرية . له في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة — إعداد الحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر الإسكندرية عند فيض النيل وانغمار الأرض به وامتناع سلوك العساكر بسببه ، فأعد ذلك مسلكا في كل وقت إن احتيج إلى ذلك . والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومحذور عنه . ولأهل مصر في شأن هذه القنطرة إنذار من الإنذارات الحدثانية ، يرون أن حدوثها إيذان باستيلاء الموحدين عليها وعلى الجهات الشرقية . والله أعلم بغيبه ولا إله سواه » (١) .

وليس هناك شك في أن الغرض من بناء هذا الجسر ، هو الدفاع عن البلاد . فلم ينس صلاح الدين قصة غزوات الفاطميين العديدة من ليبيا ، حيث أنه لم يكن هناك ما يصدهم عن الوصول إلى النيل ، ولهذا اتخذ الحيطة لصد مثل هذا العدوان . ويذكر

---

(١) أثبتنا هنا النص الذى أورده فى هذا الصدد الرحالة ابن جبير (طبعة رايت ص٤٩) — المترجم .

وقد أشار المؤلف لينبول فى كتابه (حاشية ١ ص ١٨٠) إلى أن المقريزى (الخطط ج٢ ص ١٥١) قد تكلم على قناطر الجيزة . لذلك رأينا أن نثبت هنا نص ما أورده المقريزى عن تلك القناطر :

« إن القناطر الموجودة اليوم فى الجيزة من الأبنية العجيبة ، ومن أعمال الجبارين . وهى ونيف وأربعون قنطرة ، عمرها الأمير قرقوش الأسدى ، وكان على العمائر فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بما هدمه من الأهرام التى كانت بالجيزة وأخذ حجرها ، فبنى منه هذه القناطر وبنى سور القاهرة ومصر وما بينهما ، وبنى قلعة الجبل وكان خصيا روميا سامى الهمة ، وهو صاحب الأحكام المشهورة والحكايات المذكورة ، وفيه صنف الكتاب المشهور المسمى بالفاشوش فى أحكام قراقوش . وفى سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، تولى أمر هذه القناطر من لا بصيرة عنده ، فسدها رجاء أن يحبس الماء ، فقويت عليها جرية الماء ، فزلزلت منها ثلاث قناطر ، وانشقت ، ومع ذلك فما روى مارجيا أن يروى . وفى سنة ثمان وسبعمائة ، رسم الملك المظفر بيبرس الجاشنكير برمها ، فعمر ما خرب منها وأصلح ما فسد فيها ، فحصل النفع بها . وكان قراقوش لما أراد بناء هذه القناطر بنى رصيفا من حجارة ابتدأ به من حيز النيل بإزاء مدينة مصر كأنه جبل ممتد على الأرض مسيرة ستة أميال حتى يتصل بالقناطر » — المترجم .

ابن جبير أنه كانت هناك مخاوف من هجوم الموحدين الذين غزوا الجزائر وتونس وطرابلس فى سنة ١١٥٨ م ، بعد أن أخضعوا مراكش وبلاد الأندلس حتى صارت طلائع جيش عبد المؤمن القائد المنتصر على مقربة من حدود مصر الغربية . لقد أحسن صلاح الدين باتخاذه الحيطة ، على الرغم من أن الغزو الذى كان منتظراً لم يقع .

هذه الأعمال الدفاعية ضد الأعداء فى الخارج ، كان يصحبها فى الوقت نفسه إجراءات أخرى خاصة باستتباب الأمن فى الداخل ، إذ يجب أن يكون معلوما أن إقرار النظام قد صادفته عقبات عدة ردحا من الزمن . ومهما كان شعور عامة الشعب بالنسبة إلى حاكم شهم كريم شديد المراس مثل صلاح الدين ، فإن التقاليد التى درجوا عليها منذ قرنين من الزمان لم يكن من السهل القضاء عليها بين عشية وضحاها . كما أن أنصار الفاطميين كان لهم نشاط موفور ، فقد قامت القوات السودانية بالثورة قبل موت الخليفة العاضد ، وساعد الخليفة نفسه على إذكاء نارها ، ولم يستطع صلاح الدين إخماد هذه الثورة إلا بعد جهد شديد . وبعد أن أعمل فيهم السيف ودانوا له بالطاعة ، أمر بطردهم من المدينة ، وكانوا يقطنون الحى المعروف بالمنصورية فى خارج باب زويلة ، وأحرق هذا الحى عن آخره وحوله إلى حدائق غناء وبساتين نضرة ، حتى إن صلاح الدين لما خرج من القصر إلى القلعة ووقف بجامع ابن طولون استطاع أن يرى باب زويلة ، إذ لم يبق بينهما بناء قائم . ثم أعقب ذلك مؤامرات أخرى فى الإسكندرية بإيعاز من الفرنجة استلزمت استعمال القوة فى قمعها . واستمرت الأخطار تهدد البلاد ، طالما كانت هناك جبهة قوية تعطف على أسرى الدولة الفاطمية .

ويمكن إدراك مدى تحمس الشيعة فى ذلك الوقت ، من وصف الرحالة الأندلسى للضريح الذى يحوى رأس الحسين شهيد كربلاء فى المسجد المجاور للقصر الفاطمي الكبير . يقول ابن جبير : « فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذى بمدينة القاهرة ، حيث رأس الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وهو فى تابوت فضة مدفون تحت الأرض ، قد بنى عليه بنيان حفيل ، يقصر الوصف عنه ، ولا يحيط الإدراك به .

مجلل بأنواع الديباج ، محفوف بأمثال العمد الكبار شمعا أبيض . ومنه ما هو دون ذلك قد وضع أكثرها فى أنوار فضة خالصة ، ومنها مذهبة وعلقت عليه قناديل فضة ، وحف أعلاه كله بأمثال التفافيح ذهبا فى مصنع شبيه الروضة ، يقيد الأبصار حسنا وجمالا . فيه من أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع ، مالا يتخيله المتخيلون ولا يحق أدنى وصفه الواصفون . والمدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثالها فى التأنق والغرابة ، حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة . وعن يمين الروضة المذكورة وشمالها بيتان من كليهما المدخل إليها ، وهما أيضا على تلك الصفة بعينها ، والأستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع . ومن أعجب ماشاهدناه فى دخولنا إلى هذا المسجد المبارك ، حجر موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل ، شديد السواد والبصيص ، يصف الأشخاص كلها كأنه المرآة الهندية الحديثة الصقل . وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك وإحداقهم به وانكبابهم عليه ، وتمسحهم بالكسوة التى عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة ، ومتضرعين بمايذيب الأكباد ويصدع الجماد ، والأمر فيه أعظم ومرأى الحال أهول . نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم »(١) .

وإن المظاهر التى تتمثل فيها العواطف الصاخبة للمأساة الفارسية ، لتبين لنا أنه كان هناك فى مصر شعور شيعى قوى بعد وفاة آخر خليفة فاطمى باثنتى عشرة سنة . وقد قام صلاح الدين بمعالجة مثل هذه الأحوال بطريقته الفذة . فهو برغم سماحته وطيبة قلبه كان لا يمتنع عن استعمال القسوة فى قمع هذه الشائعات لوضع الأمور فى نصابها : فقدكان سنيا ، تقيا ، عالما بالمبادىء السنية ، كثير الاتصال بالعلماء ومناظرتهم ولذا كان قاسيا على الملحدين وكل من خرج على المبادىء السنية . وقد دل اضطهاد القبط وتخريب كنائسهم بعد عودة المذهب السنى ، على أن سماحة صلاح الدين لم تصل

---

(١) ابن جبير (طبعة رايت) ص ٤١ — ٤٢ .
وقد أثبتنا هنا النص الذى أورده ابن جبير فى هذا الصدد .

بعد إلى حد التساهل فى العقائد الدينية ، ولكنه فى حالة الشيعة رأى أنه أمام حركة قوية وخطيرة بدأت منذ قرنين من الزمان ، تم لها خلالها السيادة والسلطان ، فكان لا بد له من أن يقابل الدعاية بمثلها ، ورأى أن أهل القاهرة فى حاجة إلى أن يتعلموا أصول الدين ، وحينئذ ليس ثمة خوف من الإلحاد . ولما لم يكن بالقاهرة عند تولية الحكم معاهد يتلقن الناس فيها أصول الدين ومبادىء السنة ، أسرع فى إنشاء المدارس أو المعاهد الدينية التى أصبحت بعد ذلك الحين أهم ما تصطبغ به القاهرة فى مضمار البناء . ففى سنة ١١٧٦ م بنى أول مدرسة فى مصر وكانت تجاور ضريح الشافعي صاحب المذهب السنى الذى يهتدى به السواد الأعظم من المسلمين فى مصر فى عباداتهم . ولا شك أن الناس لا يزالون إلى يومنا هذا يزورون ضريح الإمام ، فى وسط القبور المبعثرة فى القرافة جنوبى القاهرة ، ولو أن هذه المدرسة قد اختفت معالمها منذ أمد بعيد .

ويصف لنا ابن جبير هذا الضريح فى سنة ١١٨٣ م فيقول إنه : « من المشاهد العظيمة احتفالا واتساعا ، وبنى بإزائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء ، يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، بإزائها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها . والبناء فيها حتى الساعة والنفقة عليها لا تحصى . تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشانى ، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول زد احتفالا وتأنقا وعلينا القيام بمئونة ذلك كله ، فسبحان الذى جعل صلاح دينه كاسمه . ولقينا هذا الرجل الخبوشانى المذكور تبركا بدعائه ، لأنه قد كان ذكر لنا أمره بالأندلس ، فألفيناه فى مسجده بالقاهرة ، وفى البيت الذى يسكنه داخل المسجد المذكور ، وهو بيت ضيق الفناء ، فدعا لنا وانصرفنا ، ولم نلق من رجال مصر سواه » (١) .

---

(١) أثبتناها النص الذى أورده فى هذا الصدد الرحالة ابن جبير (طبعة رايت ص ٤٤ ــ ٤٥) المترجم . هذا الرحالة القدير الذى ندين له بشىء كثير من الوصف الخاص بعصر صلاح الدين قد أمدنا بوصف دقيق للقرافة الكبرى جنوبى القاهرة ، التى تعتبر إحدى الأماكن القليلة التى تعود بنا إلى =

وإلى جانب المدرسة الشافعية ، بنى صلاح الدين مدرسة على مقربة من حصن الأعداء ، وهو ضريح الحسين ، وحول قصر المأمون القديم إلى مدرسة سيف الدين لعلماء الحنفية ، ومدرسة رابعة للشافعية وخامسة للمالكية فى مدينة مصر . ونحن إذ نسجل هذه الأعمال الخيرية ، لا ننسى المستشفيات التى بناها ، فكل منا يعرف المارستان أو مستشفى السلطان قلاوون المملوكى فى سوق النحاسين ، ولكن الذى لا يعرفه الناس أن هذا العمل الإنسانى العظيم كان قد سبقه إليه صلاح الدين .

وهنا يقول ابن جبير : «ومما شاهدناه أيضا من مفاخر هذا السلطان ـ المارستان الذى بمدينة القاهرة ، وهو قصر من القصور الرائقة حسنا واتساعا . أبرزه لهذه الفضيلة تأجرا واحتسابا ، وعين قيما من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها . ووضعت فى مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى ، وبين يدى ذلك القيم خدمه

= أيام الفتح الإسلامى . فهناك ترقد عظام معظم المحاربين الأولين والشعراء ورجال الدين ينتمون إلى الفسطاط ، على الرغم من أنه لا يميز قبورهم الآن إلا الرواية وحدها . ومن الواضح أن تمييزها فى أيام ابن جبير كان يكتنفه الشك ، وذلك لأنه أبى أن يجزم بصحة ما نقله عن المؤرخين ، ولو أنه يقول إن صحة روايتهم لا يتطرق إليها الشك . ونحن إزاء تلك الروايات عن المقابر مثل ضريح النبى صالح وضريح آسيا زوج فرعون ، نجد وصفا عن أربعة عشر قبرا من قبور ذرية على بن أبى طالب من الذكور وخمسة من النساء لكل قبر منها ضريحه الخاص وحارسه وله أوقاف محبوسة عليه ، منها ضريح زين العابدين ابن الإمام الحسين ، وزينب حفيدة أبنائه وأم كلثوم بنت الإمام السادس جعفر الصادق ، وعقبة حامل لواء النبى ، وأبو الحسن صفيه ، وسارية الجبل الذى له مسجد فى القلعة (ولو أن لا علاقة له بمصر) ، ومنها قبور اثنين من أولاد أبى بكر الصديق وعبد الله بن الزبير قائد عمرو وابن عبد الحكم والجوهرى وغيرهم ممن اشتهر بالكرامات والأعاجيب من أمثال الرجل الذى كان يتلو القرآن وهو فى قبره ، والرجل الذى لبث أربعين عاما لا يتكلم أبداً ، والعروس التى حدثت لها معجزة عندما رفعت عن نفسها الحجاب لزوجها . وكذلك كانت هناك قبور الشهداء الذين سقطوا فى الحروب وهم يدافعون عن الإسلام بقيادة سارية تملأ السهل . وكانت جميع المبانى فى القرافة ، سواء منها المساجد أو الأضرحة ، ملاجىء يؤوى إليها الغرباء من العلماء والأتقياء كما كانت مفتوحة لأبناء السبيل . ولكل بناء نفقة شهرية رصدت له باسم السلطان ، سواء فى ذلك معاهد القاهرة أو مصر . ويقال إن هذه الإعانات كانت تزيد عن ألفى دينار مصرى فى الشهر ، وهو ما يساوى أربعة آلاف من دنانير مراكش . وأما جامع عمرو فى مصر فقد قيل لنا إن دخله بلغ ثلاثين ديناراً يوميا للصرف عليه ودفع مرتبات الخدم والمقرئين وغيرهم .

يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية ، فيقابلون من الأغذية والأشربة مايليق بهم . وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى ، ولهن من يكفلهن ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد ، اتخذت محابس للمجانين ، ولهم أيضا من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ، ويقابلها بمايصلح لها ، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد فى الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد . وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه . وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير المنسوب إلى أبى العباس أحمد بن طولون ، وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان ، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه ، وأجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر . ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم أن السلطان جعل أحكامهم إليهم ، ولم يجعل يدا لأحد عليهم ، فقدموا من أنفسهم حاكما يمتثلون أمره ويتحاكمون فى طوارىء أمورهم عنده واستصحبوا الدعة والعافية وتفرغوا لعبادة ربهم ، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذى هم بسبيله . وما منها جامع من الجوامع ولامسجد من المساجد ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس ، إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى إليها ويلازم السكن فيها ، تهون عليه فى ذلك نفقات بيوت الأموال »(١) .

كانت عمارة المدارس التى أنشأها صلاح الدين فتحاً جديداً فى عالم البنـاء فى القاهرة ، ففى ذلك الوقت كانت المساجد ذات شكل واحد ، هو شكل الجامع (وقد سمى كذلك لأنه كان يجمع الناس فى المناسبات العامة) الذى تؤدى فيه صلاة الجماعة . وقد كان كبيرا بحيث يتسع للجم الغفير من الناس ، فالإيوان المغطى فى الطرف الشرقى كان معدا بحيث يتيح لكثير من المصلين السجود والركوع . وإذا زاد العدد عما يحتمله الإيوان خصوصا فى المواسم والأعياد ، فهناك الفناء المكشوف حيث يجتمع عدد كثير متجهين نحو القبلة . أما الأروقة التى تحيط بالفناء فكانت مخصصة للأساتذة يستعملونها فصولا للدراسة أو مأوى يأوى إليه الفقراء وأبناء السبيل ، ولم تكن

---

(١) أثبتنا هنا النص الذى أورده فى هذا الصدد ، الرحالة ابن جبير — المترجم .

هذه الأروقة جزءاً أساسيا من الجامع الذى كان كما يدل عليه اسمه مكانا تعقد فيه الاجتماعات العامة للصلاة فقط .

ولما زار ابن جبير القاهرة لم يكن هناك سوى أربعة جوامع من هذا الطراز ، وهى : الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع بن طولون ، وجامع عمرو بن العاص . أما المساجد القليلة الأخرى مثل مسجد الأقمر ، ومسجد الصالح طلائع ، ومسجدان أو ثلاثة مثلهما فقد لحقها الخراب سريعا . ومع أنها كانت على شكل الجامع ، وكانت تستخدم فى وقت من الأوقات لصلاة الجمعة ، فإنها لم تعمر طويلا ، ولم تصبح من المساجد العصرية بعد وفاة مؤسسيها . بعد ذلك أسست مساجد كثيرة من حين إلى حين ، ولا تزال أغلبها من أهم المساجد إلى وقتنا هذا ، ولكن لم تكن من هذا الطراز .

الجوامع(١) التى يطلق على كل منها اسم مسجد كانت قليلة العدد نسبيا ، وكانت صغيرة الحجم لا تستعمل لصلاة الجمعة(٢). وكثيرا ما كانت تسمى زاوية ، ولا فرق بينها وبين المسجد في شيء ، اللهم إلا إذا كانت تستعمل مأوى للفقراء من الطلاب أو المجاورين . ولا يتميز المسجد عن الزاوية فى شيء ، فكلاهما بناء متواضع لا نعتقد أن أحداً من الزائرين العاديين لمدينة القاهرة قد شاهد واحدا منها أو استرعي نظره أحدها أكثر من كونه يزين أحد الأزقة .

والواقع أن الأبنية التى يعرفها الناس باسم مساجد هى فى الحقيقة مدارس أو معاهد علمية ، وهى أفخم ما كان فى المدينة من العمائر مثل : مساجد السلطان حسن ،

---

(١) أورد المؤلف هنا إشتقاق كلمة Mosque من اللغات الإيطالية والأسبانية .

(٢) يصف لنا المقريزى تسعة عشر مسجداً فقط (بخلاف ما كان بالقرافة) من بين سبعة وثمانين مسجدا . ويبدو أن المساجد التسعة عشر لم يكن لها شأن كبير ، وكانت مما بناه الفاطميون أو الأيوبيون ، وكلها خارج أبواب زويلة والنصر والقنطرة والسعادة أو فى بستان كافور ، ولو أن ثلاثة منها كانت بين القصرين أو قريبة منهما ، وقد زالت معالمها الآن . ويذكر المقريزى كذلك خمسة وعشرين زاوية كانت كلها — عدا واحدة — من بناء المماليك . وكان سبع منها خارج باب النصر أو باب الفتوح وأربع خارج أبواب أخرى ، وخمسة عند المقس . وبالجملة فإنه يبدو أن كلمة مسجد كانت تطلق فى أيام المقريزى على أماكن العبادة الريفية القديمة ، وأما كلمة زاوية فكانت تطلق على ما شيد منها فى أيام المماليك .

وبرقون ، وابن مظهر ، والناصر ، وقلاوون ، وما إلى ذلك . وهى تختلف تماما عن الجوامع فى إشكلها وفى الغرض الذى شيدت من أجله . ذلك أنها لم تشيد لأداء صلاة الجمعة ، بل كانت تبنى لتلقى العلوم الدينية فيها ، وبطبيعة الحال كان لهذا أثر فى تصميم المسجد وشكل بنائه . فبدلا من الصحن الفسيح المكشوف الذى كان يتسع لجمهور كبير من المصلين فى أيام الجمعة ، كانت فى المساجد الحديثة (المدارس) مربع صغير فى الوسط ، مسقوف فى أغلب الأحيان بألواح من الخشب المطلى ، تتوسطه قبة أو كوة صغيرة ، ويحيط بهذا الصحن من جوانبه الأربعة أروقة طويلة مقنطرة السقف كأنها أجنحة المسجد. فأما الجناح الشرقى وهو أطولها فيخصص إيوانه للصلاة، وفيه المحراب والمنبر والدكة وغيرها مما يحتاجه المصلون . وهنا كانت تقام الصلاة — إلا صلاة الجمعة — وكانت الأروقة الأربعة تستقبل طلابها كلا حسب مذهبه : فأحدها للحنفية ، والثانى للشافعية ، والثالث للمالكية ، والرابع للحنابلة — وكان الطلبة والعلماء يبيتون فى رواقهم حيث قاعات الدرس والمكاتب والمعامل .

تلك إذن كانت خطة صلاح الدين فى مقاومة الشيعة ، وهى بناء معاهد لتعليم المذهب السنى والإنفاق على هـذه المعاهد من بيت المال . ولم تكن الفكرة من مبتكراته ، وإنما هى فكرة نقلها من سورية حيث كان مولاه السلطان نور الدين يقوم ببناء المعاهد السنية لنشر مذهب الحنفية فى دمشق وفى غيرها من المدن. وكان نور الدين نفسه يحذو حذو السلطان ملكشاه السلجوقى الذى بنى له وزيره العظيم نظام الملك صديق عمر الخيام المدرسة النظامية الشهيرة فى بغداد. وإذا كان من الطبيعى أن يقوم صلاح الدين — وقد نشأ فى كنف أمثال هؤلاء العظام — ببناء هذه المعاهد . إلا أن مجرد تنفيذ الفكرة فى مصر ، كان فتحا جديدا وانقلابا فى أسلوب الثقافة وفى طراز البناء ، فقد انمحت آثار الشيعة ، واجتذبت هذه المعاهد الجديدة رجال الثقافة والعلم من أنحاء العالم الإسلامى .

وكانت السلطة فى مصر فى أثناء غياب السلطان إما فى يد ابنه أو أخيه ، وكلاهما كان يستشير فى أموره القاضى الفاضل ، وهو عربى من عسقلان ، ذو ثقافة واسعة

وعقل راجح . وكانت مؤلفاته تفيض بالحكمة والاتزان . وبفضل تأثيره بدأ الغرباء من الطلاب يفدون إلى مصر ومساجدها ، وانضمت مصر مرة ثانية إلى رابطة الثقافة الإسلامية واجتمع فيها علماء جاءوا إليها من أقصى بلاد فارس وتركستان بعلماء من قرطبة واشبيلية . ومن أمثلة ذلك أنه فى سنة ١١٧٦م وفد إلى مصر أجنبى (ابن فرو) من أقصى بلاد الأندلس، استهوته حركة إحياء العلوم والثقافة فى الشرق ، ونظم قصيدة من ١١٧٣ بيتا، تتضمن دروسا مختلفة مقتبسة من القرآن وتدل على عظمة الخالق . وكان هذا الرجل العجيب يحمل فى رأسه من العلوم ماينوء بحمله ذو البأس الشديد . ولما جلس هذا العالم فى حلقة الدرس ، احتشد حوله جمهور من المستمعين لم يكن فى قوله كلمة واحدة لا موضع لها . فلا عجب أن قربه إليه القاضى الفاضل — وكان قاضى القضاة وحاكم مصر من قبل صلاح الدين — وأنزله فى داره ، وواراه التراب بعد موته فى مقبرته الخاصة . وقد خفف وجود هؤلاء الفلاسفة من غلواء الرؤساء ، الذين عرف عنهم الميل للقيام بأعمال النهب والسلب ، إذ أن كبار رجال الحرب اعتادوا مجالسة هؤلاء العلماء .

وكان نور الدين محباً لمجالس العلم والشعر ، وكان الكتاب يحفون به وينضمون إلى حاشيته، كما كان صلاح الدين محباً لمناقشة رجال الفقه وأصول الدين(١) . وقد ذكره عبد اللطيف طبيب بغداد ، فقال: — وجدته أميراً جليلا مهيب الطلعة جديراً بالاحترام والتقدير ، وديعا متواضعاً ذكياً سمح النفس واسع الإدراك . ثم قال : وجدته فى ندوة من العلماء يتذاكرون العلوم ، ورأيته وهو يحسن الإنصات ثم يشترك فى الحديث . ويكفى صلاح الدين فخراً أنه أدخل نظام المساجد المدرسية فى القاهرة ، وقد يتسم التعليم فى هذه المدارس بالتعصب وضيق الأفق، ولكنه كان النظام السائد فى العالم الإسلامى ، وكان تطبيقه فى القاهرة مما جعلها فى مصاف مراكز العلم الإسلامية الشهيرة .

---

(١) ليفبول : صلاح الدين ص ٢٠

الباب السابع

بناة القباب

العادل سيف الدين ــ المجاعة العظمى ــ غزو الصليبيين ــ فردريك الثانى ــ الـكامل ــ نظام المماليك ــ شجرة الدر والمماليك البحرية ــ حملة لويس التاسع ــ المماليك الأتراك ــ حروبهم ضد المغول ــ حروبهم ضد الفرنجة ــ إحياء الخلافة العباسية ــ بيبرس ــ قصر المماليك ــ طيش الأمراء ــ بيت قلاوون ــ الناصر ــ التسامح الدينى بالنسبة للمسيحيين ــ التعصب المحبوب ــ الفتن ــ الناصر وأبو الفداء ــ الإنتاج الفنى ــ مساجد الأمراء ــ أسلوب المماليك الأول فى البناء ــ السلطان حسن ــ مسجد السلطان حسن ــ المماليك الشراكسة ــ الفساد ــ الحروب ــ الذوق الراقى ــ فن البناء ــ قايتباى ــ مبانى قايتباى ــ المساجد داخل الجدران ــ الوكالة ــ مساجد الأمراء والقاضى ابن مظهر ــ المدرسة الجديدة ــ مبانى الغورى ــ الفتح العثمانى .

أولا ــ المماليك البحرية

استطاع صلاح الدين الأيوبى أن يرفع القاهرة مرة أخرى إلى مرتبة العواصم العالمية الشهيرة ، وذلك بفضل تحصيناته لها من هجمات العدو ، وماشيده فيها من أماكن لنشر الدين والعلم ، حتى أصبحت حلقة ذات قيمة فى سلسلة الثقافة الإسلامية العظيمة . وليس ثمة ريب فى أنه أضاف كثيراً إلى أعباء حكام مصر المقبلين ومسئولياتهم ، حيث وجدوا أنفسهم أمام مشاكل ونضال وحرب مع حكام مدن سورية من أقرباء صلاح الدين الذين لم يكن لهم شأن كبير ، وكذلك مع فرنجة ساحل فلسطين الذين لم يكن قد فارقهم بعد حلمهم العزيز وهو تحرير بيت المقدس ، والذين كان يدور بخلدهم وقتئذ أن الطريق الذى يؤدى إلى المدينة المقدسة ــ ولو أنه كان يبدو ملتوياً ــ كان يخترق مصر . ونحن لا يعنينا عند التحدث عن تاريخ القاهرة أن نسرد قصة الحروب التى شنها العادل سيف الدين شقيق صلاح الدين وصديق الملك ريتشارد الذى نصب أحد أبناء سيف الدين فارسا ، كما سبق أن نصب همفرى ، صلاح الدين نفسه فارساً من قبل .

غير أن العادل بعد أن حكم إمبراطورية أخيه فى سنة ١٢٠٠ م ، أثبت بحق أن البلاد قد وجدت فيه بعض العزاء عن موت ذلك البطل العظيم . فقد خدم صلاح الدين فى حياته بإخلاص ، وكان ساعده الأيمن مدة ربع قرن . وفى خلال ربع قرن آخر ، وجدناه يقبض على زمام الامبراطورية التى لم يأل أقاربه جهداً فى العمل على تشتيتها وتقسيمها . ولقد استخدم الفطنة فى إبقاء علاقته مع الفرنجة بنزوله عن ميناءين من الموانى فى فلسطين ، ولم يقلل كل عداء حدث برغم هذا التساهل من منزلته العالية مثقال ذرة . ولقد وصفه أحد معارفه بأنه رجل كثير الخبرة ، واسع المعرفة ، بعيد النظر ، قوى البنية ، فى وسعه أن يأكل حملا بأكمله فى وجبة واحدة . ويذكر لنا أحد شعراء العرب المعاصرين مقدار نشاطه وسيطرته على جميع أنحاء مستعمراته الواسعة .

ومهما يكن من أمر يقظته ، فإنه لم يستطع أن يدرأ عن البلاد تلك الكارثة التى طالما هددت مصر فى العصر الوسيط — وهى نقص الفيضان وما كان يصحبه من وباء وفساد ومجاعة . ولقد حدث ذلك فى سنة ١٢٠١م ثم تكرر حدوثه فى سنة ١٢٠٢م وكانت النتائج وخيمة إلى حد بعيد . ولدينا رواية شاهد عيان تنطوى على صورة صادقة لما ساد ذلك العهد من رعب وفزع .

دون عبد اللطيف — طبيب بغداد الذى عاش فى القاهرة عشر سنوات (١١٩٤ — ١٢٠٤م) ، واستمع إلى محاضرات الأساتذة فى جامع الأزهر — ما صحب المجاعة من أحداث مروعة . فلقد بلغ من عظم النكبة أن كان السكان يرحلون جماعات عن أحياء المدينة وعن القرى التى أصبحت خالية من سكانها . أما أولئك الذين بقوا حيث كانوا فقد كانت تواجههم أخطار لا قبل لهم بها . وكان من المألوف أن يأكل الناس اللحوم البشرية ، وحتى الآباء كانوا يذبحون أبناءهم ويطهون لحومهم ، ولقد وجدت امرأة وهى تأكل لحم زوجها نيئا . وكان الرجال يكمنون للنساء فى الشوارع ليستولوا على أطفالهن ، بل إن الناس كانوا ينبشون القبور بحثا وراء الطعام . كان كل هذا يحدث فى مصر من أقصاها إلى أقصاها ، فقد أصبحت الطرقات مكدسة بجثث الموتى ، وساد القتل والسرقة دون حساب ، واستباح الفجار الذين تركت لهم الفوضى الحبل على الغارب أعراض النساء . وكانت الفتيات من الحرائر يبعن بمبلغ يساوى خمسة شلنات لكل واحدة ، كما أن كثيراً من النساء كن يجئن متوسلات لكى تباع

الواحدة منهن كالجوارى حتى لاتهلك جوعاً . وكان الثور يباع بسبعين ديناراً وا لمد(١) من القمح بما لا يزيد كثيراً عن عشرة شلنات . وكانت الجثث تبقى فى الشوارع والمنازل من غير أن تدفن ، مما أدى إلى انتشار طاعون مخيف فى أنحاء الدلتا . وكانت العقبان والضباع تتعقب الموتى فى الريف وفى طريق القوافل ، كما كان الرجال يخرون صرعى بجوار المحراث بفعل الوباء . ولقد حدث فى يوم واحد أن أدى أحد أئمة المساجد فى الإسكندرية صلاة الموتى على أكثر من سبعمائة شخص ، كما حدث أن انتقلت إحدى الثروات إلى أربعين وريثا على التوالى فى شهر واحد . ونقصت قيمة الممتلكات إلى حد عجيب ، ونظراً إلى تناقص عدد السكان انخفضت إيجارات المنازل فى القاهرة إلى سبع ما كانت عليه . وكان أثاث القصور وتحفها تكسر لتوقد بها الأفران . هذا إلى أن الزلازل العنيفة التى شعر بها الناس فى سورية ووصل تأثيرها شمالا حتى أرمينيا قد أخذت تهدم عدداً لا حصر له من المنازل ، وتخرب مدناً بأسرها ، فتزيد بذلك من هول البلاء .

ثم إن غزو جان دى بريين الذى استولى على دمياط جعل مصر فى قلق وجزع ثلاثة أعوام (١٢١٨ — ١٢٢١ م) . غير أن العادل — الذى توفى فى مستهل ذلك الضيق — خلف من بعده ابناً كفئاً ، هو الكامل، الذى دفع بالصليبيين وجعلهم يجرون أذيال العار باندحارهم ، ولما أتى الإمبراطور فردريك الثانى بنفسه على رأس الصليبيين إلى فلسطين ، رأى السلطان من الحكمة ألا يكتفى بالسماح له بأن يتوج نفسة فى بيت المقدس ، بل عقد معه محالفة دفاعية ضد الفرنجة في سورية (١٢٢٩م) . وبالرغم من أن المدينة المقدسة والطريق المؤدى اليها سلما للمسيحيين ، احتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى وما يحيط به ، وهو كل ما يحفلون به . وكانت المعاهدة المتقدمة الذكر أغرب ما تم بين قوتين إحداهما مسيحية والأخرى إسلامية ؛ غير أنه يجب ألا يعزب عن بالنا فى الوقت نفسه أن البابا أطلق على فردريك أنه من أتباع محمد ، وأن مراسلات الإمبراطور مع الفيلسوف العربى ابن سبعين والمناقشات التى قامت بينه وبين سفراء الكامل ، فى العلوم العقلية ، كانت كلها تدل على وجهات النظر التى تنطوى على التسامح ، ولو قام بها رجال أقل مقاما لكان جزاؤهم الموت لكفرهم . وكان كتاب العرب يعجبون

---

(١) المد : مكيال يسع ٢٥ أقة .

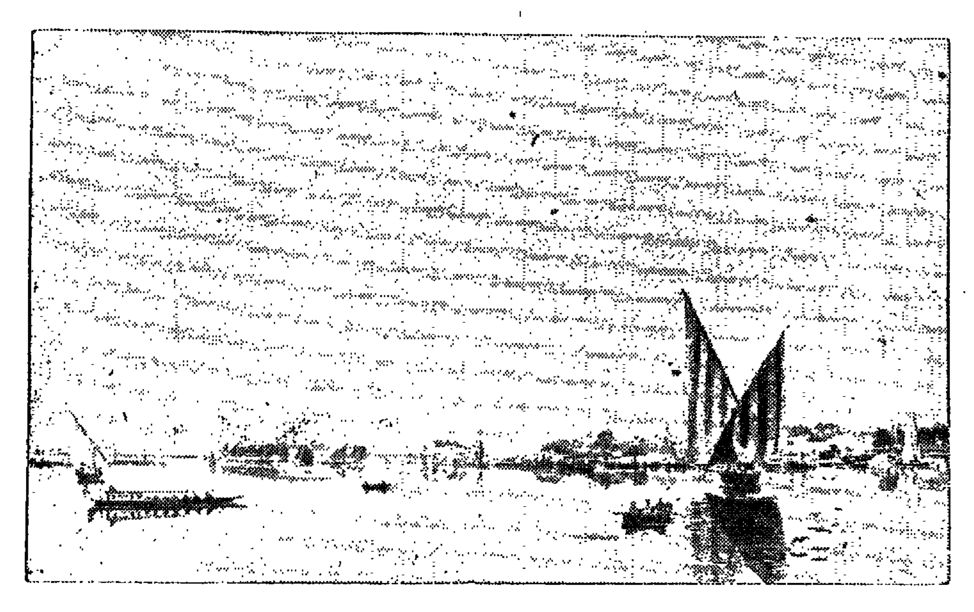
كثيراً بفردريك ويشيدون به . أما الكامل فقد أثبت بحق أنه واسع العقل ، إذ رحب برسول الإمبراطور — وهو الأسقف برنارد — فى القاهرة ، وأطلق سراح المسجونين الذين أسروا فى « حملة الأطفال الصليبية » ، كما وفى بعهده فى المحالفة . فلا عجب إذا نظر إليه المتزمتون من المسلمين نظرة البابا إلى فردريك ، وهم فى ذلك مخطئون . إذ أن الكامل كان مسلما كامل الإيمان وإنما تعاهد مع المسيحيين فى صالح السلام . ثم إن المعهد الذى بناه « دار الحديث » أو « الكاملية » والذى لا تزال آثاره بين القصرين ، يشهد على مبلغ غيرته على الإسلام واهتمامه به . ولطالما كانت عقلية والده الجبارة تسود عقلية الابن حين كان يشترك فى اجتماعات العلماء فى قصره مساء كل خميس . هذا إلى أن القاهرة تدين له بإتمام بناء القلعة التى اتخذها مقراً له . كذلك تحسنت مصر من الناحية الزراعية بفضل إشرافه الدائم على شئونها ، وحفره الترع وتوسيعها وزيادتها وإقامة الجسور والسدود .

وكانت الخطة الجديدة التى انتهجها الأيوبيون من خلفاء صلاح الدين قد أوجدت شيئا آخر إلى جانب نظام الحكم وإحياء العلوم والثقافات القديمة . ذلك هو نظام الإقطاع الذى ساد مصر — لحسن حظها أو لسوئه — ستمائة عام ، مما كان له أثر ظاهر فى الحياة الاجتماعية ، وفى الفنون والآداب والنواحى المادية فى القاهرة . ويمكن القول إن فترة المماليك بدأت بصلاح الدين . وفى الواقع أنه كان هناك مماليك — أى أرقاء من البيض — منذ أمد بعيد ، وأن كثيراً منهم قد أصبح له شأن كبير . فابن طولون — أو على الأصح أبوه — كان مملوكا ، كما أن كثيراً من الحكام الذين جاءوا بعد ذلك(*) ينتمون إلى نفس طبقة العبيد المعتقين ، سواء الأتراك منهم أو اليونانيين المستوردين من آسيا الصغرى أو من التركستان . ولقد استطاع العبيد فى عهد الخلفاء الفاطميين أن يرقوا إلى أسمى الدرجات ، فقد كان جوهر — مؤسس القاهرة — من اليونانيين أو الصقالبة ، ولو أننا لا نستطيع أن نذكر من أيهما كان هو على وجه التحديد . كذلك رأينا أن العبد الأرمنى « بدر » قد أصبح فى الواقع سيد مصر . فليس الرق فى الشرق إذن من العار فى شىء ، بل على العكس من ذلك نجد العلاقة بين السيد وعبده تطغى وتسمو على مجرد الخدمة . ذلك أن العبد كان يعتبر فى العادة كأحد الأبناء ، وإنا لنجد مثلا لطيفا لهذا الشعور يتجلى

فى وصمة العار التى انطبعت على جبين الأمير المشهور قوصون فى القرن الرابع عشر ، لأنه لم يكن له الحظ فى أن يكون عبداً لأحد ، شأنه فى ذلك شأن سائر أبناء طبقته فى ذلك الوقت . وكانت جيوش الفاطميين حافلة بمثل هؤلاء المماليك الذين أحرزوا جاها وثروة ، غير أن هذا النظام لم يكن قد وصل إلى الكمال الذى نشاهده فى عهد خلفاء صلاح الدين . ولقد ترعرع بطل الإسلام العظيم فى كنف النظام المملوكى ، الذى وضع أساسه السلاجقة وأتباعهم ، الذين كانت تستند قوتهم إلى نظام عسكرى يتألف من قوات من المتطوعة أو من عبيد الشراء ، تدفع لها رواتبها من إقطاعات الأراضى والقصور والمدن ، أو حتى من ولايات بأكملها . وكانت هذه القوات تقوم على أساس نظام عسكرى بالغ الصرامة . وكان كبار أصحاب الإقطاعات يؤجرون جانبا من إقطاعاتهم لأتباعهم الأقل شأنا منهم ، وكان عليهم أن يحضروا عددا معينا من الرجال لسيدهم كما أن هذا السيد بدوره كان ملزما بأن يحضر جنوده لمساعدة السلطان فى حروبه ، وكان هذا النظام سائداً فى جميع الولايات التى يحكمها قواد دولة السلاجقة . ولقد عمل نور الدين ، الذى كان من قواد السلاجقة على إدخال هذا النظام فى سورية ، كما أن صلاح الدين — الذى درج فى ظل نور الدين — أوجده فى مصر ، حيث كانت الأراضى والقرى تقسم على قواد جيوشه الذين كانوا يعيشون فيها فى الشتاء . فإذا ما أقبل فصل الصيف ، وهو موسم الحرب فى ذلك الوقت ، ساروا على رأس أتباعهم ليلحقوا بسيدهم الأعظم .

وكان نظام الإقطاع هذا سائدا فى مصر منذ دخلها صلاح الدين وجنده الأتراك حتى تولى محمد على باشا الحكم فى القرن التاسع عشر . وقد تجلت سيادة هذا النظام فى القاهرة حين كون الصالح — حفيد العادل — فرقة مختارة من المماليك فى القصر الجديد وفى الثكنات التى بناها فوق جزيرة الروضة فى مواجهة مدينة مصر . ومن موقع هذه الثكنات على النهر (البحر) ، عرف أولئك المماليك باسم « المماليك النيلية » أو « المماليك البحرية » . وقد قررت بسالتهم الرائعة فى موقعة المنصورة بقيادة بيبرس وهزيمتهم أمهر فرسان أوربا مصير حرب لويس التاسع الصليبية ، ومن ذلك الحين أخذوا يحكمون مصر مدة قرن ونصف . وعلى الرغم من الفوضى والاستبداد والجور والدسائس والمذابح — التى سادت فى

ذلك الوقت ـ يعد حكم المماليك البحرية من أروع الصفحات التي سجلها تاريخ القاهرة . ويجب ألا يعزب عن بالنا أن انتصارهم الباهر في موقعة المنصورة لم يكن بالشيء اليسير ، إذ كانت تحكمهم في ذلك الوقت امرأة . ونحن نعلم أن التاريخ الإسلامي لا يشتمل على ملكات إلا فيما ندر . ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حال دون ذلك ، غير أنه من بين النساء المسلمات الثلاث أو الأربع اللاتي ارتقين العرش ، كانت الملكة « شجرة الدر » تحتل المكانة الأولى ، ولم تكن هذه سوى واحدة من الجواري قد مات سيدها وزوجها الصالح ـ حفيد العادل ـ أثناء الحرب مع الصليبيين ، ومن ثم هبت هي في الحال للقيادة ، وجعلت من خبر موت السلطان سرا مطويا حتى يحضر ابنه من أقاصي الامبراطورية . وهكذا قبضت على زمام الحكومة ، ونظمت الدفاع ، وأصدرت أوامرها إلى القواد والحكام الخاضعين لها . وبذلك استطاعت بفضل شجاعتها وفائق ذكائها أن تسيطر على أمور الدولة كلها . ولما حضر الوريث في سنة ١٢٥٠ م تخلت عن نيابتها للملك ، غير أن المماليك الحانقين لما قاموا في وجه الوريث القاسي وقتلوه ـ وكان ذلك بعد شهرين تقريبا ـ



جزيرة الروضة

استعادت شجرة الدر سلطانها . ويمكن القول إن القديس لويس يدين بحياته إلى كرم أخلاق شجرة الدر وشهامتها لقبولها الفدية منه .

كانت شجرة الدر ذات صفات عظيمة ، تحمل لقبا انتهى إليها بولادتها ابنا للسلطان (الصالح) الأيوبي الراحل . وبالرغم من وفاة هذا الطفل ، كانت تدعم مركزها فى الحكم بهذه الأمومة . وكان توقيعها ونقودها (١) تحمل صنوفا من الألقاب النسائية تنتهي (بأم الملك خليل) المنتصر ولو أن الملك الطفل لم يكن يعلم أنه ملك .

لم تتمتع شجرة الدر بالحكم منفردة مدة طويلة ، لأن فكرة تولى النساء العرش كانت أكثر من أن يحتملها تحيز المسلمين . فقد تدخل خليفة بغداد فى الأمر بكل ما أوتى من قوة وسلطان . وكتب إلى أمراء القاهرة يقول : « إذا كانت الرجال قد عدمت عندكم ، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا » . ومن ثم تزوج القائد « أيبك » الملكة شجرة الدر وأشرك معها فى الحكم طفلا من أقارب صلاح الدين ، ليبقى مظهر الحكم فى الأيوبيين ، واستمرت شجرة الدر تحكم بالفعل ، إذ وضعت يدها على الخزينة ، ولم تكن تعامل زوجها الجديد بالاحترام الواجب . ولما كانت امرأة قبل كل شيء انتابتها غيرة النساء حتى إنها جعلته يطلق زوجة أخرى ، ولما سولت له نفسه الزواج من إحدى أميرات الموصل ، استسلمت شجرة الدر بادىء الأمر وطوت الخبر على حقد مرير ، ثم ما لبثت أن استدرجته بكلماتها المعسولة إلى القلعة حيث أسلمته إلى غلمانها فقتلوه فى الحمام ، وكان ذلك فى سنة ١٢٥٧ م . وكان جزاؤها على هذه الفعلة الشنعاء سريعا ورادعا ، فلم تمهل أكثر من ثلاثة أيام إذ قبض عليها المماليك واعتقلوها فى البرج الأحمر حيث أخذت تسحق مجوهراتها وحليها فى هاون حتى لا تتزين بها امرأة أخرى من بعدها . وكان الحقد يمزق فؤادها تمزيقا ، ثم سيقت أمام الزوجة التى أكرهت زوجها أيبك على تطليقها . وما لبثت أن لقيت مصرعها بقباقيب النساء ، وبقيت جثتها فى فناء القلعة حتى تكون عبرة لغيرها ، إلى أن جاء أخيرا بعض ذوى الخير وتولوا دفنها . ويمكن مشاهدة قبرها الذى لا يزال قائما بجوار

---

(١) العملة التى تحمل اسم شجرة الدر توجد فى المتحف البريطانى (انظر كتاب المؤلف (فهرس العملة الشرقية الفصل الرابع ص ١٣٦) . وكان لقب شجرة الدر « عصمة الدين السلطان » لأن « سلطانة » ليس لقبا عربيا .

ضريح «السيدة نفيسة» . ولقد قام أحد أفاضل القوم فغطاه بقماش نقش عليه بالذهب اسم شجرة الدر .

من ذلك الوقت بدأ حكم المماليك البحرية خالصاً لهم دون أن يشترك فيه أحد من بيت صلاح الدين ، ولو أن هذا الحكم لم يسلم فى الوقت نفسه من المعارضة والدسائس من جانب أفراد الأسرة فى سورية ، ولا من العداء من جانب عرب مصر الذين قلموا بحركة وطنية ، ولكنهم لم يلبثوا أن سكنوا حينما استخدمت معهم القسوة والقوة . والواقع أن مجرد تعاقب ثلاثة وعشرين سلطانا من المماليك البحرية وجميعهم من الأتراك . وأغلبهم من القفجاق الذين خلفوا «أيبك» وحكموا من سنة ١٢٥٧ إلى سنة ١٣٨٢م ، قد يضللنا ما لم نضع نصب أعيننا الظروف التى أحاطت بحكمهم . وليس بين هؤلاء الثلاثة والعشرين من حكم فترة طويلة سوى أربعة فقط : فمجموع الفترات التى حكمها بيبرس وقلاوون والناصر وحسن يبلغ نصف الفترات التى حكمها الثلاثة والعشرون سلطانا . ولم يكن السلطان فى الواقع أكثر من مملوك كبير القسام ينتخبه رفقاؤه ، وكان أحدهم يشعر بأنه ند له . مثال ذلك أنه لما انتخب لاچين سلطاناً نتيجة دسائس الأمراء ، سار هؤلاء فى ركابه وأقسموا له يمين الطاعة والولاء ، غير أنهم فى الوقت نفسه جعلوه يقسم ، ثم يعيد القسم ، بأنه سوف يكون واحداً منهم ، لا يعمل شيئاً دون أن يستشيرهم ، ولا يؤثر مماليكه دونهم . ولما حنث فى يمينه وخص بعضهم دون البعض الآخر ، لم يكن نصيبه سوى الاغتيال على أيدى هؤلاء الأمراء ، والواقع أنه لم يكن ليصمد طويلا فى ذلك المنصب الخطير سوى الأقوياء وحدهم . ولعل بعض الفضل فى بقاء بيبرس طويلا فى منصبه ، يرجع إلى تلك الحروب الرائعة التى قام بها فى سورية . ولما أطاح القدر بحياة هذا الرجل القوى ، كان على ابنه أن يعتلى العرش سداً للثلمة التى حدثت ، على حين أخذ الأمراء المتنافسون يتبارون فى إظهار قوتهم ، فيعقدون الاجتماعات ، ويستميلون الخصوم ، إلى أن يتقدم أعظمهم قوة — أو أكثرهم سياسة ودهاء — فيزيح عن العرش من يكون متربعاً عليه مؤقتا ، ويعتليه هو محتفظا به أطول مدة مستطاعة . ثم تمضى السنون ، وتظهر المشكلة من جديد ، وهكذا دواليك .

على أنه يجب علينا أن نوفى المماليك حقهم كجنود أكفاء ، فقد كان عليهم

أن يواجهوا أبشع الغارات التى شنتها عليهم قبائل المغول بقيادة خلفاء جنكيزخان ، أربع مرات وكانوا فى كل مرة يردونهم على أعقابهم . فقد حمل قطز عبء القتال فى المرة الأولى ، وكان رسل هولاكو من المغول يفدون على القاهرة ، يطلبون الإذعان والتسليم فى صلف وقحة . إلا أن قطز قطع رءوسهم وعلقها على باب زويلة ، ثم تقدم إلى سورية فهزم المغول هزيمة منكرة عند عين جالوت فى سنة ١٢٦٠م ، وخلص البلاد من شرهم . كما أن « بيبرس » عبر نهر الفرات على رأس قواته عائما وهزم المغول عند بيرا سنة ١٢٧٣م ، ثم اتجه إلى الغرب حيث قتل سبعة آلاف من الأعداء فى أبلستين ، وارتقى عرش السلاجقة الذى اغتصبه المغول ، عند مدينة قيصرية فى كبادوكيا . أما قلاوون فقد رد غزوا آخر فى سنة ١٢٨١ م ، واستطاع بفضل سيطرته وسلطانه أن يجند جيشا من مختلف الأجناس ، فمنهم المماليك من الحرس ، ومنهم الأتراك ، ومنهم بدو الصحراء ، ومنهم العرب من ناحية الفرات والحجاز . وكان يشد أزر هؤلاء جميعا جنود حماة المحنكون وكان لا يزال عليها أمير من بيت صلاح الدين . فاستطاع السلطان بكل هؤلاء أن يحرز نصراً مبيناً عند حمص حيث خاض جيشه غمار معركة حاسمة . وهكذا حرر السلطان سورية مرة أخرى من جموع المغول ، التى كانت تجتاح البلاد وتنتشر فيها انتشار الجراد . غير أن المغول مالبثوا أن عادوا فى عهد ولده الناصر ، وفى هذه المرة حلت بالجيش المصرى الهزيمة فى موقعة الخزندار بالقرب من حمص عام ١٢٩٩ م . وقد سقطت مدينة دمشق ، وظهر فى القاهرة رسل المغول مرة أخرى ، ليرغموا السلطان على الإذعان . إلا أن المماليك على الرغم من هذا لم يفقدوا روحهم المعنوية ، فقد نشط صناع الأسلحة فى القاهرة ، وكان المجندون يفدون زرافات ووحدانا . وبلغ من شدة الحاجة إلى الجياد أن ارتفع ثمن الحصان من إثنى عشر جنيها إلى أربعين جنيهاً . أما سورية فكانت تخيم عليها سحابة من الرعب ، بعد ما خلفه فيها المغول من فوضى . إلا أن كبار الأمراء — من أمثال بيبرس الجاشنكير وغيره من رؤساء المماليك — ركبوا فى كبرياء وساروا فى طريقهم إلى النصر ، وهكذا تقابل الجيشان المتعاديان مرة أخرى . وفى سهل «مرج الصفر» فى سنة ١٣٠٣م ، وللمرة الرابعة والأخيرة ، هزم المغول وطردوا من سورية ، وعاد الناصر إلى القاهرة متوجاً بإكليل من المجد والفخار . وكان الرسل قد أذاعوا

الأخبار ، وأخذ الأمراء يتنافسون فيما بينهم على إقامة السرادقات والخيام النفيسة على جانبي الطريق الذي سوف يجتازه الموكب ، وكان محرما على العمال فى ذلك الوقت أن يقوموا بأي عمل آخر سوى تشييد تلك الزينات الفاخرة، وأجرت الحجرات التي على جانبي الطريق ، حتى تراوح إيجار الحجرة الواحدة منها بين جنيهين وأربعة جنيهات فى ذلك اليوم . وقد بسطت الطنافس الحريرية على طول الطريق، وأخذ السلطان الفخور يمر فى ركبه بين الزينات الرائعة التى أقامها له الأمراء ، بينما سارت جموع الأسرى من المغول ، كل أسير منها يحمل رأس زميل له مشدودة إلى عنقه لتكمل بذلك المنظر بهجة النصر . وكانت الأصوات والهتافات تنبعث من كل مكان، كما كانت أنغام الموسيقى وقرع الطبول يصم الآذان .

لم يكن المغول وحدهم هم الذين لقوا الأمرين ولمسوا بأس المماليك ، فإن بيبرس الأول العظيم وهو تركى أزرق العينين أصيب بمرض فى عينيه جعل ثمنه فى سوق الرقيق لا يزيد على عشرين جنيها قد أتى من بلاد القفجاق . وعلى الرغم من نشأته المتواضعة ، كان له من الشجاعة والحماس ما جعله يطمع فى أن يصبح يوماً مثل صلاح الدين . ومن ثم نراه يقوم بالحرب المقدسة عشر سنوات فى فلسطين ، حيث كان الفرنجة يميلون إلى التحالف مع المغول : ولقد استولى على كل من قيصرية وأرسوف فى سنة ١٢٦٥م، بعد أن أحالهما أطلالا ، ثم جر حماتهما إلى القاهرة يجرون أذيال الذل والعار ، وهناك أمر بعرضهم وهم يحملون الأعلام المنكسة والصلبان المكسورة. وعلى الرغم من أن بيت المقدس كانت قد استردت من المسيحيين قبل ذلك بعشرين سنة كانت آثار الحرب الصليبية لا تزال تضطرم نارها تحت الرماد على الساحل وفى بعض الحصون الداخلية . لذلك عقد بيبرس العزم على أن يخمد آخر جذوة منها ، ففى سنة ١٢٦٨م فتح يافا ، أما أنطاكية وهى حاضرة شمال سورية المسيحية فقد حوصرت وأحرقت عن آخرها . وبعد ذلك بثلاث سنوات سقطت قلعة فرسان المعبد العظيمة ونكست أعلامها ، وفقد الفرسان الجرمان(١) مونت فورت ، وحتى جزيرة

(١) تم زوال سلطان الصليبيين حين غزا قلاوون طرابلس وفتح خليل حصن عكاء عنوة سنة ١٢٩٢ م، أما سائر المدن فقد سقطت فى أيدى المماليك بعد ذلك بقليل ، وهكذا زالت قوة الصليبيين .

قبرص التي كان الفرنجة يستوردون منها مؤنهم قد غزاها أسطول المماليك، وتم الاستيلاء على الحدود الواقعة على الجبال وتجريدها من السلاح . وقبل أن يلقى بيبرس حتفه كانت أوامره تطاع من البحر الميت (١) ووادى نهر الفرات شمالا إلى جنوب بلاد العرب وشلال النيل الرابع جنوبا كما أصبحت المدن المقدسة : مكة ، والمدينة ، وبيت المقدس ، داخلة فى أملاكه . وكذلك استولى على مينائى سواكن وعيذاب على البحر الأحمر ، وكان عرب الصحراء جميعاً طوع أمره ، كما أدى له الجزية رؤساء المغاربة . وكان الخان الأعظم للقبائل الذهبية على نهر الفولجا حليفاً له ، وقد أرسل له ابنته لتصير زوجة له . وعلى الرغم من أن بركة خان كان مغولياً ، فإنه كان عدوا قديما لمغول فارس الذين كانوا قد انتشروا فى سورية ، كما أن السفارات كانت قد تبودلت مع إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية الذى سمح ببناء مسجد في القسطنطينية ، بينما زوده بيبرس بأحد البطاركة . كذلك كانت هناك علاقات سياسية وتجارية مع كل من منفريد صاحب صقلية ، وجيمس صاحب أرغون وألفونسو صاحب إشبيلية وشارل صاحب أنجو . ولكى يتوج بيبرس انتصاراته بإكليل من الغار ، عمل على إحياء الخلافة العباسية القديمة التى أزالها المغول من بغداد فى سنة ١٢٥٨م . ومن ثم أحضر إلى القاهرة رجلا من سلالة الخليفة العباسى ، وأسكنه فى القلعة تحوطه الأبهة والجلال ونصبه خليفة شرعيا للإسلام . وقد مثل بيبرس بين يدى ضيفه الخليفة فى خشوع وتسلم من يده البردة والعمامة السوداء والخاتم وهى الخلع التى جرى العرف أن يتسلمها السلطان الشرعى من صاحب السلطة الدينية العليا . ومنذ ذلك الحين أصبح فى القاهرة خليفة — على الرغم من أنه كان ألعوبة فى يد السلطان — حتى جاء الغزو العثمانى وتحولت الخلافة إلى سلاطين العثمانيين فى سنة ١٥٣٨ م (٢) .

كان بيبرس جنديا محنكا وسياسياً قديراً — ولو أنه لم يكن يؤمن جانبه — وكان قادراً على إدارة شئون البلاد فى قوة وحزم. ففى عهده تمت السيطرة على الأراضى المقدسة ، ولم تكن جهوده فى ذلك لتخفى على أحد . وكان يبدو كأنه فى عدة أماكن فى وقت

---

(١) من مياه كلب بالشام .

(٢) اكتشف ا . ت روجرز بك فى سنة ١٨٨٣م مقبرتين لاثنين من الخلفاء العباسيين وبعض أفراد البيت العباسى فى مصر ، وذلك بالقرب من مسجد السيدة نفيسة جنوبى القاهرة .

واحد ، لأن رحلاته كانت سرية وحثيثة . ومن الأمور المحببة إليه أنه كان يظل مختفياً في القلعة بضعة أيام يراقب أعمال نوابه ، في الوقت الذي كان يسود فيه الاعتقاد بأنه سافر إلى سورية . ولقد أمضى الجانب الأكبر من حكمه في حروب ونضال في خارج مصر ، ولكنه كان يمضي شهور الشتاء في القاهرة عادة ، حيث كان يريح جنده في الوقت الذي تعوق الأمطار والثلوج سير الجيوش . وكان ينتهز تلك الفترات ليقوم بالاصلاحات اللازمة في حاضرة البلاد وفي ريفها . ولم يكن شغفه بالشئون العامة ليتجلى في بناء المساجد والمدارس أو في إعادة بنائها ، أو إعادة بناء دار العدل عند سفح القلعة بل إنه عمل على توسيع جداول الري القديمة وحفر أخرى جديدة ، كما شق الطرق وبنى الجسور ، وحصن مدينة الإسكندرية وأصلح منارتها . كذلك عمل على حماية مصبي النيل من خطر الغزو الأجنبي ، وأعاد الأسطول المصري إلى ما كان عليه بأن بنى أربعين سفينة حربية . وقد بلغ عدد قواته المنظمة إثنى عشر ألفاً ، عدا الجنود المصريين والعرب والجند المؤقتة . ومن الطبيعي أن نفقات الحرب الطائلة كانت تقتضي جمع ضرائب باهظة . وعلى الرغم من أنه حينما تولى الحكم أراد أن يستميل الناس إليه بتخفيض الضرائب التي فرضها قطز إلى ستمائة ألف دينار في السنة ، وجد نفسه مضطراً في نهاية الأمر إلى مواجهة نفقات حروبه بفرض ضرائب ثقيلة . ومع ذلك فإننا نقرأ عن إلغاء ضرائب قديمة أكثر مما نقرأ عن فرض ضرائب جديدة . كما أن خزينة الدولة لم تكن تملؤها الضرائب التي كانت تجبى في مصر بقدر ما كانت تملؤها الأموال المرسلة من البلدان المهزومة ومن أنحاء سورية ، ومن الولايات التابعة له ، ومن رسوم الجمارك .

وكانت حكومته مستنيرة عادلة حازمة . فلقد واجه مجاعة سنة ١٢٦٤ م القاسية باستعداد سريع ينطوي على كثير من التعقل والكرم ، ذلك أنه نظم مكيال القمح وعمل — وأرغم الأمراء والقواد على أن يعملوا معه — على إيجاد ما يكفي المعوزين من القوت ثلاثة أشهر . كما أنه لم يسمح للخمر ولا للجعة ولاحشيشة الدينار بالدخول في ممتلكاته ، برغم أن الضريبة التي تفرض على الخمور كانت تصل إلى ستة آلاف دينار في العام ، كذلك حاول أن يستأصل شأفة الأمراض المعدية بواسطة الطرق العلمية . وكان بالغ الصرامة فيما يختص بأخلاق رعاياه ، إذ أغلق الحانات والمواخير

وأقصى النساء الأوربيات عن المدينة ، وعلى الرغم مما كان يعرف عنه من انهماكه فى الملذات ، لم يكن مترفاً ، فقد كان يقبل على العمل فى نشاط قلما نجد له مثيلا . فإذا أمضى نهاره فى الصيد والرماية والرياضة على اختلافها أمضي ليله فى أعمال الدولة ، حتى إن الرسول الذى كان يصل فى وقت السحر يتسلم الرد بعد ثلاث ساعات دون تأخير أو إمهال . وكثيراً ما كان يملى أكثر من خمسين رسالة ثم يوقعها ويختمها فى الهزيع الأخير من الليل بعد أن يكون قد أمضى وقتاً طويلا فى رياضة عنيفة . وكان البريد يرسل مرتين فى الأسبوع علي ظهور الخيل ، هذا إلى الاستعانة بحمام الزاجل المنظم .

فهل من عجب إذن أن يكون مثل هذا الرجل محبوباً من الشعب الذى اتخذه مثالا للملك الذى تتجلى فيه صفات الكرم والشجاعة ؟ وهل من عجب أيضا أن الشعب لا يزال يستمع بشغف حتى اليوم إلى القصص التى يرويها (الشاعر) عن الظاهر بيبرس فى مقاهى القاهرة . وحتى رجال الدين كانوا يعجبون به ويجدون فيه ملكا يرعى معاهد الدين بهباته ، ويعدل فى معاملة رجال المذاهب السنية الأربعة فيعين لكل فئة قاضيامنهم . بيدأن الأمراء والقواد وحدهم هم الذين كانوا يخشونه ، لأنه — وإن كان يحسن معاملة الصالح المطيع — لم يكن يغفر للمسىء ، وكانت شكوكه تلاحقهم على الدوام فى حركاتهم وسكناتهم . فكان من الطبيعى أن ينتقم منه أحد الذين يحقدون عليه . وقد حدث أنه مات فى سنة ١٢٧٧ م مسموما من كأس شربها ، وربما كان قد أعدها لغيره ، بعد أن دام حكمه الزاهر سبع عشرة سنة .

كان بيبرس المؤسس الحقيقي للقوة المملوكية وواضع نظام الحكم المملوكى . ومنذ اليوم الذى تولى فيه قيادة حرس المماليك البحرية ضد لويس ملك فرنسا فى موقعة المنصورة ، دأب على تقوية الجيش ورعايته ، والتوسع فى حركة التجنيد ، وتشجيع العناصر المفيدة عن طريق توزيع الإقطاعات بسخاء . وكانت السياسة الخارجية التى سارت عليها مصر مدة طويلة من وضع بيبرس ، كما كان بلاطه أنموذجاً للسلاطين المتعاقبين . وكان قصره بالغ الروعة والبهاء ، حيث كان يجلس السلطان يحيط به كبار رجال الدولة ورجال البلاط ، وهم نائب السلطان ، والقائد الأعلى للجيش والأستادار (مدير القصر) ، وقائد الحرس ، وحامل السلاح ، وأمير آخور (المشرف

على الركايب السلطانية) والساقى ، والجاشنكير (ذواق الطعام) ، والجمدار (حامل البقجة أو الثوب) ، وأمير شكار (المشرف على الصيد) ، والجوكان دار (حامل مضرب البولو) ، والبشمقدار (حامل الخف) ، وصاحب المجلس ، والجمقدار (حامل الدبوس) ، والسناجقة ، وأتابك الجيش ومساعدوه وأمراء الطبلخانة الثلاثون يتبع كلا منهم أربعون فارساً ، وجوقة مكونة من عشرة طبول وأربعة أبواق ، ثم الغلمان ، والفرسان ، والحجاب ، وكاتمو السر ، وأطباء البلاط ، والقضاة ، ورجال الدين (١) ، كل هؤلاء الموظفين كانت تخصص لهم الرواتب والإقطاعات ، فأمير الطبلخانة كان يصل دخله إلى ما يقرب من ستة عشرة ألفاً من الجنيهات فى العام ، ونستطيع أن نقدر الأموال التى كانت تنفق على القصر ، إذا علمنا أن عشرين ألف رطل من المأكولات كانت تعد فى الأهراء السلطانية ، وأن أثمان اللحم والخضر التى كانت ترد إلى القصر فى عهد الناصر تتراوح بين ثمانمائة وألف ومائتى جنيه فى اليوم الواحد .

وكان كبار موظفى القصر وقواد الجند هم بطبيعة الحال أكثر الرجال سلطة بعد السلطان ، وكان كل منهم يعد نفسه خلفا صالحا للسلطان . وكانت سلامة السلطان ونفوذه يتوقفان على مقدار ولائهم ، وبخاصة على ولاء حرس السلطان الخاص ، وهو لواء مكون من عدة آلاف من الجند المختارين من ذوى الإقطاعات الواسعة فى البلاد .

وكان كل واحد من الأمراء العظام — سواء أكان من قواد الحرس أو من رجال البلاط أو كان مجرد نبيل من النبلاء المقربين — صورة مصغرة للسلطان المملوكى . فقد كان له كما للسلطان حرس خاص من العبيد . وكان هذا الحرس يقف بباب القصر فى انتظار النبيل لاستصحابه أينما سار ، كما كان رهن إشارته فى اقتحام الحمامات العامة واختطاف النساء منها ، والدفاع عنه إذا حاصر قصره نبيل آخر منافس له . كما كان يسير معه إلى ميدان القتال كلما دعى إلى ذلك . وكان هؤلاء النبلاء وأتباعهم خطر يهدد السلطان الحاكم باستمرار . فقد كان الساخطون منهم يكونون حلفاً يعضده

---

(١) معظم مدلولات هذه الوظائف مستقاة من كتاب « دراسات فى تاريخ المماليك » للدكتور على إبراهيم حسن — المترجم .

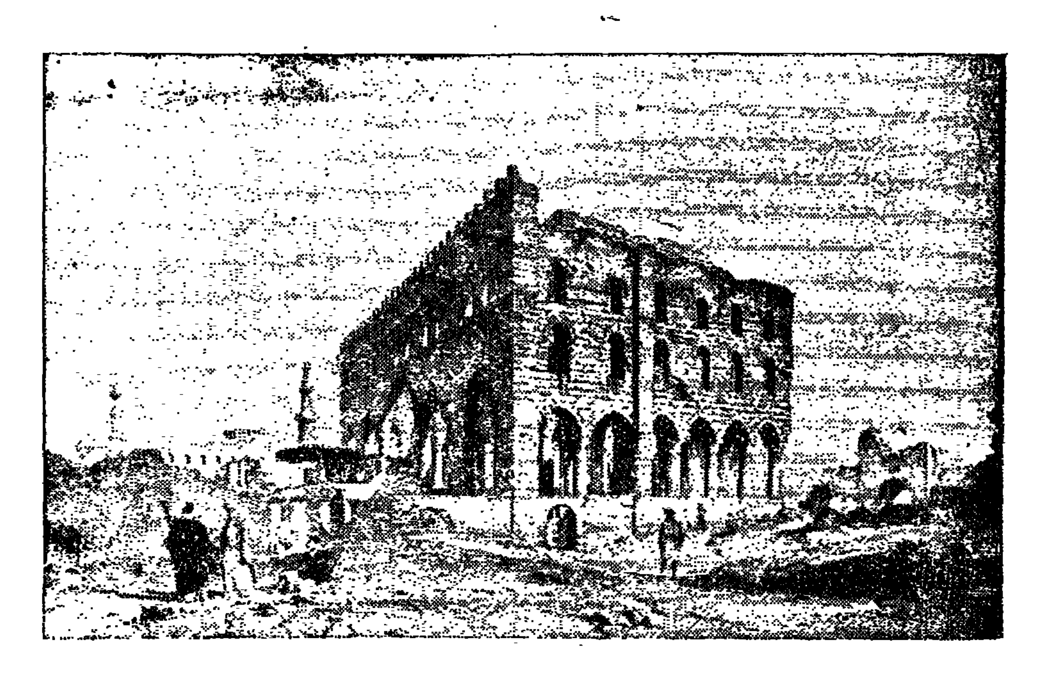
بعض رجال القصر أو الحرس الخاص ، فيتجمع أشياعهم فى الطرق المؤدية إلى القصر بينما يسدد الساقى — أو غيره من الموظفين الذين تسمح أعمالهم بالاقتراب من السلطان وملازمته — الضربة القاضية لسيده ، أو يدس له السم فى الكأس ، ثم ينتخب المتآمرون من بينهم من يعتلى عرش السلطان الشاغر . ولم تكن هذه الأعمال دائما لتخلو من المقاومة ، ذلك أن حرس السلطان الخاص لم يكن من السهل رشوته أو التغلب عليه ، كما لم يكن الحال يخلو من وجود نبلاء يرون من صالحهم أن يفضلوا الولاء للسلطان الجالس على العرش على الولاء لغيره من الأمراء الآخرين ، وحينئذ ينتقل القتال إلى الشوارع ، فيغلق التجار حوانيتهم فزعين ويفرون إلى منازلهم ، ويوصد الناس الذين استولى الرعب على نفوسهم الأبواب الكبيرة التى تفصل بين الأحياء وتخلو الأسواق فى المدينة ، وتتقدم الأحزاب المتنافسة من المماليك ، فتطوف بالشوارع التى لم يهجرها الناس بعد ، ويستمر السلب والنهب وخطف النساء والأطفال ، ويتقاتل الجند فى الشوارع ، وتطلق السهام والحراب من النوافذ . وكان تجار القاهرة الأثرياء يقفون خلف أبوابهم الضخمة يرتجفون رعبا وفزعا . ويقال إن خان الخليلى — وهو السوق الكبيرة فى القاهرة — كانت تقفل مدة أسبوع بينما يحارب الجنود فى الشوارع المجاورة .

ولقد حدث مثل هذا حينما عزل كتبغا السلطان الناصر وهو طفل فترة من الزمن . ذلك أن الأشرفية ، أو مماليك السلطان الراحل الأشرف خليل ، قاموا بثورة وحاصروا القلعة . وحينئذ ركبت قوات كتبغا لقمع الثورة ، واخترقت جموع المتآمرين وأعملت فيهم السيف . فمنهم من فقد بصره ، ومنهم من فقد عضو من أعضاء جسمه ، ومنهم من غرق فى النهر ، ومنهم من طاح رأسه وعلق على باب زويلة ، وهكذا بدأ حكم جديد فى سنة ١٢٩٤ م . ثم أعقب ذلك انتشار الوباء ، حيث أخرجت سبعمائة جثة من أحد أبواب المدينة فى يوم واحد . ولم يكد يصفو الجو حتى تلبد بالغيوم مرة ثانية ، وظهرت مؤامرة جديدة اضطر كتبغا معها إلى الهرب ، فانتخب النائب لاجين خلفا له ، وبذلك حلت الزينات فى الشوارع محل المجازر البشرية وإراقة الدماء ، وساد الفرح والارتياح بين أفراد الشعب ، ذلك أن االسلطان الجديد كان رجلا كريما ، وقد وعد بالتسامح فى جمع الضرائب ، ورخص ثمن الخبز . وهكذا أصبح لاجين محبوبا من الشعب

ومع أن فكرة الوراثة فى الخلافة كانت غريبة عن النظام المملوكى ، فقد كان فيها الخلاص من تلك المشاهد الدامية التي كانت تحدث من آن إلى آخر لاغتصاب العرش ، وسرعان ما أخذ المماليك بها وراثة اللقب ، وقد خلف خليل أباه قلاوون ، ثم جاء بعده أخ أصغر يسمى الناصر محمد فى سنة ١٢٩٣ م . وعلى الرغم من أن هذا الأخير عزل فترة من الزمن وهو لا يزال طفلا ، عاد إلى العرش مرة أخرى فى سنة ١٢٩٨م بعد قتل صهره لاجين وحاول بيبرس الجاشنكير من جديد في سنة ١٣٠٨م ، أن يغتصب العرش ، ولكن الناصر استرد عرشه وبدأ حكمه للمرة الثالثة ، واستمر يتمتع به إحدي وثلاثين سنة (١٣١٠ — ١٣٤١ م) . وبعد وفاته جلس خلفاؤه الضعفاء على العرش ، ولم تكن لهم أى سلطة حقيقية ، وقد ظلت الحال على ذلك حتى نهاية عهد هذه الأسرة . وهكذا نجد أنه فى الفترة التى تقع بين سنتى ١٢٧٩— ١٣٨٢ م ، عدا ست أو سبع سنوات ، كان يحكم مصر أفراد بيت واحد ، هو بيت قلاوون ، وكان مؤسس هذه الأسرة ـ الذى يدحض تاريخه النظرية القائلة بأن حكم هؤلاء الأجانب فى مصر كان مجدبا ـ شخصا له مكانة رفيعة وكان قائداً شجاعاً ، وسياسيا حكيما ، ومشجعاً للتجارة وتقدمها ، فقد كان يحمى تجارة الذين يسافرون إلى الهند والصين ، ويبذل أقصى ما فى وسعه لتنمية تجارة البلاد . وكان مشغوفا بالعمارة ، شأنه فى ذلك شأن أغلب سلاطين المماليك . ومن عجب أن يقوم هؤلاء القوم بالعمارة خلال حياتهم المليئة بالحروب والمؤامرات : فقد بنت الملكة شجرة الدر ـ وهى أول من حكم مصر من المماليك ـ ضريحا لزوجها الصالح أيوب فى سنة ١٢٥٠م ، وهو لا يزال قائما فوق جانب من موقع قصر الفاطميين القديم فيما بين القصرين . وبنى بيبرس مدرسة فى سنة ١٢٦٢ م فى مكان آخر من القصر القديم عرف باسم « قاعة الخيمة » ، كما بنى مسجدا كبيرا خارج باب الفتوح فى سنتى ١٢٦٧ ـ ١٢٦٩ م ، وما زالت المدرسة والمسجد قائمين إلى الآن ، ولو أن المدرسة قد أصبحت خرابا ، وكان المسجد يستعمل مخبزا للقوات الفرنسية منذ قرن ، ثم تحول أخيرا إلى سلخانة تذبح فيها المواشى الخاصة بالجيش البريطانى . أما قلاوون فقد انتابه مرض خطير ، فأخذ على نفسه عهداً بأن يبنى مستشفى ، ما زال قائماً بجهة النحاسين . وعلى الرغم من أن مارستان قلاوون لا يستعمل للغرض الذى بنى من أجله ، فقد كان مأوى للمجانين إلى القرن الماضى ،

ويقع هذا البناء بجوار مسجد قلاوون وضريحه . ويتميز هذا الضريح بالنقوش التى على الجص ، والأعمدة المقامة من الجرانيت الأحمر ، والمـأذنة المبنية من الحجارة ذات النقوش البديعة ، والنحت الدقيق . وقد سار قلاوون فى بناء مستشفاه كما سار سلفاه ابن طولون ، وصلاح الدين اللذين بنى كل منهما مستشفى من قبل .

وكانت حجرات النوم تحيط بفنائين ، بينما تحيط بفناء آخر العنابر ، وحجرات الدرس ، والمكتبة ، والحمامات ، والصيدلية ، وكل ما كانت تحتاج إليه المستشفيات فى ذلك الوقت من آلات الجراحة ، حتى الموسيقى كانت تستعمل لتخفف من آلام المرضى ، كما استخدم المقرئون ليرتلوا كلام الله فتخشع قلوب النزلاء للذكر الحكيم ، وكان الفقراء والأغنياء على السواء يعالجون دون أجر ، وأنشئت بجوار المستشفى مدرسة تضم ستين يتيما يتلقون العلم بالمجان . ولا تزال المقبرة التى دفن فيها السلطان الناصر العظيم وابنه مزاراً يقصدها الناس ، فيتبركون بلمس ملابسهما اعتقاداً منهم بأنها وسيلة لشفائهم من عللهم وأمراضهم على اختلاف أنواعها .



قاعة يوسف — قصر الناصر فى القلعة

كان عهد الناصر الطويل عصراً ذهبياً لفن البناء والعمارة المملوكية . ومهما قيل من أن السلطان قد أفاد هو نفســه من الاستقرار الذي أوجده نظام الوراثة ، فإن ثباته على العرش مدة طويلة ، يرجـع — إلى حد كبير — إلى صفاته الشخصية ، إذ لا شك فى أن الرجل الرزين ، الصلب الإرادة ، الحاكم الفرد المستبد ، القميء المنظر ، القصير القامة ، الأعرج الســاق ، الأرمد العين ، ذا الملابس البسيطة ، والأخلاق الصارمة ، والذهن المتقد ، والنشاط الذي لا يعرف الهوادة ، والذوق السليم المهذب ، والآراء المستنيرة ، والدهاء السياسى الذى تغالى فيه حتى صار خداعا لاغاية منه ، والشكوك المتيقظة ، والحقد الجائر ، وهو فى الوقت نفسه صاحب البلاط الذى تضرب بفخامته الأمثال ، وصاحب العمائر الرائعة — ذلك الرجل يعد من أبرز شخصيات العصر الوسيط . كما تعد أيام حكمه الذروة التى وصلت إليها المدنية المصرية وثقافتها ، ولقد أكمل الناصر الأعمال التى بدأها من قبله بيبرس وقلاوون ، فحافظ على محالفة القبيلة الذهبية المغولية ، وتزوج أميرة من بلاد نهر الفولجا اسمها طلبية ، لا يزال قبرها إلى الآن فى المقابر الشرقية حيث دفنت جثتها مع جثة زوجة أخرى ، كما حافظ على حدود الإمبراطورية من بيراموس ونهر الفرات شمالا حتى سوا كن وأسوان جنوبا ، وأقام علاقات سياسية مع إمبراطور القسطنطينية ، وملك بلغاريا وبلاد العرب ، ودان لنفوذه بعض حكام الحبشة ، ولو أن هذه المحالفات لم تــكن محالفات سياسية بالمعنى المعروف . وقد زوج إحدى عشرة من بناته لأكبر النبلاء فى بلاده ، وقد كلفته كل زيجة منها نصف مليون من الجنيهات .

ولم يكن الناصر سياسياً فحسب ، بل كان مزارعا ، ومدربا للخيول ، ورياضياً . وكان يشترى الحصان بأربعة آلاف جنيه . وكان له سجل خاص بالخيول ، فيعرف أصل خيوله ، وأنسابها ، وأثمانها ، وأعمارها ، وكان يروض ثلاثة آلاف مهر فى كل سنة مستعيناً فى ذلك بالبدو فى خدمتها . وكان يشملها فى السباق ، ويعنى بها هو وأمراء دولته العناية كلها . وكان فى حوزته ثلاثين ألف رأس من الغنم يستورد خير أنواعها من البلاد الأجنبية ، كما كان مغرما بالصيد بالباز ، شأنه فى ذلك شأن معظم السلاطين . وقد وفد إليه ابن بطوطة الرحالة المشهور سنة ١٣٢٦ م فقال عنه إنه ذو خلق نبيل وفضائل جمة ، كريم ، سمح النفس ، مثابر ، لايهمل ما أخذ نفسه به

كان يجلس مرتين كل أسبوع ليستمع بنفسه إلى المظالم . وقد سعدت مصر فى مدة حكمه ، إذ ألغى الضرائب الفادحة وسن نظاما جديداً لمسح الأراضى ، وعاقب بالجلد الطحانين والخبازين الذين حاولوا رفع الأسعار فى السنوات التى أصاب القحط البلاد فيها . ويروى عنه أنه بلغه أن الأمير العظيم « قوصون » زوج إحدى بناته اغتصب ما ليس له ، فأحضره وصفعه بسيفه وجلد وكيل أعماله بالسياط ، وكانت يقظته وسهره على أمور الرعية سبباً فى خفض الأسعار ، كما أدت القسوة التى تميزت بها عقوبته إلى منع شرب الخمور واختفاء البغاء . وعلى الرغم من أنه جمع الكثير لنفسه بمصادرة كثير من أملاك النبلاء عاد النظام الجديد الذى وضعه على البلاد بالسعادة والرخاء .

وكان الناصر متسامحاً حتى مع القبط ، على الرغم من أن المسيحيين لم يجدوا فى أيام المماليك من المعاملة الحسنة ما تعودوه فى أيام الفاطميين وفى عهد الملك الكامل . فقد خربت الكنائس بعد أن دخل صلاح الدين مصر ، ولو أن ذلك التخريب لم يكن نتيجة تعصب الغزاة بل كان نتيجة إحراق مدينة مصر وأحداث الحرب ، ولم يكن صلاح الدين صديقاً للمسيحيين ، فقد كان متشدداً فى دينه الإسلامى ، حتى إنه كان لا يتسامح مع الخارجين عليه ، وعلى الرغم من ذلك لم يكن يضطهدهم أو يلحق بهم الأذى ، ويرجع خروج بطريرق الأرمن وأتباعه إلى علاقة الأرمن الوثيقة بحكومة الفاطميين أكثر مما يرجع إلى التعصب الدينى . وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية فى فلسطين قامت فى وجه العنصر اللاتينى من الكنيسة الكاثوليكية المسيحية ، أساءت المرارة التى تولدت من هذه الحروب إلى القبط المسيحيين ، وكان العادل أخو صلاح الدين ، يعامل رعاياه المسيحيين معاملة بالغة الصرامة والقسوة ، وكثيراً ما كان ابنه الكامل يشفع لهم عنده . ولما اعتلى العرش، أظهر روحا نادرة من التسامح لم تكن معروفة فى هذه الأيام ، حتى إنه أحسن استقبال القديس فرنسيس الأسيسى ، حين جاء إلى الكامل ليعلمه الدين الصحيح كما يراه هو . وقد أجمع المسيحيون على أنهم وجدوا فى أيام الكامل من التسامح ما لم يروه فى أى عهد من عهود الملوك الآخرين ، ويبدو أن ابنه الصالح سار سيرة أبيه ، خلال الفترة الوجيزة التى حكم فيها ، كما يستدل مما كتبه إلى البابا « إنوسنت الرابع » من أنه يأسف لعدم تمكنه من مخاطبة الرهبان الدومينيكان بسبب جهله اللغة اللاتينية . ومن الطبيعى أن تقلب

الحرب الصليبية التى شنها لويس التاسع هذه العلاقات الودية رأساً على عقب . وليس بعجيب أن يوجه المسلمون انتقامهم إلى أكثر الكنائس فى مصر ، فيأتوا عليها نهباً وتخريباً . ولم يكن من المنتظر أن يتمتع الرعايا المسيحيون بعطف السلاطين المتعاقبين ، وقد أسكرتهم انتصاراتهم المتكررة على بقايا الفرنجة فى سورية . وقد أحدثت المدارس الجديدة التى أنشأها صلاح الدين تغييراً فى طباع أهل القاهرة ، فقد كان أساتذة هذه المعاهد الدينية ينشرون روح التعصب ويشجعونها ، وكان نفوذهم يقوى على مرور الأيام . ففى سنة ١٢٨٠ م فصل جميع الكتبة من القبط الذين كانوا يعملون بدبوان الجيش من مناصبهم وحل محلهم المسلمون . وفى سنة ١٣٠١ م استهدف القبط لامتهان كرامتهم بإعادة الأحكام التى كانت تفرض عليهم زياً خاصاً يلبسونه ليميزهم عن غيرهم . وفى سنة ١٣٢١ م تعرض المسيحيون للاضطهاد نتيجة سلسلة من الثورات والاضطرابات المحلية ، وقد نشأت من تقدم أعمال الحفر فى بركة الناصر ، على مقربة من قناطر السباع غربى باب اللوق ومن مسجد طيبرس ، أن وصلت إلى أسفل جدران كنيسة الزهرى التى كان الناصر قد أمر بألا تمس بسوء . غير أن الأهالى لم يكادوا ينتهون من صلاة الجمعة حتى توجهوا إلى كنيسة الزهرى فجأة — دون أن تعلم الحكومة بوجهتهم — فأعملوا فيها المعاول حتى هدموها عن آخرها ، ثم انتقلوا منها إلى كنيسة الأنبا مينا فى الحمراء فنهبوها ، ثم اتجهوا إلى كنيسة العذارى ، بجوار الطواحين السبع ، فأخرجوا الراهبات عنوة ، وأتوا على الكنيسة سلباً وحرقاً . غير أن السلطان حينما رأى الدخان يتصاعد من الكنائس المحترقة ، انتابته ثورة من الغضب ، وأرسل من فوره بعض القوات لكبح جماح الشعب . وفى تلك الأثناء ترامت الأنباء بأن ثمة كنيستين قد أتلفتا فى أحياء زويلة والروم ، وأن الشعب يتعدى على كنيسة المعلقة بحصن بابليون . ومن حسن الحظ أن قوات السلطان وصلت فى الوقت المناسب لتحمى الكنيسة من عبث العابثين . ومن الواضح أنه كان هناك هياج عام ، يغذيه المتعصبون والمشعوذون ، إذ كان الواحد منهم يقف فى المسجد ويهتف بسقوط كنائس الكفار ويصيح فى المجتمعين : إلى الكنائس ، إلى الكنائس . وكان مثل هذا يحدث فى جميع أنحاء البلاد ، فأحرقت كنائس فى الإسكندرية ، وفى دمشق ، وفى قوص .

ولم يمض شهر على ذلك حتى أخذت ألسنة النيران تندلع فى جهات مختلفة من القاهرة ، وكانت الرياح العاتية تساعد على انتشارها . وأخذ الناس يصعدون المآذن ويضرعون إلى الله أن يكشف عنهم البلاء ، وهم لا يشكون فى أن المدينة بأسرها سوف تلتهمها النيران ، وكان هناك صراخ وعويل ، حزنا وحسرة على تلف المنازل والأمتعة ولقد بذل الناس كل جهد لإخماد النيران ، فجاء السقاءون يحملون القرب وتطوع أربعة وعشرون أميرا من أكبر رجالات الدولة للعمل بمساعدة جموع من العمال ، فصاروا يحولون المياه من الحمامات والأحواض ، ويهدمون المنازل والفيلات لإفساح الطريق حول المبانى التى شبت فيها النيران ، وكان الشارع الذى يمتد من باب الديلم إلى باب زويلة تتدفق فيه المياه كأنها تجرى فى نهر . ولا يكاد الناس يخمدون النار فى مكان حتى تشب غيرها فى مكان آخر ، وهكذا دواليك ، ثم تبين للناس أن النيران تندلع بالقرب من المساجد ، وأنها تهدف نحوها ، وأن اندلاعها كان عمدا بدليل ما كانوا يعثرون عليه من القماش المشبع بالزيت والقطران والنفط . وقد ضبط أحد المسيحيين فى داخل مسجد الظاهر وبيده جرة مبللة بالنفط والقطران وهو يوقد فيها النار . وقد اعترف فى التحقيق بأن الحرائق كانت عملا منظما من صنع المسيحيين . وكذلك اعترف راهبان ، بعد تعذيبهما ، بأنهما أشعلا الحرائق عمدا ، انتقاما لما حل بكنائسهم من خراب ودمار . وقد استدعى بطريرك القبط ، فأعلن ، والدمع ينحدر من عينيه ، بأن مشعلى النيران ، هم أفراد من غلاة المتعصبين رأوا أن ينتقموا من الذين خربوا كنائسهم بنفس طريقتهم الحمقاء فأعيد إلى بيته مكرماً دون أن يمسه أذى ، ولولا جنود السلطان الذين كانوا يحرسونه لما نجا من سخط العامة الذين كانوا يريدون تمزيقه إربا . وقد اكتفوا بإحراق أربعة رهبان من دير الملكانيين المعروف بدير القصير بجبل المقطم .

وحدث أن قبض على رجلين من المسيحيين متلبسين بجريمة إحراق المنازل انتقاما ، فأمر السلطان بحرقهما أحياء على مشهد من الناس ، وتصادف أن مر بالقوم وكيل أعمال مسيحي ، فكاد القوم يلقونه فى النيران لولا أنه ارتد عن دينه ليرضيهم . وكانت هذه الحوادث مما يزيد من خطر الدهماء يوما بعد يوم .

وقد أزعج ذلك السلطان ، فرأى أن يأخذ الشعب بالحزم لتهدئة النفوس ، فأصدر أوامره إلى الجند بالتفرق فى جميع أنحاء القاهرة لمنع التجمهر دون التعرض للوادعين . فطارت أنباء هذه القوة إلى الأسواق قبل أن تصل الجند ، فلما وصلت وجدت الأسواق قد أغلقت وأن الناس قد هجروها ، وأقفلت الشوارع التى تقع بين القلعة و باب النصر . غير أن الجنود قبضوا على نحو مائتى رجل بالقرب من النيل وأحضروهم أمام السلطان . فأمر بقتل بعضهم وقطع أيدى البعض الآخر . وعبثا حاول هؤلاء المنكودون إثبات براءتهم ، وحاول بعض النبلاء أن يشفعوا لديه فيهم . غير أن الناصر رأى أن يجعل منهم عبرة حتى لا يعود الشعب إلى الاضطراب والثورة ، فأمر بنصب المشانق من باب زويلة إلى الرميلة وعلق هؤلاء المسلمون البائسون من أيديهم .

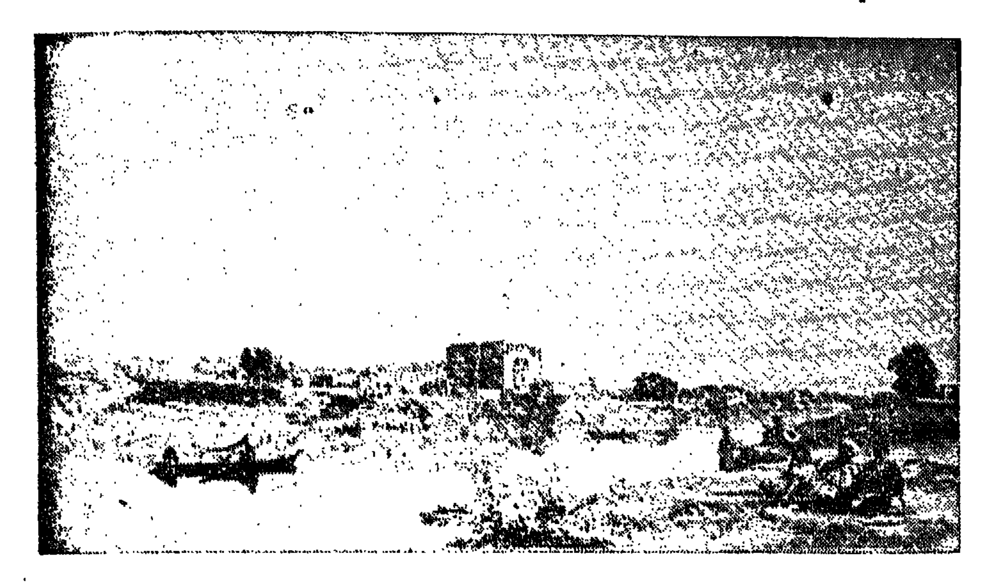
وقد تمخضت هذه الاضطرابات عن إعادة الأحكام القديمة التى حاول الناصر إبقاءها منذ سنة ١٣٠١ م التى تتعلق بتمييز المسيحيين بلباس خاص ، فحرم المسيحى من ركوب الخيل ، ومن لبس العمامة البيضاء ، ومن ضبط مخالفا قتل على الفور . وقد ألزموا بوضع العمائم الزرقاء ، وتعليق الأجراس حول أعناقهم فى الحمامات ، وسمح لهم بركوب الحمير دون سواها ، على أن تكون وجوههم فى مواجهة أذيالها . ومنع الأمراء من اتخاذ خدمهم من المسيحيين ، كما أوصدت أمامهم أبواب الوظائف الحكومية ، ولم يكن أحدهم ليجرؤ على الظهور أمام الناس ، حتى اضطر كثير منهم إلى اعتناق الإسلام . وكان هذا الاضطهاد اسوأ ماتعرض له المسيحيون منذ أيام الخليفة الحاكم الفاطمى قبل ذلك بثلاثة قرون . غير أنه يجب أن لا يعزب عن بالنا أن هذا الاضطهاد كان نتيجة تحرش الفريقين بعضهما ببعض ، وكان وليد غضب الشعب ولم يكن من تعصب الهيئة الحاكمة وقد تعرض القبط طوال عهد المماليك للاضطهادات ، ولو أنها لم تكن عنيفة كالاضطهاد السابق . ويظهر أن القبط الذين نعموا بالتسامح وحسن المعاملة فى الشطر الأخير من حكم الفاطميين كانوا قد أبطرتهم النعمة ، وبدءوا يتعالون كثيرا ، فجاءت هذه الاضطهادات ، فأصبحوا قلة لا حول لها ولا قوة ، واستمروا على هذه الحالة إلى الآن حيث بدءوا يتنفسون الصعداء مرة أخرى .

وبينما كانت الكنائس تهدم ، كانت المساجد تشيد بسرعة تدعو إلى الإعجاب ، حتى إن المهندسين ورجال العمارة لم يروا عهداً كعهد الناصر ، وقد كان القدوة لرجاله فى حسن الذوق وسمو الثقافة ، وكان مشجعاً العلماء والمتعلمين ، وصديق المؤرخ العالم أبى الفداء الذى أعاد إليه ولاية حماه التى كانت متوارثة فى أسرته منذ أيام الملك العادل أخى صلاح الدين ، وكان عهده عهد إنتاج فنى رائع ، وما أنفقه السلطان وأمراؤه فى البناء والنقش والزخرفة ليدل على ما وصلت إليه الدولة من الثروة والغنى وعلى أنها عرفت كيف تنفق ثروتها فى حكمة وتدبير . ولقد أمكن الاحتفاظ ببعض أثاث قصر الناصر ، فهناك منضدتان مطعمتان بالفضة ، محفوظتان في دار الآثار العربية بالقاهرة ، كما أن أشهر ما بقى من العمائر — وهما مدرسته التى تقع بين القصرين على مقربة من المارستان الذى يرجع إلى سنة ١٣٠٤ م ، والتى أحضر بابها ذا الطراز القوطى أخوه خليل من عكاء ، ومسجده القديم فى القلعة الذى يرجع بناؤه إلى سنة ١٣١٨ م — يشهدان له بحسن الذوق ، على الرغم من أنهما لا يحتفظان — لسوء الحظ — إلا بالقليل من سابق عظمتهما وجلالهما .

فقد تهدمت القبة العظيمة التى كانت تعلو مسجد القلعة ، واختفت أغلب الأحجار الرخامية الملونة التى كانت تزين القبلة وحديد النافذة التى تطل على مقصورة السلطان ، ومازال هناك صف من النوافذ العلوية فى جميع جهات المسجد ، زال زجاجها الملون ونقوشها الزخرفية ، وإنك لتدرك من الأعمدة الجرانيتية العشرة ، ومن الرخام المزخرف على الجدار الجنوبى ، ومن البقايا الأخرى ما كان عليه المسجد ، من الروعة . ولعل أهم مايميز هذا المسجد ، مأذنته المشيدة بالطوب الأخضر اللون ، مما قد يعزى إلى النفوذ التترى ، الذى وصل إلى مصر مع زوجة الناصر التى كانت تنتمى إلى القبيلة الذهبية التترية ، ويعود الفضل فى عدم تهدم مسجد القلعة تهدماً تاما إلى عناية الكولونيل س. م. واتسون . (حامل نيشان القديسين ميخائيل وجون) ؛ حيث حال دون استعماله مخزنا للجيش ، ورفع الفواصل الخشبية التى كانت قد أقيمت حين كان المسجد يستخدم سجنا للجنود .

وكان بالقصر الأبلق الذى بناه الناصر فى القلعة بهو تتخلله الأعمدة ، مشيد من

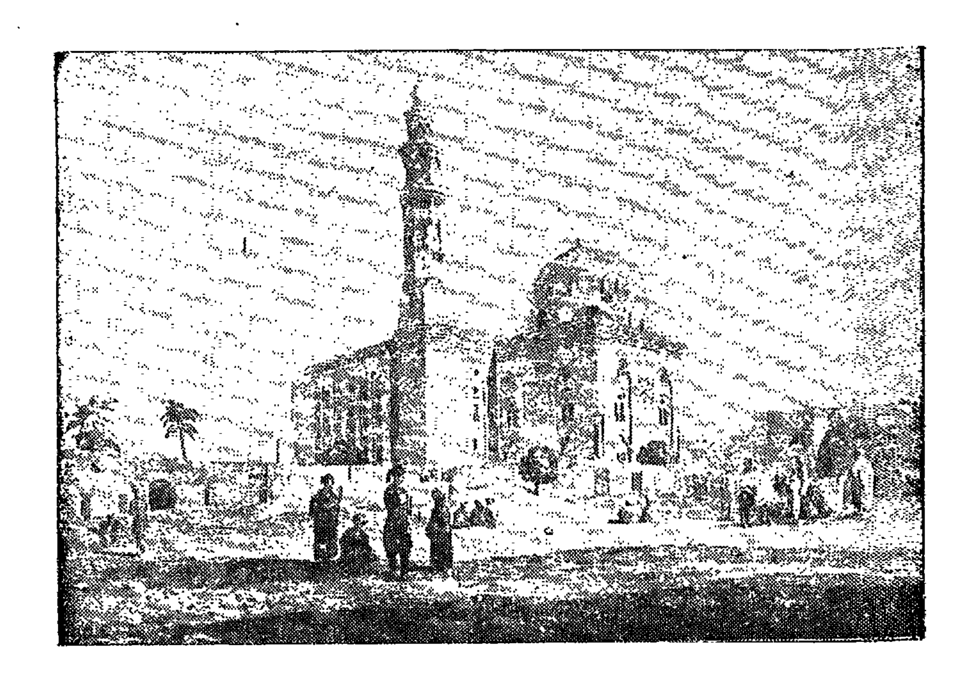
حجارة سوداء وأخرى بيضاء ، ويقال إن تكاليف بنائه بلغت عشرين مليونا من الجنيهات — ولو أن هذا المبلغ يبدو خيالياً — لايزال قائما منذ خمس وسبعين سنة ،



القنطرة المعلقة خلف طواحين المياه السبع

وقد أعاد الناصر تنظيم الحصن وزاد فيه . وينسب إليه بناء القنطرة التي كانت تمد القلعة بماء النيل في سنة ١٣١١م ، ولو أن البعض يعزوها إلى صلاح الدين ، ويعزوها البعض الآخر إلى عهد الأيوبيين ، وينسبون إلى الناصر إعادة بنائها كما ينسبون إلى الغوري ترميمها . هذا إلى أنه بنى مسجد بجوار ضريح السيدة نفيسة ، وقبة النصر بالقرب من الجبل الأحمر وغير ذلك من المساجد .

وكلما قام الناصر بعمل حذا حذوه رجال البلاط والحاشية ، فلم يهدأ لأحد الأمراء في ذلك العهد بال ، حتى يبني مسجداً ، أو مدرسة أو ضريحا ، ينهض دليلا على تقواه ، ويتقرب به إلى الله ، الذي جعلته أعماله في شدة الحاجة إلى التقرب إليه . ولقد تأثر الرحالة المغربي ابن بطوطة — الذي بقي في القاهرة في سنة ١٣٢٦م — بما رأى من غيرة الأمراء وتنافسهم في بناء المساجد أو التكايا أو خلوات المتعبدين ، كخلوة الخانقاه



مسجد السلطان حسن

وتكية بيبرس الجاشنكير التى لاتزال قائمة ، كما يصف لنا نظام هذه الخلوات والتكايا(١) ويقول إن المدارس أكثر من أن يحصيها العد ، ثم يبدى إعجابه بمارستان قلاوون وما كان يحويه من أجهزة وعقاقير، ويتكلم عن نفقاته فيقول إنها تبلغ الألف دينار فى كل يوم .

ولقد بنى أكثر من أربعين مسجداً ومدرسة بين سنتى ١٣٢٠ — ١٣٦٠ م — أي أكثر من ربع العدد الذى دونه التاريخ منذ القرن الأول الهجرى حتى أيام المقريزى — ولايزال أكثر هذه المبانى قائما إلى اليوم يشهد على سخاء هؤلاء النبلاء العظام، ومن تلك المساجد : جامع الأمير حسين (٧١٩هـ=١٣١٩م) ، وجامع ألماس

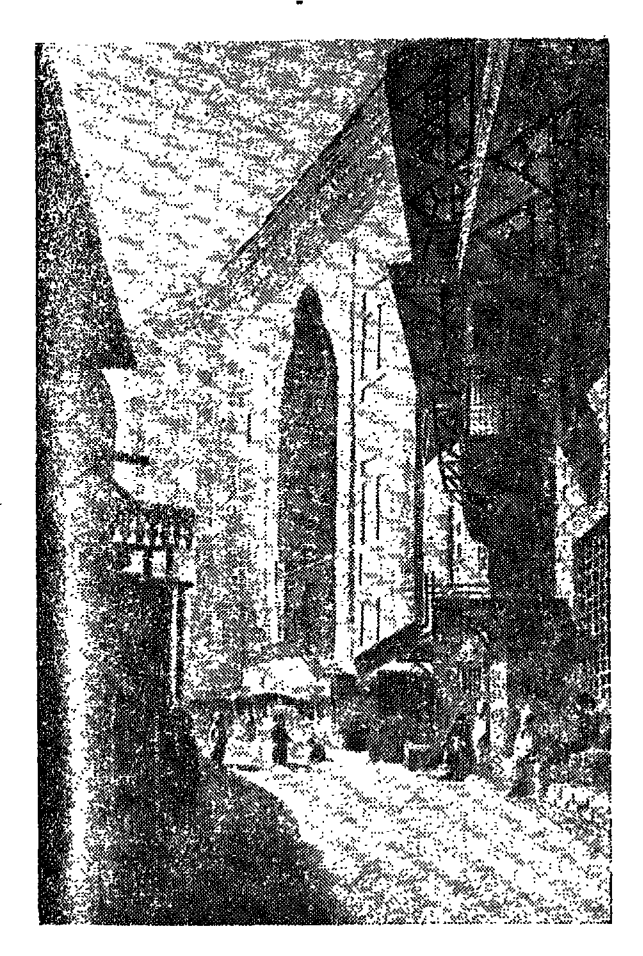
---

(١) ابن بطوطة جا ص٧١ — ٨٤

حاجب السلطان الذى بنى فى سنة ٧٣٠هـ ، وجامع قوصون الذى شيد فى سنة ٧٣٠هـ ، وجامع بشناق (٧٣٦هـ)، وجامع التنبغا المردانى الساقى (٧٤٠ هـ) وجامع إسلام حامل السلاح (٧٤٦هـ) ، وجامع أقسنقر (٧٤٧هـ) ، وجامع أرغون الإسماعيلى (٧٤٨هـ)، وجامع منجك الوالى (٧٥٠ هـ) ، وجامع شيخون (٧٥٠ هـ) . ومن المدارس : مدرسة السلطان التى بناها حامل الصوالجة فى سنة ٧١٩ هـ ، ومدرسة سنجر الجاولى (٧٢٣ هـ) ، ومدرسة أحمد المهمندار (٧٢٥ هـ) ، ومدرسة السلطان أقبغا القهرمان أو ناظر المطابخ (٧٣٤هـ) ، ومدرسة صرغتمش رئيس الحرس السلطانى (٧٥٧هـ) ، ومن التكايا والخلوات الدينية خانقاه الجاولى (٧٢٣ هـ) ، وخانقاه قوصون سنة (٧٣٦هـ) وخانقاه شيخو (٧٥٦ هـ) هذا إلى جامع السيدة مسكة إحدى جوارى الناصر وتدعى هدك (٧٤٠ هـ) ، ومدرسة السيدة تتر الحجازية بنت الناصر (٧٦١ هـ) ، والجامع الكبير المعروف بجامع السلطان حسن بن الناصر الذى يواجه القلعة (٧٥٧ — ٧٦٠هـ) .

وإذا أردنا أن نصف كل المساجد التى بنيت فى عهد الناصر ، لاحتجنا إلى مجلد كبير قائم بذاته . وقد تهدم بعض هذه المساجد ، ولم يبق بها من البناء الأصلى إلا أجزاء قليلة . كما أن بعضها، مثل مسجد أقسنقر والمسجد الإسماعيلى — فى سبيل إتمام إصلاحهما — أحدهما قام بإصلاحه بذوق سليم ، إبراهيم أغا فى سنة (١٦٥٢) ، والآخر قد قام بإصلاحه أحد أفراد الأسرة الخديوية منذ خمسين سنة ، ولم يكن فى ذلك شىء من الفن. وعلى كل حال فإن ماتبقى من البناء الأصلي فى المساجد الأحد والعشرين، التى ذكرناها، يدلنا على مقدار التنوع والتحرر من المحاكاة فى التفاصيل، وفى النقوش، حتى إن الوصف لايمكن أن يغنى عن المشاهدة . والواقع أن كل عمارة من هذه العمائر جدير بالبحث الدقيق والدرس ، ومهما يكن من شىء ، فإننا نستطيع أن نذكر هنا ثلاث ميزات انفردت بها هذه الأبنية فمن المعروف أن المساجد القديمة كانت خالية من أى نقش من الخارج ، فجدرانها كانت فى غاية البساطة . وإذا استثنينا جامع الأقمر الذى شيد فى أواخر حكم الفاطميين ، فاننا لانجد لأحد المساجد واجهة مميزة . أما مساجد المماليك — التى اقتبس طرازها بلاشك من مبانى الصليبيين فى فلسطين — فإن لها واجهات فخمة ، وفوارير غائرة، ومداخل غير نافذة ، وأفاريز منقوشة .

والميزة الثانية فى مساجد المماليك ، هى التطور الذى أدخل على بناء المآذن فقد أصبحت أكثر رونقا وجمالا ، واستعملت فيها الحجارة الملساء ، وأصبحت أدق فى



شارع مسجد السلطان حسن

شكلها ، فتدرجت من الشكل المربع ، إلى المثمن ، إلى الأسطوانى . كما استعملت فيها الزوايا المدلاة وقواعد الشرفات . أما الميزة الثالثة : فهى استعمال القباب الكبيرة فقد كان الشائع قبل ذلك هو بناء قبوة فوق المحراب أو فوق مدخل المسجد . أما القباب فقد أدخل بناءها خلفاء صلاح الدين ، ومن أمثلة ذلك القبة المقامة على

ضريح الإمام الشافعى فى القرافة ، وربما فى عمائر أخرى ، غير أن ما تبقى من عهد الأيوبيين قليل جدا لا يساعد على وصفها وصفا دقيقا صحيحا .

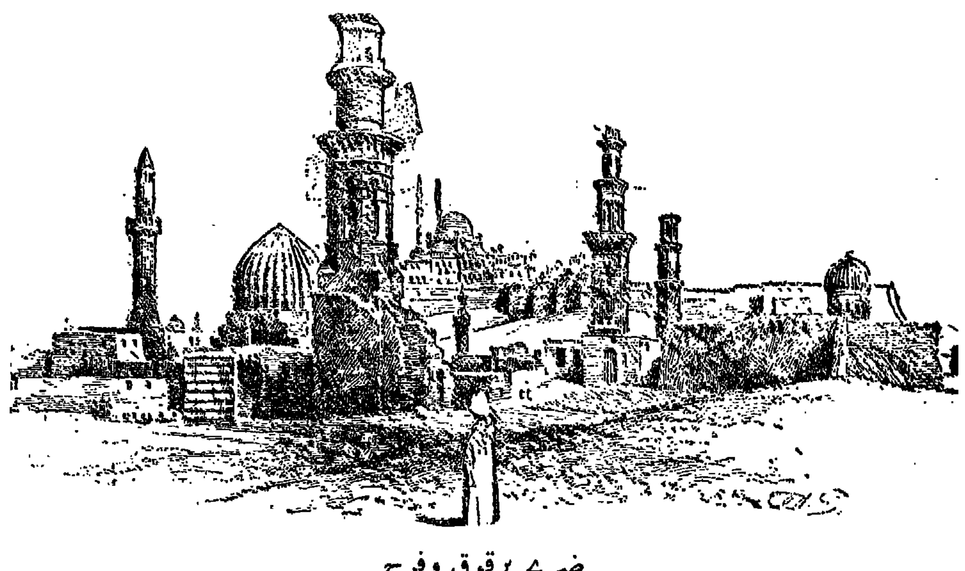
على أن المماليك كانوا بحق سادة بناة القباب ، وكان جانب غير قليل من مساجدهم ومدارسهم بمثابة أضرحة لمؤسسيها ، فكان الضريح يلاصق البناء الرئيسى ، وكانت القباب خاصة بالأضرحة . وهكذا بدأت المدينة منذ عهد المماليك تزدان بتلك القباب الجميلة التى ما زالت حتى اليوم تضفى على مبانيها صبغة خاصة . ولقد تدرجت من قبة بسيطة تعلوها قبوة صغيرة ، إلى قبة محفورة خطوطا إلى قبة مزدانة بالنقوش والأشكال الهندسية والرسوم الدقيقة المحفورة على الأحجار . ومن أروع هذه الزخارف ما قام به السلاطين الشراكسة أو البرجية فى القرن الخامس عشر ، ولو أن القباب كانت قد احتلت مكانا ملحوظا فى طراز العمارة العربية فى القرن الرابع عشر .

ولعل أحسن مثال لأسلوب البناء فى القرن الرابع عشر ، هو جامع السلطان حسن الذى يحوى أغلب مميزات عصر الناصر ويعرضها لنا على نطاق واسع . ولم يكن السلطان حسن هذا شخصية محبوبة أو ذات منزلة تاريخية . فقد جلس على العرش من سنة ١٣٤٧ إلى سنة ١٣٥١م ثم عزله الأمراء ، ثم عاد إلى العرش وحكم من سنة ١٣٥٤ إلى سنة ١٣٦١م . غير أن مسجده المشهور الذى بناه بين سنتى ١٣٥٦و١٣٥٩م (٧٥٧ — ٧٦٠هـ) هو العمل الوحيد الذى رفع اسمه . ويقال إنه كان يكلفه ألف دينار فى اليوم إلا أننا لا نصدق هذه الأرقام التى تعود مؤرخو الشرق الغلو فيها .

ولقد بلغ من شدة إعجاب السلطان حسن بمسجده الرائع ، أن أمر بقطع يد المهندس الذى أشرف على تشييده حتى يحد من تلك العبقرية فلا يشيد مسجدا مشابها له . ولقد بنى المسجد على طراز المدارس العادية فى ذلك الوقت ، وهى عبارة عن صفين من البناء متقاطعين على شكل صليب ، يتوسطه فناء تخرج منه أربعة أروقة ، وأما ضريح صاحب المسجد فيقع وراء الرواق الشرقى خلف المحراب . ولا يرى الناظر إلى المسجد من الخارج الأضلاع على شكل الصليب ، لأن الزوايا الواقعة بين الأروقة

قد بنيت فيها الحجرات والمكاتب(١) . ولعل أول ما يلاحظه الناظر إلى هذا المسجد من الخارج ارتفاعه العظيم إذا قورن بالمساجد الأخرى . فجداره يبلغ ١١٣ قدما ، وهو مشيد من الحجارة الدقيقة التي أخذت من الأهرام ، ونوافذه — تعلو اثنتين منها عقود على هيئة حدوة الفرس ، وأما الباقي فهي مجرد فتحات غطيت بالحديد المصبع ، وهذه الفتحات هي كل ما يزدان به الجدار الشاهق العلو . ولكن أجمل ما في هذه الجدران ، ذلك الأفريز البديع التكوين الذي يتوج الجدار ويتركب من ستة صفوف طباقية . وفي زوايا البناء أعمدة رشيقة متماسكة مع البناء ، كما أن المدخل الرائع مقام في مشكاة مقوسة يبلغ إرتفاعها ٦٦ قدما ، ومركز في قبة مكونة من اثني عشر صفا من الحجارة المنقوشة المدلاة مزينة بالأفاريز الهندسية والأعمدة الركنية والرسوم العربية .

أما في الداخل ، فإن أول ما يسترعي النظر هو إتساع المسجد لا زخرفته ، فالمسافة العظيمة بين الأروقة الأربعة التي يبلغ إرتفاعها في الجهة الشرقية ٩٠ قدما و ٧٠ قدما



ضريح برقوق وفرج

(١) أنظر الرسم ص ١٩٧ . وقارن أعمال هرتز بك — جامع السلطان حسن — وبه صور فوتوغرافية رائعة ورسوم وتصميمات .

لا نظير لها فى مساجد القاهرة بأسرها . غير أن الطلاء الداخلى من الجص ينتقص من عظمة البناء ، كما أن الرخام والنقوش الملونة ، ولو أنها جميلة ، إلا أنها لا تصل فى تصميمها وتناسقها إلى نظائرها فى محاريب المساجد الأخرى . هذا إلى أن الألوان السوداء والبيضاء والصفراء التى دهنت بها الأفاريز أزهى مما يجب . وكذلك الحال فى ألوان المنبر ، إلا أن المحراب بديع النقش ودكة المبلغ مقامة على أعمدة من الرمر الملون لا على أعمدة من الخشب البسيط الصنع كما هو الحال فى نظيراتها فى المساجد الأخرى ، وفى أعلى الجدران إفريز محلى بالكتابة الكوفية الجميلة . وأما الضريح الذى يصل إليه الزائر عن طريق المحراب من باب جميل الصنع، فهو مصفح بالبرونز على الطراز العربى ومحاط بساتر من المرمر إرتفاعه ٢٥ قدما علقت عليه آية من القرآن الكريم منقوشة على الخشب ، على حين تناهت زواياه إلى دائرة القبة الموشاة بالزخارف الخشبية المدلاة التى ظهرت عليها آثار القدم . وفى وسط هذه الحجرة ، القبر المصنوع من حجارة المرمر البسيط الصنعة . ويظهر أن القبة حديثة الصنع ، لا تتناسب صناعتها مع فخامة المسجد ، أما القبة الأصلية التى أعجب بها « بترو ديلا فالى » فى سنة ١٦١٦م فقد انهارت فى سنة ١٦٦٠م . كانت المآذن فى الأصل أربعا ، ولم تكد الثالثة تشيد حتى هوت وسحقت تحتها نحو ثلثمائة طفل من تلاميذ المدرسة المبنية تحت هذه القبة ، وكان ذلك فى سنة ١٣٦٠م . ولم يعش السلطان حسن بعد الفراغ من بناء هذه القبة إلا ثلاثة وثلاثين يوما حيث قتل . أما المأذنتان اللتان بقيتا فقد تهدمت إحداهما وأعيد بناؤها فى سنة ١٦٥٩ م . وقد احتفظت دار الآثار العربية بالمصابيح البرنزية العظيمة والمشاكى الزجاجية المحلاة بالمينا . أما الباب المصفح بالبرونز ، فقد نقله السلطان المؤيد إلى مسجده فى سنة ١٤١٠م .

وكان من أثر اختيار مسجد السلطان حسن فى هذا الموقع أن أصابه التلف ، ذلك أن سطحه الفسيح كان مكانا رائعا لإطلاق النار منه خلال الثورات المتعددة التى اشتهر بها حكم المماليك ، وكثيرا ما تبادل الجنود إطلاق النيران فوق هذا المسجد وبين القلعة إلى أيام محمد على باشا الكبير . ويمكن مشاهدة أثر الرصاص على

جدرانه إلى اليوم . ولما وجد برقوق أن هذا المسجد مصدر خطر بالغ للهجوم أمر بهدم درجاته الأنيقة وإغلاق بابه الضخم .

ولقد حدث مرة أن بقى المسجد مغلقا نحو نصف قرن . وكان على الطلاب والمصلين أن يدخلوه عن طريق إحدى النوافذ أو أحد الأبواب الجانبية ، كما حدث أن شد حبل بين مأذنته الكبرى وبين القلعة ومشى فوق هذا الحبل أحد الرياضيين الأوروبيين أمام الجماهير المعجبين ببراعته ، وكان ذلك فى منتصف القرن الخامس عشر .

ومن الواضح أن هذا المسجد كان يمكن أن يسلم من كل ما أصابه لو أنه بقى فى مكان أكثر هدوءا . ولكن على الرغم من ذلك ، ومن تشويه جدرانه بالرصاص ، وزوال قبته ومآذنه الأصلية ، لا زال أبهى وأجمل آثار الفن العربى فى القرن الرابع عشر .

المماليك البرجية

بعد أن حكم سلاطين المماليك من خلفاء الناصر محمد أربعين عاما ، لاقوا فيها ما لاقوا من تحكم بعض الأمراء الأقوياء من أمثال قوصون وشيخو وصرغتمش وغيرهم، اغتصب الأمير برقوق السلطة فى سنة ١٣٨٢م، ولم يحدث هذا تغييرا يذكر فى حكومة مصر . لقد انتهى أمر الحكم الوراثى ، ولم يعمل به بصفة جدية إلا فى أواخر القرن التاسع عشر، وكانت الأسرة الحاكمة الجديدة طائفة من الأمراء لايكاد يتولى أحدهم الحكم حتى يتغلب عليه من هو أقوى منه فيغتصبه ، وكثيرا ما كان أحدهم يوصى بالعرش لأحد أبنائه ، فيظل الابن حتى يأتى من يغلبه عليه ، ولم يستطيع أحدهم أن يؤسس بيتا ملكيا كما فعل قلاوون . وقد أطلق على الأسرة الحاكمة الجديدة اسم «المماليك البرجية» أو « مماليك الحصن» أو « المماليك الشراكسة » لأنها تنتمى إلى لواء من الجند كان يقيم فى القلعة منذ جنده قلاوون قبل ذلك بما يقرب من مائة سنة . ولما كانو جميعا من الشراكسة وليس بينهم تركى ولو أنه كان بينهم اثنان من الروم — أطلق عليهم إسم « المماليك الشراكسة » .

وعلى الرغم من تغيير الاسم ، لم يكن ثمة فارق كبير بين الشراكسة وبين اسلافهم الأتراك ، وإن كان هناك فارق بينهم ، فهو فارق السئ إلى أسوأ ، ذلك أن سلاطين الأسرة المملوكية الجديدة قد أصبحوا تحت سيطرة قوات الجماعات العسكرية أكثر من ذى قبل . ثم إن حرس السلطان أخذ يكون لنفسه حزبا مستقلا فكان يتسمى باسم الجالس على العرش حينذاك ، فهو أشرفى أو مؤيدى أو ناصرى ، ويبقى هذا الحزب متمتعا بالنفوذ حتى يتغير الجالس على العرش بالموت أو بالعزل ، فيبقى مماليكه عاملا قائما بذاته فى السياسة ، يشترك فيما يحدث فى عصره من مؤامرات واغتيالات وثورات . ولم يكن السلاطين من القوة بحيث يستطيعون كبح جماح جنودهم إلا نادرا وإن كثرة تغيير الحكام ليدل على عدم استقرار العرش . فقد حكم ستة من السلاطين البرجية مدة مائة وثلاث سنوات من مجموع فترة حكم المماليك البرجية بأجمعها التى تبلغ مائة وأربع وثلاثين سنة . ومعنى ذلك أن الإحدى والثلاثين سنة الباقية من هذا

الحكم قد جلس فيها سبعة عشر سلطانا على العرش ، أى أن كل سلطان منهم جلس على العرش أقل من سنتين .

ولم يكن خلق الحكام يختلف كثيراً عن خلق من سبقوهم ، وإن اختلف فى شىء فإنما يختلف إلى ما هو أسوأ . وقلما كان بينهم ملك اشتهر بالفروسية وحب الحرب ، وهذا يفسر لنا إلى حد كبير عدم اتصافهم بالهيبة والقوة . ولم تخرج الأيام من بين صفوفهم جنديا من أمثال بيبرس أو قلاوون ، لأن الشراكسة لا يعدون من المحاربين وإنما يعدون من المغامرين . وكان اعتمادهم فى الاحتفاظ بالسلطة على المؤامرات والخداع وإفساد الذمم أكثر من اعتمادهم على النجاح فى الحروب أو على الشجاعة الشخصية . فقد تفوق أحدهم وهو خوشقدم اليونانى الأصل على أقرانه فى مصانعة الأحزاب المتعارضة وفى انتزاع الرشوات الفادحة ممن كانوا يتطلعون إلى شراء الوظائف العامة . فقد كلفت ولاية دمشق الطامع فيها خمسة وأربعين ألف دينار ، على حين بيعت وظيفته الأولى لشخص آخر بعشرة آلاف . أما وزراء الدولة فكانوا يعزلون كلما تمكن من يريدون عزلهم من إشباع مطامع الأمير . أما زيارات هذا السلطان الداهية لرعاياه ، فكانت تكلف من يتشرفون بها كثيراً من المال . وقد ساد الفساد جميع البلاد فى خلال حكم الشراكسة ، ولم يكن للعدل أو لنزاهة الحكم وزن فى سير الأمور ، حتى إن شيخ الإسلام ، وهو الحاكم الدينى ، كان يختلس أموال الودائع . وكان الجند ، وهم من الرقيق الأبيض ، من اليونان والشراكسة والأتراك والمغول ، يعيثون فى الشوارع ، حتى إن الحرائر من النساء لم يكن يجرؤن على مغادرة منازلهن خوفا منهم .

وكان الفلاحون يخشون جلب حاصلاتهم إلى الأسواق مخافة أن ينهبها المماليك أو أن تقع غنيمة فى يد الحكومة . ولقد تناقص سكان الريف من وطأة ظلم الجنود وزال الأمن والنظام فى الحاضرة . وكثيراً ما تخاصمت الأحزاب فتراشقوا بالنيران من فوق أسوار القلعة ومن سقف مسجد السلطان حسن المواجه لها وحصنوا الشوارع بالمتاريس وجعلوا من الأسواق ميادين للقتال ، وكانوا يقرنون المتمردين بسروج الجمال ويبقون كذلك حتى يرحمهم الموت . وهكذا كانت تمر الأيام .

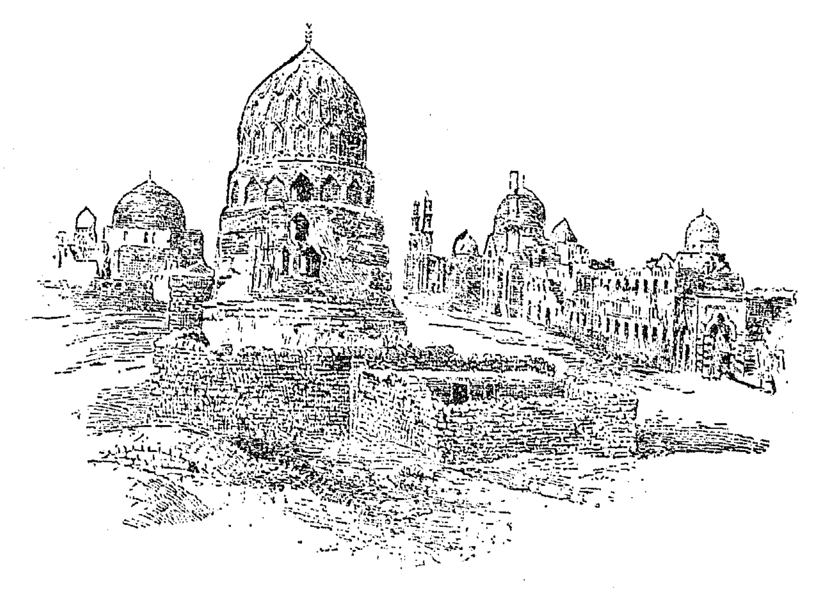
وعلى الرغم من كل هـذا العنف والفساد ، استطاع السلاطين البرجية أن يوسعوا رقعة أملاكهم وأن يزيدوا تجارتها نمواً ويقفوا فى وجه تيمورلنك فى سنة ١٣٩٩م . ولو أنهم وجدوا آخر الأمر أنه من الأفضل قبول شروطه فإن الفاتح العظيم رأى بدوره عدم غزو مصر . ثم إنهم قاموا بحملات شـديدة فى آسيا الصغرى حيث أخضعوا كرمان وقيصرية وقونية وفتحوا جزيرة قبرص فى سنة ١٤٢٦ . وكانت هذه البلاد وكراً للقرصان الذين كثيراً ما هددوا الملاحة المصرية وقد استعملوا فى ذلك أسطولا بنوا سفنه فى بولاق . ثم جاءوا بجيمس أمير لوزينيان (ملك قبرص) الذى أسروه فى موقعة كيروشيته وجاءوا معه بتاج قبرص وأعلامها المخذوله ومشوا به إلى القلعة فى القاهرة حيث قبل الأرض بين يدى السلطان بارسباى . وبعد أن افتداه قنصل البندقية وبعض التجار الأوربيين وأصبح تابعا لمصر ، سمح له بأن يخترق شوارع القاهرة وأسواقها فى موكب عظيم يليق بمقامه وظلت قبرص تدفع الجزية لمصر فى عهد المماليك الشراكسة . وقد حاول هؤلاء غزو رودس مراراً بين سنتى ١٤٤٠ و ١٤٤٤ م ، إلا أن الفرسان ردوهم على أعقابهم . ومع ذلك استمرت الحـدود المصرية الشمالية إلى آخر عهد الشراكسة تمتد من البراموس والفرات . ولعل أغرب ما يروى فى تاريخ الشرق هو اقتران ذلك الفساد والانحلال والوحشية بذلك السمو فى الحضارة المـادية والغيرة على الفن الذى تلمسه فى سلاطين المماليك . والواقع أن المماليك الشراكسة لم يكونوا أقل من أسلافهم الأتراك حباً للعمارة وهندسة البناء . وكان كثير من سلالة المماليك المتأخرين ذوى ثقافة عالية إذ كان برقوق والمؤيد وقايتباى محبين للعلماء والأدباء وللمجتمع المثقف . وكان بارسباى ، على جهله باللغة العربية ، ميالا إلى الجلوس إلى العينى والاستماع له وهو يتلو شيئاً من تاريخ الأتراك . كما كان تمربغا اليونانى الأصل لغويا ومؤرخا ومتبحراً فى العلوم الدينية . وكان الشراكسة من الصادقين فى إسـلامهم ، وكانوا يصومون بانتظام ويتطوعون له ويمتنعون عن شرب الخمر ، ويحجون بيت الله الحرام ، ويرجون الآخرة ببناء المساجد ومعاهد العلم والمستشفيات والمدارس إلى غير ذلك .

ومن أمثلة ذلك ، أن السلطان المؤيد الذى كان أضعف من أن يقمع الاضطرابات ويخمد الثورات فى عهده ، كان رجلا صالحا فقيهاً فى الدين ، بارعا فى الموسيقى ،

متبحراً فى نظم الشعر ، مفوها فى الخطابة ، مدققا فى مراعاة شعائر دينه ، بسيطا كل البساطة فى ملابســه ، مقتصداً فى معيشته ، يخرج للناس لقضــاء واجباته الدينية كواحد منهم ، لا فرق بينه وبينهم ، حتى إنه لبس رداء من الصوف الأبيض البسيط الصنع مشاركة للناس فى أحزانهم على ماجره عليهم الوباء من ويلات .

وما زال الرواق الشرقى فى مسجده الذى بناه بين سنتى ١٤١٥ — ١٤٢١ م فى شارع السكرية ، باقياحيث يتلقى فيه عدد من الأطفال العلم إلى اليوم تحت محراب محلى بالذهب ومزين بالنقوش البديعة الصنع . وقد أعادها إلى رونقها الأصلى هرتز بك الذى يرجع إليه الفضل فى الـكشف عن الزخارف الأصلية ، وكاد مرور الزمن أن يطمس معالمها ، وقد بنيت مآذن هـذا المسجد على الأبراج الجانبية لباب زويلة ، وله مستشفى تهدم الآن ويعرف باسم المارستان المؤيدى ، وقد بنى فى سنة ١٤١٨ م ويقع بجوار القلعة مما يشهد لصاحبه بالتقوى وحبه للخير، ولبارسباى مسجد كبير بنى فىسنة ١٥٢٣م فىأحد أركان الموسكى الموصلة إلىالغورية ويعرف بالأشرفية ، ولازال مفتوحاً تؤدى فيه الشعائر الدينية ، وقد بنى برقوق فى سنه ١٤٨٦م مدرسة جميلة فى المـكان المعروف باسم بين القصرين — وقدقام بإصلاحها هرتز بك أخيراً — ويعد الضريح الذى بدأ برقوق تشييده وأتمه ابنه فرج فى سنة ١٤١٠ م من أجمل مافى القرافة الشرقية من الأضرحة ذات القباب الرائعة الشكل والمآذن الدقيقة الصنع ، ولـكن درة هذهالمجموعة منالأضرحة ، ذلكالضريحالذىبلغ الذروة فىالفن والذى يمثل الطراز المملوكى المتأخر فىالعمارة وهو ضريح قايتباى الذى بنى فىسنة ١٤٧٢م والواقع أن النقوش العربية الرائعة التى زينت قبته الجميلة والانتقال التدريجى الذى ينطوى على المهارة فى تشييد مأذنته البديعة من المربع إلى المثمن ومن المثمن إلى الأسطوانى ، ثم الإبداع فى ملء الزوايا المختلفة ، أضف إلى ذلك رخام الإيوان المنقوش ، كل هـذه الأشياء تعتبر تحفا فنية رائعة على الرغم ممـا تعرضت إليه من الإهمال والتخريب على مر السنين .

أماقايتباي الذى تعتبر مدة حكمه ، التى امتدت إلى ثمانى وعشرين سنة (١٤٦٨ — ١٤٩٦) ، حادثا تاريخيا عجيبا فى تلك الدولة المشهورة بسرعة تعاقب ملوكها ، قد شق طريقه بنفسه من نشأته المتواضعة . فقداشتراه بارسباى بخمسة وعشرين جنيها ،



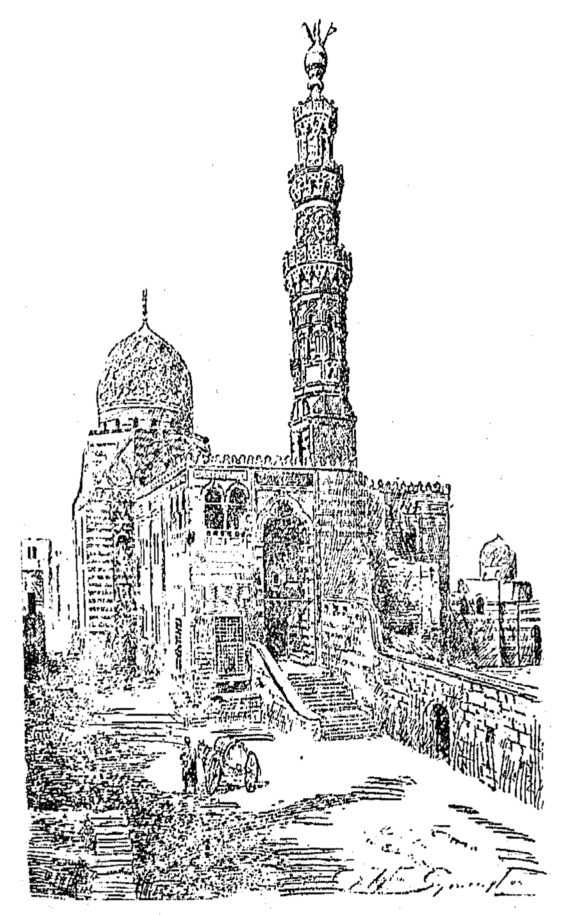
القرافة الشرقية مقابر الخلفاء

وصار يتنقل من سيد إلى سيد ، ويرتقى من درجة إلى درجة ، حتى أصبح القائد الأعلى للجيش فى أيام تمربغا اليونانى الجنس ، وكاد هـذا الجيش يكلف السلطان ثلثمائة ألف جنيه فى السنة ، وهو اعتماد ضخم فى القرن الخامس عشر .

وكان قايتباى جنديا محنكا ، بارعا فى رمى الرمح ، وقد أكسبته حياته خبرة ودراية بالعالم ، وكان يتصف بالشجاعة والعدل وبعد النظر وبالنشاط والحزم ، وقد طغت شخصيته على مماليكه ، فأكسبته ولاءهم وأخرست منافسيه فهابوه . وكانت قوته الجسمانية تظهر حينما كان يستعمل السوط فى تأديب رئيس مجلس الدولة أو غيره من كبار الموظفين إذا قصروا فى جمع الأموال الخزانة الدولة ، وكانت هذه الأموال التى تجمع اغتصابا أو تجبى ضريبة، لمواجهة مصروفات الحروب التى كان يشنها ، ولم يكن يكتفى بالضريبة المفروضة على الأراضى ، وكانت تصل إلى خمس المحصول ، بل أضاف إليها ضريبة العشر (وهى مايوازى نصف درهم عن كل أردب من الحبوب). أما أغنياء اليهود والمسيحيين فقد كان يبتز منهم الأموال بلا رحمة أو شفقة ، وكثيرا ما تعرض الأبرياء لصنوف من الوحشية والجلد بالسياط حتى الموت ، حتى إن عليا بن

المرشوش الكيميائى قد سملت عيناه وقطع لسانه لأنه عجز عن تحويل المعادن الخبيثة إلى ذهب نضار .

وقد عرف عن هذا السلطان البخل إلى درجة الشح، ومع ذلك فإن ثبت الأعمال العامة التى قام بها — لا فى مصر وحدها بل فى سورية وبلاد العرب — تدلنا فى جلاء، على أنه أنفق دخل البلاد فى أعمال رائعة . فمسجداه فى القاهرة ، وأحدهما خارجها قليلا فيما يسمى مقابر الخلفاء (١٤٧٢) والآخر بجوار جامع ابن طولون (١٤٧٥م) ، والوكالات التى بناها ، تعتبر من أجمل نماذج الزخرفة العربية فى فن البناء الإسلامى .



جامع قايتباى فى القرافة الشرقية

ثم إنه لم يأل جهداً فى إصلاح آثار أسلافه التى ظهر فيها أثر التهدم، كما تشهد الكتابة المنقوشة على المساجد والمدارس وعلى القلعة وغيرها من مبانى القاهرة العديدة. وكان كثير الأسفار . فقد رحل إلى سورية وإلى نهر الفرات ، وسار فى مصر صعيدها وريفها ، كما حج بيت الله الحرام فى مكة، وإلى المسجد الأقصى فى بيت المقدس، وكان حيثما ذهب ترك آثارا من تقدمه ، بين طرق ممهدة وجسور ومساجد ومدارس وحصون واستحكامات إلى غير ذلك من الأعمال الخيرية والمنافع العامة ، والواقع أنه ليس هناك عهد فى عهود المماليك ، عـدا حكم الناصر محمد بن قلاوون ، خلال فترة حكم المماليك الطويلة ، يفوق حكم قايتباى ، فى ميدان البناء والفنون المختلفة . لقد دفع الشعب ثمن هـذه الأعمال غالياً ، ولكن جمالها بقى لتشهد بعظمته الأجيال المتعاقبة(١) .

وينتهى الإبداع فى الفن العربى الصميم ونقوشه الهندسية ، فى المبانى التى شيدها قايتباى ومعاصروه، ففى العهد الأول من ظهور الطراز العربى كانت الزخارف تنقش على طبقة من الجص الرقيق بالآلات اليدوية ، ولم يكن العمال يستعملون القوالب أبداً ، فاكتسب النقش بهذه الطريقة حرية فى الأداء لمطاوعة المـادة التى ينقشون عليها ومن أمثلة ذلك مانراه من النقوش فى مسجد ابن طولون .

وقد استمر استعمال الجص فى زخرفة الأفاريز وحافات الجـدران طوال حكم الدولة الفاطمية كما ترى فى الأروقة الأصلية القديمة فى الجامع الأزهر وفى المصلى الشرقى من جامع الحاكم ، وأبدع هذه الزخارف مانشاهده فى ضريح قلاوون حيث تتكون حافات الأقواس التى تحمل القبة الأصلية ، وكذلك حافات أقواس النوافذ العليا من سلسلة من النقوش المتداخلة الدقيقة كالدنتيلا على طبقة من الجص حتى لايمكن معرفة مبدأ النقش ونهايته . وقد استمر استعمال الجص حتى أيام الناصر محمد ، حيث أخذ فى استعمال الملاط ، أما بعد ذلك فقد استعمل الحجر ، ولو أن الجص استعمل بعد ذلك قليلا كما تدلنا قبة جامع أقسنقر وقبة مسجد الفداوية، أما نقوش مسجد السلطان حسن،

---

(١) أنظر كتاب المؤلف تاريخ مصر فى العصور الوسطى ص ٣٤٤

ماعدا الأفاريز المكتوبة بالخط الكوفى، فكلها على الحجارة . ولما كانت المادة المنقوش عليها صلبة ، ظهر فى النقش شىء من الصلابة وميل إلى استعمال الرسوم الهندسية مكان النقوش العربية القديمة ، وإنا لنرى المنبر الذى أقامه قايتباى فى سنة ١٤٨٣م فى ضريح برقوق ، أدق الأمثلة للرسوم الهندسية المنقوشة على الحجارة فى القاهرة ، فشكله الجانبى مثلث كما فى المنابر المصنوعة من الخشب وفى المساجد الأخرى ، ولكن بدلا من الألواح الخشبية المنقوشة والمطعمة التى يتركب منها جانبا المنبر ترى هذا المنبر من أوله إلى آخره مصنوعا بمهارة من قطع من الحجارة المتلاصقة ، وقد غطت سطحها الرسوم الهندسية كشبكة من الخطوط المحبوكة على هيئة نجمة بارزة حولها رسوم عربية على شكل أوراق الشجر كما يحلى جدران المنبر الفريد فى نوعه من الداخل وسلمه وقبته رسوم ونقوش مشابهة .

وكان قايتباى أكثر معمارى القاهرة تدقيقا ، إذ لم يتسامح فى أى إهمال فى مبانيه مهما كان بسيطا . وكان خير ما أودعها من نقوش وزخارف محفوراً على الحجر الجيرى (الكلسى) والرخام (١) وإنك إذ ترى مسجده داخل المدينة بالقرب من مسجد ابن طولون تدرك مقدار فخامة هذه الزخارف حيث يتكون العقد الأصلى من ثلاثة وعشرين حجراً على كل جانب ، يتناوب فيها الحجر الأبيض والحجر الأحمر بانتظام ويزين الحجر منها رسوم عربية وأشكال هندسية بحيث لا يتكرر الرسم فى حجرين منها إطلاقا . أما الرسوم العربية فتتكون من زهرة الرسم العادية محاطة بزخرف جميل من أوراق الشجر المناسبة للشكل .

أما الأشكال الهندسية ، ولو أنها تبدو لأول نظرة مكونة من أشكال خماسية أو سداسية غير منتظمة ، فإنها متناسبة التركيب محكمة الصناعة . وفى أركان العقد العليا يرى الزائر إطارات (وهى كثيرة فى القاهرة) نقش عليها اسم السلطان

---

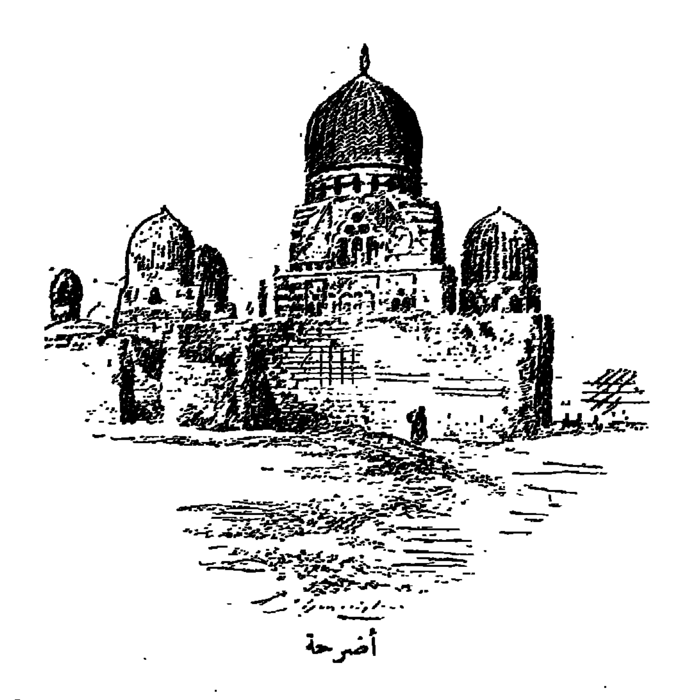
(١) لم يكن استخدام الرخام شائعاً قبل القرن الثالث عشر الميلادى ، وكان ما استعمل منها فى تزيين مداخل الأبنيه ، ويظهر الرخام فى أبهى صورة فى تزيين الأرصفه أو ترصيع الجدران بالفسيفساء ، وهذا الترصيع يكون إما بإلصاق قطع متعدده الألوان من الرخام بواسطة الملاط أو إدخالها فى لوح من الرخام بواسطه الحفر .

وبعض عبارات الدعاء له . كما يشاهد الزائر إطاراً نقشت عليه آيات القرآن الكريم فصلتها عن بعضها رسوم عربية مما يجعل المنظر كله منسجما انسجاما عجيبا وبالاختصار لايكاد يوجد مكان لم تمتد إليه أيدى النقاشين وقد أودعوا فيه غاية ماوصل إليه فنهم . ولم يكن قايتباى أقل دقة فى زخرفة وكالاته وفنادقه . وليس فى القاهرة كلها بناء تعددت فيه الرسوم والزخرفة كما تعددت فى وكالة قايتباى فى الشارع الواقع جنوبى الأزهر . أما داخل هذه الوكالة فقد ظهر فيها أثر الإهمال والهجر ، ومما لا شك فيه أنها نالت حظها من الزينة والزخرف يوما ما . أما واجهتها فما زالت فى حالة جيدة وهى تستحق دراسة دقيقة ممن يرغبون فى تفهم النقوش العربية والزخرفة الهندسية فى أحسن صورها وأجلاها (١) . وقد يعترض على هذا الوصف من يقول إن بعض النقوش قد تكرر معكوساً ، وهذا لا يتفق مع الأمانة الفنية التى كان يتمسك بها رجال الفن القدامى الذين كانوا يحتقرون تكرار الزخرف فى أي رسم من رسومهم . غير أنه يجب أن نعلم أن الناس فى عهد قايتباى قد أدركوا أن لوحدة الشكل جمالا معيناً ، كما وجدوا أن تناسق الرسوم وتكرارها يحدث تأثيراً رائعا ، وأن هذا التغيير ما هو إلا جزء من الاتجاه العام إزاء الهندسة الموحدة والزخارف الرتيبة التى تميز أسلوب الشطر الأخير من عهد المماليك . ومهما يكن من شىء ، فما زال هناك تنوع كثير فى النقوش العربية والزخاف الهندسية فى المداخل التى تعلو الحوانيت الثلاثة عشر فى واجهة الوكالة . كما نري ذلك فى قبة المدخل العمومى فى الوسط وفى الأعمدة الجانبية المتصلة وفى أعمدة قبة السبيل . وليس ثمة ريب فى أن هذه الوكالة أو الفندق كانت فى حالتها القديمة من أروع الأبنية وأبهاها ، بل إنها الآن تعد مثلا أعلى يرجع إليه فى الزخارف العربية .

والواقع أن عصر قايتباى فى البناء كان ترديداً لعصر الناصر محمد الزاهر فى العمارة . وكانت مساجد المماليك الشراكسة هى المبانى التى تستهوى أفئدة المهندسين كما تستهوى

---

(١) عند ما كنت فى القاهرة سنة ١٨٨٣ إستخرجت على ورقة (عليها طبقة من الجص الباريسى الممزوج بالغراء) جميع النقوش الموجودة فى هــذه الوكالة . ويمكن معاينة بعض النقوش التى صنعت من هذه القوالب فى متحف جنوب كنسنجتون .



أضرحة

أفئدة الزائرين من العامة لما فيها من الإعجاز في الذوق والنظام في تناسق تكوينها، ودقة صنع منارتها، وجمال نحت قبابها، وإحكام صناعة سقوف مداخلها المدلاة، وأفاريزها، واستدارة زواياها، ونقش رخامها وزينة قبلاتها. وإلى جانب مسجدى قايتباى الفاخرين، نجد مساجد الأمراء أزبك اليوسفى (١٤٩٥) وخيربك (١٥٠٢) وأمير آخور قانى بك (١٥٠٣) كلها حافلة بالنقوش الدقيقة البديعة. إلا أن درة الفن المعمارى الشركسى يوجد فى مدرسة القاضى أبى بكر بن مظهر (١٤٨٠) التى قامت لجنة إحياء الآثار العربية بتجديدها بعناية فائقة، ولم يترك مهندسها العلامة هرتز بك جهداً إلا وبذله فى تتبع أصل الرسوم والبحث عن ألوانها الطبيعية الأصلية، ثم حاكاه حتى برزت كما كانت فى أول العهد بها. وهناك تجديد دقيق آخر فى مسجد الأمير كجماس الإسحاقى (١٤٨٣). وفى كلا العملين يظهر التحسين فى أعمال الإصلاح والتجديد بعد التجارب الأولى فى مدرسة البرقوقية.

ومما يجب ملاحظته أن أغلب مدارس القرن الخامس عشر قد عدلت فى شكل مبانيها المتقاطعة على شكل الصليب، وعلى الرغم من أنها لا زالت معاهد للعلم بدأت

تجتذب الناس لصلاة الجمعة ، واكتفى بها عن بناء مساجد جديدة ، فلم يشيد بعد ذلك إلا القليل منها مثل جامع المؤيد وجامع بارسباى وجامع أزبك . كما أن الفناء الأوسط والرواق الشرقى قد زاد اتساعه على حين قل اتساع الأروقه الأخرى حتى صارت لا قيمة لها . وربما يعزى ذلك إلى أن غالبية السكان كانت إما شافعية أو حنفية ، على حين لم يكن للمذهبين الآخرين أنصار عديدون ، فلم يعد هناك داع لوجود قاعات الدرس فى الجناحين المخصصين لهما ، وهكذا تقارب شكل الجامع وشكل المدرسة فى البناء الشركسى حتى صار الرواق الشرقى فيها جميعا متسعا والأروقة الجانبية صغيرة. ويتجلى ذلك بوضوح فى مدرسة تجماس[1] .

وقد احتفظ المماليك الشراكسة بنشاطهم وحبهم للفن حتى هددهم الغزو العثمانى ، ولم يبق بعد قايتباى من سلاطين الشراكسة من يستحق الذكر ، إلا السلطان الغورى الذى اعتلى العرش فى سنة ١٥٠١م وهو طاعن فى السن بعد أن اعتلاه أربعة من السلاطين الضعفاء فى أربع سنوات متوالية . وكان حازما نشيطاً، أعاد الأمن والنظام إلى القاهرة بعد الفوضى التى كانت ضاربة أطنابها فيها، وقد جمع ضريبة عشرة أشهر دفعة واحدة بجرة قلم، فملأ بذلك خزينة الدولة، وفرض ضريبة على السواقى والمراكب والجمال، وعلى اليهود والمسيحيين والخدم وعلى كل مورد يمكن استغلاله ، وزاد الرسوم الجمركية ، واغتصب الضياع الواسعة وفرض ضريبة ثقيلة على الموتى ، وبعد أن أنعش دخل الدولة واقترن اسمه بأعمال السلب والاغتصاب ، بدأ ينفق فى سخاء على الأعمال العامة العظيمة، كتمهيد الطرق وحفر الترع وتحصين السواحل وتقوية قلعة القاهرة وتمهيد طريق الحج إلى مكة ، ومازالت مدرسته (١٥٠٣) وضريحه — الذى لم يدفن فيه — يواجه أحدهما الآخر فى الشارع الذى يحمل اسمه ، الغورية . ومما يذكر أن الإصلاح الذى أدخل عليه منذ ثلاثين سنة شوه هذين البنائين كثيراً وأساء إلى شهرتهما . ولم يكتف الغورى بذلك بل بنى مئذنة للجامع الأزهر ومسجداً عند مقياس النيل بجزيرة الروضة وسبيل المؤمنين فى الرميلة وطواحين الماء فى مصر القديمة، كما أصلح قنطرة الماء التى تتصل بالقلعة . وكان الغورى أنيقاً فى بلاطه ، يجزل العطاء للشعراء

---

(١) أنظر كتاب فان برشم : مجموعة الكتابات العربية ص٥٣٣ عن تعديل شكل المدارس .

والموسقيين ، على حين كان يبتز المال من ورثة نبلائه ويسلب اليتامى أموالهم .

ولما كان السلطان الغورى يعلم أهمية التجارة مع الهند ، التى بدأ البرتغاليون يهددونها ، سارع إلى إنشاء أسطول بحرى فى البحر الأحمر وسيره إلى الهند ، حيث اتحد مع حاكم «ديو» وهزما معا الأسطول البرتغالى الدخيل تحت إمرة الميدا الصغير فى موقعه قريبة من شاول ١٥٠٨ . وأخيراً قاد جيشه ، بعد أن سبق السيف العزل ، لمحاربة العثمانيين الذين تقدموا إلى سورية ، وعلى الرغم من أنه كان قد بلغ السادسة والسبعين من عمره ، قاد جيشه والتحم مع العثمانيين فى مرج دابق بالقرب من حلب فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٥١٦ ، وكان يحث جنوده على القتال عند ما انسحب جناحاه تحت قيادة خير بك والغزالى خيانة وغدراً ، وتركاسلطانهم يقابل العدو بحرسه فقط . ومات الشيخ الشجاع وهو يحارب ووطأته سنابك الخيل . ولم ينجح المماليك بعد ذلك فقد أنزل بهم العدو هزيمة كبيرة شمال القاهرة عند هليوبوليس . ولقد أراد طومان باى أن يدافع عن القاهرة ووقف للعدو عند باب النصر ، ولكنه لم يستطع أن يصمد للسلطان سليم العثمانى الذى تعقبه فى الشوارع ، ودارت الحرب حتى دخل الأتراك القلعة عنوة ومثلوا بطومان باى وصلبوه على باب زويلة ، وصارت مصر ولاية عثمانية .

الباب الثامن

مدينة ألف ليلة وليلة

اتساع القاهرة — ظهور بولاق — المساجد — مدخل بولاق — ألف ليلة وليلة في القاهرة — تجارة الترانست في مصر — حوانيت التجار — خان الخليلي — خان مسرور — وكالة قوصون وسوق الأزهار — الشوارع والأحياء — فن النقش على الفضة — صناعة المعادن في القاهرة — البندقية — نحت الخشب — عمل المشربية — خصائص الفن العربي — رجال الأدب في عهد المماليك .

انتهينا في الباب السابق من الكلام على تاريخ القاهرة باعتبارها حاضرة لدولة مستقلة ، ووصفنا بعض المباني الجميلة التي كان السلاطين المماليك والنبلاء يزينون بها المدينة . إلا أن حياة المدينة لا تقتصر على مايدور في بلاط الملك ، ونحن إذ نقتصر على التحدث عن السلاطين وما يشيدون من مساجد ومدارس ومقابر لا نكون قد كونا فكرة صحيحة عن القاهرة في العصر الوسيط . فعلى الرغم من أن هذه المدينة قد وقعت فريسة تحت سنابك خيول الفاتحين ، استمرت حياتها الخاصة قوية تتمثل في تجارتها النامية وسعادتها الاجتماعية وثقافتها الأدبية . ولم يعد المجتمع المصري مقصورا على رجال البلاط بين جدران القصور الفاطمية الشامخة ، ولكنه امتد في كل الجهات ماعدا الجهة الشرقية ، إذ جاوز الأبواب الشمالية ، واختط ضاحية جديدة سماها الحسينية ، وعمرها بالمساجد والأضرحة ، وامتد إلى الغرب فملأ الفضاء الذي كان يلي السور الفاطمي القديم إلى النيل ، وقد حدث أن تراجع النهر فمهد لتكوين ميناء بولاق الجديدة ، ومكن الناس من بناء مجموعة من المساكن فوق الأرض التي انحسر عنها النهر ، وقد حدث أن جنحت سفينة تسمى الفيل نشأ عن تحطيمها وغرقها أن تكون شاطىء رملي أطلقوا عليه اسم جزيرة الفيل ، فتغير مجرى النهر وترك فضاء صالحاً للبناء عليه ، أما جهة الجنوب فإن الساحة التي كان يحدها جامع ابن طولون والقلعة والسور الفاطمي ، والتي كانت تزينها الحدائق والمساكن الصيفية والبرك الت

تملأها مياه النيل فى فيضانه فى عهد صلاح الدين ، قد صارت إذ ذاك عامرة بالسكان والمساجد المملوكية الشهيرة بقبابها ومآذنها .

ومن الممكن تتبع اتساع القاهرة وامتداد العمران بها عند قراءة ذلك السجل القيم الذى وضعه المقريزى عن بناء المساجد وما يستلزم ذلك من انتشار السكان . ويدل مسجد يونس (٧١٩) ومسجد ابن الطباخ (ابن طاهى الناصر) فى حى اللوق (٧٤٦) على أن النهر ارتد عن المكان والذى كان يجرى بالقرب منه . كذلك يدل بناء مسجد الغازى (٧٤١) ومسجد الطواشى (٧٤٥) خارج باب البحر القديم وبناء زاوية أبى السعود (٧٢٤) خارج باب القنطره على امتداد المدينة من جهة الغرب ، ولو أن الأرض فى هذه الجهة لم يكن يغمرها ماء النيل قبل ذلك ، أما الامتداد إلى ناحية الشمال ، وهو الذى حدث نتيجة ارتفاع أرض جزيرة النيل قبيل سنة ١٢٠٠م وظهور بولاق بعد ذلك بمائة عام ، فقد ورد ذكره فى تاريخ المساجد الذى وضعه المقريزى حيث يقول إن جزيرة الفيل لم يكن يغرقها النيل إلا فى أيام الفيضان ، أما فى سائر السنة فكان يترك سلسلة من الكثبان الرملية والحشائش الخشنة . وكان المماليك يلعبون عليها ويمارسون الرماية إذ كانوا يجهلون لعبة الجولف . ولكن بعد أن انحسر النيل عنها نهائيا استصلحها الناصر محمد وحفر فيها قناته التى عرفها الناس باسم الخليج الناصرى ويعرفونها الآن باسم الإسماعيلية ، فصارت مصرفا للمياه جفف بها الأرض ودعا الناس فى القاهرة ومصر بأن يسارعوا إلى البناء ، فبدأ السكان من سنة ١٣١٣ م يبنون منازلهم عليها ، وتبارى الأمراء والجند والتجار وعامة الشعب فى تعميرها ، وهكذا نشأت بولاق (١) . ويضيف المقريزى إلى ماتقدم أن المياه كانت تؤخذ من النيل بواسطة السواقى التى بنى مكانها بعد ذلك مسجد الخضيرى ، مما يدل على أن النهر لم يتراجع كثيراً منذ ذلك الوقت ، لأنه لا زال يجرى حتى الآن بالقرب من هذا المسجد الذى بناه أيدمر فى سنة ٧٣٧ هـ على قطعة من الأرض كانت تغمرها المياه قبل ذلك التاريخ بثلاثين سنة ، وكان بين المساجد الأخرى التى بنيت فى بولاق مسجد ابن صارم والباسطى (٨١٧) .

---

(١) انظر المقريزى جـ ٢ ص ١٣٠ و ١٣١

أما شرق بولاق ، فقد كان فى الأرض التى يطلق عليها الآن اسم العباسية جزء مجاور لجزيرة الفيل يسمى أرض الطبالة ، وقد سمى كذلك لأن الخليفة المستنصر كان قد أقطعها إحدى الفتيات المغنيات التى أشادت مرة بمجد الفاطميين وهى تدق طبلها . هناك أيضا بدأت تعمر الجهة ، إذ تسابق الناس فى بناء المنازل ، كما شيد الكيماختى مسجده على القناة الجديدة فى سنة ٧٩٠ هـ . وكان الأسيوطى قد شيد قبل ذلك مسجده فى سنة ٧٤٠ هـ فى جزيرة الفيل ، وكما شيد مسجد ساروجا على ضفاف الخليج فى بركة الرطل . هذا وقد شيد كثير من المساجد فى الأحياء الجديدة فى شرق أرض الطبالة وخارج أسوار المدينة الفاطمية القديمة منها جامع اللك (٧٣٢) وجامع ابن الفلك فى حى الحسينية ، وجامع عكوشى وابن المغربى على الخليج ، وخلوة يونس الجبغا (٧٥٠) وابن غراب (٧٩٨) وزاوية الجعبرى (٦٨٧) ونصر (٧١٩) والقلندرية (٧٢٢) والجلعق (٣٣٧) وكلها خارج باب النصر ، مما يدل على مقدار امتداد المدينة فى الناحية الشمالية .

والواقع أن القاهرة قد بلغت فى اتساعها مساحة لم تتعدها فى الخمسين سنة الماضية ، أى قبل أن تمتد الضواحى الأوروبية الحديثة على نهر النيل ، كما أنها لم تتغير فى مظهرها الخارجى ولا فى طريقة الحياة التى تحياها الطبقتان الوسطى والدنيا عما كانت عليه فى القرن الخامس عشر وما كانت عليه حين زارها وكتب عنها وصورها من الأوربيين رجال من أمثال ولكنسون وبرخارت ولين وجون فيليب وهاى ، وذلك فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وقد وضعنا فى هذا الكتاب بعض ماصوره هاى واو ، ب. كارتر فى سنة ١٨٣٠ ، وهى تمثل حقيقة مدينة تحمل طابع العصر الوسيط . وكم كانت القاهرة تبدو غريبة للزائر الذى يفد عليها من الإسكندرية عن طريق قناة المحمودية ، ثم عن طريق النيل حتى ترسو به السفينة فى بولاق . وكان على الزائر أن يقطع نحوا من ميل وهو راكب من بولاق إلى باب الحديد حيث يدخل المدينة من الجهة الشمالية الغربية ، وكان لا يرى فى طريقه أي مسكن فى حين أنه يخترق اليوم حيا مزدحما بالسكان والمنازل . قال لين(١) إنه كان هناك طريقان رئيسيان متماثلان

(١) القاهرة منذ خمسين عاما ص ٣٤ و ٣٥

تقريبا فى الطول يصلان بولاق بالقاهرة ، أما الطريق الشمالى ــ الذى يتعرج فى بعض الأحيان ــ فإنه يعتبر الطريق الرئيسى للتجارة (إذ لم تكن هناك سكك حديدية فى ذلك الوقت) ويصل القاهرة من جهة باب الحديد. وأما الطريق الجنوبى فكان يعبر قناتين ثم يدخل القاهرة من الجانب الغربى للأزبكية .

ونحن إذ نسلك الطريق الجنوبى نمر بمسجد أبى العلاء على الجانب الأيمن ، وقد عمل الفرنسيون فى أثناء احتلالهم مصر على تعلية هذا الطريق بضعة أقدام فوق مستوى السهل حتى يكون بعيدا عن تأثير الفيضان ، وكان فى نيتهم مده حتى يخترق المدينة ويصل إلى القلعة ، وهذا الطريق مستقيم ومتسع ، إلا أنه غير ممهد ، وينقصه صف من الأشجار على جانبيه القبلى يستظل بها الناس ، أما الأراضى المجاورة فإنها تتحول فى فترة الفيضان إلى مستنقعات وحقول مفرقة ، وإذا ارتدت عنها المياه بذر فيها القمح والفول والبرسيم وغير ذلك ، وهنا وهناك بعض النخيل والجميز وشجر السنط ، وكان يحد السهل فيما مضى من جهة الشرق تلال من الردم (هى بلا شك بقايا المقس) ، وكانت تحجب المدينة عن النظر ، ولم يكن بد من عبور قناتين فوق كل منهما جسر مبنى من الحجر ، وعلى طول الجانب الغربى من القناة الثانية ، وإلى يمين الطريق مرتفع من الأرض مكون من الردم والأنقاض ، ومن فوق هذ المرتفع وعلى بعد نحو من ربع ميل من باب الأزبكية .

ذلك هو طريق الوصول إلى القاهرة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وإذا كان الوصف مملا فإنه يرينا كيف كان المكان موحشا خشنا قبل أن يدخل المهندس الأوربى . فحينما كان السائح يسير مكدودا فى طريق غير معبد بين حقول الفول فى سنة ١٨٣٥ ، كان يخترق نفس الطريق التى سلكها فرسان المماليك ، وكان يقترب من مدينة لم يتغير فيها شىء عن المدينة التى جاء وصفها فى كتاب ألف ليلة وليلة . فلم يعد هناك أدنى شك من الأدلة الداخلية ، أن هذه القصص التى طبقت شهرتها الآفاق قد أخذت صيغتها النهائية فى القاهرة ، وقد يمكن تتبع أصولها إلى بلاد فارس أو إلى بلاد الهند ، ولكنها مهما طافت فى أفكارها أومقتبساتها ، فخاتمة المطاف فى وضعها التى ظهرت به أمام الناس كان فى مصر ، وإذا قيل إن كثيرا من مناظرها كان يستند

إلى بغداد حيث استعارت شخصية هارون الرشيد ليكون بطلها ، فإنه لا يسع أى عالم في الجغرافيا إلا أن يرى أن كتاب هذه القصص لم يكونوا يعرفون الكثير عن حاضرة الرشيد، وأن المدن التي كانوا يصفونها لم تكن سوى القاهرة مهما أسموها فى قصصهم، وهناك بعض الأوصاف العارضة تجعلنا نعتقد أنه من الجائز جداً أن تكون هذه القصص قد تبلورت وأخذت شكلها النهائى قبل القرن الرابع عشر ، ولما كان آخر أبطالها هو صلاح الدين ، فإن كثيراً من الأدلة يكاد يجمع على أن هـذه القصص قد جمعت وكتبت بشكلها الأخير فى فترة إحياء العلوم التي ازدهرت في العصر الذهبي للحضارة المملوكية في مصر ، فالمجتمع الذى تصفه ألف ليلة وليلة هو المجتمع الذى يعرف فى زمن المماليك ، مجتمع إسلامى سنى على ما تعهد القاهرة .

ولعله من الغريب أن يكون أمر ذلك الكتاب الشهير محل شك . إلا أن تفسير ذلك من السهولة بمكان ، فقد كان المثقفون ورجال العلم فى الشرق فى كل الأزمنة ينظرون إلى أمثال هذه القصص نظرة احتقار واستعلاء ، لأنها كانت خلوا من القيمة الأدبيه التى كانت فى المكان الأسمى عند العلماء والمفكرين . ومن ثم لم يكلف أحد منهم نفسه أن يذكر كتاب ألف ليلة وليلة بين المراجع إلا فى حالتين أو فى ثلاث حالات غامضة، لا تلقى ضوءاً على تاريخها . فقد كتبت ألف ليلة للشعب حيث يجتمع الجمهور فى المقاهى ليستمع إلى ما يسرده القصاصون المحترفون للطبقة الوسطى وهى كثيرة العدد متواضعة الثقافة ، تزدحم بها القاهرة . وهذا هو ما يجعل لهـذه القصص قيمتها فى نظر الباحثين فى تاريخ الشرق في العصور الوسطى . فأعمال الملوك والأمراء وحياتهم يعرفها الباحث فى كتابات العلماء والمؤرخين أمثال المقريزى وغيره ، وأما حياة الشعب ، وهى تختلف اختلافا بينا عن حياة الملوك ، وبينهما هوة قلما يسعى الكاتب المصرى إلى اجتيازها ، فهى مسطورة فى كتاب ألف ليلة ، إذ نقرأ فيها عن التجار وأصحاب الحوانيت . وقد نقرأ فيها عن الخلفاء والسلاطين والوزراء ، كما نقرأ عن الجن والعفاريت والمردة . غير أن أبطال القصص دائما من طبقه التجار وأصحاب الحوانيت ، ومنهم من يعبر البحار ويزور الأمصار . وقد يكون السندباد قد سمع فى بادىء الأمر شيئاً عن مغامراته من أفواه الجماهير التى كانت تحتشد على أرصفة ميناء مصر من كل حدب وصوب، فقد سمع ابن سعيد وهو واقف

فى الميناء يشاهد بنفسه شحن السفن فى سنة ١٢٤٦ م كثيراً مما يقول البحارة الذين وصلت سفنهم بعد أن طافت كثيراً من الأقطار . وقد قال إن تجارة البحر الأبيض وتجارة البحر الأحمر التى تصل إلى مصر لا تقع تحت حصر وهى تفرغ فى مصر لا فى القاهرة، ومنها توزع إلى كل جهات القطر المصرى . وما كان يحدث فى ميناءى مصر والمقس قبلا صار يحدث بعد ذلك فى ميناء بولاق التى خلفتها ، ومنها خرج على المصرى إلى دمياط بعد أن بدد ثروته فى اللهو والنعيم مع زوجته فى جزيرة الروضة ليبحث عن ثروة جديدة عن طريق التجارة . وإن ترديد الإشارة إلى الرحلات التجارية والمكاسب الطائلة ، ليدلنا على ما يحدث لشعب لم تقتصر ثروته على أرباحه من التربة الخصبة ، وإنما تحولت إلى التجارة الأجنبية النافقة .

ومما يدل على مقدار تجارة الترانسيت فى مصر فى أيام المماليك ، يكفى أن يعلم الإنسان أن السفينة الواحدة التى كانت تفرغ حمولتها فى الإسكندرية كانت تدفع رسوم جمركية مقدارها واحد وعشرون ألف جنية . وقد رأت الجمهوريات الإيطالية ضرورة وجود قناصل يمثلونها فى مصر . وهل هناك أدل على ثراء التجار الأوربيين من قدرتهم على أن يضمنوا فيما بينهم بزعامة قنصل البندقية افتداء ملك قبرص بمبلغ مائة ألف من الجنيهات ؟ ولقد كان تجار البندقية يتمتعون فى مصر بمزايا خاصة بهم من أيام الملك العادل سنة ١٢٠٨ حيث سمح لهم أن يبنوا فندقا (سوقا) خاصاً بهم بالإسكندرية . وقد تجدد هذا الامتياز فى سنة ١٢٣٨ م ، كما كان لتجار بيزا قنصل خاص بهم . أما على البحر الأحمر فقد كانت هناك ميناء السويس وميناء الطور وميناء القصير وعيذاب ودهلك وسواكن . وهناك كان المماليك يفرضون رسوما جمركية تبلغ عشر قيمة البضاعة ، ولقد نمت تجارة الهند وازدهرت فى أيام سلاطين المماليك البرجية . وكان هناك تنافس شديد وتطاحن بين الموانى المصرية والموانى العربية فى جمع الرسوم الجمركية التى كثيراً ما تعدت العشر المفروض . ومما يروى أنه فى سنة ١٤٢٦ دفعت أربعون سفينة محملة بالبضائع من الهند وفارس مبلغ ستة وثلاثين ألف جنيه رسوما فى ميناء جدة التى كانت تابعة لمصر ، كما كانت ميناء ينبع أيضاً تابعة لها . ولم تكن الرسوم مقصورة على تجارة الواردات بل كانت الحكومة تحتكر

بعض السلع كالسكر والفلفل والخشب والمصنوعات المعدنية ، فلم تكن تباع إلا فى مخازن الحكومة ومستودعاتها بالأسعار التى تفرضها الحكومة ، كما كانت خاضعة للرسوم الجمركية العادية كغيرها من السلع . وكانت رسالة الفلفل التى تباع بخمسين ديناراً فى القاهرة تباع للتاجر الأوربى فى الإسكندرية بمائة وثلاثين ديناراً حسب تسعيرة الحكومة . وبعد أن أخفق أهل البندقية فى مساعيهم التى بذلوها عن طريق القناصل أرسلوا أسطولا إلى الإسكندرية لسحب جميع تجارهم من مصر ، فكان ذلك داعيا لإرغام بارسباى على التساهل معهم فى الشروط التى كان قد غالى فيها كثيراً .

ومما يدلنا على عظيم اهتمام السلاطين الشراكسة بتجارة الترانسيت بين الهند وأوربا ، ذلك المجهود الضخم الذى بذله الغورى لسحق قوة البرتغاليين فى بحر العرب حين أدرك التنافس الخطير الذى أوجده كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، وما من شك فى أن تجارة الترانسيت كانت من أهم مصادر الثروة فى البلاد كما أوضح ذلك مستر كاميرون قنصل إنجلترا فى بور سعيد ، حيث قال إن سلاطين المماليك ، بوصفهم سادة مصر وسورية ، يتحكمون فى الموانى وفى طرق القوافل التى تربط أوربا بتجارة الهند ، ويفرضون رسوما جمركية على كل بضاعة شرقية تصل من الخليج الفارسى والبحر الأحمر إلى الموانى الواقعة بين الاسكندرية والإسكندرونة لتنقل من هناك بحراً مرة أخرى إلى البندقية .

وكان المماليك يتمتعون باحتكار جميع تجارة الهند مع موانى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وكانت البندقية بامتيازاتها التجارية معهم تعد الوكيل الوحيد لهم فى القارة الأوربية ، إلى أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٨ م ونشأ عن ذلك تطور التجارة . ولنحاول تقدير هذا الاحتكار بأن نضرب لذلك مثلا ، تاجراً عربيا مثل السندباد البحرى ، اشترى تجارة من الحرير الخام وجوز الطيب والفلفل والنيلة والقرنفل والعصى ، بما تبلغ قيمته عشرة آلاف جنيه من بلاد فارس أو كلكتا ، ورسا بها فى البصرة أو السويس — ولو أن الطريق البحرى إلى الخليج الفارسى أقصر مسافة من الطريق فى البحر الأحمر ، إلا أن طريق القوافل من البصرة إلى حلب أشد خطورة من الرحلة القصيرة عبر مصر — فإن الرسوم الجمركية تبلغ أربعة آلاف جنيه (ولو أن هذا التقدير مغالى فيه كثيراً) ، وتسير

قيمة البضاعة حينذاك نحو عشرين ألف جنيه . فإذا وصل إلى إحدى موانى البحر الأبيض أو إلى ميناء بولاق ، باعها تاجر عربي آخر إلى تاجر من البندقية بثلاثين ألف جنيه ، وعلى هذا الأخير أن يدفع خمسة آلاف أخرى قبل أن يستخلص تجارته من الجمارك . وهكذا نرى أن ربع الخمسة والثلاثين ألف جنيه التي يدفعها التاجر البندقي تتسرب إلى السلطان المملوكي ورجال حكومته سواء أكانت رسوما جمركية أم مكوسا أم هدايا لكبار الحكام — كل ذلك لمجرد السماح بنقل التجارة عبر البلاد (١).

ولم تكن الحكومة وحدها هي التي تستفيد من هذه التجارة ، فقد كان تجار القاهرة الذين يستوردون التجارة من الهند وجزائر البهار ، أو على الأقل يشترونها من تجار الهنود في موانى البحر الأحمر يصيبهم كثير من أرباحها . ومن تصفح كتاب ألف ليلة وليلة يجد فيها كثيرا من هذه المغامرات الرابحة . ألم يقل ثانى الشيخين وهو يقود الكلبين الأسودين فى وصف رحلته : لقد أعددنا بعد ذلك تجارتنا واستأجرنا سفينة حملناها بضاعتنا ، ثم سرنا فى البحار رحلة استغرقت شهرا كاملا وصلنا في نهايته إلى مدينة بعنا فيها بضاعتنا وربحنا عشرة دنانير فى كل ما كان قيمته دينار واحد . وليس من شك في أن مثل هذه الصفقات كانت كثيرة الحدوث ، ولم تكن كلها تخرج من الحاضرة بل إن الكثير منها كان يصل إلى الأسواق حيث كان يباع بالتجزئة لسكان القاهرة وللمترفين من أتباع السلطان ورجال الحاشية المملوكية . وإذا قارنا الأسواق الحالية بفنادق العصور الوسطى ، نكون قد قصرنا فى فهم حقيقة تلك الفنادق . فهذه الفنادق التى تسمى بالخانات أو الوكالات — وبينها كلها فرق بسيط — كانت مجموعة من المستودعات والحوانيت تحيط بفناء فى الغالب وتكون أحيانا على هيئة رواق مسقوف حيث يختزن فيها التجار بضائعهم وفيها يجدون سكنا وحظائر تأوى إليها دوابهم لتستريح من عناء الأسفار .

ولدينا مثل عظيم من أمثلة فنادق العصر الوسيط : ذلك هو خان الخليلى ، وهو السوق التركى الذى بناه جركس الخليلى أمير آخور السلطان برقوق فى سنة ١٤٠٠ م

---

(١) انظر كتاب مصر فى القرن التاسع عشر تأليف د . ا . كاميرون ص١٤ و ١٥

فوق البقعة التي كان عليها — في وقت من الأوقات — قبور الخلفاء الفاطميين ، بعد أن جمعت عظام الموتى وحملت على ظهور الحمير وألقيت فوق أكوام القاذورات في خارج الباب الشرقي . ومن الأسواق المعروفة كذلك ، الحمزاوي أو سوق القماش . كما لا تزال بجوار الأزهر وفي السروجية اثنتان من وكالات قايتباي تتميزان بما يزين واجهتهما من النقوش العربية والرسوم الهندسية المعقدة والقوالب الخشبية المحفور عليها اسم السلطان . ولما وصف لين مدينة القاهرة في سنة ١٨٣٥ كان لا يزال فيها مائتان وألف وكالة وحتى في الوقت الحاضر لا نكاد نمر بشارع إلا ونرى فناء من هذه الفناءات تحيط به حجرات متعددة ويدخل إليهـا من بوابة مرتفعة . تلك هي فنـادق الشرق .

وكان الخان في القاهرة في القرن الخامس عشر هو سوق التجار الذي يزدحم بهم ، وكان أمراء المماليك يتنافسون في بناء الوكالات لحسن تقديرهم لأرباح الأملاك العقارية ، فكانت كل غرفة من غرف هذه الوكالات تدر الأموال على أصحابها من إيجارها للتجار . ومن أشهر هذه الوكالات خان مسرور الذي نزل فيه ذلك الشاب الذي جاء ذكره في قصة الأحدب وأودع فيه بضاعته . وبعد أن استراح ليلة من متاعب السفر قام إلى قيصرية جركس ، وهي سوق شهيرة أخرى من أسواق هذه العصور التي بنيت في أيام الفاطميين ، وأخذ معه بعض متاعه ليعرضه على تجار هذه السوق ، وقد نصحه شيخ السماسرة بأن يتعامل كما يتعامل إخوانه التجار ، بأن يبيع ما عنده وأن يتسلم أمواله على نجوم في يومي الخميس والإثنين ، وأن يدعو كاتب العقود وشاهدا وصيرفيا لينظموا له أعماله . وقد قال له شيخ السماسرة إنه إن فعل ذلك ضاعف أمواله وبقي له من الوقت ما يسمح له بالاستمتاع بمباهج مصر ونيلها ، وقد استمع الشاب لنصيحة شيخ السماسرة وأعطى البضاعة لمن يبيعها عنه ، وأخذ يعيش هانئا في خان مسرور يتناول طعام الإفطار المكون من الخبز والدجاج ولحم الضأن والحلوى ويتعطر كما يفعل المتأنقون ، وظل على ذلك حتى تقابل مع فتاته الموعودة عند حانوت بدر الدين البستاني . ثم حدث له ما كان يخفيه القدر إذ جعل منه عبرة لمن يعتبر . ولأن قطعت يد الشاب وعلقها الجلاد على باب زويلة ، فذلك ما كان يحدث كثيرا في أيام المماليك .

وخان مسرور هذا (والحقيقة أنهما خانان أحدهما أكبر من الآخر) قد بني على



سوق الرقيق

الأرض التى شيد عليها من قبل القصر الفاطمى الكبير حيث كان يباع الرقيق . وكان مسرور أحد عبيد صلاح الدين المقربين إليه يقوم بهذا البيع ، وقد ترك هذه الدار وقفا خيرية للفقراء . وكان البناء الكبير من هذين الخانين يحوى نحوا من مائة حجرة وكان يفضله تجار سورية وهو أشهر الخانات على الإطلاق فى رأى المقريزى . ولكن دولته قد دالت وهجره رواده وتهدمت حجراته على أثر ما أصاب تجار سورية من الإفلاس بعد أن غزا تيمورلنك بلادهم .

ومن الخانات الشهيرة كذلك خان بلال ، وكان عبداً للملك الصالح حفيد العادل أخى صلاح الدين ، وكان بلال هذا ذا حظوة عند سيده ، حتى إن السلطان قلاوون قال فيما بعد : رحم الله مولانا الصالح فقد اعتدت فى أيامه أن أحمل نعل ذلك العبد كلما دخل بلال عند مولانا .

وكان هذا العبد ذا ثروة طائلة، وكان كثير الصدقات وكثيرا ما امتدحه الشعراء الذين أجزل لهم العطاء ، ومن جليل أعماله بناؤه الخان المشهور باسمه ، حيث كان التجار يودعون نفائسهم، وقد ذكر المقريزى أنه اعتاد أن يدخل ذلك الخان ، وكان يرى الصناديق منها الكبيرة والصغيرة ، وكانت لكثرتها تملأ المكان حتى إنه لم يكن هناك مكان لقدم إلا مسافة صغيرة فى الوسط ، وكانت هذه الصناديق تحوى من الذهب والفضة مايذهل العقل . كذلك كان هناك خان السبيل فى خارج باب الفتوح وقد شيده قرقوش وزير صلاح الدين ، ووقفه لأبناء السبيل ينزل فيه منهم من يشاء بدون أجر، كما كان هناك وكالة قوصون التى بناها الأمير قوصون زوج ابنة السلطان الناصر على مقربة من جامع الحاكم، وكان تجار سورية يخزنون فيها الزيت والسمسم والصابون والفواكه المجففة والفستق واللوز وأنواع الأشربة وما شاكلها ، وكانت أوامر الأمير تقضى بأن لا تؤجر الغرفة من هذه المخازن بأكثر من خمسة دراهم ، وبأن لا يلحف الوكل بالتحصيل فى طلب الأجر، وأن لا يرد كائن من كان عن النزول فى الوكالة، وكان هذا الخان لقلة مايطلب فيه من أجر، كثير الزحام فى أيام المقريزى، يعج بالمسافرين والحمالين ، ويضيق بالأحمال ، وكان به ثلاثمائة وستون حجرة للنوم فوق المخازن، وقد استؤجرت كلها بحيث اتسعت لنحو أربعة آلاف شخص، ثم صار هذا الخان خرابا على أثر غزو التتار سورية . وكان قبالة باب زويلة سوق الفاكهة حيث كانت تباع منتجات البساتين المجاورة للقاهرة . وكان هذا السوق مسقوفا ، شأنه فى ذلك شأن أغلب الأسواق فى سالف الزمن ، ليمنع أشعة الشمس من أن تنفذ إلى داخله ، وكانت الفاكهة ذات الرائحة التى تشبه رائحة أشجار الجنة ، ترتب بصورة تنم عن ذوق سليم ، كما كانت تزين بالورود والحشائش الجميلة (١) .

وكانت هناك أبنية كثيرة مماثلة ، يروى لنا المقريزى تاريخها فى كتاباته المطولة حتى يجعلنا نكاد نكون فى الذاكرة صورة كاملة تمثل ما كانت عليه الحضارة فى القرن الخامس عشر ، وعلى كل حالة فإن القاهرة كانت مكانا جميلا أنيقا فى تلك الأيام ، وكانت

(١) المقريزى ج ٢ ص ٩١ ومايليها .

قصور المماليك التى لم تبق الأيام منها إلا على بقايا من جدران شامخة عارية من الزينة فى مثل قصر بشتاك وباب دار يشبك الضخمة المجاورة لمسجد السلطان حسن . وفى مثل قصور قايتباى ومسجد الأمير ماماى (المعروف ببيت القاضى) الذى عنى بترميمها وحفظها . وكانت كل هذه القصور فى أوج عظمتها ، وكانت الأحياء المختلفة لاتزال يفصل بعضها عن البعض الآخر أبواب ضخمة تقفل ليلا ، وكانت الأسواق مسقوفة بالحصير أو بالخشب تظللها من وهج الشمس ، كما كانت النوافذ مغطاة بمشربية من الخشب الدقيق الصنع .

وقد وصف لنا المقريزى سبعا وثلاثين حارة أو حيا وثلاثين خطا وخمسة وستين شارعاً أو دربا ، وواحدا وعشرين زقاقا أو خوخة وتسعا وأربعين رحبة ، وخمسين سوقا ، وثلاثا وعشرين قيسرية ، وأحد عشر فندقا أو خانا أو وكالة ، وخمسة وخمسين قصراً وداراً ، وأربعة وأربعين حماما ، وثمانية وعشرين بستاناً ، وأحد عشر ميدانا لسباق الخيل ، وكثيرا من المناظر .

ولا يزال كثير من الشوارع يحتل مكانه القديم كما لا زال بعضها يطلق عليه الإسم القديم ، ومن أمثال ذلك : الصليبة ، وبين القصرين ، وبين السورين ، وحارة برجوان ، وسوق السلاح ، وخان الخليلى ، والدرب الأصفر ، والحبانية ، والخرنفش . ومما هو جدير بالملاحظة أن التغيير الذى حدث للأحياء القديمة فى القاهرة أقل مما طرأ على أحياء لندن القديمة ولكن ذلك مما يوجب الأسى ، فلقد تغيرت لندن لأنها نمت وتقدمت ، أما القاهرة فقد ظلت على حالها نسبيا لأنها تتهدم وتنحط شيئاً فشيئا . ولا شك فى أن ضياع تجارة الهند واعتماد البلاد على تركيا وسوء حكم الباشوات الأتراك وبكوات المماليك ، كل هذه كانت من العوامل التى قللت من رخاء المدينة التى ازدهرت فى أيام سلاطين الأتراك والشراكسة .

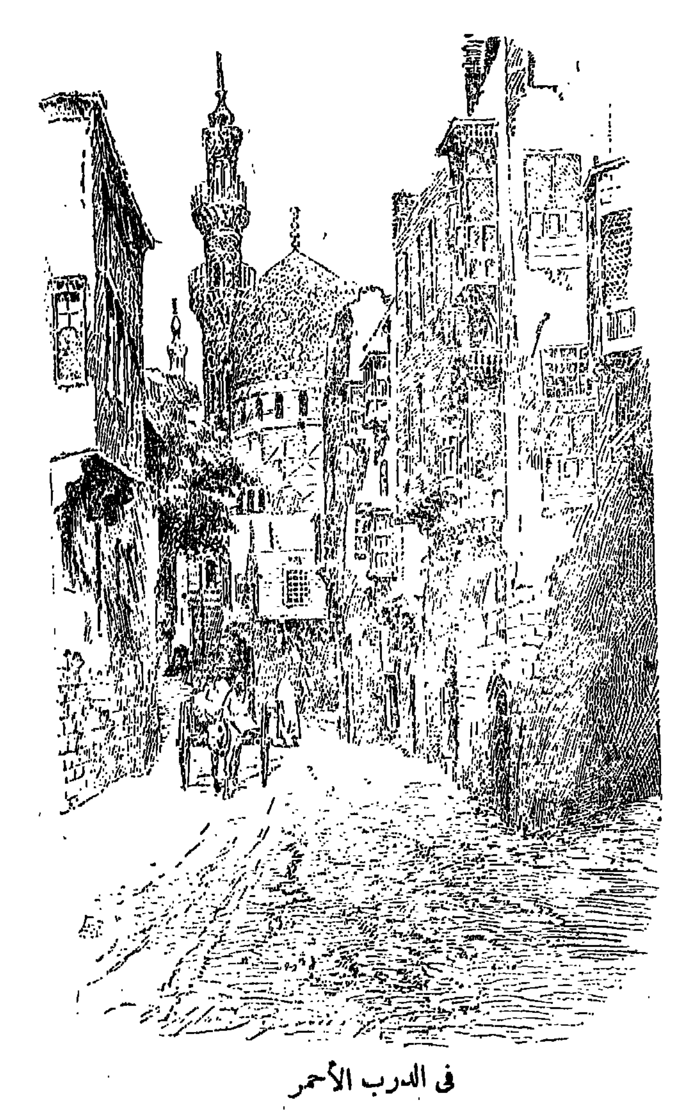
وقد اقترن الاضمحلال التجارى باضمحلال آخر فى الفن . وعلى الرغم من وجود بعض المصنوعات النحاسية والمنسوجات الحريرية وصياغة المجوهرات فى القاهرة من بقايا المهارة الفنية القديمة ، إلا أنها لاتعتبر شيئاً يذكر بالنسبة لما كانت عليه الصناعة قبل ذلك . وليس على المرء إلا أن يزور دار الآثار العربية ليقف على الروائع التى أخرجها فنانو القاهرة فى عهد المماليك ، ولما كان تقدم الفن يتمشى مع تشييد المساجد

التى بلغت ذروة الـكمال من حيث زخرفها فى ذلك العهد ، فإن القطع الفنية التى تحويها دار الآثار العربية كانت فى زمن ما نقوشا أو أثاثا من تلك المساجد : فمن خوان من النحاس مطعم بالفضة وموشى بالرسوم الدقيقة ، إلى غلاف لمصحف القرآن الـكريم ، إلى سراج أو ثريا ، إلى كأس ، إلى مبخرة ، إلى مشكاة ، إلى قنديل من الزجاج المنقوش بالميناء تزينه كتابة باللون الأزرق المتداخل بالقرمزى والمذهب ، وكلها تدل على أن مصادرها هى مساجد القرن الرابع عشر ، كما أن ألواح الأفاريز المطعمة بالعاج والأبنوس ، وأنواع الخشب الممتاز التى كانت تزين أبواب المساجد ومنابرها ، والنحاس المخرم ، كلها تدل على أنها صنعت فى ذلك العهد نفسه ، ويحوى متحف كنسنجتون الجنوبى والمتحف البريطانى مجموعات رائعة من الصناعة المعدنية العربية التى لا مثيل لها .

ومما يؤسف له أن القاهرة قد خلت من سوق لنقاشى المعادن كما كان فى عهد المقريزى ، فإن نقش الفضة والذهب والـكتابة على النحاس كانت من أبدع دقائق الفن العربى ، ولم يكن ذلك فى أصله مصرياً ، وإنما جاء عن طريق الفنانين الساسانيين من بلاد الموصل وبلاد بين النهرين ، وكانت أقدم النماذج التى تعرفها من الموصل على نهر دجلة وهى مهد صناع المعادن المهرة الذين عاشوا على مقربة من مناجم جبال طوروس ، وليس من شك فى أن هؤلاء الصناع قد اجتذبتهم القاهرة فى أيام ازدهارها فى عهد سلاطين المماليك ، وأنها ربما اجتذبتهم قبل ذلك ، وعلى كل فإن خير ما صنعت أيديهم كان مرده إلى السوق المصرية حتى إنه نقشت عليه أسماء بعض حكام مصر المشهورين وأمرائهم . فهناك صندوق الجوهرات الذى نقش عليه اسم العادل الثانى وألقابه (وهو حفيد أخى صلاح الدين) الذى جلس على عرش مصر من سنة ١٢٣٨ م إلى سنة ١٢٤٠م ، ثم خلفه الصالح أيوب زوج شجرة الدر وهذا الصندوق من صناعة الموصل منذ أقدم العهود ، وجوانبه يزينها ثمانية ألواح من المعدن الرقيق (على شكل النقش الموجود على النقود الفضية التى كانت متداولة فى عهد أسرة صلاح الدين) ، وتحتوى هذه الألواح الدقيقة الصنع على مناظر للصيد وقتال مع أسد وفارس يحمل بازا على معصمه (ويلاحظ أن يد الفارس يغطيها قفاز يلبسه دائما مربو الصقور) وما إلى ذلك من المناظر ، أما المسافة بين كل لوح وآخر فـكانت مزينة بالرسوم العربية ،

فقدأظهرت شخصيتها وكونت طرازاً خاصابها ، يحوى مزايا لا يمكن أن تـكون قد اقتبست من فن الموصل .

فأسلوب القاهرة هو الذى نراه على الصوانى والأوانى والـكؤوس والمباخر وغير ذلك من أوعية المماليك فى مصر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، التى تحتفظ بها فى متاحفنا ومجموعاتنا الخاصة . وقد نلاحظ بعض أوجه الشبه بينها وبين صناعة الموصل ، إلا أن العناصر الجديدة واضحة فيها وضوحا تاما . فصور الفرسان والأمراء الجالسين قد اختفت فى معظمها ، وهو ما كان منتظراً عند ما تعود الأمراء الأتراك التمسك بالدين فيما يتعلق بتصوير الحيوانات ، ولو أنهم أبقوا على حيوان الصيد على حافات الصور وأبقوا على طيور الماء وأشباهها فى مختلف أماكن لوحاتهم الفنية . وترجع كثرة وجود طير البط فى الصور إلى سببين : فهى أولا كثيرة فى مستنقعات الموصل ، وثانيا لأن مؤسس دولة المماليك الذين حكموا مصر مائة سنة تقريباً وهو قلاوون ، كان من الأتراك الذين نزحوا من بلاد القفجاق . واسم قلاوون بلغة المغول « البط » ، وفى هذه التسمية من التورية مايضارع ما كان يسجله أسقف أسلب على جدران مصلاه فى كنيسة وستمنستر . وتختلف زخرفة الصناعات المعدنية فى أيام المماليك عن زخرفة الموصل اختلافا بينا . فالـكتابة فى المصنوعات المملوكية مرتبة فى براويز عريضة مطعمة فى مساحة كبيرة بالفضة ، ويفصلها عن بعضها ميناء نقش عليه اسم السلطان أو تفصلها دروع يحملها أصحابها ، وتظهر فيها الـكأس أو عصا البولو التى تنم عن مركز صاحبها فى البلاط ، إن كان ساقيا أو مدربا للبولو ، أو تفصلها أشكال هندسية كالمعين ، و نقش تحاكى الـكتابة الهيروغليفيـة المنقوشة على الآثار المصرية القديمة التى كان يجهلها النقاشون كل الجهل . وكثيرا ماصورت حول الميناء أزهار وأوراق شجر تذكرنا برسوم دمشق وأزهار وأوراق متشابكة متعانقة عليها طيور . ولم تـكن الدقة فى الصنعة أقل إعجازاً من الدقة فى التصميم ، إذ لم يكن بين فنانى العرب من لا يشعر بمسئوليته للفن ، فـكانوا ينحتون الرسم بأكمله على النحاس ثم يفرغون الحافات لتحمل صحائف الذهب والفضة ، فتطرق وتصقل فى موضعها ، ثم يتتبعون كل لوح من الفضة فيهذبونه بالمنقاش حتى لا يتركوا جزءاً عاريا من النقش إلا غطوه برسم أوراق الشجر أو عيون أو أجنحة طيور حتى لا يبقى مكان



فى الدرب الأحمر

ولو كان صغيراً كرأس الدبوس دون أن يولوه عناية ودقة ، ثم يدهنون الشقوق التى يظهر فيها النحاس بطلاء خمرى يضفى على الصورة رونقا خاصا . ومما يؤسف له أن كثيراً من الفضـة ومن الطلاء قد أضاعه مرور الزمن حتى إنه ليصعب إدراك ما كانت عليه نقوش هذه الأوانى والصوانى التى بقيت للآن، إلاأن الفحص الدقيق يبين لنا مقدار المهارة والدقة فى الصناعة التى لا يستطيع الزمان محوها .

وفن زخرفه الفضة كفن العمارة والحفر على الخشب والعاج وسائر وسائل التعبير عن الجمال وصل إلى ذروة النبوغ الفنى والثقافى فى عصر الناصر محمد بن قلاوون ، وذلك فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى ، وكلما وقع بصرنا فى متحف من المتاحف على أنموذج بديع الصنعه من المعدن توقعنا أن نرى اسم أحد الأمراء الناصريين إذا لم يكن اسم السلطان نفسه منقوشا عليه .

ويروى لنا المقريزى أن هذا الفن الجميل قد فقد قيمته فى أيامه ، أى فى أوائل القرن الخامس عشر . كان هذا الفن يرضى كل ذوق . وقد رأينا من صناعة المعادن المنقوشة عددا يفوق الحصر ، حتى إنه لم يكن فى القاهرة كلها منزل يخلو من الأوانى النحاسية المزخرفة ، إذ كان من مستلزمات جهاز العروس أن يكون به خوان عليه أوان وصحاف من النحاس فوق رفوف من الخشب المطعم بالعاج يقدر بنحو مائتى دينار – بينما نرى ذلك كله إذ بهذا الفن قد اندثر من مصر كلها . ولقد قل طلب الناس لهذه الصناعة فى أيام المقريزى ، ومنذ مدة امتنع الناس عن شراء ما كان يعرض منها للبيع حتى هجر السوق الصناع الذين حذقوا هذا الفن ولم يبق فى الأسواق أثر لهذه الصناعة (١) .

مما سبق قد يفهم أن الفن قد مات ولكن الحقيقة أنه قد انتقل إلى مكان آخر فإن التراث الذى ورثته القاهرة من الموصل قد أورثته البندقية بدورها . فقد رأينا أن أهل البندقية كانوا العملاء الأوربيين للتجار المصريين ، وليس من المبالغة فى شىء أن نقول إن البندقية كانت مدينة نصف شرقية ، وأن النفوذ الشرقى كان يطغى على إيطاليا بأجمعها ، وأن أحد شعراء القرن الثانى عشر حزن على بيزا التى زعم أنها صارت تحت سلطان المغاربة والهنود والأتراك ، وإن كان فى مدينتى فرارا ولوتشيرا إذ ذاك حى شرقى تسود فيه العوائد الإسلامية منذ استخدم فردريك الثانى حملة الرماح من العرب . غير أن البندقية كانت أكثر تأثرا بهذا النفوذ ، فإن تجارتها ومستعمراتها قد أوصلت إلى تجارها المصنوعات الفنية الشرقية ، وأحضر سفراؤها هدايا سلاطين المماليك الفاخرة ، وسرعان ما اجتذبوا الصناع إليهم كما استحضروا التحف التي أطلقوا عليها اسم «صناعة اليهود» ، وقد سمع ذلك الشاعر الإنجليزى الشهير تشوسر

---

(١) الخطط جـ ٢ ص ١٠٥ .

وذكره فى شعره حيث وصف ملابس أحد الجنود فقال : وفوق ذلك كان يلبس درعا من الزرد أبدعت صنعه يد « الصانع اليهودى » .

ولقد برعت البندقية فى نقش الصوانى على الطراز العربى ولو أنه طرأ عليه اختلاف كثير فى الرسم وفى الأداء الفنى ، ولقد استعملوا الفضة خيوطا بدلا من الألواح والصفائح العريضة ، واتخذوا الرسوم العربية إماما لهم وهذبوا أشكال الأوانى فأصبحت تختلف عما كانت عليه فى يد الصائغ المصري فى القاهرة . ثم بدأ الصناع الإيطاليون ينقلون الفن عن محمود الكردى وزملائه من فنانى العرب ، واسموا أنفسهم الأزميون أو العجم ، لأنه كان من الشائع أن يطلقوا على كل صناعة شرقيه اسم أعجمية ، فنسمع عن الفنان الإيطالى جورجيو تشيني الصانع العجمى فى مدينة مانتوا وبولس العجمى الذى نبغ فى الفن الذى نقل من مصر .

وإذا كنا قد تكلمنا عن صناعة الفضة دون سائر فنون القاهرة فى العصر الوسيط ، فما ذلك إلا لأنها الفرع الذى أمكن تتبع تطوراته فى سلسلة من النماذج التي لا يتطرق الشك إلى تواريخ صياغتها . غير أن أهم فنون الزخارف التي استخدمها بناة المساجد كانت النقش على الخشب والحفر على الرخام . وأهمها جميعا أفاريز المنابر والأبواب حيث يتطلب الجو الحار ضرورة جعل المسطحات المنقوشة صغيرة الحجم حتى لا تكون عرضه للالتواء . واستخدام الرخام المعرق فى زينة المحراب يكسب البناء رونقا وبهاء ، حتي ولو تنافر الانسجام بعض الشيء ، ولقد قلد كثير من الأشراف هذه الصناعة فى تزيين أسفل جدران منازلهم ، ولكنه آل للأسف إلى الزوال .

ومما يسترعى النظر كثرة استخدام الخشب فى مصر للزينة مع أنها بلاد لا تصلح لنمو الأصناف الجيدة من الأخشاب، ومع ذلك فإن جفاف الجو يحفظ الخشب أجيالا طويلة ولو أنه يعرضه للالتواء . فقد عاشت أربطة الأعمدة فى مسجد ابن طولون أكثر من ألف سنة لم يتطرق إليها الانحلال ، حتى إن سقف الأورقة مازال حافظا لكيانه إلى الآن . ويدلنا هذا السقف الخشبى على أن الصانع فى القرن التاسع كان يستعمل الطريقة التى لا زالت تستعمل فى جميع أدوار الصناعة العربية حتى دخلت طريقة البناء الأوروبية، وهذه الطريقة عبارة عن إستعمال قطع من جذوع النخيل بعد أن تشرح نصفين وتبطن السطوح الثلاثة المعرضة بألواح حتى تصير على

شكل مربع ، أما التجاويف التي تحدث بعد تربيع القطع ، فتقسم بواسطة فواصل متقاطعة يتكون منها جيوب أو خزائن ، وكثيرا لا تبقى الجذوع غير مبطنة بألواح الخشب فى المنازل الخاصة . وسواء أكانت مبطنة بالألواح أو تركت على أصلها مستديرة ، فإن هذه العروق والجيوب التى تتكون منها كانت تغطى بطبقة من الجص مدهونة على قطعة من القماش ومزينه برسوم عربية ذات ألون زرقاء وحمراء وذهبية . ولا زالت هــذه السقوف ذات الجيوب أو الصناديق فى منازل عديدة تسر النظر بحسن رونقها وانسجام ألوانها الحمراء والزرقاء وحافاتها المذهبة وبراعة تغطية الانتقال من السقف إلى الجدران بالزخارف المدلاة والمنقوشة بما يتمشى ورسم السقف ، وهناك سقوف أخرى تقل أهمية من الناحية الفنية عن السقوف ذات الجيوب التى ذكرناها ، وهى هذه السقوف التى استعملت فيها ألواح الخشب ملتصقة بعضها إلى بعض ، وقد كسيت بطبقة رقيقة من الجص ونقشت فوقها رسوم عربية ونماذج نباتية ، وجرت عليها فرشة الألوان وذهبت بعد ذلك ، أو استعملت فيها الرسوم الهندسية على قطع من الخشب المطلى باللونين الذهبى والأحمر ، ثم ألصقت بالسقف ، وقد ملىء ما بينها بالرسوم العربية على الجص .

ولقد تجلت صناعة النقش على الخشب فى مناسبات عديدة فى المنابر ، وفى مساند المصاحف ، وفى الأبواب الداخلية ، وفى الخزانات ، وفى المساجد . ومن أقدم الأمثلة ما أخذ من مسجد ابن طولون ومسجد الحاكم واحتفظ بها فى دار الآثار العربية بالقاهرة إلى اليوم . وتدل النقوش العميقة التي تشبه الملفات الحلزونية على مصادرها البيزنطية ، كما تشبه النقوش ، التى هى أعرق منها فى القدم ، والتى وجدت فى ناحية عين الصيرة جنوبى القاهرة . وقد حدث فى القرن الثالث عشر تغيير فى أسلوب النقش والزخرفة ، فقد بطلت الرسوم التى ترتكز على واحدات من أوراق الشجر ، واتخذ الفنانون زخارف أدق صنعا وأكثر تشابكا ووزعوها على ألواح هندسية الشكل صغيرة الحجم ، ولعل خير مثال لهذا الطراز هو ما صنع منه غطاء قبر الشيخ فى سنة ١٢١٦م ، وقد احتفظ متحف جنوب كنسنجتون بلندن بأحد جوانبها ، واحتوى متحف دار الآثار العربية بالقاهرة بالجوانب الثلاثة الأخرى ، ثم غطاء قبر الصالح أيوب المزخرف (١٢٤٩) : فقد رتبت الزخارف على شكل نجوم سداسية ،

منحوتة نحتا بالغ الدقة . وقد ظهرت فيه سيقان أشجار الفاكهة وهى من المظاهر الشائعة فى رسوم القرن الثالث عشر المنقوشة على الخشب . ومما يستحق الملاحظة بوجه خاص ، محراب مصلى « السيدة رقية » الذى صنع فى الغالب فى هذا القرن . ويمتاز بإبراز رسم شجيراته وكأنها متفرعة من آنية (١) . غير أن فن النحت على الخشب لم يصل إلى الذروة من الإتقان إلا فى عصر سلاطين المماليك وخاصة فى عصر الناصر ، فقد استعملت الأخشاب الملونة لإظهار فكرة البروز والتجسم . واستعمل التطعيم بدل النقش على الخشب الأصلى . فكثيراً ما وجدنا ألواحا صغيرة مغروسة فى أرضية من الأبنوس ، وهذه الأرضية نفسها منقوشة وموضوعة فى إطارات متعددة متداخلة الواحدة منها فى داخل الأخرى . وقد لا تجد فى مئات اللوحات رسمين متماثلين فى الشكل . ومما لاشك فيه أن الجهد الذى بذله الفنانون فى نحت هذه الرسوم وفى تركيبها على مسطحات واسعة بهذا الحجم كان جهداً جباراً . وقد ترى أمثلة جميلة من ذلك فى المساجد ، وقد ترى أيضا أمثلة أدق صناعة من حيث النحت على الخشب والعاج فى أبواب الكنائس القبطية فى بابليون التى أخذ المسلمون الفن عنها . غير أنك لا تحتاج إلى الخروج من لندن لترى خير ما أتى به المماليك من النحت ، ذلك أن عدداً كبيراً من روائع النماذج نقل إلى متحف جنوب كنسنجتون فى أيام حكم الخديوى إسماعيل وقبل حكمه بقليل . وهناك يتمكن المرء من دراسة بعض النقوش العربية دراسة متئدة ، وهذه النقوش الثمينة القيمة ، ولو أنها ليست رائعة التكوين ، فبعضها مقتبس من منبر جامع طولون الذى عمله لاچين سنة ١٢٩٦م ، وبعضها من منبر مسجد المردانى سنة ١٣٣٩ م . وليس من الذوق السليم وضعها على منضدة فرنسية الصنع ، والبعض الآخر مأخوذ من منبر مسجد قوصون . وهى ، وإن كانت موضوعة فى إطار حديث الصنع ، قد احتفظت بنقوشها العربية سليمة ، كما أن هناك منبراً بأكمله يحمل اسم قايتباى ، ولكن لا يعرف اسم المسجد الذى أخذ منه . وكل هذه التحف المذكورة تكون معرضا جميلا للفن العربى فى أزهر عصوره فى النحت على الخشب (٢).

---

(١) انظر فهرس دار الآثار العربية ص ٤٧ و ٤٨ جمع هرتز بك ، وهو كتيب لا يستغنى عنه الباحثون فى الفنون العربية .

(٢) أنظر كتاب الفن العربى فى مصر تأليف ستانلى لينبول ص ١١١ — ١٥٠ .

وليست هذه المجموعة متماثلة فى صناعتها ، فإن بعضها يقصر عن البعض الآخر من الوجهة الفنية . ومن يدقق فى تصميمها ير أن الفن قد وصل إلى ذروته فى نقوش المردانى ، أى بعد حكم الناصر مباشرة : فمنبر شيخو (١٣٥٨) لا يرتفع من ناحية الفن عن منبر السلطان حسن الذى صنع من الحجارة ، ومنبر المؤيد (١٤٢٠) أقل درجة منه ، حتى إذا وصلنا إلى منبر جامع قايتباى الذى يعد مثلا أعلى لما شيد فى مصر رأيناه أقل جودة فى صنعه مما أخرجته أيدى الصناع فى أواسط القرن الرابع عشر . ذلك لأن الرسوم قد فقدت شيئاً من الابتكار ، وأصبحت الخطوط جافة ميكانيكية ، كما ظهر فيها التكرار خصوصاً فى النقش على الحجارة ، وهو أمر غريب فى صناعة المتقدمين من الفنانين . وقد يكون هذا التكرار راجعاً إلى كثرة استعمال العاج فى التطعيم ، لأنه اصعب فى رسم الخطوط المنحنية ، وإن كان أسهل فى النقوش الدقيقة . وقد يكون ذلك — وهو السبب الرئيسى — راجعاً إلى تفضيل النقش على الحجارة وزيادة الاهتمام به . فسرعان ما صارت الحجارة هى المادة الرئيسية فى البناء والنقش حتى أهملت صناعة النقش على الخشب ، كما أهملت من قبل صناعة النقش على قوالب الجص . وكان منتصف القرن الرابع عشر الحد الفاصل بين الصناعتين ، حيث أصبحت الحجارة المادة المفضلة ، وانقسم رجال الفن القدامى إلى فريقين تحول بعضهم من النقش على الخشب إلى النحت على الحجارة واستمر البعض الآخر يزاولون صناعتهم الأولى ، ولكنهم اكتفوا بمحاكاة النماذج القديمة دون ابتكار ، فكان ذلك إيذاناً بالتدهور والانحلال .

على أنه لو صح أن النقش على الخشب قد تدهور بعد منتصف القرن الرابع عشر ، فقد ازدهر نوع آخر من النقش على الخشب ، وهو الذى زين واجهات منازل القاهرة بما يشبه النسيج الموشى الدقيق الصنع ، ويعرف باسم المشربية ، ومما لا شك فيه أن صناعة المشربية كانت قديمة . ولكن ربما كانت كثرة الحرائق فى القاهرة أو سهولة عطب هذه المصنوعات ، السبب فى عدم بقاء نماذج قديمة منها إلى الآن . أما الشبابيك الخشبية القليلة التى لا تزال فى بعض المساجد القديمة ، وهى طراز يختلف عن طراز المشربيات ، فإنها مربعات خشنة الصنع مقسمة إلى خانات بواسطة قضبان من الخشب مربعة أو مستديرة من الخشب كالتى تشاهد فى ضريح قلاوون ، أو هى شبكات

تغطى فتحات واسعة مربعة ليس للفن فيها نصيب . وقد ترى نوعاً منها أرقى صناعة وأعمدتها أكثر تقارباً وشبكتها أضيق عيوناً ، ونقط تقاطعها مطعمة ومنقوشة مثل منبر لاجين فى مسجد ابن طولون (١٢٩٦) . ومن الغريب أن المشربية الحقيقية توجد فى جامع المردانى ، حيث ترى أعلى مثل للنقش على الخشب .

وهكذا كلما تدهور فن النقش ارتفعت صناعة المشربية . وقد تجد نماذج جميلة للمشربية فى أوائل القرن الخامس عشر ، كما نشاهده فى منبر جامع المؤيد مثلا . ولكن هذه الصناعة بلغت الذروة فى الجودة فى عصر قايتباى ، حيث ترى نموذجاً جميلا فى منبر أبى بكر بن مظهر . أما صناعة المشربية فهى صناعة حديثة ، غير أننا لا نستطيع تحديد عهد خاص لها . ومن المؤلم أنها قد اختفت كلها ، بحيث لا نجد لها أثراً ، ولكن يجب أن لا يغيب عن الذهن أنها كانت مصدر خطر كبير ، لسهولة توصيل الحرائق من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع .

ومما هو جدير بالذكر فى كل عمل فنى قام فى القاهرة فى العا
أكان فى العمارة والبناء ، أم فى النقش على الخشب وتطعيمه ، أم فى النحت على الحجارة ، أم فى النقش على المعادن ، أو فى صناعة الأوانى الزجاجية ، أنها كانت أعمالا مبتكرة لا أثر للتقليد أو النقل عن الغير فيها ، إذ لم يأت العرب بفن أو صناعة معهم حينما وفدوا إلى مصر وربما كانوا يفتقرون إلى الحاسة الفنية ، ولكنهم أخذوا الفن عن رعاياهم الأجانب ، وكانوا دائما يستحدثون عنصراً مختلفاً عن الأصل ، وهذا العنصر خاص بهم يميزهم فى الجو الفنى . كما أنهم أدخلوا فناً عربياً ، فقد أخذوا صناعة المعادن عن الفرس ، ولكنهم سرعان ما جعلوها صناعة عربية ، كما قلدوا الروم والقبط فى النقش على الخشب ، ثم أضافوا إليه من روحهم وملكاتهم ما جعله فناً جديداً . وقد وجدوا صناعة الزجاج فى مصر وتعلموا فنون القسطنطينية فى التذهيب وتركيب الميناء ، ثم أخرجوا طرازاً من القناديل والمشكاوات لا يحاكيه أى نوع آخر فى الدنيا . ولم يكن التغيير الذى أحدثه العرب

فى الصناعة تغيراً فى الرسم والتصميم أو فى الشكل ، ولـكنه كان تغيراً شاملا فى طابعها ، حتى جعلوها فى كل فرع من فروعها فناً عربياً قلبا وقالباً . ولم يكونوا ناقلين عن نماذج ثم احتفظوا بأصولها ، بل كانوا قادرين على تهذيب الأصول التى نقلوا عنها وخلق أصول جديدة مبتكرة . ولعل أغرب ما فى هذا الأمر ، أن أرقى ما وصلت إليه الصناعة ، قد تم في أشد الأوقات اضطراباً ، وفي عهد أقل السادة الأجانب ثقافة وعلماً .

وفى الحق أن عصر السلاطين المماليك ، كان أزهر عصور مصر الإسلامية ، وأزهاها فى الفن والأدب .

الباب التاسع

البكوات والباشوات

سلطة الأمراء المماليك (البكوات) لازالت قائمة — ضعف الباشا — القتال في الشوارع — البك العثماني — رضوان الجلفي من أسرة الشرايبي — المكتبات — حالة التعليم — التعصب — الخرافات — مساجد العصر العثماني — علي بك — عبد الرحمن كتخدا — محمد بك أبو الذهب — محمد علي — استصفاء أموال الوقف — لجنة حفظ الآثار العربية — رسالة إلى اللورد كرومر — حفظ الآثار — إحياؤها — لورد كرومر — المنح التي تقدمت بها لجنة الدين العام والحكومة المصرية .

لم يجرؤ أحد على كتابة تاريخ لمصر في خلال القرون الثلاثة التي خضعت فيها للسلاطين الأتراك منذ أن فتحها سليم الأول في سنة ١٥١٧ ، إلى أن أسس فيها محمد علي أسرة شبه مستقلة في سنة ١٨٠٥ . وكانت هذه الفترة متشابهة الأحداث ، ينقصها مثل تلك الشخصيات البارزة التي ظهرت في الفترة الأولى من عهد المماليك ، وكأنها مسرحية يعاد تمثيلها على مسرح صغير ويقوم بأدوارها ممثلون أقل شأناً وأضعف فناً . وقد تجردت الحكومة المحلية من الروح التي كانت تخلقها الحروب في البلاد الأجنبية ، كما اختفت حياة الترف والبذخ التي كانت تنعم بها القصور الملكية وأهل البلاط، مما كان سبباً في تشجيع الفنون والصناعات ومنافسة الأمراء ، كما أن الشعور بالتبعية وسياسة الإمبراطورية العثمانية التي كانت تنطوي على الجشع في جباية المال هدمت كثيراً من مجد المماليك الأول .

ومع ذلك لم يكن ثمة فارق كبير بين القاهرة تحت حكم الباشوات وبين مدينة القاهرة التي وصفها المقريزي . ذلك أن التغييرات في الشرق تحدث ببطء لا يكاد يدركه الإنسان ، وإن أحداث الزمن تسير على مهل كما تسير عجلات السواقي المنتشرة في البلاد ، وهكذا جاء الاضمحلال والتدهور . فقد استمر أمراء المماليك ذوي قوة وبأس . غير أنهم ، بدلا من أن ينتخبوا واحدا منهم سلطانا عليهم ، اختار لهم الباب

العالى ، باشا من قبله . وكان يحد من سلطة هـذا الباشا مجلس من الأمراء المماليك عرفوا من ذلك الوقت بالبيكوات . وكثيراً ما كان عزله يأتى على أيديهم أو نتيجة لمؤامرات الجنـود المتمردين . وعلى الرغم من أن الباشا كان يصل بصحبة حاشية مكوّنة من ألف ومائتى رجـل وكان ينثر أكياساً مملوءة بالنقود الذهبية فى أيام الأعياد ، لم يكن فى مقدوره أن يتغلب على هيئة رئاسة الجند . وكان لشيخ البلد ، وهو رئيس المماليك ، سلطان يعلو سلطان الباشا ، والمماليك لم يتغيروا عما كانوا عليه فى أيام سلاطين الشراكسة ، ولولم يكونوا هم أنفسهم، إذ قتل السلطان سليم كل من وصلت إليه يده منهم ، ولـكنهم بقوا فى تـكوينهم كما كانوا من الأتراك ومن بلاد جورجيا (الأرمن) ومن الشراكسة ، كل منهم كان عبداً جلب من سوق الرقيق ثم ارتقى إلى الوظيفة فالإمارة ، وعاشوا محتفظين بعظمة مراكزهم فى قصورهم بجوار بركة الأزبكية أو على بركة الفيل أو فى حى الصليبة أو فى شارع سوق السلاح ، تحيط بهم حاشية كبيرة .

وهم بعد ذلك ، يحتفظون بأحقادهم القديمة ويتلهون بحروبهم الداخلية ومناوشاتهم فى الشوارع ، شأنهم فى ذلك شأن من سبقهم من المماليك طوال حياتهم . وقد انضم إليهم عنصر جديد من عناصر الفوضى ، حين وفدت على البلاد الفرق التركية من العزب والانـكشارية واحتلوا ثـكنات القلعة . وقد أصبح قواد هذه الفرق أقوى الأمراء فى مصر وأعظمهم خطرا .

ولم يختلف أمراء المماليك فى هذا العصر عن أمراء الفترة الأولى ، إلا فى ضعف وضياع تلك اليد القوية التى كانت تظهر من وقت إلى آخر فى شبح أمير أو سلطان تسمو شخصيته على شخصياتهم فيكبح جماحهم إلى حين ، إذ أن الباشا التركى لم يكن فى وقت من الأوقات ذا نفوذ أو شخصية ، تقارن بشخصية بعض سلاطين المماليك الأقوياء ، ولذا لم تتغير الحال فى مصر فى أيام الحـكم العثمانى الجديد ، عما كانت عليه فى أيام أغلب السلاطين الشراكسة .

والواقع أن البلاد كانت لا تزال خاضعة للمماليك ، لأن الباشوات كانوا يتغيرون على الدوام ، وكانوا يعيشون فى خوف وفزع من الجند . أما الأمراء فـكانت فى أيديهم السلطة الحقيقة التى يستخدمونها ـ كما كانوا دائماً ـ لمصالحهم الشخصية وللقضاء

على منافسيهم نفيا من البلاد أو قتلا . ولذا كانوا يتكتلون جماعات وأحزابا ، ففيهم القاسمية وفيهم الفقارية . وكان أتباعهم يتقاتلون فى الشوارع ، وكثيرا ما حاصروا فرق العزب الحكومية فى القلعة شهورا عديدة ، وكانوا قد اكتشفوا أن المدفعية تتحكم فى القلعة إذا وضعت على التلال الواقعة خلفها .

وقد جاء فى تاريخ الجبرتى ذكر شراذم من الجنود تحصنت فى مساجد ابن طولون والماس والمحمودية وغيرها ، وأخذت تطلق النيران من مدافعها من بين المآذن المجاورة . وقد أتى وقت وصلت فيه الفوضى حدا يعجز عنه الوصف ، إذ أقفرت الشوارع ونهبت المنازل ، وامتنع الوصول إلى بولاق أو مصر القديمة ، ثم هدأت الحالة ، إذ تمكن أمير عظيم من القبض على ناصية الحال . وليس من السهل أن نجد فرقا كبيراً بين أمراء ذلك العهد وأمراء العصر الذهبي للحضارة المملوكية . إلا أن فرصتهم للظهور كانت أقل ، لعدم تمكنهم من شن الغارات وإدارة الحروب في سورية وآسيا الصغرى لمصلحتهم الخاصة . ذلك أن الفرق التى كانت تجند من مصر للخدمة فى البلدان الأجنبية كانت تعتبر جزءاً صغيراً من جحافل الإمبراطورية العثمانية . ولكن ميولهم وأعمالهم وأخلاقهم كانت كميول وأخلاق المماليك الذين سبقوهم منذ قرنين . وإن كان هناك فرق ، فقد كان فى العزيمة لا فى الرغبة ، إذ كانت الفرص التى أمامهم أقل بكثير من الفرص التى سنحت للآخرين ، ولكنهم كانوا يشبهونهم فى الجنس والخلق والأفعال .

وقد يكون بعض الأمراء المماليك ذوى شخصية قوية كشخصية الأمراء الأقدمين . فمثلا عثمان بك ذو الفقار ، الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، فإنه بعد أن قام بدور بارز فى الخلافات الحزبية التى كانت قائمة بين أميره ذى الفقار بك ومنافسه جركس بك ، وبعد أن شاهد بعينه مصرع أحد عشر أميراً من ذوى النفوذ فى داخل قصر الدفتردار ولم ينج بنفسه إلا بأعجوبة بعد أن أصيب بضربة سيف فى عمامته — صار بعد ذلك أعلى الأمراء مقاما فى القاهرة ، وأصبح فى قدرته أن يرفع مماليكه الخاصة إلى مرتبة الإمارة ، وصار أميراً للحج فى سنة ١٧٣٩ ، وهو منصب يتطلع إليه أعظم الأمراء فى مصر .

ولما قتل النائب[1] على الجلفى ، عزل عثمان بك ذوالفقار ، الباشا عن منصبه ، وعين رضوان نائباً ورئيساً لفرق العزب . وكان عثمان بك أول أمير جرؤ على دعوة الباشا إلى وليمة فى منزله ، وكان الأمراء جميعا يخضعون له خضوعا تاما ، وكان يعقد مجلساً فى قصره لينظر فى المظالم . ولما كان عفيفاً نزيهاً كان شديد الوطأة على المغتصبين والطاغين . وكان يراقب مفتش الأسواق بنفسه عن كثب ، ويحدد أسعار الخبز وغيره من ضروريات الحياة ، ويتأكد من أن أموال البر تنفق فى وجوهها الصحيحة .

ولقد كان على خلق كريم ، ذا أفكار وآراء نبيلة ، عادلا قويا نزيها ، نظيفا ، أبيا ، كريما ، ولما تآمر عليه منافسوه ونفوه من مصر ، ترك وراءه سمعة طيبة وذكرا عاطرا ، حتى كان الناس يؤرخون الحوادث بعهده ، فيقولون حدث كذا وكذا بعد رحيل عثمان بك بكذا سنة ، أو كان عمرى كذا سنة يوم رحيل عثمان بك .

وكان رضوان الجلفى الذى جاء ذكره آنفا . . . علما آخر من أعلام النبل والشرف فى القرن الثامن عشر . وكان عهد توليته النيابة بالإشتراك مع زميله إبراهيم عهد هدوء وسلام ، وانخفضت أسعار المأكولات إلى حد لم تبلغه قبل عهدهما ، وعم اليسر والرخاء جميع الطبقات . وكان كل من الأعيان فى تلك الأيام يفتح داره مرتين فى كل يوم ظهرا ومساء لكل قاص ودان من أبناء السبيل ، فيقيم الموائد فى بهو عظيم ويتصدرها بنفسه وحوله مدعووه وزائروه ومماليكه وأتباعه . وكان من العار أن يمنع أحد من الدخول ، وكانت توزع أطباق الأرز والعسل واللبن على الفقراء فى أيام الأعياد ، كما كانت توزع الحلوى فى أيام الجمع والمواسم .

وكان أحد منازل رضوان يقع على ضفة بحيرة الأزبكية (وكانت بحيرة على الأقل فى أيام الفيضان) ، وكانت تعلو ردهاته قباب غشيت بالنقوش العربية المذهبة على أرضية زرقاء تتناسب مع الزجاج المتعدد الألوان . كما بنى أكشاكا فى حديقة

---

(١) يقصد بكلمة نائب هنا كتخدا أو كما كانوا ينطقونها فى مصر كخيا ، وهو نائب الباشا ، وهو منصب يشبه فى اختصاصه وسلطانه منصب وزير الداخلية .

بجوار القناة حيث حفر بركة جعل فيها مسقطا للماء . وفى هذه الحديقة كان يختل
هو وأصحابه بعد أن أشبع أطماعه من الشهرة والجاه ، فيترك لنفسه العنان فى اللا
والملذات . ولم يكن رضوان يهتم بالأخلاق مثلما كان يهتم بها عثمان بك . ولذا أط
الحرية لسيدات القاهرة وغانياتها الفاتنات ، وأنهى إلى رجال الشرط بألا يزعجو
أو يضيقون على المعجبين بهن ، فصارت القاهرة مرتعا للغزلان أوجنة للحور والمحب
وشرب أهلها كؤوس اللذة حتى الثمالة ، كما لو كان قد غاب عنهم أنهم سيحاسبون
يوم ما على ما كانوا يفعلون . وليس بغريب أن يتغنى الشعراء بمدحه فيذكر
بالصهباء وروائح الجنة .

ولقد زال الآن قصر رضوان الذى كان على بحيرة الأزبكية وبقى باب العز
الذى بناه ليوصل إلى القلعة من الرميلة لتخليد ذكراه . ولقد لقى رضوان خ
مفجعة ، فقد أحاط المتآمرون بداره التى كانت بشارع قوصون وأمطروه بقذائ
النارية ، حين كان يقصر شعر رأسه ، فقاتل بكل ما احتفظ به من قوة . ولما كسر
ساقه امتطى جواده ودافع عن نفسه حتى تخلص من مهاجميه ، وفر إلى صعيد مه
ليموت هناك ، وكان آخر قواد العزب البواسل(١).

ولم يكن الأمراء وحدهم هم الذين يملكون مثل منزل رضوان ، فقد كان ه
على بحيرة الأزبكية منزل آخر لتاجر مشهور اسمه أحمد الشرايبى (الصيدلى) . و
أنجبت أسرته أمراء واقتنت المماليك ، وكانت واسعة الثراء ، فانفقت أموالها
ينفقها السادة المثقفون ذوو النفوس العالية ، وتردد على دارهم العلماء . وكانت ه
الدار تحوى المخطوطات النادرة والمصادر العلمية العديدة ، فكان إذا ظهر كت
ولم يكن فى منزلهم نسخة منه ، عملوا على شرائه مهما بلغ ثمنه ووضعوه فى متنا
كل زائر ، فكان طلاب العلم على ثقة من إيجاد مايطلبون فى مكتبة الشرايبى .

وكان يسمح لمن أراد منهم أن يستعير كتابا إلى أجل أن يفعل ذلك ، وك
ما احتفظ به لنفسه لأن التاجر العظيم لم يكن يسمح له كرمه بمطالبة مستعير ك

---

(١) انظر الجبرتى جـ ٢ ص ١٢٤ — ١٤٣

بردها بل كان يسعى إلى اقتناء نسخة أخرى بدل النسخة التى احتفظ بها طالب العلم، وكانت هذه الطريقة ترضى العلماء رضاء تاما .

ولم يكن أفراد هذه الأسرة من هواة جمع الكتب وإعارتها المستنيرين فحسب ، بل كانوا من غلاة أنصار المذهب المالكى ، متمسكين بالأخلاق الكريمة ، مترفعين فى أنسابهم لايتصاهرون إلامع الأسر التى من درجتهم ومركزهم الاجتماعى ، لايخرج بناتهم من منازلهن إلا إلى بيت الزوج أو إلى القبر . كان هذا احتياطا محبوبا فى زمن أباح فيه رضوان المترف مغامرات العشاق ، وفى زمن كان يعترض فيه أهل السوء طريق سرب من سيدات الطبقة الراقية خرجن يستروحن النسيم بالقرب من الأزبكية كما تفعل السيدات الآن ، فيجردونهن من حليهن وملابسهن جميعا .

إلا أن أسرة الشرايبى على الرغم من محافظتها كانت تتساهل فى بعض الأحيان ، فكانوا إذا أقاموا حفلات الزواج أوجدوا فيها الكثير من أسباب اللهو والطرب، ولكنهم كانوا لحرصهم على بناتهم ينتظرون حتى يذهب جميع المدعوين إلى مسجد أزبك (١) المقابل لدارهم ، فيرسلون العروس إلى منزل عريسها فى سرعة فائقة تحت حراسة قوية من السيدات المتقدمات فى السن ، فإذا أمنوا عليها هناك أكثروا من إطلاق الرصاص واللعب بالمشاعل ويمضون الوقت فى فرح وسرور .

وكان من تقاليد الأسرة أن يعين أحد أفرادها قيما على كل ممتلكاتها ومديراً لأعمالها . فكان له أن يجمع الإيرادات ويجبى محاصيلها ، ويتسلم أرباح التجارة ، ويدفع مصروفاتها بما فى ذلك ثمن ملابس العائلة ومرتبات أفرادها الخاصة . وكان عليه أن يقدم فى آخر العام قائمة الحساب ويدفع لكل فرد ما يستحقه . ولم يكن منتظراً أن تدوم هذه الطريقة المثالية أبد الدهر ، فلا عجب إذا سمعنا أخيراً أن أحد أفراد الأسرة الصغار لم يوافق على الحساب المقدم إليه وعندئذ لابد من تصفية الشركة ، ولم تكن هذه الأسرة فى طريقة حياتها أسرة مثالية لا نظير لها . والحق أنه مازالت هناك أسر من أكرم البيوت تعيش على النظام القديم وتحتفظ بالأخلاق الفاضلة .

---

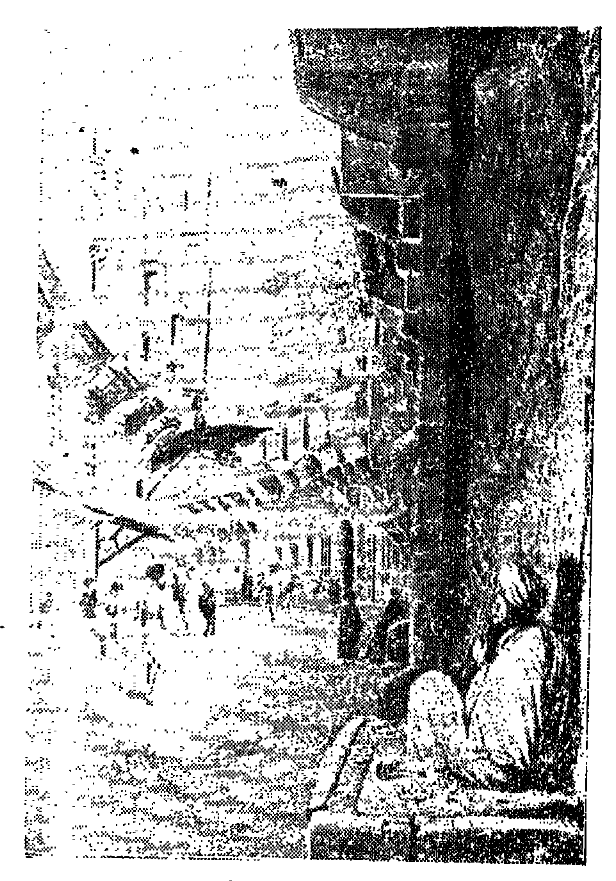
(١) هدم فى سنة ١٨٦٩ ، وكان قد بناه الأمير الشهير أزبك بن طوطوش ومنه سميت الأزبكية .

وإن شغف أسرة الشرايبي باقتناء الكتب ، ليلقى علينا ضوءاً هاماً لمعرفة العلم والتعلم في ذلك العصر ، ففي مستهل عصر المماليك أوجدت في القاهرة مكاتب عديدة هامة كان بعضها من الغنائم التي أخذت من مساجد سورية . وإذا قبلنا ما أورده الجبرتي بإسهاب عن تاريخ حياة هؤلاء السادة المشايخ والعلماء والمؤرخين ورجال الدين والشعراء ، لجاز لنا أن نقول إنه كان في مصر نشاط علمي عظيم في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولو أنهم لم يكونوا من صفوة العلماء الأئمة .

وقد ذكر الجبرتي محادثة غريبة دارت في سنة ١٧٥٠ بين أحمد باشا الوالي وهو عالم رياضي ، وبين الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الجامع الأزهر . فقد لاحظ الباشا أنه طالما سمع ما لمصر من مركز رفيع في العلوم ، ولكنه كان يود أن يرى نتيجة ذلك بنفسه . فقال له الشيخ : « حقيقة ياسيدي إن مصر كما سمعت منبع العلم والمعرفة » ، فسأله الباشا : «ولكن أين هي ؟ إنكم — كما أرى — لاتعرفون إلا الشريعة والعلوم الإلهية وغير ذلك من الدراسات القليلة الأهمية ولا تقدرون العلوم العملية » ، فاعترف الشيخ بأن الأزهر لايدرس من الرياضيات إلا الحساب لأنه ينفع في قانون المواريث ، فعاد الباشا يقول : « وماذا عن علم الفلك ؟ إنه يلزم لمواقيت الصلاة والصوم وغيرها من أمور الدين ». فصرح الشيخ بأن الإقبال على علم الفلك قليل لأنه يتطلب كفاية خاصة وأجهزة وشروطاً فسيولوجية واستعداداً خلقياً خاصاً للمضي في الأبحاث ، وكان الشيخ يعرف رجلاً تجتمع فيه كل هذه الخصال ، ولكنه ليس من رجال الأزهر . فلما حضر الرجل أمام الباشا أعجب باستعداده الرياضي فأهداه عباءة من الفرو الثمين ، ولكن الرجل باعها بعد ذلك بثمانمائة دينار ، وقد حفر الرجل مزاول (ساعات شمسية) على الرخام تبين أوقات الصلاة ، ونقش عليها عبارات مناسبة . وقد وضعت اثنتان منها في الأزهر وفوق سقف مسجد الإمام الشافعي [1]. وتدلنا هذه القصة — كما تدلنا

---

(١) وصف ماكس فان برشم بعض هذه الساعات الشمسية العجيبة في كتابه : «مذكرات في الآثار العربية» (١٨٩٢م) ص١٣ — ١٨ ، وقد وضعت إحدى هذه الساعات في مسجد ابن طولون في سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) على يد لاجين . وهناك ساعة أخرى يمكن رؤيتها =



شارع بجوار باب الحرق

قائمة بأسماء المؤلفات فى هذا العصر وقد وصفها المؤرخ الشهير – على أن الدراسة فى مصر كانت عملا حماسياً وليست دراسة عميقة وأن العلم كان قد اضمحل .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كانت العلوم الدينية أقوى من ذى قبل ، وتاريخ الباشوات حافل بكثير من الإشارات إلى نفوذ أساتذة الأزهر وعلمائه . فقد كاد أحد الوعاظ الأتراك يحدث ثورة إذ قام ليخطب فى جامع المؤيد ويسفه فكرة

= الآن فى مسجد قوصون يرجع تاريخها إلى سنة ٨٧٥هـ (١٢٨٣م) ، وكذلك توجد ساعة ثالثة فى مسجد إينال نقشت عليها سنة ٨٧١هـ (١٤٦٦م) .

التوسل بالأولياء ، وهى بدعة شائعة بين الناس لاتتصل بالدين بأى سبب . وقد حث الواعظ الناس على هدم القباب التى شيدت فوق أضرحة الأولياء ، والصالحين ، ولقى علماء الدين السنيين مشقة فى إسكات الرجل وتهدئة الشعب الغاضب عليه . وكثيراً ما صدرت الأوامر المشددة لتهذيب الشعب ودعوته إلى اتباع الفضائل الدينية ، من ذلك أنه منع ذات مرة التدخين فى الأسواق ، وكان رجال الشرطة يجولون فى الشوارع ثلاث مرات فى كل يوم ، فإذا ضبط رجل وهو يدخن أمروه بأكل غليونه ، من ذلك أيضا مارواه ناصرخسرو أن الرجل إذا زيف وثيقة حمل على ظهر جمل وطيف به فى الشوارع وصاح المنادى أمامه : « أنظروا عاقبة المزيفين » ، وهذه كانت عادة قديمة . ولما كان أهل القاهرة ممن يؤمنون بالخرافات فقد حدث فى سنة ١٧٣٥ م أن انتشرت شائعة بأن يوم القيامة سوف يكون فى الجمعة التالى ، أى بعد يومين ، فما كان من الناس إلا أن قاموا يودع بعضهم بعضاً وقد عموا الحقول والطرقات ليتزودوا بنظرة أخيرة من الأرض التى أحبوها ، بينما استولت على أهل الجيزة خرافة قديمة علقت فى عقولهم منذ الأيام الأولى قبل ظهور الإسلام ، فهرعوا إلى النيل يستحمون فيه ذكوراً وإناثا ، واستمر القوم فى حالة فزع وتوبة وندم وصلاة ودعاء إلى أن أهل عليهم يوم السبت وأدركوا أنه لم يحدث لهم شىء .

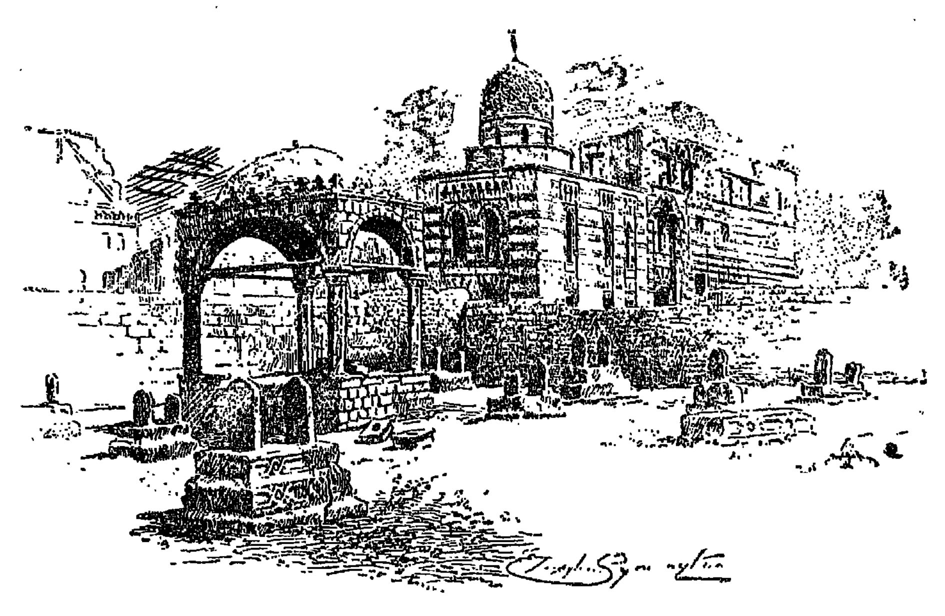
وإن عهداً يولى الدين كل هذه العناية ، لا يمكن أن تهمل فيه بيوت الله . ومن الخطأ أن ينسب تهدم كثير من مساجد القاهرة إلى عهد الباشوات الأتراك ولكن الخطر يرجع إلى المبالغة فى إعادة بنائها إلى حد أن تغيب معالمها الأصلية . ثم إن القاهرة تحوى الكثير من المساجد التركية التى بنيت على الطراز العثمانى ، وهى — وان تواضعت إذا قورنت بمبانى المماليك السابقين — تستحق الإعجاب فى حد ذاتها ، كما أنها أفخم من أى عمارة أنشئت فى انجلترا فى القرن الماضى. ومن ينظر إلى مسجد أيا صوفيا (١٦٠٤) ومسجد محمد أبى الذهب (١٧٧٤) ، يحكم بفخامة عمارتها ، ناهيك بمسجد البرديني ، فهو درة صغيرة يتجلى فيها الفن التركى فى النقش. لقد هجر المعمارى التركى طراز المدرسة التى أدخله صلاح الدين ، والذى كان قد تغير تصميمه الأصلى المتقاطع على شكل صليب حينما تحولت مساجد المدارس إلى جوامع يؤمها العامة

لصلاة الجمعة في أيام السلاطين الشراكسة . ولما رجع المهندسون الأتراك إلى الطراز الأصلي البسيط أدخلوا فيه تعديلات ، فبنوا القباب البيزنطية بل السقوف المسطحة التي كانت تغطي المصلى ، والواقع أن المسجد العثماني في طراز بنائه لم يكن إلا كنيسة كبيرة . ومما يميز مساجد العصر العثماني وإصلاحاته ، إدخال القرميد في البناء ، فقد أعاد إبراهيم أغا بناء مدرسة أقسنقر في سنة ١٦٥٢ م ، فجعل جداره الشرقي بأكمله مغطى بالقرميد الأزرق ، وأغلبه على الطراز الدمشقي ، وقليل منه على الطراز الرودي أو الروديس المنسوب إلى جزيرة رودس ، وربما كان طراز القسطنطينية . ولم يكن إصلاح المباني من الأعمال الناجحة دائما ، فكثيرا ما كانت التعديلات التي أدخلها الأتراك تشوبها حجب روائع الفن القديمة . ولقد جدد أحمد باشا في سنة ١٦٩٠م مسجد المؤيد وكان مهدما ، كما بنى أحد الباشوات مسجد الأربعين بجوار باب « قرة ميدان » في سنة ١٧٠٤م، وكما جدد أحمد النائب مسجد الظافر الفاطمي المعروف باسم جامع الفكهاني في سنة ١٧٣٥م .

ولكن أمير المجددين للعمارات كان عبدالرحمن كتخدا أو الكخيا، وكان يتمتع بنفوذ عظيم قبل أيام على بك الذي عزل الباشا الوالي في ذلك الوقت وجلس هو على عرش مصر من سنة ١٧٦٨ إلى سنة ١٧٧٢م ، وقد جدد على بك بنفسه قبة ضريح الإمام الشافعي وبنى سوقا في بولاق . وكان لعبدالرحمن كتخدا هذا والد يدعى عثمان كتخدا الذي ولع بالهندسة وكان له ذوق في العمارة . وقد أنفق من أمواله التي ربحها بوسائل غير شرعية مسجده المعروف باسمه ، كما بنى مدرسة وسبيلا بالقرب من بحيرة الأزبكية ، وفي يوم افتتاحه ملأ حوضه الأوسط الكبير كما ملأ كل ماوقعت عليه يده من الأباريق بالشراب وقدمه لمن أم المسجد من المصلين ، وهو الذي بنى مدرسة العميان بالأزهر وعمل أعمالا خيرية أخرى . وعلى الرغم من هذا كله فقد فاقه في العمارة ابنه عبدالرحمن ، وأي سائح لايعرف سبيله الصغير في آخر شارع بين القصرين وقراميده الدقيقة الصنع ومدرسته ذات الأقواس المكشوفة ، وكلها تحاكي في أناقتها أناقة بانيها في شخصه وملبسه وجمال طلعته ، ومع ذلك فقد كانت أقل أعماله أهمية ، فقد بنى مسجدا في خارج باب الفتوح ، وآخر بجوار باب الغريب ، أقام فيه حوضا وسبيلا ، كما بنى خزانا كبيرا للماء ، ومدرسة بجوار قرافة الأزبكية للسقائين ، وأعاد بناء

أضرحة السيدة زينب والسيدة سكينة ، وأقام أضرحة غيرها بجوار باب القرافة فى حى الموسكى وفى حى الحسينية وفى شارع عابدين وغيرها ، ولعل أهم تجديد قام به مما نسب إليه إصلاح الأزهر الذى يدين لعبد الرحمن بما هو عليه الآن .

وقد أقام خمسين عموداً من الرخام تحمى دعامة من الأحجار التى تغطيها الأخشاب الثمينة ، وأقام محرابا ومنبراً ، وبنى بابين مقوسين يعلو أحدهما مدرسة للأيتام ويعلو الآخر مئذنة كما بنى فى صحن المسجد ضريحاً وزوده بالمكتبات وقاعات المطالعة والمطابخ وحجرات لمبيت الطلاب الذين يفدون من صعيد مصر . كما زاد فى عمـارة مدارس الطيبرسية والأقبوغية الملحقة بالأزهر ، وبنى الباب الفخم الذى يقع بينهما فى مواجهة وكالة قايتباى ، وأثث أروقة للطلبة الحجازيين والطلبة السودانيين ، وأوقف أموالا للانفاق منها على هذه الأعمال الخيرية . هذا إلى جانب تقديم كميات وفيرة من الأرز والسمن والزيت والدقيق إلى مطابخ الأزهر لإعداد وجبات إفطار الطلبة فى كل من أيام شهر رمضان . ولقد جدد عبد الرحمن بعض أجزاء مسجد الإمام الشافعى ورصف ممشاه بالرخام المعرق ، وأصلح ضريح السيدة نفيسة ومارستان قلاوون (لعلاج المرضى بالأمراض العقلية). ولـكنه نسي أن يعيد بناء قبته ، بعد أن هدمها ، واكتفى بتغطيتها بالأخشاب حيث بقيت إلى الآن . واهتم اهتماما بالغـاً للوصول إلى الأموال التى تركها مؤسس المستشفى وخلفاؤه ، ونجح فى اكتشاف حجة الوقف وإعادة أموال المستشفى . ومهما قيل عن مصدر ثروته التى تناقل الناس عنها أقوالا كثيرة مريبة ، فإن أعماله الخيرية لا تقف عند حد . ففى الشتاء كان يوزع الأردية الصوفية على العميان الذين كانوا يكثرون فى القاهرة وعلى المؤذنين لوقايتهم من البرد القارس وهم يؤذنون للصـلاة فى الليل . وكان الفقراء يتدافعون على بابه فى مساء كل ليلة من ليالى رمضان ينتظرون أطباق الطعام التى لم يكن يضن بها عليهم . فإذا انتهوا من طعامهم انصرفوا فى بشر وحبور ، يحمل كل منهم رغيفين وقطعتين من النقود لشراء ما يلزم لطعام السـحور . ولعل عبد الرحمن كتخدا بنى أو جدد ثمانية عشر مسجداً بخلاف الأضرحة والأسبلة والمدارس والجسور وغـيرها من العمارات . وكان مولعاً بالعمارة ، وكان ـ لحسن الحظ ـ ذا ذوق سليم .



فناء مقبرة للمسلمين

ولقد أحسن الشعب إذ أطلق عليه اسم المحسن العظيم . وقد توفى عبد الرحمن فى القاهرة فى سنة ١٧٧٦م وهو فى سن متقدمة بعد أن قضى اثنتى عشرة سنة أسيراً فى بلاد العرب ، ذلك لأن أعماله الخيرية لم تكن لتبعد عنه شكوك على بك ، وقد سار فى جنازته جموع العلماء والأساتذة والطلبة والفقراء الذين امتدت صلاته إليهم ، إلى أن جاءوا به إلى الجامع الأزهر حيث واروه التراب فى الضريح الذى بناه لنفسه بالقرب من الباب القبلى .

وكان آخر المساجد الكبيرة التى بنيت فى عهد الباشوات ، مسجد محمد بك الشهير بأبى الذهب ، وقد سمى كذلك لعادة كان يسير عليها ، وهى أنه كان ينثر الذهب على جموع الشعب . وكان أبو الذهب أحب مماليك على بك الكبير وأقربهم إليه ، ولقد جازاه بأن دبر له من المؤامرات ما كان سببا فى تحطيم شوكته ونفيه من البلاد ، وفى النهاية قضى على حياته . ومع ذلك فقد كان جنديا عظيما ، أبلى بلاء حسناً فى الحروب التى قام بها فى سورية وبلاد العرب ، وهو لا يزال فى خدمة سيده على بك الكبير . وقد اكسبته دماثة أخلاقه وكرمه حب الناس له ، فساد الأمن والسلام ربوع مصر

فى المدة التى تقلد فيها زمام الحكم . وكان الباب العالى حكيما ، إذ ترك السلطة الحقيقية فى يد هذا الأمير القوى المحبوب ، واكتفى بتعيين الولاة الباشوات كما كان يفعل من قبل . وفى عام ١٧٧٤م أسس محمد بك مدرسته الشهيرة الجميلة فى مواجهة الأزهر وبنى فيها قبره الذى دفن فيه .

وقد بنى مدرسته على مثال مسجد قديم فى بولاق (مسجد السنانية) فكانت أعجوبة فى فن البناء فى بهائها ، وكانت ذات سقوف مذهبة وأروقة رخامية وقبة رائعة ونوافذ مزينة بالبرونز البديع الصنع . وكان بهذه المدرسة أيضا أروقة للحنفية وأخرى للمالكية وثالثة للشافعية . وكان يفد العلماء الأجلاء ليدرسوا فيها العلوم الشرعية . وكانوا — على خلاف المألوف فى ذلك الوقت — يتقاضون المرتبات التى قد يصل بعضها إلى نحو مائة وخمسين بارة [1]، ولا تقل عن عشر بارات فى اليوم ، كما كانوا ينالون نحو خمسين مدا(٢) من الحبوب كل سنه. وفى يوم افتتاح هذه المدرسة خلع محمد بك على العلماء كسى من الفراء الأبيض أو السمور بحسب مراتبهم ، وهى خلع خاصة بالجامعات . وكان مسجد محمد بك آخر المساجد الكبيرة فى القاهرة إذا استثنينا مسجد محمد على باشا الكبير فى القلعة الذى يملأ العين بهجة وبهاء من أى جهة نظرت إليه ، ولو أنه — من غير شك — بناء تظهر فيه الروح الأجنبية (مأخوذ من فن الآستانة أو استامبول) ولا يتفق مع الطراز القاهرى . وربما كان هذا الحكم فيه شىء من التعنت ، ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نوفق بين العمارة العثمانية فى وسط المدينة المملوكية القديمة .

لقد قلنا ما فيه الكفاية للتدليل على أن مساجد القاهرة لم يلحقها هدم أو تخريب فى أيام حكم البكوات والباشوات، بل على العكس من ذلك رأينا أن العناية بها كانت بالغة . وإنما بدأ عهد التهدم بمجىء محمد على باشا ، وهو يشبه على بك، إلا أنه كان أكثر منه توفيقا ، إذ جعل نفسه سيد البلاد ، وبدأ عهداً جديدا ، إذا قورن بأشد عهود المماليك بطشا من حيث حزمه وقوته ، لكان لينا متراخيا . لقد وضع محمد على

---

(١) كان رطل اللحم يباع بنحو بارتين .

(٢) المد : مكيال يسع نحو خمسة وعشرين أقة .

يده على أموال الأوقاف (١٨٠٨ – ١٨١٠) ، وهى أموال رصدها الكثيرون من محبى الخير منذ قرون عديدة للانفاق من ريعها على المساجد والكليات فى مصر ولقد حرم العلماء من حق الإشراف على الأماكن المقدسة التى كانت فى عهدتهم ، وتركهم يبكون ويسخطون . ومنذ صادر هذه الأوقاف وضاعت ملفات الوقفيات واكتنف الغموض حسابات هذه الثروة الطائلة ، بدأت آثار القاهرة تسير فى طريق التهدم والبلى . كما أن حركة مسايرة أوربا فى القرن التاسع عشر – التى لم يكن منها بد والتى كان الاتجاه العام يسير نحوها – من شأنها أن تعمل على هدم كثير من المساجد وغيرها من الأبنية التاريخية التى كانت تعوق سير العربات أو تقف حجر عثرة فى تنظيم الشوارع والميادين الجديدة التى كان الولاة يختطونها دون أى اعتبار لما يقع فى طريقها من آثار تاريخيه لها قيمتها . وكان شارع محمد على، أسطع مثال للشوارع التى كانت تمتد فى هذه الطرق غير عابئة بما قد تهدمه من آثار تاريخية . وقد حدث مثل هذا فى أغلب أحياء القاهرة تقريباً .

ولعل الإدارة التي تقوم بتخطيط هذه الشوارع كانت تقوم بما تقوم به مجالس المديريات في أضيق حدودها . وربما يرجع الفضل فى عدم استمرار ذلك الهدم إلى حزم لجنة حفظ الآثار العربية ، وهى هيئة رسمية أبلت بلاء حسناً . ونحن ندين لها بفضل المحافظة على آثار عربية من جميع العصور ومن جميع الأنواع ، إذ لولا تدخلها فى الوقت المناسب لضاعت معظم هذه الآثار . بل أنه يستحيل علينا أن نسجل تقديراً لأعمال هذه اللجنة التي تتميز بالدقة والأناة ، فإن التقارير السبعة عشر التى تحفل بالكثير من الصور والإيضاحات والرسوم ، تكون مكتبه غنية بالمعلومات ، وتشهد فى كل صفحة من صفحاتها بالعناية الكبيرة والمسئولية الجسيمة التى كان يحس بها أعضاؤها . ويحسن بى فى هذا المقام أن أقتبس تقريراً عن الطرق التى سلكتها اللجنه والنتائج التى تمخضت عنها أبحاثها . وهذا التقرير قد طلبه منى اللورد كرومر فى سنة ١٨٩٥ ، ثم نشره فى تقريره السنوى عن نهضة مصر ، وتقدم به إلى البرلمان فى سنة ١٨٩٦ .

الأثنيوم بلندن
١٨٩٠/١٢/١٢

سيدى اللورد

استجابة لدعوة سعادتكم لى ، أتشرف بأن أتقدم ببعض الملاحظات على أعمال لجنة حفظ الآثار العربية التى أتاح لى الحظ فرصة فحص أعمالها فحصاً دقيقا فى صيف هذا العام .

وقد تشكلت هذه اللجنة بمقتضى مرسوم أصدره الخديو الراحل فى الثامن عشر من شهر ديسمبر سنة ١٨٨١ ، وكانت مهمتها تقضى بأن تتقدم بما يأتى :

أولا — أن تقوم باستعراض الآثار العربية فى مصر وتسجيل ما يكون منها ذا قيمة تاريخية أو فنية .

ثانيا — أن تشرف على حفظ هذه الآثار وتبلغ وزير الأوقاف ماتراه ضروريا لإصلاحها والمحافظة عليها .

ثالثا — أن تعد تصميمات لهذه الإصلاحات وتشرف بدقة على تنفيذها .

رابعا — أن تتأكد من أن تصميمات الأعمال التى تم إنجازها محفوظة فى وزارة الأوقاف ، وأن تشير إلى القطع المستقلة أو التحف التى يحسن أن تنقل إلى متحف الفن العربى .

ولقد حالت الاضطرابات السياسية دون تنفيذ الكثير من هذا العمل قبل سنة ١٨٨٢ ولكنى عندما قمت بزيارتى هذا العام لفحص الآثار العربية فى مصر من ينايرسنة ١٨٨٣ إلى مارس من نفس السنة ، وجدت اللجنة قائمة بعملها ، فأتيحت لى الفرصة لمشاهدة باكورة أعمالها . وبذلك أستطيع مقارنة الحالة التى كانت عليها هذه الآثار عند ما بدأت تتسلمها يد اللجنة بطريق جدية وبين ما هى عليه الآن بعد أن قامت اللجنه بعملها فى الإصلاح والترميم مدة اثنتى عشرة سنة .

وأستطيع أن أقرر فى ثقة تامة بأن حالة المساجد إذا قورنت بما كانت عليه فى سنتى ١٨٨٣ و ١٨٨٤ ، أصبحت بحيث لايخشى عليها من الانهيار والتهدم . وقد أمكن تقوية

الآثار التى كان يظن أن لاأمل فى حفظها، كما رممت جميع المبانى التى كانت آيلة للسقوط، وقد أشرفت اللجنة على حماية هذه الآثار مما كان يخشى منه من التخريب أو السرقة .

ويرجع الفضل فى الوصول إلى هذه النتائج الباهرة إلى الدراية العلمية والجهود الموفقة، التى بذلها المرحوم روجرز بك ، وإلى فرانز باشا ، وسعادة يعقوب أرتين باشا — أولئك الذين ستظل أسماؤهم مقرونه دائما بالنهضة الفكرية فى مصر . ولقد كان لبعض زملائهم الفرنسيين خدمات جليلة كانت تظهر من وقت لآخر . كما كان لاشتراك كثير من وكلاء وزارة الأشغال المتعاقبين — وخصوصا مستر (السير) وليم جارستن فى أعمال اللجنة أهمية وقوة . وبطبيعة الحال ، كان أهم مركز فى هذه اللجنة هو مركز المهندس المعمارى الذى يشرف بحكم وظيفته على الآثار ويقوم بفحصها بدقة ويوجه أعمال الإصلاح ، سواء أكانت ضرورية أو مستحسنة فقط ، ويباشر هذه الإصلاحات بنفسه . ومذ أنشئت إدارة خاصة باللجنة وانفصلت عن القلم الفنى بوزارة الأوقاف من أوائل سنة ١٨٩٠ قام جناب مستر ماكس هرتز — الزميل فى الجمعية الأثرية — بهذه الوظيفة ، وأصبح المهندس المسئول فى اللجنة . ومن العدل أن نقر له بأن درايته وخبرته الواسعتين فى الفن والآثار كان لهما أثر فعال فى الحالة الطيبة التى أصبحت عليها هذه الآثار فى الوقت الحاضر . وإلى جانب خبرة المسيو هرتز العملية كمهندس ، فإن له إلماما بالفن العربى وشغفا كبيراً بعمله . فان الدليل الذى وضعه فى هذه السنة باللغة الفرنسية عن دار الآثار العربية ، والذى سيعاد نشره باللغة الإنجليزية قريبا (١٨٩٦) يشف عن دراسة واسعة لتطور الفن العربى وللكتب العربية والأوربية التى لها علاقة بهذا الفن . كما أن الإصلاحات الوافية التى أجراها فى بعض المساجد الصغيرة لأصدق دليل على علو كعبه فى دراسة الفن وزخرفته ، وعلى مهارته فى عمله ، كما يدل على حرصه وأمانته فى إرجاع كل شىء إلى ما كان عليه أصلا . وعلى الرغم من أن لى رأيا خاصا فى هذا التجديد ، لاأستطيع إنكار هذه الحقيقة وهى أن تعيين هرتز بك فى اللجنة كان عملا موفقا .

حفظ الآثار — يجب أن لايغرب عن البال أن واجب اللجنة الأول هو حفظ الآثار وليس تجديدها ، فقد قامت اللجنة الفرعيه الأولى بكتابة قائمة كاملة حصرت فيها جميع الآثار التى يجب المحافظة عليها ، سواء أكان ذلك لقيمتها التاريخية أم لقيمتها الفنية .

وقد ألقى على عاتق اللجنة مهمة الإشراف على حفظ كل ما جاء ذكره فى هذه القائمة. وقد لاحظت بنفسى أن أعضاء هذه اللجنة كانوا يقدرون المسئولية الملقاة على عاتقهم، وأنهم يقومون بعملهم خير قيام فى حدود مواردهم القليلة. ولا أستطيع أن أعدد أو أن أورد كشفاً بالإصلاحات المطلوبة، من بناء جدار بأكمله فى أحد المساجد، إلى مجرد إزالة القاذورات التى علقت بالنقوش، لأن ذلك يطول شرحه. ومن المستطاع الرجوع إلى تقارير اللجنة السنوية عن هذه الإصلاحات. وهذه التقارير لا تترك زيادة لمستزيد، لدقتها وتمام معلوماتها ولولا أنها لا تنشر بالسرعة التى يجب أن تنشر بها. غير أنه مازال هناك مجال كبير للعمل، فإن بعض الإصلاحات التى أنجزت لا تعدو أن تكون وقتية تنتظر الوقت الذى تسمح فيه الظروف المالية ليكون الإصلاح أبقى على الدهر. إذ لا يخفى أن حفظ هذه الآثار فى صورة دقيقة يحتاج أول ما يحتاج إلى مال كثير. أما اللجنة فإنها تدرك ما يجب عليها لحفظ هذه الآثار، إلا أن هذه المعرفة لا تجديها فتيلا، إذا لم يتوافر لها المال اللازم والموظفون الأكفاء.

هنالك فى الوقت نفسه، نقطتان أو ثلاث أرى ضرورة لفت نظر اللجنة إليها بوجه خاص، حيث يمكن القيام بها حتى ولو بقيت الحالة الحالية كما هى الآن غير كافية للقيام بالأعباء الملقاة على عاتق هذه اللجنة:

(١) فإذا ما كان هذا الإصلاح الشامل يحتاج إلى أموال لا تسمح بها الميزانية الحالية، فإن هنالك طريقة للمحافظة على الآثار تتمشى مع الذوق السليم ومع المنطق أيضاً، ويجب الأخذ بها إذا خشى على الأثر من زيادة فى التهدم أو الانهيار التام. وإن مسجد السلطان حسن خير مثل لهذه الحالة، فإن المحافظة عليه محافظة تامة تحتاج إلى آلاف من الجنيهات. ولا تستطيع اللجنة الآن أن تقوم بالأعمال التى رسمتها لذلك، ولكنها تستطيع أن تدون سجلا صادقا عن حالة المسجد الحالية، وأن ترسم تصميما هندسياً له بإبعاده، وأن تصور جميع جزئياته وزخارفه ونقوشه، وأن تصنع نماذج من الفسيفساء والزخارف الملونة بالألوان الأصلية. وبالاختصار تعمل ما من شأنه أن يمكن من بناء المسجد فى المستقبل بأبعاده الأصلية وزخرفته التى كان عليها(١).

---

(١) هذا ما حدث فعلا فى مسجد السلطان حسن كما جاء فى السفر الرابع — مسجد السلطان حسن بمصر — تأليف ماكس هرتز بك وقد قامت اللجنة بنشره فى سنة ١٨٩٩م.

إن مثل هذا العمل يعتبر سجلا لا يقدر بمال لدى الباحثين فى تاريخ الفن العربى ، بينما يجعل أمر الحفظ ممكننا ، حتى لو أعاقت قلة الأموال اللجنة عن القيام بواجبها قبل أن يعمل يد البلى فى زيادة التخريب . ولا يعزب عن البال ان تحضير مثل هذا السجل نستدعى زيادة الموظفين فى اللجنة ، ولكن عرض هذا السجل للبيع بعد أن يضاف إليه المقدمة التاريخية والتفسيرات الضرورية اللازمة ، سيأتى لاشك بمال يسد الجزء الأكبر مما صرف على هذا العمل . على أنه لا يجوز لنا أن نتخذ إعداد هذا السجل بدلا من عملية الحفظ الحقيقية ولا أن نعتبرها حجة لتأخير العمل الحقيق متى أمكن ذلك . ولكننا نقوم بذلك حرصا على ضياع أثر عظيم نتيجة أحداث فجائية (كما قد يحدث لإحدى مآذن مسجد السلطان حسن) .

(٢) وهناك احتياط آخر أكثر بساطة من سابقه ، ولكنه خاص بالمساجد الصغيرة الحجم الكثيرة العدد ذات السقوف ، إذ تحوى هذه المساجد عادة نوافذ تغطيها النقوش أو الشباك المصبعة ، وفى أكثر الحالات توجد فتحة صغيرة فى الوسط تطل على الصحن . فإذا غطيت هذه الفتحة بالزجاج حفظت المسجد من فعل الرياح وإذا غطيت النوافذ الأخرى بشباك من السلك منعت عبث الطيور بداخل المسجد . ويجب أن تكون جميع المساجد المسقوفة عرضة لزيارات تفتيشيه متكررة غايتها التحقق من سد جميع النوافذ والفتحات التى يتسرب منها المطر أو الطير العبث بالداخل .

(٣) أما النقطة الثالثة فهى كثيرة النفقات ، ولكنها ضرورية جداً ، وهى نزع ملكية الحوانيت والمظلات والأكشاك التى تلتصق بواجهات بعض المساجد كما تلتصق الطفيليات . ذلك لأن أصحاب هذه الحوانيت والأكشاك يستعملون المساجد القائمة خلف حوانيتهم لإلقاء فضلاتهم وقاذوراتهم فيها من النوافذ . فهم يسيئون إلى هذه المساجد من الداخل بما يرمونه من الفضلات ، ومن الخارج بتضييق الشارع (أنظر شارع النحاسين) ، وتعويق حركة المرور ، ويحجب واجهات المساجد حتى إنها لا ترى على صورتها الحقيقية ولا تظهر للعين روعتها .

ويجمل أن تقسم اللجنة مدينة القاهرة إلى أحياء منتظمه حتى لا يتعرض أحد هذه المساجد الأثرية إلى النسيان أو الإهمال ، وأن يكتب كشف بالآثار الموجودة

فى كل حى على حدة ، وأن تقوم اللجان التفتيشية بدوراتها المنتظمه ، وأن يزورها المهندس المعمارى مرة فى كل سنه على الأقل . ولما كان عدد الآثار المدون فى الكشف كبيراً جداً قد لاتسمح بزيارته أكثر من مرة أو مرتين فى كل موسم وجب أن تدون فى سجل خاص الحالة التى وجد المفتش عليها كل أثر . وهنا تعرض لنا مسألة الآثار الخاصة ، سواءاً كانت مساجد أو منازل أم أسبلة أم وكالات أم غير ذلك . ويظهر أن الحكومة لاتملك من أمرها شيئا ، فهى لاتستطيع أن تأمر أصحابها بأن يحافظوا على هذه العمارات التاريخية التى يسكنونها أو أن يؤجروها أو أن ترغمهم على بيعها . والواقع أن منازل السكنى القليلة التى بقيت فى القاهرة من العصر الوسيط ، هى أهم من الناحية الفنية من المساجد التى يصرف عليها من الأوقاف الأهلية الفردية ، لأنها هى الأمثلة الوحيدة الباقية التى تشاهد على ما كانت عليه الحياة العائلية فى الفن العربى . لهذا كان من المرغوب فيه كثيراً أن يكون للجنة إشراف فعلى على حفظها ، فإذا أمكن دفع تعويض لأصحابها لما خسروا شيئا إذا ما تزلوا عنها أو عارضوا فى إشراف اللجنة عليها .

الإصلاح أو التجديد — لم تقصر اللجنة عملها على حفظ الآثار ، بل أخذت على عاتقها إصلاح بعض الآثار إصلاحا شاملا بل تجديدها . غير أن الدوائر الفنية والدوائر المهتمة بالعمارة الأثرية تتوجس خيفة — ولها بعض الحق — من هذه النزعة نزعة الإصلاح والتجديد . وفى رأيى أن فحص بعض أعمال الإصلاح التى قام بها هرتز بك ستذهب بالمخاوف التى تشعر بها هذه الدوائر ، ولو أنها مخاوف فى محلها على وجه العموم . فقد شرح لى هذا المهندس رأيه ، ويخيل إلى أن هذا الرأى معقول وهو يتلخص فيما يلى : —

إنه لا يجوز إعادة بناء أي أثر من الآثار فريداً فى نوعه كمسجد ابن طولون ، كما لا يجوز إعادة بناء أي أثر من آثار عصر من العصور لم يبق من عمائره إلا شواهد قليلة كمساجد الأسرة الفاطمية بل إنه يكتفى فى مثل هذه الآثار بمجرد الحفظ حتى لاتتهدم جدرانها أو تعفى آثارها كلية . ولكن إذا وجدت مساجد متعددة من عصر واحد ومتشابهة فى الطراز — وكثيراً ما تكون متشابهة فى جزئيات الزخرف مثل عصر قايتباى — فلامانع من اختيار بعضها لعمل الإصلاحات الشاملة فيها وإعادتها

على قدر الإمكان إلى أقرب ما كانت عليه يوم أن بنيت أولا وأعدت للعبادة أول الأمر .
وقد ذكر هرتز بك بضع أمثلة لمساجد تمثل عصراً معينا ، ولكن إصلاحها لم يكن النجاح فيه مرضيا خصوصا ما كان منه خاصا بالألوان مع ما مر به من التجارب وأكتسب من الخبرة . غير أنى أعتقد أن المتعنتين ضد الإصلاح سوف لا يجدون مجالا كبيرا لنقد الإصلاح الدقيق الذى أدخل على مسجد القاضى أبى بكر بن مظهر فى حى برجوان ، والذى أعاد المسجد إلى ما كان عليه من الرواء فى أيام بنائه .

وإذا اعترض الناقدون على ما حدث من العبث فى إصلاح مسجد المؤيد — وقد تم ذلك قبل وجود هذه الهيئة — فإن نقوش الإفريز وطلاء السقف قد تم بدقة حتى أعادها دون أدنى شك إلى حالتها الأولى . وإنى أشهد بعد ما عاينته بنفسى أن مهندس اللجنة اتخذ كل ما يمكن من الحيطة ليتأكد من أنه كشف عن حقيقة الرسم الأصلى وألوان الطلاء التى استعملها المهندسون الأصليون بعد أن غطتها الأوساخ وأنواع الدهان قرونا عدة ، كما أشهد للمساعدين والعمال الذين قاموا بأعمال المعادن والخشب بمهارة وحذق ، وأنهم أحسنوا تقليد الرسوم الأصلية حتى أنه ليستحيل التمييز بين الأصيل والمستحدث (ولو أنهم لم يبلغوا بعد مثل هذه الدرجة من الكمال فى صنع الزجاج) .
غير أنى لا أكتم ما أشعر به من أن هذا هذا الحذق — لو لم تصحبه الدقة والأمانة فى كل جزئياته (مثال ذلك المسامير والأزرار البارزة المصنوعة من البرنز والصفائح النحاسية على الأبواب والخشب المطعم بالسن على الأبواب والمنابر) لتعرّض لاحتمال إدخال التزييف فيه .

فى أعمال الإصلاح الحديثة للنقوش والكتابة العربية دوّن تاريخ الإصلاح عليها ، ولكن بعض الزخارف لا يظهر فيها بين الأصل وبين الإصلاح . وخشية أن تضيع الحقيقة فلا يبقى من يذكرها يجب أن يبادر القائمون بالإصلاح فيذكروا ذلك قبل أن ينسوه هم أنفسهم ويجب أن تحمل كل صفيحة من المعدن أو لوح من الخشب أو قطعة من الفسيفساء علامة مميزة كتاريخ الإصلاح ، كما يجب أن تحتفظ اللجنة فى محفوظاتها برسوم للآثار تميز فيه الإصلاحات بألوان مختلفة لا بألوان النقوش الأصلية . فإذا اتبعت هذه القاعدة بكل دقة فإنى لا أرى باسا — بل بالعكس أرى فائدة كبيرة — من تجديد عدد محدود من المساجد ، وإذا سار العمل كما سار فى

فى تجديد مسجد القاضى أبى بكر بن مظهر ، فلا خوف من التزييف ، بل إنه تجديد على أحسن ما يكون التجديد ويظهر أن جمال هذه المساجد المستجدة تستهوى أفئدة المصلين . ولاشك أن مسجد المؤيد قد ساعد على إقبال المصلين عليه بعد أن جدد إيوانه وعاد إليه شىء من جمال زخرفه ونقوشه المذهبة . وهـذا أمر لا بد أن يكون قد استرعى نظر وزارة الأوقاف وأنها قد أصبحت تحسب له حساب . ولا يغرب عن البال أنه قد يخشى من إهمال مجرد المحافظة على الآثار انتظاراً لتجديدها ، لأن التجديد يستهوى لب المهندس والجمهور أكثر مما يستهويه مجرد المحافظة على أثر ، ذهب جماله .

وتقوم اللجنة فى الوقت الحـاضر بتجديد خمسـة مساجد (١) هى : مسجد زين العابدين يحيى بالقرب من الموسكى ، وجامع البنات ، وجامع إستبغا بدرب سعادة وجامع قجمش الإسحقى ، بخلاف جامعى المؤيد وأبى بكر بن مظهر اللذين يعدان فى حكم المنتهيين . ومن هذه المساجد مسجدان ممتلـكان للأهالى ، ويتحمل أصحابهما نفقات الإصلاح من أوقافهم الخاصة .

ومع ذلك فإنى أرى أن ما تم من التجديد كان فى الوقت الحاضر ، وأن واجب اللجنة أن تتفرغ فى السنتين أو الثلاث المقبلة إلى فحص شامل للآثار المدونه فى كشوفها ، وهى ترمى إلى المحافظة عليها محافظة تامة . وعلى كل حال فإن اختيار مساجد عدة لتجديدها تجديداً شاملا مسألة لها أهمية لا تنـكر . ولـكن يجب أن لا ننسى أن عملية التجديد تحتاج إلى مال كثير ، وليس من الحـكمة الاندفاع ، مادامت ميزانية اللجنة لاتـكاد تـكفى أعمال المحافظة فقط .

هذه هى يا سيدى اللورد ، نتائج الملاحظات التى عنت لى بعـد أن فحصت نتائج أعمال اللجنة . وأرى أنى قد قصرت ملاحظاتى على القاهرة لأن الوقت لم يتسـع للوقوف على الأعمـال التى تمت فى جهات أخرى من مصر . وقد بينت أن أعمال اللجنة فى القاهرة كانت أعمالا باهرة وأنها أتمت جزءاً كبيراً من مهمتها ، على الرغم من قلة مواردها المـادية وما قام فى وجهها من اعتراض بل مقاومة فى بعض الأحيان . وإن الملاحظات القليلة التى أبديتها هنا لا تقلل من عظمة أعمال الحفظ

---

(١) أن كل هذه الأعمال قد تمت الآن .

والتجديد التي قامت بها اللجنة سـواء في كميتها أم في دقة أعمالهـا وخطورتهـا .

وفي رأيي أن وزارتي الأوقاف والأشغال يجب ان تتعاونا على زيادة ميزانية اللجنة إلى عشرة آلاف من الجنيهات ثم يتركاها حرة في تصريف شئونها ، وقد أظهرت كفاية في هذا السبيل . على أنه إذا أمكن إنشاء وزارة للفنون الجميلة تشمل إدارة الآثار ولجنة حفظ الآثار ومتحف الجيزة ودار الآثار العربية ، لـكان ذلك إجراء سليما . غير أن التفـكير في مثل هـذه الخطوة الجريئة الشاملة لا تدخل في الحدود التي رسمتموها سعادتـكم لي لأضمنها تقريري » .

الآن ، وقد وصلت إلى آخر ملاحظاتي لا أرى ما أضيفه إليها ، فقد برهنت المشـاهدات التالية على صحة القول بأن اللجنة قد قامت — وما زالت تقـوم — بأعمال نبيلة لحفظ آثار القاهرة . ولقد ضمن اللورد كرومر تقريره الشامل جميع الفقرات التي أهملت ذكرها في مقتطفاتي السـابقة التي تمس حالة اللجنة المالية ، كما تضمن نتائج أبحاثي وملاحظاتي ، ووافق على اقتراحاتي بالمحافظة على الآثار من التلف كما أضاف إليها رأيه في أن يشمل نشاط اللجنة فحص حالة الـكنائس القبطية . فقد كتب اللورد كرومر : « كنت أعلم منذ عهد بعيد أن الإعانة الـتي تمنحها مصلحة الأوقاف غير كافية ، وأنه إذا أريد لهذه اللجنة أن تزيد في نشاطها ، وجب أن تمدها بالمزيد من الإعانات . ولقد كان الدافع الرئيسي الذي دعاني لاستشارة المستر ستانلي لينبول هو أن استخلص منه أحسن الوجوه في صرف الإعانات الجديدة عنـدما يمكن الحصول عليها .

وعندما تسلمت تقرير المستر ستانلي لينبول اتصلت بالمسئولين في المـالية والأشغال العمومية ، وكان من أثر هذا الاتصال أن تقدمنا باقتراح إلى مندوبي صندوق الدين ليمنحونا مبلغ عشرين ألفا من الجنيهات من المـال الاحتياطي الذي تصرفه لجنة حفظ الآثار في سنتي ١٨٩٦ و ١٨٩٧ . ويسرني أن أذكر أن اقتراحا قد قوبل قبولا حسناً ، وأن المـال المطلوب قد تقرر صرفه لنا ، وقد صرف فعلا ، ولم يبق إلا أن نقدم الحساب على أنه قد صرف فيما خصص له .

وكان للزيادة السمحة التي أضيفت إلى ميزانية اللجنة نتيجة استفادت منها الآثار فائدة يضيق المقام من تعدادها . إلا أنه يجب ان نذكر بصفة خاصة ذلك الإصلاح

الذى أدخل على مسجد المارداني ، والذى تكلف أربعة آلاف جنيه . ولاغرو فإن هذا المسجد لم يكن من إصلاحه بد ، وقد أثمرت الحكومة التى أنفقت من أجله ، أحسن الثمار . ولا شك فى أن كل من يزور القاهرة يتملكه العجب لما طرأ على المساجد من تغيير،منذ بدأت تعنى هذه اللجنة بأمرها . فكم من مساجد كانت قاب قوسين أو أدنى من أن تصبح أطلالا دارسة قد أصبحت اليوم تزهو بعظمتها فى جو يسوده الأمن والطمأنينة ، وكم من مساجد أخرى أمكن على الأقل إطالة زمن بقائها. والحق أنه ما من تحفة من تحف الفن العربى أو أثر من آثار أسوار المدينة . وما من قطعة خشبية منقوشة أو منحوتة مهما صغر حجمها ، إلا كانت موضع رعاية اللجنة وعنايتها . وفى الحالات التى لم يكن من المستطاع فيها إصلاح الآثار البالية ، كانت تجمع برمتها وتنقل إلى دار الآثار العربية ، ذلك المتحف الذى يشهد بدوره على العمل الذى تم فى خلال العشرين سنة الماضية وقد أمكن فى تلك السنوات تضميد الجروح التى أحدثها البلى والإهمال والجهل ، وهذه أسهم نافذة أصابت قلب الآثار فى قاهرة العصور الوسطى .

جدول (١)

يبين حكام القاهرة وآثارها

(١) الفترة العربية

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحاكم	الآثار	السنة الهجرية
٦٤٠ — ٨٦٨	٢٠ — ٢٥٤	٩٨ حاكما فى ظل خلفاء دمشق وبغداد	جامع عمرو +	٢١
			مدينة الخيمة (الفسطاط)	٢١
			مقياس النيل الأول فى الروضة	٩٨
			العسكر	١٣٣
			مقياس النيل الثانى فى الروضة	٢٤٧

(٢) فترة الأتراك

١ — البيت الطولونى :

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
٨٦٨	٢٥٤	احمد بن طولون	القطائع	٢٥٦
			قصور القطائع	٢٥٦
			المارستان	٢٥٩
٨٨٣	٢٧٠	خارويه بن أحمد بن طولون	جامع ابن طولون [*]	٢٦٣-٢٦٥
٨٩٥	٢٨٢	جيش بن خارويه	قصور القطائع	٢٧٠
٨٩٦	٢٨٣	هارون بن خارويه		
٩٠٤	٢٩٢	شيبان بن أحمد بن طولون		

(*) تشير هذه العلامة إلى أن البناء — أو جانب منه — لا يزال موجودا حتى الآن.

(+) تشير هذه العلامة إلى أن الأثر قد أعيد بناؤه فى نفس الموقع .

[يوجد جدول ملحق بآخر الكتاب لتحويل السنين الهجرية إلى سنين ميلادية]

ب — حكام الخلفاء :

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
٩٠٥–٩٣٤	٢٩٢–٣٢٣	ثلاثة عشر حاكما		

حـ — بيت الإخشيد :

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
٩٣٤	٣٢٣	محمد الإخشيد	قصر فى حديقة كافور فى الروضة	
٩٤٦	٣٣٤	أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد	مارستان فى الفسطاط	٣٤٦
٩٦٠	٣٤٩	أبو الحسن على بن الإخشيد	جامع الجيزة	٣٥٠
٩٦٦	٣٥٥	أبو المسك كافور		
٩٦٨	٣٥٨	أبو الفوارس أحمد بن على		

(٣) فترة الفاطميين

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
٩٦٩	٣٥٨	المعز	تأسيس القاهرة	٣٥٨
			القصر الشرقى العظيم الخ	٣٥٨
			جامع الأزهر*	٣٥٩
٩٧٥	٣٦٥	العزيز	القصر الغربى .. الخ	
٩٩٦	٣٨٦	الحاكم	جامع الحاكم*	٣٨٠–٤٠٣
			جامع رشيدة	٣٩٣–٣٩٥
١٠٢١	٤١١	الظاهر	جامع المقس	
١٠٣٦	٤٢٧	المستنصر	جامع الجيوشى*	٤٧٨
			باب النصر*	
			باب الفتوح*	
			السور الثانى*	
			باب زويلة*	٤٨٠–٤٨٤
١٠٩٤	٤٨٧	المستعلى	جامع مقياس النيل	٤٨٥
١١٠١	٤٩٥	الآمر	جامع الأقمر*	٥١٩
			بضعة مساجد (يانس، كافورى، باب الخوخة)	

١١٣١	٥٢٤	الحافظ	محراب الأزهر والسيدة رقية *	
١١٤٩	٥٤٤	الظافر	جامع الأقمر +	٥٤٣
١١٥٤	٥٤٩	الفائز		
١١٦٠	٥٥٥	العاضد	جامع الصالح طلائع *	٥٥٥

(٤) بيت صلاح الدين

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
١١٦٩	٥٦٥	الناصر صلاح الدين بن أيوب	جامع نجم الدين أيوب	٥٦٦
			مدرسة الناصرية	٥٦٦
			مدرسة القمحية	٥٦٦
			مدرسة القطبية	٥٧٠
			مدرسة ابن الأرسوفى	٥٧٠
			مدرسة السيوفية	٥٧٢
			القلعة	٥٧٢
			البدء فى السور الثالث	٥٧٢
			المارستان	٥٧٥
			مدرسة الفاضلية	٥٨٠
١١٩٣	٥٨٩	العزيز بن صلاح الدين	جامع ابن البنا	٥٩١
			مدرسة اشكشيه	٥٩٢
١١٩٨	٥٩٥	المنصور بن العزيز	مدرسة غزنوية	
١٢٠٠	٥٩٦	العادل سيف الدين	مدرسة العادلية	
			مدرسة الشريفية	٦١٢
١٢١٨	٦١٥	الكامل بن العادل	تجديد مسجد الشافعى	٦١٧
			مدرسة الكاملية	٦٣٢
			مدرسة الفخرية	٢٢٢
			زاوية قصرى	٦٦٣
			مسجد ابن الشيخى	٦٣٣
١٢٣٨	٦٣٥	العادل (الثانى) بن الكامل	مدرسة الصيرمية	٦٣٦
			مدرسة الفائزية	٦٣٦
١٢٤٠	٦٣٧	الصالح أيوب بن الكامل	مدرسة الصالحية	٦٣٩
			جامع الروضة . . الخ	
١٢٤٩	٦٤٦	المعظم توران شاه بن الصالح	زاويه خدام	٦٤٧

(٥) المماليك الأتراك

التاريخ الميلادى	التاريخ الميلادى	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
١٢٥٠	٦٤٨	الملكة شجرة الدر	ضريح الصالح	٦٤٨
١٢٥٠	٦٤٨	المعز أيبك	مدرسة القطبية	٦٥٠
١٢٥٧	٦٥٥	المنصور على بن أيبك	مدرسة الصاحبية	٦٥٤
١٢٥٩	٦٥٧	المظفر قطز		
١٢٩٠	٦٥٨	الظاهر بيبرس	المدرسة الظاهرية	٦٦٠
			مشهد الحسينى	٦٦٢
			المدرسة الماجدية	٦٦٣
			جامع الأقرم	٦٦٣
			جامع الظاهر	٦٦٥
			مدرسة المهذبية	
			مدرسه فاركانية	٦٧٦
١٢٧٧	٦٧٦	السعيد بركة خان بن بيبرس		
١٢٧٩	٦٧٨	العادل سلامش بن بيبرس		
١٢٧٩	٦٧٩	المنصور قلاوون	المدرسه المنصورية	٦٨٤
			مارستان قلاوون	٦٨٤
			زاوية الجيزى	٦٨٤
			زاوية الهلاوى	٦٨٧
			خانقاه البندقدارية	٦٨٧
١٢٩٠	٦٨٩	الأشرف خليل بن قلاوون	بابه من عكة	٦٨٨
١٢٩٣	٦٩٣	الناصر محمد بن قلاوون		
١٢٩٤	٦٩٤	العادل كتبغا		
١٢٩٦	٦٩٦	المنصور لاجين	تجديد جامع ابن طولون	
			مدرسه طنجيه	٦٩٦
			مدرسه منجوتمرية	٦٩٨
١٢٩٨	٦٩٨	الناصر (السلطنة الثانية)	مدرسه الناصريه *	٦٩٨
			مدرسه قراسنقرية	٦٩٩-٧٠٣
			مدرسه الجمالية	٧٠٠
			تجديد المسجد الأزهر	٧٠٣
			تجديد مسجد الحاكم	
			تجديد مسجد طلائع	٧٠٣-٧٠٤
			مسجد طيبرس	٧٠٧

١٣٠٨	٧٠٨	المظفر بيبرس (جاشنكير)		خانقاه بيبرس *	٧٠٦ـ٧٠٩
١٣٠٩	٧٠٩	الناصر (السلطنة الثالثة)		مدرسة طيبرسية *	٧٠٩
				زاوية الحصى	٧٠٩
				جامع الجاكي	٧١٣
				قصر القلعة *	٧١٣
				قناة المياه	٧١٣
				مدرسة السعيدية	٧١٥
				خانقاه أرسلان	٧١٧
				جامع القلعة *	٧١٨
				« الأمير حسين *	٧١٩
				مدرسة الملكية	٧١٩
				مدرسة جاوليه *	٧٢٣
				مقبرة أردوتجين *	٧٢٤
				مدرسة مهمندارية *	٧٢٥
				مدرسة بكتمرية	٧٢٦
				جامع الخزانى	٧٢٩
				« الماز *	٧٣٠
				« البرقية *	٧٣٠
				« قوصون *	٧٣٠
				« ساروجا	٧٣٠
				مدرسة أقبغجية	٧٣٤
				مقبرة تاشتمر *	٧٣٤
				قصر بشتاك *	٧٣٥
				خانقاه قوصون	٧٣٦
				خانقاه سرياقوس	٧٣٦
				جامع بشتاك	٧٣٦
١٣٤١	٧٤١	المنصور أبو بكر	أولاد الناصر	« أيدمر	٧٣٧
				« المرداني *	٧٣٨
١٣٤١	٧٤٢	الأشرف كجك		« ست مسكة	٧٤٠
١٣٤٢	٧٤	الناصر أحمد		« ابن غازى	٧٤١
١٣٤٢	٧٤	الصالح إسماعيل			
١٣٤٥	٧٤٦	الكامل شعبان			
١٣٤٦	٧٤٧	المظفر حاجى		« الطواشى	٧٤٥
١٣٤٧	٧٤٨	الناصر حسن		« ابن الطباخ	٧٤٨

			جامع بَكتك*
			« أقسنقر
			« الإسماعيلى
			« قتلبغا*
			« الأسيوطى
			خانقاه أم أنوك*
			« البجيبغا
			جامع منجك*
			« شيخو*
			مدرسة الخروبة
			حوش لاجين*
			مدرسة قيسرانية
			المدرسة الصغيرة
١٣٥١	٧٥٢	الصالح صالح بن الناصر	
١٣٥٤	٧٥٥	حسن (السلطنة الثانية)	
			خانقاه شيخو*
			المدرسة الفارسية
			مدرسة صرغتمشية
			مدرسة السلطان حسن
			المدرسة البديرية
			المدرسة الحجازية*
			المدرسة البشيرية
١٣٦١	٧٦٢	المنصور محمد } أحفاد الناصر	مدرسة السابقية
١٣٦٣	٧٦٤	الأشرف شعبان } أحفاد الناصر	مقبرة الطلبية*
			جامع شعبان*
			مدرسة بيكرية (
			مدرسة جاى اليوسفى
			مدرسة بقرية
١٣٧٦	٧٧٨	المنصور على بن شعبان	مدرسة ابن صرام
١٣٨١	٧٨٣	الصالح حاجى بن شعبان	مقبرة أم صالح

(٦) المماليك الشراكسة

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
١٣٨٢	٧٨٧	الظاهر برقوق	مقبرة أناس *	٧٨٤
			مدرسة أيتمش *	٧٨٥
			مدرسة برقوق	٧٨٨
			جامع زين الدين	٧٩٠
			مدرسة إينال (أستادار)*	٧٩٥
			مدرسة محمودية	٧٩٧
			مدرسه زمامية	٧٩٧
			مدرسة ابن غراب	٧٩٨
١٣٩٩	٨٠١	الناصر فرج بن برقوق	مسجد ابن عبد الظاهر	٨٠٣
			مدرسة السودان	٨٠٤
			مدرسة مهلى	٨٠٦
١٤٠٥	٨٠٨	المنصور عبد العزيز بن برقوق	خانقاه ومقبرة برقوق	٨٠٢-٨١٣
			مدرسة فرج	
١٤٠٥	٨٠٩	فرج (الحكم الثانى)	مدرسة جمال الدين	٨١١
			جامع حوش (القلعة)	٨١١
١٤١٢	٨١٥	المستعين (الخليفة)	جامع بركة الرطلى	٨١٤
١٤١٢	٨١٥	المؤيد شيخ	مسجد الضوا (القلعة)	٨١٥
			مسجد الباسطى	٨١٧
			مسجد الحنفى	٨١٧
			مسجد الزاهد	٨١٨
			مارستان المؤيد	٨١٧
			جامع المؤيد	٨١٩-٧٢٣
			مدرسة عبد الغنى *	٨٢١
			جامع الفخرى	٨٢١
			مدرسة القاضى عبد الباسط *	٨٢٣
١٤٢١	٨٢٤	المظفر أحمد بن شيخ		
١٤٢١	٨٢٤	الظاهر ططر		
١٤٢١	٨٢٤	الظاهر محمد بن ططر		
١٤٢١	٨٢٥	الأشرف برسباى	مدرسة برسباى	٨٢٧
			جامع جانى بك	٨٣٠

			مدرسة فيروز *	٨٣٠
			خانقاه ومقبرة برسباى	٨٣٥
١٤٣٨	٨٤٢	العزيز يوسف بن برسباى		
١٤٣٨	٨٤٢	الظاهر جقمق	مدرسة تغرى بردى *	٨٤٤
			جامع قانى بك *	٨٤٥
١٤٥٣	٨٥٧	المنصور عثمان بن جقمق	جامع ومقبرة القاضى يحيى	٨٤٨-٨٥٠
			جامع جقمق	٨٥٣
١٤٥٣	٨٥٧	الأشرف إينال	مدرسة وخانقاه ومقبرة إينال *	٨٥٥-٨٦٠
١٤٦١	٨٦٥	المؤيد أحمد بن إينال		
١٤٦١	٨٦٥	الظاهر خوشقدم	مقبرة قانى بك	٨٦٩
			مسجد نور الدين *	٨٧٠
			جامع سودان *	٨٧٠
			مدرسة قانم	٨٧٠
١٤٦٧	٨٧٢	الظاهر يلباى		
١٤٦٧	٨٧٢	الظاهر تمربغا		
١٤٦٨	٨٧٣	الأشرف قايتباى	جامع تمراز *	٨٧٦
			جامع أزبك بن تتش	٨٨٠
			قصر يشبك	٨٨٠
			مدرسة ومقبرة قايتباى *	٨٧٩
			مدرسة قايتباى فى المدينة	٨٨٠
			وكالة قايتباى بجوار الأزهر *	٨٨٢
			سبيل قايتباى	٨٨٤
			وكالة قايتباى (باب النصر)	٨٨٥
			وكالة قايتباى (السروجية) *	٨٨٥
			قبة قايتباى الفضوية *	٨٨٦
			قصر ومكان قايتباى *	٨٩٠
			تجديد الأبواب الجنوبية	٨٩٠
			مدرسة فى الروضة *	٨٩٦
			جامع قانم *	٨٨٣
			مدرسة أبو بكر بن مظهر *	٨٨٥
			جامع قجماس *	٨٧٦
			مدرسة زبك اليوسفى *	٩٠٠

١٤٩٦	٩٠١	الناصر محمد بن قايتباى	قصر ممای (بیت القاضی) *	٩٠١
١٤٩٨	٩٠٤	الظاهر قانصوه	مقبرة قانصوه *	٩٠٤
١٥٠٠	٩٠٥	الأشرف جبلاط		
١٥٠١	٩٠٦	العادل طومان باى	مقبرة العادل طومان باى *	٩٠٦
١٥٠١	٩٠٦	الأشرف قانصوه الغورى	جامع خير بك *	٩٠٨
			مدرسة قانى بك أمير آخور *	٩٠٨
			مدرسة الغورى *	٩٠٩
			ضريح الغورى	٩٠٩
			مقبرة سودون *	٩١٠
			مدرسة جانى بك قره	٩١١
			تجديد قناة المياه إلى القلعة	٤١١
١٥١٦	٩٢١	الأشرف طومان باى		
١٥١٧	٩٢٢	غزو الأتراك العثمانيين		

جدول (٢)

لتحويل السنين الهجرية إلى سنين ميلادية

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في	السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
١	٦٢٢	١٦ يوليه	٣٦	٦٥٦	٣٠ يونية
٢	٦٢٣	٥ »	٣٧	٦٥٧	١٩ »
٣	٦٢٤	٢٤ يونيه	٣٨	٦٥٨	٩ »
٤	٦٢٥	١٣ »	٣٩	٦٥٩	٢٩ مايو
٥	٦٢٦	٢ »	٤٠	٦٦٠	١٧ »
٦	٦٢٧	٢٣ مايو	٤١	٦٦١	٧ »
٧	٦٢٨	١١ »	٤٢	٦٦٢	٢٦ ابريل
٨	٦٢٩	١ »	٤٣	٦٦٣	١٥ »
٩	٦٣٠	٢٠ ابريل	٤٤	٦٦٤	٤ »
١٠	٦٣١	٩ »	٤٥	٦٦٥	٢٤ مارس
١١	٦٣٢	٢٩ مارس	٤٦	٦٦٦	١٣ »
١٢	٦٣٣	١٨ »	٤٧	٦٦٧	٣ »
١٣	٦٣٤	٧ »	٤٨	٦٦٨	٢٠ فبراير
١٤	٦٣٥	٢٥ فبراير	٤٩	٦٦٩	٩ »
١٥	٦٣٦	١٤ »	٥٠	٦٧٠	٢٩ يناير
١٦	٦٣٧	٢ »	٥١	٦٧١	١٨ »
١٧	٦٣٨	٢٣ يناير	٥٢	٦٧٢	٨ »
١٨	٦٣٩	١٢ »	٥٣	٦٧٢	٢٧ ديسمبر
١٩	٦٤٠	٢ »	٥٤	٦٧٣	١٦ »
٢٠	٦٤٠	٢١ ديسمبر	٥٥	٦٧٤	٦ »
٢١	٦٤١	١٠ »	٥٦	٦٧٥	٢٥ نوفبر
٢٢	٦٤٢	٣٠ نوفبر	٥٧	٦٧٦	١٤ »
٢٣	٦٤٣	١٩ »	٦٨	٦٧٧	٣ »
٢٤	٦٤٤	٧ »	٥٩	٦٧٨	٢٣ أكتوبر
٢٥	٦٤٥	٢٨ أكتوبر	٦٠	٦٧٩	١٣ »
٢٦	٦٤٦	١٧ »	٦١	٦٨٠	١ »
٢٧	٦٤٧	٧ »	٦٢	٦٨١	٢٠ سبتمبر
٢٨	٦٤٨	٢٥ سبتمبر	٦٣	٦٨٢	١٠ »
٢٩	٦٤٩	١٤ سبتمبر	٦٤	٦٨٣	٣٠ أغسطس
٣٠	٦٥٠	٤ »	٦٥	٦٨٤	١٨ »
٣١	٦٥١	٢٤ أغسطس	٦٦	٦٨٥	٨ »
٣٢	٦٥٢	١٢ »	٦٧	٦٨٦	٢٧ يوليه
٣٣	٦٥٣	٢ »	٦٨	٦٨٧	١٨ »
٣٤	٦٥٤	٢٢ يوليه	٦٩	٦٨٨	٦ »
٣٥	٦٥٥	١١ »	٧٠	٦٨٩	٢٥ يونيه

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٧١	٦٩٠	١٥ يونيه
٧٢	٦٩١	٤ »
٧٣	٦٩٢	٢٣ مايو
٧٤	٦٩٣	١٣
٧٥	٦٩٤	٢ »
٧٦	٦٩٥	٢١ ابريل
٧٧	٦٩٦	١٠
٧٨	٦٩٧	٣٠ مارس
٧٩	٦٩٨	٢٠ »
٨٠	٦٩٩	٩ »
٨١	٧٠٠	٢٦ فبراير
٨٢	٧٠١	١٥ »
٨٣	٧٠٢	٤ »
٨٤	٧٠٣	٢٤ يناير
٨٥	٧٠٤	١٤ »
٨٦	٧٠٥	٢ »
٨٧	٧٠٥	٢٣ ديسمبر
٨٨	٧٠٦	١٢ »
٨٩	٧٠٧	١ »
٩٠	٧٠٨	٢٠ نوفمبر
٩١	٧٠٩	٩ »
٩٢	٧١٠	٢٩ أكتوبر
٩٣	٧١١	١٩ »
٩٤	٧١٢	٧ »
٩٥	٧١٣	٢٦ سبتمبر
٩٦	٧١٤	١٦ »
٩٧	٧١٥	٥ »
٩٨	٧١٦	٢٥ أغسطس
٩٩	٧١٧	١٤ »
١٠٠	٧١٨	٣ »
١٠١	٧١٩	٢٤ يوليه
١٠٢	٧٢٠	١٢ »
١٠٣	٧٢١	١ يوليه
١٠٤	٧٢٢	٢١ يونية
١٠٥	٧٢٣	١٠ »
١٠٦	٧٢٤	٢٩ مايو
١٠٧	٧٢٥	١٩ »
١٠٨	٧٢٦	٨ »
١٠٩	٧٢٧	٢٨ ابريل
١١٠	٧٢٨	١٦ »

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
١١١	٧٢٩	٥ ابريل
١١٢	٧٣٠	٢٦ مارس
١١٣	٧٣١	١٥ »
١١٤	٧٣٢	٣ »
١١٥	٧٣٣	٢١ فبراير
١١٦	٧٣٤	١٠ »
١١٧	٧٣٥	٣١ يناير
١١٨	٧٣٦	٢٠ »
١١٩	٧٣٧	٨ »
١٢٠	٧٣٧	٢٩ ديسمبر
١٢١	٧٣٨	١٨ »
١٢٢	٧٣٩	٧ »
١٢٣	٧٤٠	٢٦ نوفمبر
١٢٤	٧٤١	١٥ »
١٢٥	٧٤٢	٤ »
١٢٦	٧٤٣	٢٥ أكتوبر
١٢٧	٧٤٤	١٣ »
١٢٨	٧٤٥	٣ »
١٢٩	٧٤٦	٢٢ سبتمبر
١٣٠	٧٤٧	١١ »
١٣١	٧٤٨	٣١ أغسطس
١٣٢	٧٤٩	٢٠ »
١٣٣	٧٥٠	٩ »
١٣٤	٧٥١	٣٠ يوليه
١٣٥	٧٥٢	١٨ »
١٣٦	٧٥٣	٧ »
١٣٧	٧٥٤	٢٧ يونيه
١٣٨	٧٥٥	١٦ »
١٣٩	٧٥٦	٥ »
١٤٠	٧٥٧	٢٥ مايو
١٤١	٧٥٨	١٤ »
١٤٢	٧٥٩	٤ »
١٤٣	٧٦٠	٢٢ ابريل
١٤٤	٧٦١	١١ »
١٤٥	٧٦٢	١ »
١٤٦	٧٦٣	٢١ مارس
١٤٧	٧٦٤	١٠ »
١٤٨	٧٦٥	٢٧ فبراير
١٤٩	٧٦٦	١٦ »
١٥٠	٧٦٧	٦ »

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى
١٥١	٧٦٨	٢٦ يناير
١٥٢	٧٦٩	١٤ ,,
١٥٣	٧٧٠	٤ ,,
١٥٤	٧٧٠	٢٤ ديسمبر
١٥٥	٧٧١	١٣ ,,
١٥٦	٧٧٢	٢ ,,
١٥٧	٧٧٣	٢١ نوفبر
١٥٨	٧٧٤	١١ ,,
١٥٩	٧٧٥	٣١ أكتوبر
١٦٠	٧٧٦	١٩ ,,
١٦١	٧٧٧	٩ ,,
١٦٢	٧٧٨	٢٨ سبتمبر
١٦٣	٧٧٩	١٧ ,,
١٦٤	٧٨٠	٦ ,,
١٦٥	٧٨١	٢٦ أغسطس
١٦٦	٧٨٢	١٥ ,,
١٦٧	٧٨٣	٥ ,,
١٦٨	٧٨٤	٢٤ يوليه
١٦٩	٧٨٥	١٤ ,,
١٧٠	٧٨٦	٣ ,,
١٧١	٧٨٧	٢٢ يونيه
١٧٢	٧٨٨	١١ ,,
١٧٣	٧٨٩	٣١ مايو
١٧٤	٧٩٠	٣٠ ,,
١٧٥	٧٩١	١٠ ,,
١٧٦	٧٩٢	٢٨ أبريل
١٧٧	٧٩٣	١٨ ,,
١٧٨	٧٩٤	٧ ,,
١٧٩	٧٩٥	٢٧ مارس
١٨٠	٧٩٦	١٦ ,,
١٨١	٧٩٧	٥ ,,
١٨٢	٧٩٨	٢٢ فبراير
١٨٣	٧٩٩	١٢ ,,
١٨٤	٨٠٠	١ ,,
١٨٥	٨٠١	٢٠ يناير
١٨٦	٨٠٢	١٠ ,,
١٨٧	٨٠٢	٣٠ ديسمبر
١٨٨	٨٠٣	٢٠ ,,
١٨٩	٨٠٤	٨ ,,
١٩٠	٨٠٥	٢٧ نوفبر
١٩١	٨٠٦	١٧ نوفبر
١٩٢	٨٠٧	٦ »
١٩٣	٨٠٨	٢٥ أكتوبر
١٩٤	٨٠٩	١٥ »
١٩٥	٨١٠	٤ »
١٩٦	٨١١	٢٣ سبتمبر
١٩٧	٨١٢	١٢ »
١٩٨	٨١٣	١ »
١٩٩	٨١٤	٢٢ أغسطس
٢٠٠	٨١٥	١١ »
٢٠١	٨١٦	٣٠ يوليه
٢٠٢	٨١٧	٢٠ »
٢٠٣	٨١٨	٩ »
٢٠٤	٨١٩	٢٨ يونيه
٢٠٥	٨٢٠	١٧ »
٢٠٦	٨٢١	٦ »
٢٠٧	٨٢٢	٢٧ مايو
٢٠٨	٨٢٣	١٦ »
٢٠٩	٨٢٤	٤ »
٢١٠	٨٢٥	٢٤ ابريل
٢١١	٨٢٦	١٣ »
٢١٢	٨٢٧	٢ »
٢١٣	٨٢٨	٢٢ مارس
٢١٤	٨٢٩	١١ »
٢١٥	٨٣٠	٢٨ فبراير
٢١٦	٨٣١	١٨ »
٢١٧	٨٣٢	٧ »
٢١٨	٨٣٣	٢٧ يناير
٢١٩	٨٣٤	١٦ »
٢٢٠	٨٣٥	٥ »
٢٢١	٨٣٥	٢٦ ديسمبر
٢٢٢	٨٣٦	١٤ »
٢٢٣	٨٣٧	٣ »
٢٢٤	٨٣٨	٢٣ نوفبر
٢٢٥	٨٣٩	١٢ »
٢٢٦	٨٤٠	٣١ أكتوبر
٢٢٧	٨٤١	٢١ »
٢٢٨	٨٤٢	١٠ »
٢٢٩	٨٤٣	٣٠ سبتمبر
٢٣٠	٨٤٤	١٨ »

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٢٣١	٨٤٥	٧ سبتمبر
٢٣٢	٨٤٦	٢٨ أغسطس
٢٣٣	٨٤٧	١٧ ،،
٢٣٤	٨٤٨	٥ ،،
٢٣٥	٨٤٩	٢٦ يوليه
٢٣٦	٨٥٠	١٥ ،،
٢٣٧	٨٥١	٥ ،،
٢٣٨	٨٥٢	٢٣ يونيه
٢٣٩	٨٥٣	١٢ ،،
٢٤٠	٨٥٤	٢ ،،
٢٤١	٨٥٥	٢٢ مايو
٢٤٢	٨٥٦	١٠ ،،
٢٤٣	٨٥٧	٣٠ أبريل
٢٤٤	٨٥٨	١٩ ،،
٢٤٥	٨٥٩	٨ ،،
٢٤٦	٨٦٠	٢٨ مارس
٢٤٧	٨٦١	١٧ ،،
٢٤٨	٨٦٢	٧ ،،
٢٤٩	٨٦٣	٢٤ فبراير
٢٥٠	٨٦٤	١٣ ،،
٢٥١	٨٦٥	٢ ،،
٢٥٢	٨٦٦	٢٢ يناير
٢٥٣	٨٦٧	١١ ،،
٢٥٤	٨٦٨	١ ،،
٢٥٥	٨٦٨	٢٠ ديسمبر
٢٥٦	٨٦٩	٩ ،،
٢٥٧	٨٧٠	٢٩ نوفمبر
٢٥٨	٨٧١	١٨ ،،
٢٥٩	٨٧٢	٧ ،،
٢٦٠	٨٧٣	٢٧ أكتوبر
٢٦١	٨٧٤	١٦ ،،
٢٦٢	٨٧٥	٦ ،،
٢٦٣	٨٧٦	٢٤ سبتمبر
٢٦٤	٨٧٧	١٣ ،،
٢٦٥	٨٧٨	٣ ،،
٢٦٦	٨٧٩	٢٣ أغسطس
٢٦٧	٨٨٠	١٢ ،،
٢٦٨	٨٨١	١ ،،
٢٦٩	٨٨٢	٢١ يوليه
٢٧٠	٨٨٣	١١ ،،
٢٧١	٨٨٤	٢٩ يونيه
٢٧٢	٨٨٥	١٨ ،،
٢٧٣	٨٨٦	٨ ،،
٢٧٤	٨٨٧	٢٨ مايو
١٧٥	٨٨٨	١٦ ،،
٢٧٦	٨٨٩	٦ ،،
٢٧٧	٨٩٠	٢٥ أبريل
٢٧٨	٨٩١	١٥ ،،
٢٧٩	٨٩٢	٣ ،،
٢٨	٨٩٣	٢٣ مارس
٢٨١	٨٩٤	١٣ ،،
٢٨٢	٨٩٥	٢ ،،
٢٨٣	٨٩٦	١٩ فبراير
٢٨٤	٨٩٧	٨ ،،
٢٨٥	٨٩٨	٢٨ يناير
٢٨٦	٨٩٩	١٧ ،،
٢٨٧	٩٠٠	٧ ،،
٢٨٨	٩٠٠	٢٦ ديسمبر
٢٨٩	٩٠١	١٦ ،،
٢٩٠	٩٠٢	٥ ،،
٢٩١	٩٠٣	٢٤ نوفمبر
٢٩٢	٩٠٤	١٣ ،،
٢٩٣	٩٠٥	٢ ،،
٢٩٤	٩٠٦	٢٢ أكتوبر
٢٩٥	٩ ٧	١٢ ،،
٢٩٦	٩٠٨	٣٠ سبتمبر
٢٩٧	٩٠٩	٢٠ ،،
٢٩٨	٩١٠	٩ ،،
٢٩٩	٩١١	١٨ أغسطس
٣٠٠	٩١٢	٢٩ ،،
٣٠١	٩١٣	٧ ،،
٣٠٢	٩١٤	٢٧ يوليه
٣٠٣	٩١٥	١٧ ،،
٣٠٤	٩١٦	٥ ،،
٣٠٥	٩١٧	٢٤ يونيه
٣٠٦	٩١٨	١٤ ،،
٣٠٧	٩١٩	٣ ،،
٣٠٨	٩٢٠	٢٣ مايو
٣٠٩	٩٢١	١٢ ،،
٣١٠	٩٢٢	١ ،،

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٣١١	٩٢٣	٢١ ابريل
٣١٢	٩٢٤	٩ »
٣١٣	٩٢٥	٢٩ مارس
٣١٤	٩٢٦	١٩ »
٣١٥	٩٢٧	٨ »
٣١٦	٩٢٨	٢٥ فبراير
٣١٧	٩٢٩	١٤ »
٣١٨	٩٣٠	٣ »
٣١٩	٩٣١	٢٤ يناير
٣٢٠	٩٣٢	١٣ »
٣٢١	٩٣٣	١ »
٣٢٢	٩٣٣	٢٢ ديسمبر
٣٢٣	٩٣٤	١١ »
٣٢٤	٩٣٥	٣٠ نوفبر
٣٢٥	٩٣٦	١٩ »
٣٢٦	٩٣٧	٨ »
٣٢٧	٩٣٨	٢٩ أكتوبر
٣٢٨	٩٣٩	١٨ »
٣٢٩	٩٤٠	٦ »
٣٣٠	٩٤١	٢٦ سبتمبر
٣٣١	٩٤٢	١٥ »
٣٣٢	٩٤٣	٤ »
٣٣٣	٩٤٤	٢٤ أغسطس
٣٣٤	٩٤٥	١٣ »
٣٣٥	٩٤٦	٢ »
٣٣٦	٩٤٧	٢٣ يوليه
٣٣٧	٩٤٨	١١ »
٣٣٨	٩٤٩	١ »
٣٣٩	٩٥٠	٢٠ يونيه
٣٤٠	٩٥١	٩ »
٣٤١	٩٥٢	٢٩ مايو
٣٤٢	٩٥٣	١٨ »
٣٤٣	٩٥٤	٧ »
٣٤٤	٩٥٥	٢٧ أبريل
٣٤٥	٩٥٦	١٥ »
٣٤٦	٩٥٧	٤ »
٣٤٧	٩٥٨	٢٥ مارس
٣٤٨	٩٥٩	١٤ »
٣٤٩	٩٦٠	٣ »
٣٥٠	٩٦١	٢٠ فبراير
٣٥١	٩٦٢	٩ فبراير
٣٥٢	٩٦٣	٣٠ يناير
٣٥٣	٩٦٤	١٩ »
٢٥٤	٩٦٥	٧ »
٣٥٥	٩٦٥	٢٨ ديسمبر
٣٥٦	٩٦٦	١٧ »
٣٥٧	٩٦٧	٧ »
٣٥٨	٩٦٨	٢٥ نوفبر
٣٥٩	٩٦٩	١٤ »
٣٦٠	٩٧٠	٤ »
٣٦١	٩٧١	٢٤ أكتوبر
٣٦٢	٩٧٢	١٢ »
٣٦٣	٩٧٣	٢ »
٣٦٤	٩٧٤	٢١ سبتمبر
٣٦٥	٩٧٥	١٠ »
٣٦٦	٩٧٦	٣٠ أغسطس
٣٦٧	٩٧٧	١٩ »
٣٦٨	٩٧٨	٩ »
٣٦٩	٩٧٩	٢٩ يوليه
٣٧٠	٩٨٠	١٧ »
٢٧١	٩٨١	٧ »
٣٧٢	٩٨٢	٢٦ يوليه
٣٧٣	٩٨٣	١٥ »
٣٧٤	٩٨٤	٤ »
٣٧٥	٩٨٥	٢٤ مايو
٣٧٦	٩٨٦	١٣ »
٣٧٧	٩٨٧	٣ »
٣٧٨	٩٨٨	٢١ أبريل
٣٧٩	٩٨٩	١١ »
٣٨٠	٩٩٠	٣١ مارس
٣٨١	٩٩١	٢٠ »
٣٨٢	٩٩٢	٩ »
٣٨٣	٩٩٣	٢٦ فبراير
٣٨٤	٩٩٤	١٥ »
٣٨٥	٩٩٥	٥ »
٣٨٦	٩٩٦	٢٥ يناير
٣٨٧	٩٩٧	١٤ »
٣٨٨	٩٩٨	٣ »
٣٨٩	٩٩٨	٢٣ ديسمبر
٣٩٠	٩٩٩	١٣ »

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٣١١	٩٢٣	٢١ ابريل
٣١٢	٩٢٤	٩ ،،
٣١٣	٩٢٥	٢٩ مارس
٣١٤	٩٢٦	١٩ ،،
٣١٥	٩٢٧	٨ ،،
٣١٦	٩٢٨	٢٥ فبراير
٣١٧	٩٢٩	١٤ ،،
٣١٨	٩٣٠	٣ ،،
٣١٩	٩٣١	٢٤ يناير
٣٢٠	٩٣٢	١٣ ،،
٣٢١	٩٣٣	١ ،،
٣٢٢	٩٣٣	٢٢ ديسمبر
٣٢٣	٩٣٤	١١ ،،
٣٢٤	٩٣٥	٣٠ نوفبر
٣٢٥	٩٣٦	١٩ ،،
٣٢٦	٩٣٧	٨ ،،
٣٢٧	٩٣٨	٢٩ أكتوبر
٣٢٨	٩٣٩	١٨ ،،
٣٢٩	٩٤٠	٦ ،،
٣٣٠	٩٤١	٢٦ سبتمبر
٣٣١	٩٤٢	١٥ ،،
٣٣٢	٩٤٣	٤ ،،
٣٣٣	٩٤٤	٢٤ أغسطس
٣٣٤	٩٤٥	١٣ ،،
٣٣٥	٩٤٦	٢ ،،
٣٣٦	٩٤٧	٢٣ يوليه
٣٣٧	٩٤٨	١١ ،،
٢٣٨	٩٤٩	١ ،،
٣٣٩	٩٥٠	٢٠ يونيه
٣٤٠	٩٥١	٩ ،،
٣٤١	٩٥٢	٢٩ مايو
٣٤٢	٩٥٣	١٨ ،،
٣٤٣	٩٥٤	٧ ،،
٣٤٤	٩٥٥	٢٧ أبريل
٣٤٥	٩٥٦	١٥ ،،
٣٤٦	٩٥٧	٤ ،،
٣٤٧	٩٥٨	٢٥ مارس
٣٤٨	٩٥٩	١٤ ،،
٣٤٩	٩٦٠	٣ ،،
٣٥٠	٩٦١	٢٠ فبراير

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٣٥١	٩٦٢	٩ فبراير
٣٥٢	٩٦٣	٣٠ يناير
٣٥٣	٩٦٤	١٩ »
٣٥٤	٩٦٥	٧ »
٣٥٥	٩٦٥	٢٨ ديسمبر
٣٥٦	٩٦٦	١٧ »
٣٥٧	٩٦٧	٧ »
٣٥٨	٩٦٨	٢٥ نوفبر
٣٥٩	٩٦٩	١٤ »
٣٦٠	٩٧٠	٤ »
٣٦١	٩٧١	٢٤ أكتوبر
٣٦٢	٩٧٢	١٢ »
٣٦٣	٩٧٣	٢ »
٣٦٤	٩٧٤	٢١ سبتمبر
٣٦٥	٩٧٥	١٠ »
٣٦٦	٩٧٦	٣٠ أغسطس
٣٦٧	٩٧٧	١٩ »
٣٦٨	٩٧٨	٩ »
٣٦٩	٩٧٩	٢٩ يوليه
٣٧٠	٩٨٠	١٧ »
٣٧١	٩٨١	٧ »
٣٧٢	٩٨٢	٢٦ يونيه
٣٧٣	٩٨٣	١٥ »
٣٧٤	٩٨٤	٤ »
٣٧٥	٩٨٥	٢٤ مايو
٣٧٦	٩٨٦	١٣ »
٣٧٧	٩٨٧	٣ »
٣٧٨	٩٨٨	٢١ ابريل
٣٧٩	٩٨٩	١١ »
٣٨٠	٩٩٠	٣١ مارس
٣٨١	٩٩١	٢٠ »
٣٨٢	٩٩٢	٩ »
٣٨٣	٩٩٣	٢٦ فبراير
٣٨٤	٩٩٤	١٥ »
٣٨٥	٩٩٥	٥ »
٣٨٦	٩٩٦	٢٥ يناير
٣٨٧	٩٩٧	١٤ »
٣٨٨	٩٩٨	٣ »
٣٨٩	٩٩٨	٢٣ ديسمبر
٣٩٠	٩٩٩	١٣ »

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى
٣٩١	١٠٠٠	١ ديسمبر
٣٩٢	١٠٠١	٢٠ نوفمبر
٣٩٣	١٠٠٢	١٠ ,,
٣٩٤	١٠٠٣	٣٠ أكتوبر
٣٩٥	١٠٠٤	١٨ ,,
٣٩٦	١٠٠٥	٨ ,,
٣٩٧	١٠٠٦	٢٧ سبتمبر
٣٩٨	١٠٠٧	١٧ ,,
٣٩٩	١٠٠٨	٥ ,,
٤٠٠	١٠٠٩	٢٥ أغسطس
٤٠١	١٠١٠	١٥ ,,
٤٠٢	١٠١١	٤ ,,
٤٠٣	١٠١٢	٢٣ يوليه
٤٠٤	١٠١٣	١٣ ,,
٤٠٥	١٠١٤	٢ ,,
٤٠٦	١٠١٥	٢١ يونيه
٤٠٧	١٠١٦	١٠ ,,
٤٠٨	١٠١٧	٣٠ مايو
٤٠٩	١٠١٨	٢٠ ,,
٤١٠	١٠١٩	٩ ,,
٤١١	١٠٢٠	٢٧ أبريل
٤١٢	١٠٢١	١٧ ,,
٤١٣	١٠٢٢	٦ ,,
٤١٤	١٠٢٣	٢٦ مارس
٤١٥	١٠٢٤	١٥ ,,
٤١٦	١٠٢٥	٤ ,,
٤١٧	١٠٢٦	٢٢ فبراير
٤١٨	١٠٢٧	١١ ,,
٤١٩	١٠٢٨	٣١ يناير
٤٢٠	١٠٢٩	٢٠ ,,
٤٢١	١٠٣٠	٩ ,,
٤٢٢	١٠٣٠	٢٩ ديسمبر
٤٢٣	١٠٣١	١٩ ,,
٤٢٤	١٠٣٢	٧ ,,
٤٢٥	١٠٣٣	٢٦ نوفمبر
٤٢٦	١٠٣٤	١٦ ,,
٤٢٧	١٠٣٥	٥ ,,
٤٢٨	١٠٣٦	٢٥ أكتوبر
٤٢٩	١٠٣٧	١٤ ,,
٤٣٠	١٠٣٨	٣ ,,
٤٣١	١٠٣٩	٢٣ سبتمبر
٤٣٢	١٠٤٠	١١ ,,
٤٣٣	١٠٤١	٣١ أغسطس
٤٣٤	١٠٤٢	٢١ ,,
٤٣٥	١٠٤٣	١٠ ,,
٤٣٦	١٠٤٤	٢٩ يولية
٤٣٧	١٠٤٥	١٩ ,,
٤٣٨	١٠٤٦	٨ ,,
٤٣٩	١٠٤٧	٢٨ يونيه
٤٤٠	١٠٤٨	١٦ ,,
٤٤١	١٠٤٩	٥ ,,
٤٤٢	١٠٥٠	٢٦ مايو
٤٤٣	١٠٥١	١٥ ,,
٤٤٤	١٠٥٢	٣ ,,
٤٤٥	١٠٥٣	٢٣ أبريل
٤٤٦	١٠٥٤	١٢ ,,
٤٤٧	١٠٥٥	٢ ,,
٤٤٨	١٠٥٦	٢١ مارس
٤٤٩	١٠٥٧	١٠ ,,
٤٥٠	١٠٥٨	٢٨ فبراير
٤٥١	١٠٥٩	١٧ ,,
٤٥٢	١٠٦٠	٦ ,,
٤٥٣	١٠٦١	٢٦ ,,
٤٥٤	١٠٦٢	١٥ يناير
٤٥٥	١٠٦٣	٤ ,,
٤٥٦	١٠٦٣	٢٥ ديسمبر
٤٥٧	١٠٦٤	١٣ ,,
٤٥٨	١٠٦٥	٣ ,,
٤٥٩	١٠٦٦	٢٢ نوفمبر
٤٦٠	١٠٦٧	١١ ,,
٤٦١	١٠٦٨	٣١ أكتوبر
٤٦٢	١٠٦٩	٢٠ ,,
٤٦٣	١٠٧٠	٩ ,,
٤٦٤	١٠٧١	٢٩ سبتمبر
٤٦٥	١٠٧٢	١٧ ,,
٤٦٦	١٠٧٣	٦ سبتمبر
٤٦٧	١٠٧٤	٢٧ أغسطس
٤٦٨	١٠٧٥	١٦ ,,
٤٦٩	١٠٧٦	٥ ,,
٤٧٠	١٠٧٧	٢٥ يولية

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى
٤٧١	١٠٧٨	١٤ يوليه
٤٧٢	١٠٧٩	٤ ,,
٤٧٣	١٠٨٠	٢٢ يونيه
٤٧٤	١٠٨١	١١ ,,
٤٧٥	١ ٨٢	١ ,,
٤٧٦	١٠٨٣	٢١ مايو
٤٧٧	١٠٨٤	١٠ ,,
٤٧٨	١٠٨٥	٢٩ أبريل
٤٧٩	١٠٨٦	١٨ »
٤٨٠	١٠٨٧	٨ »
٤٨١	١٠٨٨	٢٧ مارس
٤٨٢	١٠٨٩	١٦ »
٤٨٣	١٠٩٠	٦ »
٤٨٤	١٠٩١	٢٣ فبراير
٤٨٥	١٠٩٢	١٢ »
٤٨٦	١٠٩٣	١ »
٤٨٧	١٠٩٤	٣١ يناير
٤٨٨	١٠٩٥	١١ »
٤٨٩	١٠٩٥	٣١ ديسمبر
٤٩٠	١٠٩٦	١٩ »
٤٩١	١٠٩٧	٩ »
٤٩٢	١٠٩٨	٢٨ نوفبر
٤٩٣	١٠٩٩	١٧ »
٤٩٤	١١٠٠	٦ »
٤٩٥	١١٠١	٢٦ أكتوبر
٤٩٦	١١٠٢	١٥ »
٤٩٧	١١٠٣	٥ »
٤٩٨	١١٠٤	٢٣ سبتمبر
٤٩٩	١١٠٥	١٣ »
٥٠٠	١١٠٦	٢ »
٥٠١	١١٠٧	٢٢ أغسطس
٥٠٢	١١٠٨	١١ ,,
٥٠٣	١١٠٩	٣١ يوليه
٥٠٤	١١١٠	٢٠ »
٥٠٥	١١١١	١٠ »
٥٠٦	١١١٢	٢٨ يونيه
٥٠٧	١١١٣	١٨ »
٥٠٨	١١١٤	٧ »
٥٠٩	١١١٥	٢٧ مايو
٥١٠	٢٧١٦	١٦ »
٥١١	١١١٧	٥ مايو
٥١٢	١١١٨	٢٤ أبريل
٥١٣	١١١٩	١٤ »
٥١٤	١١٢٠	٢ »
٥١٥	١١٢١	٢٢ مارس
٥١٦	١١٢٢	١٢ »
٥١٧	١١٢٣	١ »
٥١٨	١١٢٤	١٩ فبراير
٥١٩	١١٢٥	٧ »
٥٢٠	١١٢٦	٢٧ يناير
٥٢١	١١٢٧	٧ »
٥٢٢	١١٢٨	٦ »
٥٢٣	١١٢٨	٢٥ ديسمبر
٥٢٤	١١٢٩	١٥ »
٥٢٥	١١٣٠	٤ »
٥٢٦	١١٣١	٢٣ نوفبر
٥٢٧	١١٣٢	١٢ »
٥٢٨	١١٣٣	١ »
٥٢٩	١١٣٤	٢٢ أكتوبر
٥٣٠	١١٣٥	١١ »
٥٣١	١١٣٦	٢٩ سبتمبر
٥٣٢	١١٣٧	١٩ »
٥٣٣	١١٣٨	٨ »
٥٣٤	١١٣٩	٢٨ أغسطس
٥٣٥	١١٤٠	١٧ »
٥٣٦	١١٤١	٦ »
٥٣٧	١١٤٢	٢٧ يوليه
٥٣٨	١١٤٣	١٦ »
٥٣٩	١١٤٤	٤ »
٥٤٠	١١٤٥	٢٤ يونيه
٥٤١	١١٤٦	١٣ »
٥٤٢	١١٤٧	٢ »
٥٤٣	١١٤٨	٢٢ مايو
٥٤٤	١١٤٩	١١ »
٥٤٥	١١٥٠	٣٠ أبريل
٥٤٦	١١٥١	٢٠ »
٥٤٧	١١٥٢	٨ »
٥٤٨	١١٥٣	٢٩ مارس
٥٤٩	١١٥٤	١٨ »
٥٥٠	١١٥٥	٧ »

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٥٥١	١١٥٦	٢٥ فبراير
٥٥٢	١١٥٧	١٣ »
٥٥٣	١١٥٨	٢ »
٥٥٤	١١٥٩	٢٣ يناير
٥٥٥	١١٦٠	١٢ »
٥٥٦	١١٦٠	٣١ ديسمبر
٥٥٧	١١٦١	٢١ »
٥٥٨	١١٦٢	١٠ »
٥٥٩	١١٦٣	٣٠ نوفمبر
٥٦٠	١١٦٤	١٨ »
٥٦١	١١٦٥	٧ »
٥٦٢	١١٦٦	٢٨ أكتوبر
٥٦٣	١١٦٧	١٧ »
٥٦٤	١١٦٨	٥ »
٥٦٥	١١٦٩	٢٥ سبتمبر
٥٦٦	١١٧٠	١٤ »
٥٦٧	١١٧١	٤ »
٥٦٨	١١٧٢	٢٣ أغسطس
٥٦٩	١١٧٣	١٢ »
٥٧٠	١١٧٤	٢ »
٥٧١	١١٧٥	٢٢ يوليه
٥٧٢	١١٧٦	١٠ »
٥٧٣	١١٧٧	٣٠ يونية
٥٧٤	١١٧٨	١٩ يونية
٥٧٥	١١٧٩	٨ »
٥٧٦	١١٨٠	٢٨ مايو
٥٧٧	١١٨١	١٧ »
٥٧٨	١١٨٢	٧ »
٥٧٩	١١٨٣	٢٦ ابريل
٥٨٠	١١٨٤	١٤ »
٥٨١	١١٨٥	٤ »
٥٨٢	١١٨٦	٢٤ مارس
٥٨٣	١١٨٧	١٣ »
٥٨٤	١١٨٨	٢ »
٥٨٥	١١٨٩	١٩ فبراير
٥٨٦	١١٩٠	٨ »
٥٨٧	١١٩١	٢٩ يناير
٥٨٨	١١٩٢	١٨ »
٥٨٩	١١٩٣	٧ »
٥٩٠	١١٩٣	٢٧ ديسمبر
٥٩١	١١٩٤	١٦ ديسمبر
٥٩٢	١١٩٥	٦ »
٥٩٣	١١٩٦	٢٤ نوفمبر
٥٩٤	١١٩٧	١٣ »
٥٩٥	١١٩٨	٣ »
٥٩٦	١١٩٩	٢٣ أكتوبر
٥٩٧	١٢٠٠	١٢ »
٥٩٨	١٢٠١	١ »
٥٩٩	١٢٠٢	٢٠ سبتمبر
٦٠٠	١٢٠٣	١٠ »
٦٠١	١٢٠٤	٢٩ أغسطس
٦٠٢	١٢٠٥	١٨ »
٦٠٣	١٢٠٦	٨ »
٦٠٤	١٢٠٧	٢٨ يوليه
٦٠٥	١٢٠٨	١٦ »
٦٠٦	١٢٠٩	٦ »
٦٠٧	١٢١٠	٢٥ يوليه
٦٠٨	١٢١١	١٥ »
٦٠٩	١٢١٢	٣ »
٦١٠	١٢١٣	٢٣ مايو
٦١١	١٢١٤	١٣ »
٦١٢	١٢١٥	٢ »
٦١٣	١٢١٦	٢٠ ابريل
٦١٤	١٢١٧	١٠ »
٦١٥	١٢١٨	٣٠ مارس
٦١٦	١٢١٩	١٩ »
٦١٧	١٢٢٠	٨ »
٦١٨	١٢٢١	٢٥ فبراير
٦١٩	١٢٢٢	١٥ »
٦٢٠	١٢٢٣	٤ »
٦٢١	١٢٢٤	٢٤ يناير
٦٢٢	١٢٢٥	١٣ »
٦٢٣	١٢٢٦	٢ »
٦٢٤	١٢٢٦	٢٢ ديسمبر
٦٢٥	١٢٢٧	١٢ »
٦٢٦	١٢٢٨	٣٠ نوفمبر
٦٢٧	١٢٢٩	٢٠ »
٦٢٨	١٢٣٠	٩ »
٦٢٩	١٢٣١	٢٩ أكتوبر
٦٣٠	١٢٣٢	١٨ »

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في	السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٦٣١	١٢٣٣	٧ اكتوبر	٦٧١	١٢٧٢	٢٩ يوليه
٦٣٢	١٢٣٤	٢٦ سبتمبر	٦٧٢	١٢٧٣	١٨ "
٦٣٣	١٢٣٥	١٦ سبتمبر	٦٧٣	١٢٧٤	٧ "
٦٣٤	١٢٣٦	٤ "	٦٧٤	١٢٧٥	٢٧ يونيه
٦٣٥	١٢٣٧	٢٤ أغسطس	٦٧٥	١٢٧٦	١٥ "
٦٣٦	١٢٣٨	١٤ "	٦٧٦	١٢٧٧	٤ "
٦٣٧	١٢٣٩	٣ "	٦٧٧	١٢٧٨	٢٥ مايو
٦٣٨	١٢٤٠	٢٣ يوليه	٦٧٨	١٢٧٩	١٤ "
٦٣٩	١٢٤١	١٢ "	٦٧٩	١٢٨٠	٣ "
٦٤٠	١٢٤٢	١ "	٦٨٠	١٢٨١	٢٢ أبريل
٦٤١	١٢٤٣	٢١ يونيه	٦٨١	١٢٨٢	١١ "
٦٤٢	١٢٤٤	٩ "	٦٨٢	١٢٨٣	١ "
٦٤٣	١٢٤٥	٢٩ مايو	٦٨٣	١٢٨٤	٢٠ مارس
٦٤٤	١٢٤٦	١٩ "	٦٨٤	١٢٨٥	٩ "
٦٤٥	١٢٤٧	٨ "	٦٨٥	١٢٨٦	٢٧ فبراير
٦٤٦	١٢٤٨	٢٦ أبريل	٦٨٦	١٢٨٧	١٦ "
٦٤٧	١٢٤٩	١٦ "	٦٨٧	١٢٨٨	٦ "
٦٤٨	١٢٥٠	٥ "	٦٨٨	١٢٨٩	٢٥ يناير
٦٤٩	١٢٥١	٢٦ مارس	٦٨٩	١٢٩٠	١٤ "
٦٥٠	١٢٥٢	١٤ "	٦٩٠	١٢٩١	٤ "
٦٥١	١٢٥٣	٣ "	٦٩١	١٢٩١	٢٤ ديسمبر
٦٥٢	١٢٥٤	٢١ فبراير	٦٩٢	١٢٩٢	١٣ "
٦٥٣	١٢٥٥	١٠ "	٦٩٣	١٢٩٣	٢ "
٦٥٤	١٢٥٦	٣٠ يناير	٦٩٤	١٢٩٤	٢١ نوفبر
٦٥٥	١٢٥٧	١٩ "	٦٩٥	١٢٩٥	١٠ "
٦٥٦	١٢٥٨	٨ "	٦٩٦	١٢٩٦	٣٠ أكتوبر
٦٥٧	١٢٥٨	٢٩ ديسمبر	٦٩٧	١٢٩٧	١٩ "
٦٥٨	١٢٥٩	١٨ "	٦٩٨	١٢٩٨	٩ "
٦٥٩	١٢٦٠	٦ "	٦٩٩	١٢٩٩	٢٨ سبتمبر
٦٦٠	١٢٦١	٢٦ نوفبر	٧٠٠	١٣٠٠	١٦ "
٦٦١	١٢٦٢	١٥ "	٧٠١	١٠٣١	٦ "
٦٦٢	١٢٦٣	٤ "	٧٠٢	١٣٠٢	٢٦ أغسطس
٦٦٣	١٢٦٤	٢٤ أكتوبر	٧٠٣	١٣٠٣	١٥ "
٦٦٤	١٢٦٥	١٣ "	٧٠٤	١٣٠٤	٤ "
٦٦٥	١٢٦٦	٢ "	٧٠٥	١٣٠٥	٢٤ يوليه
٦٦٦	١٢٦٧	٢٢ سبتمبر	٧٠٦	١٤٠٦	١٣ "
٦٦٧	١٢٦٨	١٠ "	٧٠٧	١٣٠٧	٣ "
٦٦٨	١٢٦٩	٣١ أغسطس	٧٠٨	١٣٠٨	٢١ يونيه
٦٦٩	١٢٧٠	٢٠ "	٧٠٩	١٣٠٩	١١ "
٦٧٠	١٢٧١	٩ "	٧١٠	١٣١٠	٣١ مايو

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى
٧١١	١٣١١	٢٠ مايو
٧١٢	١٣١٢	٩ »
٧١٣	١٣١٣	٢٨ ابريل
٧١٤	١٣١٤	١٧ »
٧١٥	١٣١٥	٧ »
٧١٦	١٣١٦	٢٦ مارس
٧١٧	١٤١٧	١٦ »
٧١٨	١٣١٨	٥ »
٧١٩	١٣١٩	٢٢ فبراير
٧٢٠	١٣٢٠	١٢ »
٧٢١	١٣٢١	٣١ يناير
٧٢٢	١٣٢٢	٢٠ »
٧٢٣	١٣٢٣	١٠ »
٧٢٤	١٣٢٣	٣٠ ديسمبر
٧٢٥	١٣٢٤	١٨ »
٧٢٦	١٣٢٥	٨ »
٧٢٧	١٣٢٦	٢٧ نوفبر
٨٢٨	١٣٢٧	١٧ »
٧٢٩	١٣٢٨	٥ »
٧٣٠	١٣٢٩	٢٥ أكتوبر
٧٣١	١٣٣٠	١٥ »
٧٣٢	١٣٣١	٤ »
٧٣٣	١٣٣٢	٢٢ سبتمبر
٧٣٤	١٣٣٣	١٢ »
٧٣٥	١٣٣٤	١ ،،
٧٣٦	١٣٣٥	٢١ أغسطس
٧٣٧	١٣٣٦	١٠ »
٧٣٨	١٣٣٧	٣٠ يوليه
٧٣٩	١٣٣٨	٢٠ »
٧٤٠	١٣٣٩	٩ »
٧٤١	١٣٤٠	٢٧ يونيه
٧٤٢	١٣٤١	١٧ ،،
٧٤٣	١٣٤٢	٦ ،،
٧٤٤	١٣٤٣	٢٦ مايو
٧٤٥	١٣٤٤	١٥ »
٧٤٦	١٣٤٥	٤ »
٧٤٧	١٣٤٦	٢٤ ابريل
٧٤٨	١٣٤٧	١٣ ،،
٧٤٩	١٣٤٨	١ ،،
٧٥٠	١٣٤٩	٢٢ مارس
٧٥١	١٣٥٠	١١ مارس
٧٥٢	١٣٥١	٢٨ فبراير
٧٥٣	١٣٥٢	١٨ »
٧٥٤	١٣٥٣	٦ »
٧٥٥	١٣٥٤	٢٦ يناير
٧٥٦	١٣٥٥	١٦ »
٧٥٧	١٣٥٦	٥ »
٧٥٨	١٣٥٦	٢٥ ديسمبر
٧٥٩	١٣٥٧	١٤ »
٧٦٠	١٣٥٨	٣ »
٧٦١	١٣٥٩	٢٣ نوفبر
٧٦٢	١٣٦٠	١١ »
٧٦٣	١٣٦١	٣١ أكتوبر
٧٦٤	١٣٦٢	٢١ »
٧٦٥	١٣٦٣	١٠ »
٧٦٦	١٣٦٤	٢٨ سبتمبر
٧٦٧	١٣٦٥	١٨ »
٧٦٨	١٣٦٦	٧ »
٧٦٩	١٣٦٧	٢٨ أغسطس
٧٧٠	١٣٦٨	١٦ »
٧٧١	١٣٦٩	٥ »
٧٧٢	١٣٧٠	٢٦ يوليه
٧٧٣	١٣٧١	١٥ »
٧٧٤	١٣٧٢	٣ »
٧٧٥	١٣٧٣	٢٣ يونيه
٧٧٦	١٣٧٤	١٢ »
٧٧	١٣٧٥	٢ »
٧٧٨	١٣٧٦	٢١ مايو
٧٧٩	١٣٧٧	١٠ ،،
٧٨٠	١٣٧٨	٣٠ ابريل
٧٨١	١٣٧٩	١٩ »
٧٨٢	١٣٨٠	٧ »
٧٨٣	١٣٨١	٢٨ مارس
٧٨٤	١٣٨٢	١٧ »
٧٨٥	١٣٨٣	٦ »
٧٨٦	١٣٨٤	٢٤ فبراير
٧٨٧	١٣٨٥	١٢ »
٧٨٨	١٣٨٦	٢ »
٧٨٩	١٣٨٧	٢٢ يناير
٧٩٠	١٣٨٨	١١ ،،

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٧٩١	١٣٨٨	٣١ ديسمبر
٧٩٢	١٣٨٩	٢٠ ««
٧٩٣	١٣٩٠	٩ ««
٧٩٤	١٣٩١	٢٩ نوفمبر
٧٩٥	١٣٩٢	١٧ ««
٧٩٦	١٣٩٣	٦ ««
٧٩٧	١٣٩٤	٢٧ أكتوبر
٧٩٨	١٣٩٥	١٦ ««
٧٩٩	١٣٩٦	٥ ««
٨٠٠	١٣٩٧	٢٤ سبتمبر
٨٠١	١٣٩٨	١٣ »
٨٠٢	١٣٩٩	٣ »
٨٠٣	١٤٠٠	٢٢ أغسطس
٨٠٤	١٤٠١	١١ »
٨٠٥	١٤٠٢	١ »
٨٠٦	١٤٠٣	٣١ يولية
٨٠٧	١٤٠٤	١٠ »
٨٠٨	١٤٠٥	٢٩ يونية
٨٠٩	١٤٠٦	١٨ »
٨١٠	١٤٠٧	٨ »
٨١١	١٤٠٨	٢٧ مايو
٨١٢	١٤٠٩	١٦ ««
٨١٣	١٤١٠	٦ ««
٨١٤	١٤١١	٢٥ ابريل
٨١٥	١٤١٢	١٣ ««
٨١٦	١٤١٣	٣ ««
٨١٧	١٤١٤	٢٣ مارس
٨١٨	١٤١٥	١٣ ««
٨١٩	١٤١٦	١ ««
٨٢٠	١٤١٧	١٨ فبراير
٨٢١	١٤١٨	٨ ««
٨٢٢	١٤١٩	٢٨ يناير
٨٢٣	١٤٢٠	١٧ ««
٨٢٤	١٤٢١	٦ ««
٨٢٥	١٤٢١	٢٦ ديسمبر
٨٢٦	١٤٢٢	١٥ ««
٨٢٧	١٤٢٣	٥ ««
٨٢٨	١٤٢٤	٢٣ نوفمبر
٨٢٩	١٤٢٥	١٣ »
٨٣٠	١٤٢٦	٢ »
٨٣١	١٤٢٧	٢٢ اكتوبر
٨٣٢	١٤٢٨	١١ »
٨٣٣	١٤٢٩	٣٠ سبتمبر
٨٣٤	١٤٣٠	١٩ »
٨٣٥	١٤٣١	٩ »
٨٣٦	١٤٣٢	٢٨ أغسطس
٨٣٧	١٤٣٣	١٨ »
٨٣٨	١٤٣٤	٧ »
٨٣٩	١٤٣٥	٢٧ يوليه
٨٤٠	١٤٣٦	١٦ »
٨٤١	١٤٣٧	٥ »
٨٤٢	١٤٣٨	٢٤ يونيه
٨٤٣	١٤٣٩	١٤ ««
٨٤٤	١٤٤٠	٢ ««
٧٤٥	١٤٤١	٢٢ مايو
٨٤٦	١٤٤٢	١٢ ««
٨٤٧	١٤٤٣	١ ««
٨٤٨	١٤٤٤	٢٠ أبريل
٨٤٩	١٤٤٥	٩ ««
٨٥٠	١٤٤٦	٢٩ مارس
٨٥١	١٤٤٧	١٩ ««
٨٥٢	١٤٤٨	٧ ««
٨٥٣	١٤٤٩	٢٤ فبراير
٨٥٤	١٤٥٠	١٤ »
٨٥٥	١٤٥١	٣ »
٨٥٦	١٤٥٢	٢٣ يناير
٨٥٧	١٤٥٣	١٢ »
٨٥٨	١٤٥٤	١ »
٨٥٩	١٤٥٤	٢٢ ديسمبر
٨٦٠	١٤٥٥	١١ »
٨٦١	١٤٥٦	٢٩ نوفمبر
٨٦٢	١٤٥٧	١٩ »
٨٦٣	١٤٥٨	٨ »
٨٦٤	١٤٥٩	٢٨ أكتوبر
٨٦٥	١٤٦٠	١٧ »
٨٦٦	١٤٦١	٦ »
٨٦٧	١٤٦٢	٢٦ سبتمبر
٨٦٨	١٤٦٣	١٥ »
٨٦٩	١٤٦٤	٣ »
٨٧٠	١٤٦٥	٢٤ أغسطس

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى
٨٧١	١٤٦٦	١٣ اغسطس
٨٧٢	١٤٦٧	٢ ،،
٨٧٣	١٤٦٨	٢٢ يوليه
٨٧٤	١٤٦٩	١١ ،،
٨٧٥	١٤٧٠	٣٠ يونيه
٨٧٦	١٤٧١	٢٠ ،،
٧٧٧	١٤٧٢	٨ ،،
٨٧٨	١٤٧٣	٢٩ مايو
٨٧٩	١٤٧٤	١٨ ،،
٨٨٠	١٤٧٥	٧ ،،
٨٨١	١٤٧٦	٢٦ أبريل
٨٨٢	١٤٧٧	١٥ ،،
٨٨٣	١٤٧٨	٤ ،،
٨٨٤	١٤٧٩	٢٥ مارس
٨٨٥	١٤٨٠	١٣ ،،
٨٨٦	١٤٨١	٢ ،،
٨٨٧	١٤٨٢	٢٠ فبراير
٨٨٨	١٣٨٣	٩ ،،
٨٨٩	١٤٨٤	٣٠ يناير
٨٩٠	١٤٨٥	١٨ ،،
٨٩١	١٤٨٦	٧ ،،
٨٩٢	١٤٨٦	٢٨ ديسمبر
٨٩٣	١٤٨٧	١٧ ،،
٨٩٤	١٤٨٨	٥ ،،
٨٩٥	١٤٨٩	٢٥ نوفبر
٨٩٦	١٤٩٠	١٤ ،،
٨٩٧	١٤٩١	٤ ،،
٨٩٨	١٣٩٢	٢٣ أكتوبر
٨٩٩	١٤٩٣	١٢ ،،
٩٠٠	١٤٩٤	٢ ،،
٦٠١	١٤٩٥	٢١ سبتمبر
٩٠٢	١٤٩٦	٩ ،،
٩٠٣	١٤٩٧	٣٠ أغسطس
٩٠٤	١٤٩٨	١٩ ،،
٩٠٥	١٤٩٩	٨ ،،
٩٠٦	١٥٠٠	٢٨ يوليه
٩٠٧	١٥٠١	١٧ ،،
٩٠٨	١٥٠٢	٧ ،،
٩٠٩	١٥٠٣	٢٦ يونيه
٩١٠	١٥٠٤	١٤ ،،
٩١١	١٥٠٥	٤ يونيه
٩١٢	١٥٠٦	٢٤ مايو
٩١٣	١٥٠٧	١٣ ،،
٩١٤	١٥٠٨	٢ ،،
٩١٥	١٥٠٩	٢١ ابريل
٩١٦	١٥١٠	١٠ ،،
٩١٧	١٥١١	٣١ مارس
٩١٨	١٥١٢	١٩ ،،
٩١٩	١٥١٣	٩ ،،
٩٢٠	١٥١٤	٢٦ فبراير
٩٢١	١٥١٥	١٥ ،،
٩٢٢	١٥١٦	٥ ،،
٩٢٣	١٥١٧	٢٤ يناير
٩٢٤	١٥١٨	١٣ ،،
٩٢٥	١٥١٩	٣ ،،
٩٢٦	١٥١٩	٢٣ ديسمبر
٩٢٧	١٥٢٠	١٢ ،،
٩٢٨	١٥٢١	١ ،،
٩٢٩	١٥٢٢	٢٠ نوفبر
٩٣٠	١٥٢٣	١٠ ،،
٩٣١	١٥٢٤	٢٩ اكتوبر
٩٣٢	١٥٢٥	١٨ ،،
٩٣٣	١٥٢٦	٨ ،،
٩٩٤	١٥٢٧	٢٧ سبتمبر
٩٣٥	١٥٢٨	١٥ ،،
٩٣٦	١٥٢٩	٥ ،،
٩٣٧	١٥٣٠	٢٥ أغسطس
٩٣٨	١٥٣١	١٥ ،،
٩٣٩	١٥٣٢	٣ ،،
٩٤٠	١٥٣٣	٢٣ يوليه
٩٤١	١٥٣٤	١٣ ،،
٩٤٢	١٥٤٥	٢ ،،
٩٤٣	١٥٣٦	٢٠ يونيه
٩٤٤	١٥٣٧	١٠ ،،
٩٤٥	١٥٣٨	٣٠ مايو
٩٤٦	١٥٣٩	٣٠ ،،
٩٤٧	١٥٤٠	٨ ،،
٩٤٨	١٥٤١	٢٧ أبريل
٩٤٩	١٥٤٢	١٧ ،،
٩٥٠	١٥٤٣	٦ ،،

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى	السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى
٩٥١	١٥٤٤	٢٥ مارس	٩٧٦	١٥٦٨	٢٦ يونيه
٩٥٢	١٥٤٥	١٥ »	٩٧٧	١٥٦٩	١٦ ››
٩٥٣	١٥٤٦	٤ »	٩٧٨	١٥٧٠	٥ ››
٩٥٤	١٥٤٧	٢١ فبراير	٩٧٩	١٥٧١	٢٦ مايو
٩٥٥	١٥٤٨	١١ »	٩٨٠	١٥٧٢	١٤ ››
٩٥٦	١٥٤٩	٣٠ يناير	٩٨١	١٥٧٣	٣ ››
٩٥٧	١٥٥٠	٢٠ »	٩٨٢	١٥٧٤	٢٣ أبريل
٩٥٨	١٥٥١	٩ »	٩٨٣	١٥٧٥	١٢ ››
٩٥٩	١٥٥١	٢٩ ديسمبر	٩٨٤	١٥٧٦	٣١ مارس
٩٦٠	١٥٥٢	١٨ »	٩٨٥	١٥٧٧	٢١ ››
٩٦١	١٥٥٣	٧ »	٩٨٦	١٥٧٨	١٠ ››
٩٦٢	١٥٥٤	٢٦ نوفبر	٩٨٧	١٥٧٩	٢٨ فبراير
٩٦٣	١٥٥٥	١٦ »	٩٨٨	١٥٨٠	١٧ ››
٩٦٤	١٥٥٦	٤ »	٩٨٩	١٥٨١	٥ ››
٩٦٥	١٥٥٧	٢٤ أكتوبر	٩٩٠	١٥٨٢	٢٦ يناير
٩٦٦	١٥٥٨	١٤ ››	٩٩١	١٥٨٣	٢٥ ››
٩٦٧	١٥٥٩	٣ ››	٩٩٢	١٥٨٤	١٤ ››
٩٦٨	١٥٦٠	٢٢ سبتمبر	٩٩٣	١٥٨٥	٣ ››
٩٦٩	١٥٦١	١١ »	٩٩٤	١٥٨٥	٢٣ ديسمبر
٩٧٠	١٥٦٢	٣١ أغسطس	٩٩٥	١٥٨٦	١٢ ››
٩٧١	١٥٦٣	٢١ ››	٩٩٦	١٥٨٧	٢ ››
٩٧٢	١٥٦٤	٩ ››	٩٩٧	١٥٨٨	٢٠ نوفبر
٩٧٣	١٥٦٥	٢٩ يوليه	٩٩٨	١٥٨٩	١٠ ››
٩٧٤	١٥٦٦	١٩ ››	٩٩٩	١٥٩٠	٣٠ أكتوبر
٩٧٥	١٥٦٧	٨ ››	١٠٠٠	١٥٩١	١٩ ››

(*) هنا يحدث التغيير الذى أوجده جريجورى الثالث عشر Gregory XIII

مطبعة السعادة بمصر
١٩٥١